

الشيخ الرزقي الشرفاوي الأزهري
حياته وجهاده الفكري
(1877-1944م)

(أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر)

إشراف الأستاذ الدكتور:

إبراهيم لونيبي

إعداد الطالب الباحث:

سعيد بورنان

أعضاء لجنة المناقشة

| اللقب والاسم | الرتبة العلمية | الجامعة | الصفة |
|-----------------|----------------------|-------------------|----------------|
| بوشنافي محمد | أستاذ التعليم العالي | جامعة سيدي بلعباس | رئيساً |
| لونيبي إبراهيم | أستاذ التعليم العالي | جامعة سيدي بلعباس | مشرفاً ومقرراً |
| بلجة عبد القادر | أستاذ محاضر (أ) | جامعة سيدي بلعباس | مناقشا |
| حمدون بن عتو | أستاذ محاضر (أ) | جامعة الشلف | مناقشا |
| بلعالية ميلود | أستاذ محاضر (أ) | جامعة الشلف | مناقشا |
| داعي محمد | أستاذ محاضر (أ) | جامعة سعيدة | مناقشا |

السنة الجامعية: 1439-1440هـ / 2018-2019م

كلمة شكر وعرافان

بعد حمد الله تعالى وشكره على نعمه الكثيرة، ومنها نعمة التوفيق التي لولاها ما كان لي أن أنجز هذا العمل، قلت بعد هذا، أرى أنني مدين بالشكر والامتنان لكل من أفادني في إنجاز هذا العمل، وفي مقدمتهم: الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، والأستاذ المشرف، وطلبة الشيخ الشرفاوي وأفراد عائلته وغيرهم ممن أجريت معهم مقابلات في الموضوع، وكل الذين أفادوني بوثائق أو معلومات حول الموضوع، منهم أعضاء اللجنة الدّينية لزاوية "الشّرفة بهلول" التي أشرفت على تنظيم الملتقى الوطني لسنة 2012م، ولا أنسى زوجتي وأبنائي الذين تحمّلوا بصبر انشغالي في هذا العمل الفكري.

قائمة المختصرات الواردة في البحث

- *A.N.O.M : Archives Nationales d'outre-mer (Aix- en-Provence).*
- *S.L.N.A : Service des Liaisons Nord – Africains.*
- *A.M.A.E : Archives du Ministère des Affaires Etrangère (Nantes).*
- *A.D : Archives Diplomatiques (Paris).*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

أولاً - موضوع البحث وإطاره

الشيخ محمد الرزقي الشرفاوي الأزهري، فقيه ولغوي ومصلح جزائري، بدأ تعليمه في الجزائر ثم واصله في الأزهر الشريف، وبعد تخرجه مكث بمصر سنوات مدرساً، وباحثاً، وكاتباً، ثم عاد إلى الجزائر ليخدم وطنه ومواطنيه، بقلمه ولسانه وفكره، فاشتغل بالتدريس ببعض زوايا منطقة زواوة، وبالموازاة مع ذلك كان ينشط في مجال الإرشاد وإصلاح ذات البين، وينشر المقالات في الصحف، ويؤلف الكتب، وظلّ منذ عودته من مصر في عمل دائم، واجتهاد في أداء الواجب، لا يبالي بما يلقاه من عراقيل ومصاعب - وما أكثرها آنذاك - إلى أن لقي ربه رحمه الله في آخر سنة 1944م.

تلك هي الشخصية التي أردت تناولها بالدراسة والبحث تحت عنوان: « الشيخ الرزقي الشرفاوي الأزهري، حياته وجهاده الفكري (1877-1944م) ».

وكما هو واضح من العنوان، فإنّ موضوع البحث يشمل كل ما تعلق بحياة الشيخ من مولده إلى وفاته، وهذا قصد إعطاء صورة متكاملة لحياة الشيخ وجهاده الفكري، في الجزائر ومصر، والتعريف بأثاره وأفكاره، وإبراز شخصيته ومكانته العلمية كعلم من أعلام الإصلاح في الجزائر.

ثانياً - أهمية الموضوع وأسباب اختياره

يكتسي الموضوع أهمية بالغة، وهذا بالنظر إلى مكانة الشيخ الشرفاوي العلمية، وشخصيته، وما عُرف به من صبر وثبات ومكابدة المشاق في سبيل العلم، سواءً خلال مرحلة تحصيله، أو في مرحلة بذله وتبليغه للنّاس، خدمة لدينه ووطنه. وعليه فإنّ من وراء اختيار هذا الموضوع عدة أسباب نُجملها في الآتي:

1- ميلي الشخصي لدراسة حياة أعلام الفكر والإصلاح في الجزائر بهدف إبراز دورهم في التصدي لأعمال الهدم والطمس الثقافي الذي مارسه الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وهذا باعتبارهم رموز حية لجهاد الشعب الجزائري الفكري ضد الاحتلال الفرنسي، وأمثلة رائعة لسموده الثقافي والحضاري خلال تلك الفترة العصبية من تاريخنا الوطني.

2- اعتقادي بأن دراسة حياة هؤلاء الأعلام الذين كانوا للوطن مصابيح هادية في ليل الاحتلال المظلم لا تخلو من فائدة، لأن في سيرتهم ومسيرتهم النضالية الكثير من الدروس والعبر التي يمكن أن تفيد الأجيال الحاضرة والآتية.

3- كون الشيخ الشرفاوي ما يزال من الشخصيات الإصلاحية والوطنية المغمورة، رغم جهاده الطويل بالقلم واللسان والفكر، فعدا ما كتبه عنه تلميذه الأستاذ محمد الصالح الصديق ليس هنالك إلا مقالات قليلة ونُبذ عنه مختصرة في بعض الكتب، وهي في الواقع مستمدة من كتابات هذا الأخير.

ومن باب شكر الجميل، والاعتراف بالفضل لأهله، أرى أنه من واجبي أن أذكر هنا أن أول من أشار عليّ باختيار هذا الموضوع لرسالة الدكتوراه هي زوجتي، وهذا بعد أن اطلعت على مقال حول الشيخ الشرفاوي، وأعجبت بشخصيته، وبقصة معاناته في سبيل العلم حين هاجر إلى مصر للدراسة في الأزهر. وبالفعل، بدأت أحوم حول الموضوع، واستشرت الأستاذ محمد الصالح الصديق، باعتباره من طلبة الشيخ، وأكثر العارفين بحياة أستاذه، فشجّعني على المضي في هذا السبيل، ومن هنا بدأت رحلة البحث التي أثمرت هذه الدراسة، بعد نحو خمس سنين عشتها مع الشيخ بالفكر والقلم.

ثالثاً - إشكالية البحث

يتعلّق موضوع البحث بمختلف مراحل حياة الشيخ الرزقي الشرفاوي وبأدواره النضالية. ونظراً لطابع الشمول الذي يميّز الموضوع، فإنّ الإشكالية هنا لا بد أن تكون متفرّعة في شكل تساؤلات عدة، يمكن حصر أهمها في الآتي:

- كيف استطاع الشرفاوي أن يتابع مساره التعليمي حتى النهاية، رغم ما اكتتف حياته من معوّقات وحواجز يصعب على الفرد تخطّيها في ذلك العهد الاستعماري؟

- ما هي أسباب عودته إلى الوطن، بعد سنوات طويلة من الإقامة بمصر دارساً ثم مدرّساً؟

- لماذا آثر - بعد عودته إلى الجزائر - العمل في المناطق الريفية بجبال جرجرة، على الإقامة بمدينة الجزائر والعمل بها، كما اقترح عليه الإمام ابن باديس؟
 - إلى أي مدى ساهم الشرفاوي في مجالات التربية والإصلاح ونشر الوعي الوطني؟
 - ما موقف الإدارة الفرنسية من نشاطه التربوي والإصلاحي؟
 - لماذا حاربه بشدة شيوخ الزوايا بالمنطقة وعارضوا أفكاره الإصلاحية؟
 - لماذا لم ينخرط في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رغم أنه كان مصلحاً يعمل في نفس الاتجاه الذي تعمل فيه الجمعية؟
 - كيف كانت علاقته برجال جمعية العلماء، ومناضلي حزب الشعب الجزائري في المنطقة؟
 - كيف كانت رؤاه لمختلف القضايا والمسائل التي تناولها في كتاباته وفي مجالسه المختلفة؟
- رابعاً - منهجية البحث وخطته**

إن طبيعة موضوع البحث فرضت المزوجة بين المناهج: فاعتمدت المنهج التاريخي الوصفي في عرض مراحل حياة الشرفاوي وجهاده الفكري، والمنهج التحليلي في تحليل كتاباته قصد التعرف على آرائه وأفكاره، والمنهج الاستقرائي لتحليل المعطيات التاريخية المستقاة من مختلف المصادر لتأكيد فكرة ما أو تفنيدها، والوصول إلى استنتاجات معينة، فضلاً عن المنهج النقدي الذي ينبغي أن يكون حاضراً في كل خطوات البحث لتحري الموضوعية، وتصويب الأخطاء التاريخية الواردة فيما كُتب عن مترجمنا.. الخ.

هذا وقد استقر رأي الباحث على تقسيم البحث إلى مقدمة ومدخل وخمسة فصول، وخاتمة.

المقدمة: عرّفت فيها بموضوع البحث وأهميته ودوافع اختياره، وإشكاليته، ومصادره، وغيرها من الأمور المنهجية المعروفة.

المدخل: وهو عبارة عن تمهيد تاريخي تناولت فيه أثر السياسة الفرنسية الاستعمارية على الجزائر عموماً ومنطقة زاوية أو القبائل خصوصاً، وهذا من خلال تحليل هذه السياسة في جوانبها المختلفة، خاصة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهذا بغرض التعرف على الظروف التي نشأ فيها الشيخ الشرفاوي.

الفصل الأول: خصصته للمرحلة الأولى من حياة الشرفاوي، فعرّفت به من جهة النسب والاسم والميلاد والأسرة وظروف النشأة، ثم استعرضت مساره التعليمي في زوايا منطقته ثم في مدينة الجزائر، قبل هجرته إلى مصر.

الفصل الثّاني: خصّصته للمرحلة الثّانية من حياة الشّيخ التي عاشها في مصر، فتحدّثت أولاً، وبصورة موجزة، عن أوضاع مصر السّياسية والثّقافية، وحالة الأزهر ونظام التعليم فيه، وهذا خلال فترة وجود الشّرفاوي بمصر، ثم عرّفت برواق المغاربة وأحوال الشّرفاوي في هذا الرّواق الذي سكن فيه حين كان طالبا، وتطرقت بعد ذلك لمساره الدراسي في الأزهر، وشيوخه فيه، ونيله للشّهادة العالمية، ثم مكوثه في مصر بعد تخرّجه واشتغاله بالتدريس، وزواجه هناك، وما قام به من أعمال فكرية ونشاطات نضالية ضمن الجالية المغربية المقيمة بمصر لصالح قضايا الأمة والوطن.

الفصل الثّالث: تناولت فيه المرحلة الثّالثة والأخيرة من حياة الشّرفاوي، وهي تمتد من عودته إلى الجزائر إلى وفاته، استعرضت فيه أولاً أسباب وظروف عودة الشّيخ إلى الجزائر، والعوامل التي جعلته يختار العمل في منطقة زاوية، ومجمل أعماله في مجالات التربية والإصلاح والوطنية، ثم تكلمت عن الرّقابة الاستعمارية المفروضة على الشّيخ منذ عودته من الشّرق، وما أثارته أفكاره الإصلاحية وفتاواه من معارضة لدى الطرفين، وخاصة فتواه في الزواج بالزّبيبة التي ليست في حجر الزوج، وكذا ما لقيه الشّيخ من مضايقات في المنطقة وفي قريته.

الفصل الرّابع: خصّصته لجهود الشّرفاوي التربوية بزواية الشّيخ عبد الرّحمن اليلولي، في الشّطر الأوّل عرّفت بتاريخ الزاوية، ونظامها، وأحوالها قبل التحاق الشّرفاوي بها، ثم استعرضت جهود الشّيخ التربوية في الزاوية، وذلك من حيث البرامج والعلوم التي كان يُدرّسها، ونظام التدريس وما سجلناه عليه من مزايا ونقائص. وفي الشّطر الثّاني تكلمت عن طلبة الشّيخ في هذه الزاوية، من حيث: تعدادهم وأعمارهم، والجهات التي جاؤوا منها، كما ترجمت حياة طلبته البارزين.

الفصل الخامس: خصّصت الشّطر الأوّل منه للحديث عن شخصية الشّرفاوي وجوانب من حياته الخاصة، أما الشّطر الثّاني فتناولت فيه آثار الشّيخ العلمية ثم عرضت بشيءٍ من التّحليل مجمل آرائه في التربية والإصلاح الديني والاجتماعي، وفي مجال الوطنية ومحاربة الاستعمار، كما تحدّثت فيه عن علاقة الشّيخ برجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

الخاتمة: أجملت فيها نتائج الدراسة.

خامساً - مصادر البحث ومراجعته

بالنسبة لمصادر البحث يمكن تصنيفها إلى ستة أنواع، هي كالاتي:

- النوع الأول: آثار الشيخ الشرفاوي العلمية، من مقالات نشرها في الصحف العربية: المصرية منها والجزائرية، وخطب وفتاوى، وما وصلنا من مخطوطاته ورسائله وهو قليل جداً. وهذه الكتابات هي من المصادر التي أمدت البحث بمعلومات هامة عن حياة صاحبها، وأتاحت للباحث دراسة فكر الشيخ وآرائه الإصلاحية. وبخصوص المقالات أسجل أنّ بعضها هي مما اكتشفته أثناء تصفحي لأرشيف الصحف بمكتبتنا الوطنية، وبالمكتبة الوطنية بباريس، وبقسم الدوريات بدار الكتب المصرية بالقاهرة، وبعضها الآخر مما أورده الأستاذ محمد الصالح الصديق في القسم الثاني من كتابه حول الشيخ الشرفاوي الذي خصّصه لآثاره، فاكتفيت هنا بالرجوع إلى الأصل.

- النوع الثاني: كتابات الأستاذ محمد الصالح الصديق وشهاداته الشفوية، أذكرها هنا قبل ذكر الوثائق الأرشيفية، لماذا؟ لأنّ للأستاذ فضلاً عظيماً في التعريف بسيرة الشيخ الشرفاوي وجهاده الفكري، ولولاه لبقيت هذه الشخصية مغمورة! فقد كتب الأستاذ عن شيخه مقالاً مطوّلاً في مجلة "الثقافة" نُشر سنة 1974م، ثم خصّه بكتاب بعنوان (الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار)، صدر سنة 1998م، فكانت هذه الكتابات سبباً في رفع الستار عن الشيخ، حيث كان مجهولاً في مختلف الأوساط الثقافية، ويكفيك أنّ كثيراً من أهل العلم الذين يحملون أعلى الشهادات الجامعية لا يعرفونه! هذا وقد عاد الأستاذ محمد الصالح في السنوات الأخيرة للحديث عن شيخه في مذكراته (رحلتي مع الزمان) (2010م)، وفي كتابه (في شريط الذكريات) (2016م)، وأخيراً في كتابه (مدارس لولاه ما كنت) (2017م).

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأستاذ قد عرف عن حياة الشيخ أكثر مما عرفه غيره، حتى ممن درسوا عليه طويلاً، وهذا باعتباره من طلبته النابهين المتميّزين، وأيضاً لوجود علاقة مصاهرة بينهما، فقد تزوّج الشرفاوي بعد عودته من مصر بأخته، فهياً له ذلك مزيد الاتصال بشيخه، في الزاوية، وفي بيتهم، وفي بيت أخته بقرية الشرفة، إذ كان يزورها كثيراً ويقوم عندها أياماً. هذا وقد عاشت أخته بعد وفاة زوجها في بيت أبيها، ثم في بيت أخيها محمد الصالح إلى أن توفيت سنة 2009م، فكانت ممن أخذ عنهم أخبار الشيخ. وكان الأستاذ قد اطلع على بعض مخطوطات الشيخ في حياته وبعد وفاته، والتي ضاعت بعد ذلك، يُضاف إلى كل هذا ما تميّز به من حافظه قوية، وذاكرة عجيبة منذ صغره وحتى بعد أن تقدم به العمر، مما جعله على

دراية بالكثير من أخبار شيخه وأحواله، خاصة مع اهتمامه - طيلة هذه السنوات - بكتابة سيرة الشيخ وجمع آثاره.

وفضلاً عما كتب، فقد أفادني الأستاذ بالكثير من المعلومات الشفوية أثناء لقاءاتي المتكررة معه في بيته، فكان في كل مقابلة معه وجود لي ببعض ما اخترنته ذاكرته من أخبار ومعلومات عن شيخه وعن الزاوية التي تتلمذ عليه فيها، ثم أصبح بعد ذلك أستاذاً فيها يؤدي نفس رسالة شيخه، مما جعل الأستاذ يساهم بقسط وافر ومفيد جداً في هذا البحث، فضلاً عما لقيته منه من نصح وتوجيه، وتشجيع عبر كل مراحل هذا البحث، منذ كان فكرة إلى أن خرج في صورته النهائية. وأسجل هنا للتاريخ أنني كنت - خلال مدة إنجازي للبحث - ما هانقت الأستاذ إلا وردّ عليّ، وما طلبت مقابلته إلا وحدد لي موعداً والتزم به، وما قرعت عليه الباب إلا واستقبلني ووسعني بكرمه وسعة صدره، وأجابني عما أحمله من تساؤلات واستفسارات في الموضوع، حتى حين أجده في أشد أوقات تعبته!

بقيت ملاحظة واحدة أستسمح الأستاذ وأسجلها هنا، وهي أنّ الأستاذ ما يزال - وهو يتجاوز سن التسعين - يتمتع بذاكرة قوية، حافظة لكثير من أخبار شيخه، وقد دلت التجربة على ذلك، فكثيراً ما توافقت معلوماته مع ما احتوته الوثائق الأرشيفية حول الشيخ، لكن لما يتعلّق الأمر بالتواريخ وبعض المعطيات التاريخية الدقيقة، فإنّ الأمر يختلف أحياناً، كما حدث مع تاريخ ميلاد الشيخ وتاريخ وفاته، لأنّ ضبط التواريخ وما شابها من الأمور الدقيقة لا يُعوّل فيها كثيراً على الذاكرة.

- النوع الثالث: وثائق الأرشيف الفرنسي، المتمثلة في تقارير الإدارة الفرنسية الاستعمارية خلال عهد الاحتلال التي صورتها من دور الأرشيف الفرنسية التالية:

1- الأرشيف الوطني لما وراء البحار، ب "أكس- أن- بروفانس"، قرب مدينة مرسيليا، خاصة العلبة التي تحمل رقم (A.N.O.M, 91505/52)، إذ تحوي الكثير من التقارير السرية التي تبادلها رجال الإدارة الفرنسية وأعوانها حول سير التعليم بزاوية الشيخ عبد الرحمن اللولي وغيرها من زوايا بلدية سيباو الأعلى المختلطة، والمتعلقة بالفترة المعنية بالدراسة. اهتمت هذه التقارير - بالخصوص - بنوعية الدروس التي تُلقى في الزاوية، وأعداد الطلبة فيها وتفكيرهم، وتضمنت معلومات حول الشيخ الشرفاوي وتوجّهاته، وسلوكه تجاه الإدارة وغيرها من الأمور المفيدة جداً للموضوع.

2- أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بمدينة "نانت" (Nantes)، والأرشيف الدبلوماسي بباريس، وهو جزء من أرشيف الخارجية الفرنسية أيضاً، وقد عثرت في المركزين، وخاصة الأول، على وثائق تُلقي بعض الضوء على أحوال الشرفاوي أثناء مدة سكنه برواق المغاربة، كما عرّفنا بالكثير من زملائه في الدراسة، وهذه الوثائق يمكن تصنيفها إلى نوعين هما:

أ- وثائق فرنسية محضّة، وهي تقارير كتبها مسؤولون فرنسيون عن الطلبة المغاربة في الأزهر، إذ كانت القنصلية الفرنسية العامة بالقاهرة، ووزارة الخارجية الفرنسية بباريس، والسلطات الاستعمارية بالجزائر وتونس والمغرب الأقصى، تتراسل فيما بينها، وتتعاون من أجل تحديد هوية الطلبة الجزائريين، والمغاربة بصفة عامة، في الجامع الأزهر، وجمع ما أمكن من المعلومات حولهم، من ذلك مثلاً التقرير الذي أرسله الحاكم العام للجزائر سنة 1912م إلى وزير الشؤون الخارجية بباريس، وبطلب من الأول أرسل هذا الأخير نسخة من التقرير إلى وزير فرنسا المفوض المكلف بالوكالة والقنصلية العامة لفرنسا بالقاهرة. يتضمن التقرير 14 صفحة، وتكمن أهميته فيما ورد فيه من معلومات عن 31 طالبا جزائريا كانوا يزولون دراستهم بالأزهر، والمسجلين بالقنصلية الفرنسية بالقاهرة، تضمن التقرير معلومات عن حياة كل طالب، والجهة التي ينتمي إليها، وتاريخ ذهابه إلى مصر، وأسرتة وسيرته واتجاهه السياسي أحيانا، وغيرها من المعلومات التي جمعها الحاكم العام بالتعاون مع حكام عمالات الجزائر الثلاث، وأعاونهم المحليين، وبالانّصال مع أهالي الطلبة! وبخصوص ما ورد عن الشرفاوي في هذا التقرير، نشير إلى التّصحيح الكبير الذي وقع في كتابة لقبه، إذ كُتب " Quazan " بدل " Gazou "، فلولا أنّ المعلومات الأخرى المتعلقة بهذا الاسم تنطبق كلها عليه، كاسم الأب والأم والقرية والدوار، لما عرفنا أنّ الشرفاوي هو المقصود في هذا التقرير.

ب- وثائق أزهريّة، وهي عبارة عن قوائم بأسماء الطلبة المغاربة، وتقارير من انجاز شيخ رواقهم، وشكاوى موقّعة من قبل الطلبة أنفسهم، وموجهة إلى شيخ الأزهر أو جهات أخرى في السّلطة المصرية، وقد كان الشرفاوي من الموقّعين في العديد من هذه الشكاوى. وهذه الوثائق كانت تصل آنذاك، بطريقة أو بأخرى، إلى مصالح القنصلية الفرنسية بالقاهرة، لذلك وجدناها في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، بعضها أصلية كُتب باللّغة العربية، وبعضها مترجم إلى اللّغة الفرنسية. ويُضاف إلى هذا، وثائق أخرى وجّهها الطلبة المغاربة رأساً إلى القنصلية الفرنسية بالقاهرة.

وهنا ينبغي أن أشير إلى أنّ فرنسا كانت - عن طريق قنصليتها العامة بمصر - تُتابع باهتمام بالغ أحوال الطلبة المغاربة في الأزهر وفي رواقهم، وهي حريصة جدا على معرفة كل صغيرة وكل كبيرة تجري في أوساطهم، خاصة الطلبة الجزائريين، الذين اعتبرتهم فرنسا "رعاياها"، وعبرت عنهم بعض تقاريرها بـ "طلبتنا في الأزهر"! وهذا شعورا منها بأهمية هذه الفئة، وخطورتها في المستقبل، من خلال الأدوار التي يمكن أن يضطلع بها هؤلاء الطلبة، خاصة في حال عودتهم، بعد تخرّجهم، إلى بلدانهم الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية!

- النوع الرابع: وثائق الأزهر الشريف المحفوظة بدار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، والمتمثلة في محاضر جلسات المجلس الأعلى للأزهر ومجلس إدارة الأزهر، والمتعلقة بسير الدراسة والامتحانات ونتائجها، واللوائح المتضمنة لأسماء علماء الأزهر، وكذا سجلات الطلبة المغاربة بالأزهر. وهذه الأخيرة - أي السجلات - تتضمن معلومات عن كل طالب من حيث البلدة والبلاد التي أتى منها، وتاريخ بدء الدراسة في الأزهر، وتاريخ الحصول على الشهادات، وغيرها من المعلومات التي أتاحت لي التعرف بدقة على المسار الدراسي للشيخ الشرفاوي في الأزهر، غير أنه - وللأسف - لم أعثر على وثائق تلقي الضوء على الفترة التي قضاها في الأزهر بعد تخرّجه، ما جعلني أمام إشكالية وهي: هل تولى الشرفاوي التدريس فعلا وبصفة رسمية في الأزهر، أم أنه تولى التدريس فقط في رواق المغاربة الذي هو أيضا جزء من الأزهر؟ وعلى كلٍ عالجت هذه الإشكالية بما توفّر لدي من معطيات، دون أن أصدر رأياً جازماً حولها، لنقص الوثائق، وتبقى الحقيقة - كما يُقال - بنت البحث.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أرشيف رواق المغاربة مهمٌ وضروريٌ جدا للتعرف على المسار الدراسي والعملية للشيخ الشرفاوي بالأزهر، لكن - للأسف - هذا الأرشيف لم يودع في دار الوثائق القومية مثل غيره من وثائق الأزهر، إذ بقي مكدساً في الرواق، فتعرض للنهب والتلف تحت تأثير عوامل الطبيعة وسنوات طويلة من الإهمال البشري، وقد أفادني بهذا الأستاذ مجاهد توفيق الجندي، أستاذ التاريخ بجامعة الأزهر الذي لقيته أثناء زيارتي إلى القاهرة في آخر سنة 2016م، وقد علمت منه أيضاً أنّ بحوزته العديد من وثائق هذا الرواق التي حملها إلى بيته، إنفاذاً لها من التلف حسب قوله. ومن المؤسف جدا أن يلقي هذا التراث الوثائقي مثل هذا المصير دون أن تتحرك الجهات المعنية المسؤولة في البلدان المغربية لإنقاذه! فالمفترض في البلدان المعنية أنها تسعى لاسترجاع

أرشيف الرواق، أو تصويره، أو على الأقل تسأل عنه وتطمئن على مصيره، فهو جزء من ذاكرتها، لأنه يروي تاريخ فئة من أبنائها البررة الذين اختاروا الهجرة في سبيل العلم، ليخدموا في الأخير أوطانهم بالعلم الذي حصلوه بعد سنوات من الغربة والمعاناة.

- النوع الخامس: **الشهادات المكتوبة**: المتمثلة فيما سجله عن الشرفاوي بعض الكتاب الذين عرفوه أو التقوا به في صحف ذلك الوقت مثل: أبو يعلى الزواوي، وباعزيز بن عمر، وإسماعيل مامي.. إلخ. وأيضا ما أورده حسين آيت أحمد في كتابه (مذكرات مكافح)، حول علاقة الشرفاوي بمناضلي حزب الشعب بالمنطقة، وكذا أوراق مخطوطة لبعض طلبته، مثل مكي النعماني، وأحمد قادري.

- النوع السادس: **الشهادات الشفوية** التي جمعتها خلال مقابلاتي مع من بقي على قيد الحياة من طلبة الشيخ وهم قلة، وأفراد من عائلته، ومن بعض كبار السن في قرية الشرفة ومدينة عزازقة.

- أما بخصوص **المراجع**، فأسجل الملاحظات الآتية:

1- ليس هناك - حتى الآن - أي دراسة أكاديمية جامعية مخصصة لحياة الشرفاوي ومسيرته العلمية والنضالية، والدراسات التي تؤرخ للحركة الإصلاحية ورجالها في الجزائر وفي منطقة القبائل خلال النصف الأول من القرن العشرين لا تجد فيها - إن وجدت - إلا كلاماً مختصراً حول إسهام الشيخ في هذه الحركة، ومن هذه الدراسات نذكر:

- الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل: 1920-1945م، للأستاذ يسلي مقران، مذكرة جامعية نُوقشت في قسم الفلسفة بجامعة الجزائر منذ ما يقرب العشرين عاماً، ونُشرت سنة 2007م.

- المجتمع الزواوي في ظل العُرف والتّقاليد الإسلامية، 1749-1949م، رسالة دكتوراه للأستاذ محمد أرزقي فراد، نُوقشت في قسم التاريخ بجامعة الجزائر سنة 2011م، ونُشرت سنة 2015م.

- زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، دورها التعليمي وتراثها الفقهي وأثرها في منطقة القبائل، مذكرة ماجستير للأستاذ محمود مايمون، نُوقشت بمعهد أصول الدين بجامعة الجزائر سنة 2004م.

وتجدر الإشارة هنا إلى رسالة دكتوراه للأستاذ عبد القادر مولاي، بعنوان: أقطاب الإصلاح في منطقة القبائل: 1912-1956م، والتي نُوقشت بقسم التاريخ بجامعة الجزائر في عام 2007م، تناول فيها صاحبها بالدراسة ثلاثة فقط من أعلام الإصلاح في المنطقة، وهم الشيوخ: أبو يعلى الزواوي، والمولود الحافظي، والفضيل الورتلاني، وهنا ملاحظة هامة جديرة بالتسجيل وهي أنّ نشاط الشيوخ: الزواوي والورتلاني كان في الغالب خارج منطقة القبائل، فنشاط الأول تركّز في مدينة الجزائر التي استقر بها منذ عودته من الشرق، والثاني كان أكثر نشاطه في فرنسا والمشرق العربي والإسلامي، في حين لم يجد أمثال الشيخ الشرفاوي والشيخ السعيد الجبري مكانا لهما في هذه الرسالة، مع أنّ نشاطهما كان ألق بالمنطقة، فضلاً عن العنوان الذي يسع لمثل هذه الشخصيات!

2- الملتقى الوطني حول الشيخ الشرفاوي، الذي احتضنته زاوية "الشرفة بهلول" بمسقط رأس الشيخ، أواخر جوان 2012م، من تنظيم الجمعية الدينية للزاوية، وكان شعاره « يمضي الرجال ويبقى المنهج والأثر ». وهنا يجدر التنبيه إلى أنّ بعض محاضرات الملتقى قد تضمنت أخطاء علمية فادحة، إضافة إلى التكرار الذي ميّزها من حيث المحتوى، وتفسير ذلك - أي التكرار - أنّ أغلب المعلومات الواردة فيها مستمد من كتابات الأستاذ محمد الصالح الصديق، ومع هذا فإنّ أعمال الملتقى التي طُبعت ووُزعت مجاناً لا تخلو من الفائدة. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ تظاهرة مماثلة كانت قد احتضنتها ثانوية "شيجاني بشير" بمدينة عزازقة في آخر جوان 2006م، وهي من تنظيم الجمعية الدينية لمسجد الشيخ الحداد، غير أنّ الأعمال التي جرت فيها لم تُطبع، ولم نجد لها أثراً، إلاّ محاضرة الأستاذ محمد الصالح الصديق التي نشرها آنذاك في جريدة البصائر.

3- مراجع أخرى تمثلت في مقالات وُئذ مختصرة وردت في بعض الكتب حول الشرفاوي، اعتمد فيها أصحابها أيضاً على كتابات الأستاذ محمد الصالح الصديق. ومقالات أخرى تناولت أوضاع الطلبة الجزائريين والمغاربة في الأزهر، إضافة إلى مراجع عامة كثيرة استفدت منها في جوانب عديدة من الموضوع، كتلك التي تناولت أوضاع الجزائر والسياسة الفرنسية فيها خلال فترة الدراسة، وتلك المتعلقة بأوضاع مصر في فترة وجود الشرفاوي فيها، ونظام التعليم في الأزهر ورواق المغاربة آنذاك، وكذا الكتب التي تُرجمت لحياة شيوخ الشرفاوي في الأزهر، وطلبته في الجزائر.. إلخ.

هذه مجرد ملاحظات حول مصادر ومراجع البحث، وأما القائمة الكاملة لها فستأتي مفصلة إن شاء الله في بيبليوغرافيا البحث.

وبخصوص صعوبات البحث، أذكر أنّ في بداية البحث قد انتابني بعض المخاوف بخصوص قلة المصادر والمراجع، غير أنّ هذه المخاوف سرعان ما تبددت مع الوقت، خاصة بعد أن أتاحت لي الجامعة فرصة زيارة مراكز الأرشيف في فرنسا وفي مصر، فضلاً عما جمعته من شهادات شفوية، ووثائق من طلبة الشرفاوي ومعاصريه وعائلته، وهذا بعد بحث وتنقلات كثيرة إلى العديدة من القرى والمدن خاصة في منطقة القبائل، ولم يكن هذا بالأمر اليسير، لما تطلب من الجهد والوقت، لكن ذلك هو مهر البحث لمن رام قطف ثماره! أما الصّعوبات الأخرى فتتمثل في:

1- ضياع أغلب مؤلفات الشرفاوي بعد وفاته، كما ضاع أرشيف الزوايا التي درس أو درّس بها نتيجة تعرّضه للتخريب والحرق من طرف الاستعمار خلال الثورة التحريرية، وطال الحرق أيضاً مكاتب الكثير من الطلبة، فقد ذكر الشيخ مكي نعماني في بعض أوراقه التي كتبها عن أستاذه الشرفاوي أنّ الاستعمار قد هدم منزله، وأحرق مكتبته، وأفقدته أعزّ أثرٍ كان يعتزّ به في حياته! وكذلك ذكر الأستاذ محمد الصّالح الصّديق أنّ الكثير من كراريسه وكتبه وأوراقه قد أحرقها جنود الاحتلال حين أحرقوا مكتبته سنة 1956م، عندما اكتشفوا مهمته في الثورة. وحدث مثل ذلك لمكاتب طلبة آخرين أمثال أحمد قادري، ومولود إيمون. وذكر الشيخ الطاهر آيت علجت أنّه كان بحوزته رسالة الشرفاوي في موضوع "الربّية"، لكن أحرقت ضمن مكتبته التي أحرقت أثناء الثورة أيضاً!

2- "سمة البخل" التي تُميّز أكثر الناس الذين يملكون وثائق في وقتنا، فتجدهم لا يريدون تمكين الباحث من الاطلاع على الوثائق التي بحوزتهم، وغالباً ما يكون هذا منهم من باب الحرص على صون ووثائقهم، وما درى هؤلاء أنّ توظيف الوثيقة النادرة من طرف الباحث هو إحياء لها، وإخراج لها من ظلام النسيان إلى نور الحياة، فبذل الوثيقة هو - تماماً - مثل العلم الذي يزيد بالبذل والإنفاق.

3- أما الأمر الذي أذكره بكل أسى وأسف، فهو تلك العقبات التي يصادفها الباحث في دور أرشيفنا، ومن القائمين على هذه الدور، وهم أبناء هذه البلاد التي كان مهر تحريرها أعلى المهور، وهي عقبات يصعب شرحها وإيجاد تفسير لها! ونحن هنا لا نملك إلا أن

نثير انتباه القائمين على هذا الأرشيف، ونتساءل: إلى متى تبقى هذه الدور على ما هي عليه في التعامل مع الباحثين؟ وما جدوى سعينا لاسترجاع أرشيفنا من فرنسا ودور الأرشيف عندنا ما تزال في هذا الوضع؟

ألمي في الأخير، أن أكون قد وُقِّت في التعريف بشخصية الشيخ الشرفاوي وجهاده الفكري عبر مختلف مراحل حياته، وأن ينتفع القارئ بهذا العمل، والله أدعو أن يوفِّقنا جميعاً لخدمة الوطن بإخلاص كما خدمه أسلافنا العظام، والله هو الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

مدخل

بيئة الشرفاوي

أثر السياسة الفرنسية على الجزائر عامة ومنطقة القبائل خاصة

- 1- المقاومة والاحتلال
 - 2- إدارة الاستعمار وقوانينه القمعية
 - 3- سياسة الاستيطان وتقدير الأهالي
 - 4- سياسة فرنسا في منطقة القبائل
- أ- الكتابات السوسولوجية والأنثروبولوجية المغرضة
- ب- سياسة التصير
- ج- التعليم الفرنسي

أثر السياسة الفرنسية على الجزائر عامة ومنطقة الزاوة خاصة

لقد وُلد الشَّيخ الرَّزقي الشَّرفاوي بعد مرور ما يقارب نصف قرن على بداية الغزو الفرنسي للجزائر، وهذا يعني أنَّه حين فتح عينيه على هذه الدنيا، كان الاستعمار قد فرض نفسه على الجزائريين، وأجهزته قد توغَّلت في نواحي البلاد، سيما بعد ثورة المقراني والحداد 1871م.

والاحتلال الفرنسي في الجزائر يكاد يكون فريداً من نوعه في العالم كله، فقد عمد منذ سنواته الأولى إلى شطب الدولة الجزائرية كلية من قائمة الدول والأمم، فأنكر وجودها في التاريخ، واعتبرها "جزءاً لا يتجزأ من فرنسا"، وأقام نُظْمَه وسياساته كلَّها على أساس محو شخصيتها محوًّا تاماً وإلحاقها بفرنسا.

هذا الموضوع تناوله الباحثون وفصلوا فيه الكلام، أما الغرض هنا فهو إعطاء لمحة مختصرة لما أحدثه الاحتلال الفرنسي - من خلال سياساته الاستعمارية، وقوانينه التعسفية - من آثار في أوضاع الجزائر عامة، ومنطقة القبائل (زاوة) بصفة خاصة خلال هذه المدة وما بعدها، حتى نتعرَّف على الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نشأ فيها الشَّرفاوي، والبيئة الدينية والثقافية التي أحاطت بطفولته ومطلع شبابه، أي قبل هجرته إلى مصر للدراسة في الأزهر في أوائل القرن العشرين.

1- المقاومة والاحتلال

في سنة 1830م غزت فرنسا أرض الجزائر عسكرياً، ولم تكن عملية الاحتلال مجرد نزهة عسكرية للغزاة كما اعتقد في البداية بعض قادتهم، فقد جاهد أبناء الجزائر جهاد الأبطال، ودافعوا عن كل شبرٍ من أرضهم، ويظهر هذا جلياً من خلال السلسلة الطويلة من المقاومات والثورات والانتفاضات الشعبية التي عرفتْها مختلف جهات الوطن خلال السبعين عاماً الأولى من الاحتلال: من مقاومة الأمير عبد القادر والحاح أحمد باي في بداية الاحتلال، إلى الشَّيخ بوزيان بواحة الزعاطشة، إلى الشَّريف بوبغلة ولالا فاطمة نسومر والحاج محمد المقراني وابن الحداد في منطقة القبائل، إلى ثورات أولاد سيدي الشَّيخ وابن ناصر بن شهرة وبوشوشة

وبوعمامة وانتفاضات التوارق في الصحراء، إلى ثورة سي الصادق بن الحاج ومحمد أمزيان بن الحاج في الأوراس، .. الخ¹.

وبخصوص منطقة القبائل² نشير إلى أن هذه المنطقة قد سجلت حضورها في المقاومة منذ الأيام الأولى من الاحتلال، فقد ذكر الضابط الفرنسي "روبان" (*Robin*) أن المنطقة قد لبّت نداء الداي حسين الذي طلب من أهلها دعم صفوف الجهاد ضد الغزو الفرنسي، وقدّر الضابط المذكور عدد المجاهدين الذين تركوا قبائلهم وقراهم وذهبوا لنجدة الداي بحوالي خمسة وعشرين ألف مجاهد³، أي نصف قوات الداي حسين، وقد ساروا إلى ساحة المعركة - كما وصفهم - في نظام محكم، تحت قيادات الأعيان وممثلي كبار الزوايا في المنطقة، حاملين رايات زواياهم!⁴

وتجلت مقاومة أبناء المنطقة خلال هذه الفترة أيضا في دعمهم لمقاومة الحاج محمد بن زعموم في سهول متيجة بعد انهزام القوات الجزائرية وتمكن فرنسا من احتلال مدينة الجزائر في 5 جويلية 1830م، وأيضا في احتضانهم لمقاومة الأمير عبد القادر بإخلاص ووفاء⁵. فعندما زار الأمير المنطقة سنة 1837م استقبله أهلها بحفاوة كبيرة وقدموا له الولاء، وقد نصب أحمد الطيب بن سالم خليفة له على المنطقة⁶، وهذا خلافا للرواية

1 - عن هذه الثورات أنظر مثلاً: يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر، ج 1- 2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ط 2، 1996، أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول بقسميه الأول والثاني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000، أيضاً: كيف تحررت الجزائر؟ وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1979.

2 - تمتد منطقة الزواوة أو منطقة القبائل ما بين وادي يسر غربا وجبال البيان والبابور شرقا، أي على مسافة 150 كلم، وتمتد من البحر نحو الداخل بعمق 70 إلى 100 كلم، تحتضن حوضين رسوبيين هما: حوض وادي الصومام الذي يصب في البحر عند بجاية، وحوض وادي سيباو الذي ينتهي في البحر شرق مدينة دلس. اشتهرت هذه المنطقة في الماضي بتسمية "الزواوة"، وهذا منذ القرن الثالث عشر على الأقل، إلا أن التسمية التي انتشرت وطغت على الاستعمال منذ عهد الاستعمار الفرنسي هي "منطقة القبائل" (*la Kabylie*) التي استعملها الفرنسيون في كتاباتهم، وإن بقيت تسمية الزواوة مستعملة في كتابات الجزائريين خاصة علماء الإصلاح. والجدير بالذكر أن الفرنسيين قد جعلوا المنطقة قسامين: القبائل الكبرى (تيزي وزو)، والقبائل الصغرى (بجاية)، وهذا سيرا على المبدأ الاستعماري المعروف "فرّق تسد"! للمزيد في الموضوع أنظر: محمد أرزقي فراد، المجتمع الزواوي في ظل العرف والثقافة الإسلامية 1749-1949، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ط 1، 2015، ص 23-33. ناصر الدين سعيدوني، في الهوية والانتماء الحضاري، دار البصائر الجديدة، الجزائر، 2013، ص 163.

3- *Joseph Nil Robin, Notes Historiques sur la grande Kabylie de 1830 à 1838, éditions Bouchène, Alger, 1999, p.32.*

4- *Ibid, p. 29.*

5 - محمد أرزقي فراد، المجتمع الزواوي، مرجع سابق، ص 76-69.

6 - كانت هذه هي زيارة الأمير الأولى لمنطقة القبائل، وقد عاد لزيارتها مرتين: سنة 1838، وسنة 1846م. أنظر: محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، ترجمة موسى زمولي، منشورات ثالثة، الجزائر، 2007، ص 67، 85، 86.

المغرضة التي أوردها الضابط الفرنسي "أوجين دوماس" (E. Daumas) الذي زعم أن سكان القبائل قد أسأؤوا استقبال الأمير عبد القادر، حين خاطبوه ببرودة وحذر بقولهم: « إن جئنا ضيفا سنستقبلك بالكسكي والطعام، وإن جئت بصفتك حاكما تطلب الضرائب سنستقبلك بالكسكي الأسود (أي البارود) »¹، وبأن الأمير قد قابل الإساءة بمثلها حين وصفهم بالجهل والجلافة، ورفض أكل ضيقتهم لرفضهم تقديم المساعدة المالية له!² ومما يفند ادعاءات دوماس، ذلك البلاء الحسن الذي أبلاه خليفة الأمير على المنطقة حين عادت الحرب من جديد بين الأمير وفرنسا سنة 1839م، فقد أقض مضاجع الفرنسيين في منطقة متيجة، وبلغ مدينة الجزائر التي دخلها مهاجماً حتى وصل إلى الحراش والحامة³. وأكبر دليل على تهافت دوماس في دعواه، هذا الرد الذي تلقاه الجنرال "بيجو" (Bugeaud) من رؤساء المنطقة في سنة 1844م حين هدد بحرق قراهم ومحاصيلهم الزراعية، إن لم يستسلموا ويسلموا خليفة الأمير (ابن سالم)، حيث جاء في ردهم: « وطلبتم منا أن نطرد ابن سالم، فكيف نوافق على ذلك والحال أنه مسلم وأنتا مسلمون؟ وإذا كنتم قد صمتم على أن تحكموا الجزائر بأكملها وأن تتغلبوا على قوم اعتصموا بالصخور والجبال، فإننا نقول لكم: يدُ الله فوق أيديكم، ولتعلموا أن الخسارة والربح عندنا سيان، ومن عادتنا دائماً أن نتحدى النفي والتشريد والموت.. ولا تظنوا كذلك أن إتلاف محاصيلنا الزراعية، أو أشجارنا يجعلنا ننخذل أمامكم، لأن هذه المحاصيل كثيراً ما يقضي عليها الجراد أو تجرفها السيول، وتلك الأشجار كثيراً ما تئيبس وتموت.. وما الرزق إلا من عند الله! »⁴.

أدركت فرنسا صعوبة احتلال منطقة جرجرة لوعورة جبالها، وتمسك سكانها بقراهم المنيع المبنية في القمم، لذلك لم تأذن لجيشها أن يشن الحرب عليها قصد إخضاعها إلا بعد سنة 1850م، أي بعد إخضاع الجهات الأخرى من شمال الجزائر، والتمركز في العديد من المناطق الساحلية والسهلية المحيطة بالمنطقة، مثل: بجاية ودلس وبرج منايل وتادمايت، لتجعل منها منطلقاً لحماتها الموجهة لغزو أعالي جرجرة. استغرقت الحرب نحو سبع سنوات، توالت خلالها الحملات الفرنسية على المنطقة، وكان على رأس المقاومة في البداية الشريف

¹ - دوماس في كتابه (La Kabylie)، نقلاً عن محمد أرفي فراد، المجتمع الزواوي، مرجع سابق، ص 69.

² - نفسه، ص 69-70.

³ - محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 73.

⁴ - مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة: د. حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 132 - 133.

بويغلة¹، ولما استشهد في ديسمبر 1854م تواصلت المقاومة بقيادة البطلة لالا فاطمة نسومر، وأخيها سي الطاهر، وزعماء آخرين أمثال الحاج أحمد مقدم الطريقة الرّحمانية في ذراع الميزان، وصديق وأعراب في تيزي راشد، وصمدت المقاومة ثلاث سنوات أخرى، استمات خلالها السّكان في الدفاع عن كلّ شبر من قراهم، لذلك لم تتمكّن دولة الاحتلال من إخضاع كلّ قرى المنطقة إلاّ بنفس الأساليب التي طبقتها في بقية المناطق، وهي التخريب والتحطيم والإبادة الوحشية، تلك الأساليب التي أصبحت ديدنَ الفرنسيين منذ وطئت أقدامهم أرض الجزائر سنة 1830!

ففي شهر ماي 1857م قاد الحاكم العام الماريشال "راندون" (*Randon*) حملة عسكرية ضخمة قوامها 35 ألف من الجنود تم استقدامهم من المقاطعات الثلاث: الجزائر، وهران، قسنطينة، يقودها نحو عشر جنرالات كبار وعدد معتبر من العقداء²، وقد اشتبك الطرفان في معارك كثيرة غير متكافئة، فتمكّن العدو بأساليبه المعهودة من احتلال الأربعاء ناث إيراثن، حيث أقام حصنا عسكريًا أسماه حصن نابليون³، كما تمكن من إخضاع قرى: آيت بني، وآيت يحيى، وآيت منقلات، وآيت بودرار، وفي 24 جوان 1857م وقعت معركة "إشريظن" الكبيرة التي جمع لها راندون كلّ الإمكانيات التي كانت بحوزته، وقد تكبد فيها العدو خسائر فادحة قُدّرت بـ 400 قتيل منهم 30 ضابطاً⁴، وعدد كبير من الجرحى، لكنّ خسائر المقاومين كانت أفدح بكثير، نظرًا لأساليب العنف التي استعملها العدو المتفوق من حيث العدة والعدد.

بعد أقل من شهر من هذا التاريخ تمكن راندون من السيطرة على القرى التي بقيت حتّى ذلك الوقت خارج سيطرة فرنسا، مثل: آيت يوسف، وآيت يتوراغ، وآيت إيلتن، وسومر، وإثر ذلك أُلقي

¹ - اسمه الحقيقي محمّد الأمجد بن عبد المالك، سبق له أن حارب الجيش الفرنسي تحت لواء الأمير عبد القادر ثم لجأ إلى منطقة القبائل ليستأنف جهاده. عن مقاومته أنظر: محمد سي يوسف، مقاومة منطقة القبائل للاستعمار الفرنسي ثورة بويغلة"، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، ط 2000.

² - *Boukhalfa Bitam, Fadhma N'summer (une autre lecture du combat de l'illustre fille de Werdja), éditions Aurassi, 2000, p.103-104.*

³ - وضع راندون حجره الأساس يوم 14 جوان 1857م الذي يوافق تاريخ نزول القوات الفرنسية بسيدي فرج سنة 1830م، ونشير إلى أنه بعد سقوط نابليون الثالث وقيام الجمهورية الثالثة في باريس سنة 1870م أصبح الحصن يعرف باسم "الحصن الوطني" (*Fort national*)، وبعد الاستقلال استعادت المدينة اسمها القديم وهو "الأربعاء ناث إيراثن".

⁴ - *Pièrre Montagnon, La conquête de l'Algérie (1830 -1871), Paris, 1980, p. 392.*

القبض على الحاج أعمر ولالا فاطمة نسومر¹، وفرض راندون على سكان المنطقة غرامات حربية باهظة زادت على مليوني فرنك²، زيادة على تخريب قراهم وأملاكهم.

لكن رغم الهزيمة العسكرية ووقوع الاحتلال، فإن جذوة المقاومة بقيت متقدةً في نفوس الناس، وفي عقول رؤسائه³، وطبيعي أن ينتظر هؤلاء الفرص والظروف المناسبة للعودة إلى مواجهة المستعمر، وهو ما حدث بالفعل في سنة 1871م إثر تعرّض فرنسا للهزيمة العسكرية أمام بروسيا في عقر دارها، حيث اندلعت ثورة عارمة في وسط وشرق الشمال الجزائري بما فيه منطقة القبائل التي كانت في قلب الثورة، وكان الداعي إليها هو الحاج محمد المقراني باشاغا منطقة مجانة، والشيخ محمد أمزيان بن الحداد شيخ الطريقة الرحمانية وكان مقره بزاوية صدوق ناحية آقبو بولاية بجاية. هذه الثورة، رغم قصر مدتها (من مارس 1871 إلى مطلع سنة 1872م)، تعتبر من أخطر ثورات الجزائر خلال القرن التاسع عشر على الوجود الفرنسي في الجزائر، ورغم ما حققه الثوار من انتصارات على قوات العدو⁴، إلا أنّ الكلمة الأخيرة كانت

1 - أسرت لالا فاطمة نسومر يوم 11 جويلية 1857م وبقيت في السجن إلى أن توفيت سنة 1863م وهي في ربيع شبابها، إذ كان عمرها لا يتجاوز 33 سنة! لقد بهرت هذه المرأة بشجاعتها وبطولاتها جنرالات العدو، فلقبوا بـ "جاندارك جرجرة" (*la Jeanne d'arc du Djurdjura*)، ووصفها بعضهم بـ "النبية البربرية" (*prophétesse berbère*)، لتقواها وتدينها، ولقبها أحد الباحثين بـ "خولة جرجرة" نسبة إلى خولة بنت خويلد التي جاهدت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، وخلد ذكرها شاعرنا الكبير مغدي زكريا في مقطع من مقاطع رائعته "إلياذة الجزائر". عنها أنظر كتابي: رواد المقاومة الوطنية في القرن التاسع عشر، دار الأمل، تيزي وزو، ط 3، 2015، ص 125-137.

2 - Charles -André JULIEN, *Histoire de l'Algérie contemporaine, Casbah éditions, Alger, 2005, p. 394- 395.*

3 - لقد رسخت المقاومة - رغم فشلها - الروح الثورية، والفكر الرافض للاحتلال وللوجود الفرنسي في نفوس الجزائريين، ورسخت فيهم الاعتقاد بأن هذا الاحتلال محكوم عليه بالزوال، طال الزمن أو قصر! وهذه حقيقة أدركها قادة الاحتلال، واعترفوا بها. فهذا العقيد "لاباسيت" (*Lapasset*) يكتب في سنة 1865م إلى صديقه "إسماعيل أوربان" (*I. Urbin*)، مستشار الحاكم العام للجزائر يقول: « إننا الآن، وسنظل لمدة طويلة، نواجه شعبا لا يتحمل هيمنتنا، وهو يبحث ما وسعه ذلك عن أية وسيلة تمكّنه من التخلص منا.. إن مشاعر الاستقلال والتطرف الديني هنا متربصة بنا، وهي تتربص الأوضاع.. »! ويقول "دي كلونارد" (*De. Clonard*): « ليس ثمة عربي، أو قبائلي، لا يعتقد جازما بأننا سوف نُغادر إفريقيا - بقصد الجزائر - في مستقبل قريب، بل من الناس من صار يحدّد أجل تسديد قرضه بيوم مغادرة الفرنسيين الجزائر ». شارل روبيير أجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 - 1919، ترجمة م. حاج مسعود، أ. بكلي، ج1، دار الزائد، الجزائر، ط 2007، ص 13.

4- خلال هذه الثورة خاض المجاهدون وعددهم 200 ألف ما يزيد عن 304 معركة كبيرة ضد جيوش فرنسا التي قدرّت - بعد وصول النجدات - بـ 800 ألف جندي. يُذكر أنّ الجنود الفرنسيين في برج تيزي وزو حاصروهم الثوار لأكثر من 15 يوماً، ولم يُرفع عنهم هذا الحصار إلا بعد وصول طابور عسكري جاء من الجزائر العاصمة خصيصاً بقيادة الجنرال "لالماند"، وقد عاش جنود الحامية تلك الأيام في رعب ماحق، واضطروا إلى "تسبيط الماء" وأكل "روث الخيول" حسب الرواية الشفوية التي سمعتها

للاستعمار، وذلك بسبب تفوقه العسكري، وأساليب العنف والإبادة التي طبقتها جيوشه في مواجهة الثوار والشعب عامة، والتي أسفرت عن عشرات الآلاف من الشهداء، وتقديم آلاف الثوار لمحاكم الجنايات التي أصدرت ضدهم أحكاما قاسية بالإعدام، والسجن والنفي خارج البلاد، إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادي، وتم مصادرة أكثر من 600 ألف هكتار من أراضي القبائل الثائرة، مع تغريمها بمبلغ 36 مليون فرنك¹.

وبفشل هذه الثورة توقّف الكفاح المسلح في منطقة القبائل، لكن مشاعر العداة للاستعمار ورفض سياسته الجائرة استمرت في شكل جماعات من الأفراد اعتصمت بالجبّال عُرفت خلال الحقبة الاستعمارية باسم "العصاة من أجل الشرف" (*Bandits d'honneur*)²، وقد كان نشاطهم يستهدف بالدرجة الأولى فئة العملاء الذين باعوا ضمائرهم للاستعمار، ثم المستعمرين، وقد تعاطف الشعب معهم فكثرت نشاطهم، وتكاثر عددهم، وكان أشهرهم في منطقة القبائل في أواخر القرن التاسع عشر: أرزقي أولباشير، والإخوة عبدون³.

لقد أرهبت هذه الظاهر المستعمر الفرنسي وجعلته يُسخر قوات كبيرة لمواجهةها في منطقة القبائل، ويرى بعض الباحثين، أنّ هذا التمرد الفردي كان بمثابة الجذوة المشتعلة التي حافظت على الروح الثورية لدى الشعب في أحلك الظروف، كما كان نشاط العصاة الشرفاء صلة وصل بين ثورات القرن التاسع عشر، وعهد المقاومة السياسية التي تبناها الشعب الجزائري منذ مطلع القرن العشرين⁴.

2- إدارة الاستعمار وقوانينها القمعية

أخضعت فرنسا الجزائر منذ 1830م لنظام الحكم العسكري، الذي اعتمد في حكم البلاد على ما يعرف بـ "المكاتب العربية" التي يرأس كل واحدٍ منها ضابط فرنسي يباشر مهامه في مراقبة الأهالي وجمع الضرائب بالتعاون مع الأعيان المحليين الذين اختارتهم فرنسا ليكونوا وسطاء بينها وبين السكان، وقد استمر هذا النوع من الحكم حتى سنة 1870م. فمع

من السيد لونس مَحّالة. (رئيس بلدية سابق ومتقاعد، مهتم بتاريخ منطقة القبائل وثقافتها). عن هذا الحصار أنظر: محمد الصّغير فرج، مرجع سابق، ص 150-157.

¹ - يحيى بوعزيز، ثورة 1871م (دور عائلتي المقراني والحداد)، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص 315.

² - *Emile Violard, Le banditisme en Kabylie, paris, 1895.*

³ - للمزيد عن هذه الظاهرة أنظر: محمد أرزقي فراد، أزفون تاريخ وثقافة، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، ط 2، 2007، ص 34 وما بعدها.

⁴ - نفسه، ص 34.

سقوط الإمبراطورية، أصدرت حكومة الجمهورية الثالثة التي قامت إثر ذلك بباريس سلسلة من القرارات الإدارية والسياسية التي تخص الجزائر، من ضمنها قرار إلغاء الحكم العسكري في شمال الجزائر وتعويضه بحكم مدني، مع بقاء الجنوب تحت الحكم العسكري، وأصبحت الجزائر بذلك ملحقة بوزارة الداخلية وليس بوزارة الحرب كما كانت من قبل، وفي إطار تطبيق النظام المدني في شمال البلاد تم إنشاء نوعين من البلديات:

أ- **البلديات ذات الصلاحيات الكاملة:** وهي التي أقيمت في المناطق التي يكثر فيها المستوطنون الأوروبيون، وهم يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون في بلادهم، إذ ينتخبون رئيس البلدية وممثلين لهم في المجلس البلدي، أما الأهالي فيشاركون بعدد من الأعضاء تختارهم الإدارة الاستعمارية من الموالين لها، ومن هذه البلديات في المنطقة: دلس، يسر فيل، هسنفيلي، تيزي وزو، مقلع.

ب- **البلديات المختلطة أو الممتزجة:** وهي التي لا تخضع في تسييرها لمبدأ الانتخاب، بل يسيّرهما موظف فرنسي معيّن يدعى "متصرف إداري"، يساعده عدد من الأعوان الفرنسيين المنتخبين، وبعض الأعوان من الأهالي تعيّنهم السلطة الفرنسية يشكون المجلس البلدي، ويستعين في الميدان بمساعدين محليين "القياد"، تختارهم الإدارة الاستعمارية على أساس ولائهم لها، ليكونوا عيونها على الأهالي، وأعوانها في اضطهادهم، إلا القليل منهم¹. وهذا النوع من البلديات أقيم في الجهات التي يقل فيها العنصر الأوربي، نذكر منها في منطقة القبائل الكبرى مثلاً: سيباو الأعلى، جرجرة، فور ناسيونال، أرفون، ذراع الميزان.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الحكم المدني لم يكن أفضل من الحكم العسكري السابق بالنسبة للجزائريين، إذ أنه أتاح للمستوطنين الأوروبيين ممارسة سياسة القهر والإذلال ضد الجزائريين بشكل أكثر من السابق، والدليل على ذلك سلسلة القوانين التعسفية التي ظهرت خلال هذه المرحلة، وأهمها ما يُعرف بـ "قانون الأهالي" (*Code de L'indigénat*)²، وهو مجموعة من النصوص القانونية الاستثنائية والإجراءات القمعية الشديدة التي بدأت سلطات

¹ - معروف أنّ من يُختار لهذه المهمة من الجزائريين، إذا كان صالحاً فإنه يخفّف من بلاء الاستعمار على إخوانه، أما إذا كان فاسداً فإنه يكون أشدّ وأنكى من الحكام المستعمرين أنفسهم!

² - إنّ لفظة "أنديجان - *Indigène*" معناها الحقيقي (أهلي وصاحب البلاد)، ولكن هذا في مصطلحات اللّغة الصّرفة، أما في مصطلحات اللّغة الاستعمارية أصبحت هذه اللّفظ توحى باحتقار وامتهان الجزائري وصارت من أخوات "بيكو وراتون وبونبول.."، أي أنّ الفرنسيين حملوا هذه الكلمة التي أطلقوها على الجزائري معنى الاحتقار والدونية!

الاحتلال في تطبيقها على الجزائريين منذ بداية الاحتلال، وطبقته بشكل أوسع بعد قمع ثورة 1871م، ثم سنتها في سنة 1881م في شكل قانون خاص لا يُطبَّق إلا على الجزائريين، وهو يخوّل السلطات الإدارية حق معاقبتهم على العديد من المخالفات المنصوص عليها في القانون دون عرضهم على محاكم قضائية، وهذه المخالفات ليست مما يعاقب عليها القضاء العادي.

تضمن هذا القانون في البداية 27 مخالفة، زيدت بعد أشهر إلى 33 مخالفة، ثم خففت إلى 21 في سنة 1888م، لتستقر عند 23 مخالفة سنة 1904م¹ يُعاقَب عليها الجزائري وتُنزل عليه العقوبة دون محاكمة، وتُنَفَّذ عليه إجراءات الحبس والمصادرة والتغريم بدون حكم قضائي، ومن المخالفات التي نصّ عليها هذا القانون الاستثنائي: منع التنقل إلاّ برخصة خاصة، وحظر التجمع لأكثر من خمسة أشخاص دون إذن مسبق، واللّجوء إلى تغريم كل فرد يرفض أعمال السّخرة أو يمتنع عن العمل في مزارع المستوطنين وقت الحصاد، ومعاقبة كل من يتأخّر في دفع الضريبة، أو يُيدي أيّ تصرّف يُفهم منه أنّه إهانة للأوروبيين، أو يتجرأ على التلقّظ بأية عبارة ضد الدولة الفرنسية²، وغيرها من الأحكام التي وصفها المؤرخ الفرنسي "أجرون" بقوله: « إنها تماثل القوانين السّابقة المطبقة على الأرقاء في جزر الأنتيل »³!

ولعلّ أشدّ إجراءات قانون الأنديجينا ضرراً على الجزائريين هي الأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية عند وقوع الجناية، بمعنى في حالة حدوث اعتداء على أوروبي في جهة ما، أو أيّ جنحة تمس المصلحة العامة، كنشوب حريق في الغابة مثلاً، فإنّ سكان تلك الجهة مسؤولون عن ذلك ويخضعون للعقوبة الجماعية⁴! وهكذا أصبح الأهالي يعيشون تحت القهر والتهديد المستمرّ بالحبس ومصادرة الأملاك، والتغريم الفردي والجماعي! فحسب تقرير فرنسي رسمي، فقد تم تسجيل في سنة واحدة (1885م) عشرة آلاف مخالفة في حق أهالي منطقة القبائل والجنوب، درّت لخزينة الدولة مبلغاً قدرّ بمليون و500 ألف فرنك⁵.

¹ - بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830 إلى 1989، ج 1، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 233.

² - ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، عالم المعرفة، الجزائر، ط 2، 2009، ص 34.

³ - C.R. AGERON, *Histoire de l'Algérie contemporaine, que sais - je?* (N° 400), 7^{eme} éd, Paris, 1980, P. 61.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، مرجع سابق، ص 34.

⁵ - Emile Violard, *Le banditisme en Kabylie, paris, 1895, p.50.*

وباختصار فإنّ قانون الأهالي كان شديد القساوة على الجزائريين، حيث كان يحصي عليهم أنفاسهم، ويكبّل حركاتهم بقيد من حديد، لذلك فقد كان أول مطلب للحركة الوطنية في مطلع القرن العشرين هو إلغاء هذا القانون، إلاّ أنّه بقي ساري المفعول حتى سنة 1944م حيث أُلغي نظرياً بموجب أمرية 7 مارس، ولكن العمل به استمر في الواقع حتى نهاية عهد الاحتلال البغيض.

3- سياسة الاستيطان وتفكير الأهالي

منذ البداية رافقت عمليات الغزو والاحتلال الفرنسي للجزائر عملية مصادرة أملاك الجزائريين وأراضيهم، وتشجيع هجرة الأوربيين إلى الجزائر لتوطين عدد كبير منهم في أراضيها، نتج عن هذه السياسة ارتفاع مساحة الأراضي الزراعية التي أصبحت بيد المستوطنين الوافدين إلى الجزائر حتى تجاوزت في سنة 1900م 600 ألف هكتار، وتزايد عدد المستوطنين الأوربيين في الجزائر، فارتفع عددهم من 245 ألف سنة 1871م¹، إلى 680 ألف سنة 1906م، إلى أكثر من 881 ألف سنة 1931م². وهكذا استولى الوافدون الجدد على أخصب الأراضي في شمال الجزائر، واحتكروا الأنشطة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ووجهوها وفق ما يخدم مصالحهم، أما أهالي البلاد فقد أُبعدوا إلى المناطق الفقيرة في الجبال والهضاب والصّحراء، وتحوّل أكثرهم إلى طبقة فقيرة مستغلة في مشاريع الاستعمار. وطبيعي أن يؤدي هذا إلى هبوط المستوى المعيشي لمجتمع الأهالي إلى مستوى غير مسبوق، وأن تصبح البلاد بعد عقود قليلة من الزمن عُرضة لمجاعات وأوبئة قاتلة، كان أخطرها تلك التي اجتاحتها في أواخر السّتينات من القرن التاسع عشر وأودت بحياة أكثر من 300 ألف جزائري³.

وبخصوص منطقة الزواوة، فتجدر الإشارة إلى أنّ حركة الاستيطان فيها قد اقتضرت حتى سنة 1870م على بعض السّهول الغربية من المنطقة، وهي القريبة من مدينة الجزائر: دلس، بغلية، نراع الميزان، وهذا لتأخر احتلال المنطقة، ولطبيعتها الجبلية، وصعوبة توفير الأمن للمستوطنين فيها. لكن فشل ثورة 1871م، وما تلا ذلك من عمليات المصادرة والحجز التي شملت ستمائة ألف هكتار من أراضي القبائل التي شاركت في الثورة كعقاب جماعي لها⁴، قد وفّر

¹ - جوان غيلسبي، الجزائر الثائرة، ترجمة خيرى حمادي، منشورات دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1961، ص 18.

² - Robert ARON et autres, *Les Origines de la Guerre d'Algérie*, Fayard, Paris, 1962, 217.

³ - Charles Robert AGERON, *Histoire de L'Algérie contemporaine, que sais - je? (N° 400)*, 7^{eme} éd, Paris 1980, P.35.

⁴ - يحيى بوعزيز، ثورة 1871م، مرجع سابق، ص 313 - 315.

ظروفا ملائمة لبدء دخول المستوطنين إلى المنطقة، ففي الفترة ما بين 1873 و1889م تم إنشاء العديد من المراكز الاستيطانية في المنطقة، أهمها: "لعزيب زعموم" (*Haussonviller*)، "تادمايت" (*Camp du Maréchal*)، ويسر فيل، بالحوض الأسفل لوادي سيباو، ثم توغل الاستيطان في عمق المنطقة بإنشاء مستوطنات أخرى في الحوض الأعلى من هذا الوادي في كل من: مقلع، تامذة، فريحة، عزازقة، إكورن، وعلى ساحل البحر تم إنشاء مستوطنة في بورقيدون (أزفون)، وأخرى في تيزغزيرت¹، وقد استقبلت هذه المراكز عائلات قادمة من مقاطعتي "الألزاس" و"اللورين" (*Alsace- Lorraine*)، كما استقبلت مهاجرين آخرين فرنسيين واسبان ومالطيين.. الخ، وفي القبائل الصغرى تأسست في نفس الفترة مراكز استيطانية عديدة بوادي الصّومام في كل من: لقصر، وادي أميزور، آقبو، سيدي عيش، تازمالت، إغزر أمقران، صدوق. وتشير الإحصائيات إلى أنّ منطقة القبائل ككل استقبلت خلال هذه الفترة نحو 22 ألف مستوطن تمركزوا بالخصوص في حوضي وادي سيباو ووادي الصّومام².

والملاحظ أنّ أغلب هذه المراكز الاستيطانية أقيمت على أراضي تمت مصادرتها عقب ثورة 1871م، واختير لها أماكن صحية تتوفر على المياه، ومزوّدة بفرق الدرك لضمان الأمن والحماية، وبدوريات طبية تجوب القرى الأوربية على فترات متقاربة، فضلاً عن شبكة الطّرق التي أنشئت لخدمة المستوطنين³. وكان المستوطن عند حلوله بالمنطقة يحصل على الأرض مجاناً، ويحظى بمساعدة مالية من طرف الحكومة تمكّنه من إقامة مسكنه، وشراء الحيوانات ووسائل العمل! وهذه أموال ربما اقتطعت من تلك الغرامات التي كان يدفعها السّكان، فمن المعروف أنّ فرنسا قد فرضت عقب ثورة 1871م غرامات مالية كبيرة ومرهقة على سكان المنطقة، قُدّر حجمها بما يُعادل عشر مرات الضريبة السنوية لسنوات التسعينات من القرن التاسع عشر، ولفداحة هذه الغرامة فقد اضطرت الكثير من العائلات إلى بيع ماشيتها وأجزاء من أراضيها المتبقية، ورهن بعض الأملاك الأخرى لتتمكن من جمع مبلغ الغرامة الذي يفوق طاقتها.. وأمام عجز الكثير من الأهالي عن مواصلة تسديد الضرائب المجحفة، رغم بيعهم لماشيتهم وبعض أراضيهم، كانت الإدارة الاستعمارية تصدر ما تبقى لهم من حقول الزيتون

¹ - سعيد مزيان، السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السّكان منها 1871-1914م، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2009، ص 221-225.

² - نفسه، ص 225-226.

³ - نفسه، 218.

والثّنين، لتتبعها بعد ذلك للمستوطنين¹! ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إنّ فرنسا تبادت في إذلال الأهالي، فكانت تسخرهم في بعض الجهات لقطع الأحراش والغابات وتهيئة الأراضي لبناء المستوطنات، وإقامة المزارع التي ستكون من حظّ الوافدين الجُدد².

ولم تكف فرنسا بمصادرة الأراضي الفلاحية لإقامة القرى الأوربية، بل إنّها صادرت الغابات أيضاً، وضمّتها إلى أملاك الدولة، وأعطت للأوربيين حق استغلالها، في حين حُرّم الأهالي بمقتضى قانون الغابات الذي صدر سنة 1874م من الرعي في الغابات، وجمع الحطب منها، والاستفادة من أخشابها للبناء³. ولأنّ الغابات تشكل نسبة هامة من المساحة الإجمالية للمنطقة، فقد أصبحت قبائل بأكملها واقعة تحت رحمة هذا القانون الذي نصّ على الكثير من المخالفات التي يُعاقب عليها الأهالي. فعلى سبيل المثال إذا عُثر على عنزٍ في الغابة وجب أن يُباع القطيع لدفع الغرامة وثن المحضر والمصاريف، وإذا شاهد حارس امرأة مسكينة تحمل حزمة حطب عنّف بها حالاً، ولاحقها وأدانها، بل أودعها السّجن إن لم تستطع في الإبتان تسديد الغرامة التي فُرضت عليها⁴.

وطبيعي - بعد كل هذا - أن يصبح وضع الأهالي، في ظل هذه السياسة الاستعمارية، كما جاء في عريضة وجّهتها إحدى جماعاتهم إلى الحاكم العام "تيرمان" (Tirman): «.. لقد استحال علينا الحصول على الحطب لطهي طعامنا، والخشب لإصلاح مساكننا. أراضينا الزراعية ليست إلّا قطعاً صغيرة تقع وسط الغابة، ولا نستطيع الوصول إليها إلّا بتحمل عقوبات غالباً ما تنتهي بمصادرة ما بقي من أملاكنا، ومن يرفض دفع الغرامات تُصادر ماشيته ثم تُباع، ومن لا يملك شيئاً يُسجن حتى يدفع عنه أهله. أطفالنا يموتون من الجوع، ونساءنا يُعاملن معاملة سيّئة من قبل حراس الغابات "Gardes champêtres"، وماشيتنا هزلت لأنها ممنوعة من الرّعي في الغابة. الجميع يعلم أنّ مصدر عيش الأهالي هو ما تنتجه ماشيتهم، وما يعود عليهم من بيع الفحم، فمن أين لنا أن نعيش وقد مُنعنا من رعي ماشيتنا ومن صناعة الفحم؟ والحق أنّنا لا نخاف من رياح "السيروكو" الذي يُهلك محاصيلنا، ولا من الجراد الذي يلتهم أشجارنا، كما

1 - محمد أرزقي فراد، أزفون تاريخ وثقافة، مرجع سابق، ص 21- 22.

2 - نفسه، ص 27.

3 - عن قانون الغابات أنظر: آجرون، الجزائريون المسلمون، مرجع سابق، ص 195 وما بعدها.

4 - شارل أندري جوليان، إفريقيا الشّمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص 128.

نخاف من ظلم حراس الغابات ومضايقاتهم المستمرة، لذلك لم يبق لنا الآن سوى انتظار الموت الذي يخلصنا من هذه المعاناة..»¹!

والخلاصة أنّ سياسة الاستعمار الاستيطانية، وقوانينه التعسّفية، وضرائبه الثقيلة، قد حطّمت الأهالي وأفلستهم، وأرغمتهم على فقدان ما بقي من أملاكهم وأراضيهم حتى « لم يعد الأهالي يجد مكاناً لربط حمار »²، على حدّ تعبير الشّاعر القبائلي "أزيكُو" الذي عاصر هذه الفترة.

4- سياسة فرنسا في منطقة القبائل

عقب فشل ثورة 1871م عملت فرنسا على تحطيم منطقة القبائل تحطيماً شاملاً، فإضافة إلى ما ذكرناه من سياسة التحطيم المادي للمنطقة، عملت أيضاً على تحطيمها وتفجيرها معنوياً، فسعت لإفراغ المنطقة من أعيانها ونخبها الدينية والاجتماعية، فمنهم من قُتل، ومنهم من سُجن، ومنهم من نُفي إلى كاليدونيا الجديدة وغيرها من المناطق النائية، وكان بعض أعيان المنطقة وعلمائها قبل ذلك قد اختاروا - تحت ضغط الاستعمار ومضايقاته - الهجرة ومغادرة البلاد³، مما أدى إلى إفقار المنطقة من منقفيها وقياداتها الروحية والاجتماعية. وعملت فرنسا أيضاً على غلق الزوايا، وفرض الرقابة على ما تبقى منها مع ترويضها لصالحها، وتجريد النظم الاجتماعية التقليدية، خاصة نظام الجماعة (تاجماعت)، من صلاحياته فأسمى وجودها مجرد هيكل صوري يخضع للأوامر الفرنسية، فصار أمناء القرى وقادة الدواوير مجرد مخبرين تتحصر مهمتهم في مراقبة الأهالي وتزويد الإدارة الفرنسية بالمعلومات الخاصة بالأمن العام، وطبّقت القوانين العقارية التي نصّت على تفتيت الملكية الجماعية للأرض ما أدى إلى تحطيم ما تبقى من نظام الجماعة في المجتمع القبائلي! وطبيعي - بعد كل هذا - أن يخلو الجو لفرنسا لتنفيذ

¹ - Emile Violard, *Opcit*, p. 51.

لم يشير المصدر إلى اسم الجماعة التي أرسلت الشكوى، ولا السنة، ومعلوم أنّ "لويس تيرمان" تولى الولاية العامة على الجزائر في الفترة بين: 1882 - 1891م.

² - آجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، مرجع سابق، ص 66.

³ - منهم الشّيخ المهدي السكلاوي البيراتي من آث يران الذي هاجر سنة 1847م، وهو أستاذ الشّيخ ابن الحداد القائد الروحي لثورة 1871م، وقد استقر السكلاوي في دمشق، قال عنه عبد الرزاق البيطار الذي ترجم له في كتابه "حلية البشر في تاريخ = القرن الثالث عشر": "... وقد أخذ عنه كبراء دمشق وعلمائها وحكامها وفضلاؤها، وأخذ عنه الوزير الكبير والمشير العظيم الخطير أحمد عزّت باشا والي دمشق إذ ذاك»، وكان في صحبة السكلاوي ثلة من علماء المنطقة، وتلميذه صالح السمعوني من بني وغيليس بالقبائل الصغرى، وهو والد العلامة الشّيخ الطاهر الجزائري (1852 - 1920م) الذي وُلد بدمشق واشتهر كرائد للنهضة الفكرية في بلاد الشام، وكان من جملة المهاجرين من بلاد القبائل أيضاً محمد المبارك من ناحية نلس. أنظر: المهدي البوعبدلي، الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، جمع وإعداد عبد الرّحمن دويب، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص 48-49.

سياستها الاستعمارية الهادفة إلى فصل المنطقة وأهل المنطقة عن محيطها الوطني بهدف تمزيق الوحدة الوطنية، وفق السياسة الاستعمارية المعروفة "فرّق تسد"، وذلك من خلال ثلاث آليات أساسية، هي:

أ- الكتابات السوسولوجية والأنثروبولوجية المغرضة

لقد اتجهت جهود طائفة من العسكريين والسياسيين ورجال الدين والرّحالين الفرنسيين منذ السنوات الأولى من الاحتلال لاستكشاف منطقة القبائل، فأنتجوا دراسات كثيرة ومتنوعة حول تاريخ المنطقة وحياة سكانها الاجتماعية والدينية¹، روجوا من خلالها لأفكار وآراء أقل ما يُقال عنها أنّها بعيدة عن الحقيقة والواقع، ومع ذلك فقد أُقرّت في الكتب المدرسية، وأدرجت في النشريات التبشيرية، وباركتها الجهات الرّسمية، وحاولت إثباتها وإيجاد أدلة عليها المؤلفات والبحوث الجامعية التي صدرت آنذاك بجامعة الجزائر².

ففي كتابهما الذي صدر سنة 1847م، ذهب الجنرال "دوماس" وزميله "فابار" إلى أنّ السّكان الذين يسكنون أرض الجزائر ليسوا شعباً واحداً، بل هم - في الواقع - شعبان، عربٌ وقبائل، وأنّ ثمة هُوّة عميقة تفصل بينهما، إذ أنّهما لا يتفقان إلاّ على شيء واحد، هو الكره المتبادل بينهما³! وزعم الكاردينال "لافيجري" أنّ البربر ليسوا مسلمين إلاّ بشكل سطحي، والقرآن لم يدخل بعمق في عاداتهم، ولم يدخل في حياتهم العائلية والاجتماعية التي ظلت - حسب - تحكمها القوانين العرفية⁴. ويعترف لافيجري بأنّ البربر آمنوا بالإسلام، وأنّ عقيدتهم بلغت أحياناً درجة التعصب، لكنّهم - حسب - كانوا يكرهون العرب، إذ لم يغفروا لهم أنّهم هزموهم، وطردوهم إلى جبالهم، وحاصروهم فيها⁵! ومن الواضح أنّ لافيجري في كلامه هذا يُناقض نفسه، فبينما يدعي أنّ البربر إسلامهم سطحي، يصفهم في الوقت ذاته بـ "التعصب الديني" الذي يعني شدة تمسّكهم بالإسلام،

¹ - أحصى منها العقيد "ماسكوري" (Masqueray) في كتابه (تكوين المراكز الحضرية للسكان المستقرين بالجزائر: قبائل جرجرة والأوراس وميزاب) الصادر سنة 1886م ستمائة (600) عنوان عن منطقة القبائل وحدها، ومائة وسبعين (170) عن منطقة الأوراس. نقلاً عن: سعيدوني، في الهوية والانتماء الحضاري، ص 175. وأورد الكاتب قائمة لأهم هذه الكتابات.

² - سعيدوني، الجزائر منطقات وفاق، مرجع سابق، ص 81.

³ - Daumas et Fabar, *La Grande Kabylie études Historiques*, Paris, 1847, p.75.

⁴ - Direche-Slimani Karima, *Chrétiens de Kabylie 1873-1954, Une action missionnaire dans l'Algérie coloniale*, ENAG, Alger, 2010, p. 33.

⁵ - *Ibid*, p. 34.

ورسوخ عقيدته فيهم، وقد اعترف بهذا غير لافيغري من رجال الاستعمار، مثل "مونتاني" (*Montagne*) الذي قال: « إنَّ تشبَّث "البربر" بدينهم غالباً ما يُعد أقوى وأشدَّ من تشبَّث العرب به »¹. وكما روج هؤلاء لفكرة الأصل المسيحي "للبربر"، روجوا أيضاً لفكرة الأصل الأوربي لهم، وفي هذا خلُص "دوماس" وزميله إلى أنه « كلِّما حفرنا هذا الجذع القديم، وجدنا تحت القشرة الإسلامية الأصول المسيحية، فعرَّفنا بذلك أنَّ "القبائل" جرمانيو الأصل، كانوا في الماضي على المسيحية.. »².

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الكتابات الفرنسية الأولى حول المنطقة حاولت أن تعطي صورة القبائلي المتوحَّش والهمجي، ولكن سرعان ما ارتكزت على أطروحة التناقض والتعارض بين القبائل والعرب، فبينما تُنسب للعربي كل نقيصة، يُوصف القبائلي بأنه «.. ذكي، محب للتطوُّر، غير بعيد عن الأخذ بعاداتنا، وتقاليدينا، وطريقة حياتنا »³. وأتته «.. عامل مجتهد، يتحلى بروح المغامرة، وبالحنس العملي، منبسط وذو حيوية وانسراح.. اقتصادي، نزيه، فضولي، ويشبه في مظهره الجسمي الأوربي والفرنسي بشكل خاص.. »⁴.

بمثل هذه الآراء التي روج لها عسكريون ومدنيون سخَّروا أقلامهم لخدمة الاستعمار، تكوَّنت لدى الفرنسيين قناعات تتلخص في إمكانية فصل سكان منطقة القبائل عن باقي الجزائر، ما جعلهم يؤمنون بضرورة أن يكون لفرنسا "سياسة قبائلية"⁵ أو "سياسة بربرية" في الجزائر، وفي إطار هذه السياسة ركَّز الفرنسيون على دراسة الأعراف والتقاليد القديمة لسكان المنطقة، وأنشأوا كرسياً "للغة البربرية" في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، كما أنشأوا فرعاً في مدرسة الجزائر اهتم بدراسة هذه اللغة⁶ مع استعمال اللغة الفرنسية لتعليمها وكتابة الثقافة الشفوية التي تحملها، وهو ما عمق ظاهرة التفرنس في خريجي هذا الفرع،

¹ - شارل روبير أجرون، المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، ترجمة وتقديم محمد العربي ولد خليفة، منشورات تالة، ص 47.

² - *Daumas et Fabar, Opcit, p. 77.*

³ - *Jules Liorel, Kabylie du Jurjura, Paris, 1892, p.537.*

⁴ - أجرون، المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، مرجع سابق، ص 49-50.

⁵ - إنَّ هذه السياسة الرامية إلى تنصير القبائل وفرنستهم وفصلهم عن باقي الجزائريين بقيت، رغم الجهود المبذولة، مجرد فكرة إيديولوجية، وخطَّة سياسية استعمارية غير واقعية ومستحيلة التحقيق، لذلك عُرفت لدى العديد من الدارسين للسياسة الفرنسية في الجزائر بـ "الخرافة القبائلية" (*Le Mythe Kabyle*)، وكان في طليعة من حلَّ هذه السياسة المؤرِّخ الفرنسي "شارل روبير أجرون".

⁶ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998، ص 321.

وكوّن فيهم هوية "بربرية" معادية للعربية والإسلام، ومتقبّلة للثقافة الفرنسية. ومنذ 1874م تم استبدال القانون الإسلامي الذي كان سائداً في منطقة القبائل بالأحكام العرفية في البداية ثم بالقوانين الفرنسية بعد ذلك¹، وهذا بغرض إبعاد أهالي المنطقة عن الدين الإسلامي الذي هو القاسم المشترك الذي يوحد كل الجزائريين ويحفظ كياناتهم وهويتهم، وفرضوا على قضاة الأحوال الشخصية المسلمين في المنطقة تحرير أحكامهم بالغة الفرنسية فقط، خلافاً للقضاة في المناطق الأخرى حيث كانوا يحزرون الأحكام بالعربية²، وحين تأسس للجزائر مجلس محلي يسمى "الوفود المالية" عقب إقرار الاستقلال المالي للجزائر سنة 1898م جعلت فرنسا لأهالي منطقة القبائل تمثيلاً خاصاً بهم، إذ خصّصت لهم ستة ممثلين من مجموع واحد وعشرين ممثلاً في هذا المجلس لكل الجزائريين. وتمشياً مع هذه السياسة قام الحاكم العام "شارل جونار" بإلغاء تسمية "المكاتب العربية" في منطقة القبائل سنة 1904م، وسماها "مكاتب الشؤون الأهلية"³.

هكذا كان الفرنسيون يسعون في كتاباتهم لفصل سكان منطقة القبائل عن باقي الجزائريين الذين اعتبروهم عرباً مختلفين في أصولهم وعاداتهم عن القبائل⁴، ويبحثون عن أدنى اختلاف يمكن أن يستغلوه لإضعافهم وتشتيت وحدتهم، في حين يدّعون أنّ القبائل يشبهون الفرنسيين في أوصافهم، وعاداتهم، وأنهم ينحدرون من أصول واحدة، لكن الملاحظ هو أنّ فرنسا بينما كانت تبالغ في إطراء سكان المنطقة، وتخصّص ببعض الإجراءات التمييزية التي لم يرضوا بها، كانت في الواقع تطبق عليهم قوانينها التعسفية، وتتقل كاهلهم بالضرائب ومصادرة الأملاك، تماماً كما تفعل في الجهات الأخرى من الجزائر، فكل ما ميّزت به هذه المنطقة هو تكثيف عملها التصيري والتعليمي فيها، وهي استراتيجية استعمارية الهدف منها إظهار المنطقة ككيان منفصل ومتميّز عن باقي مناطق الجزائر، لضرب وحدة الشعب الجزائري، ومن ثم تسهيل سيطرتها على البلاد⁵.

1 - محمد أرزقي فراد، المجتمع الزواوي، مرجع سابق، ص 83.

2 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، ص 321.

3 - سعيدوني، في الهوية والانتماء الحضاري، مرجع سابق، ص 180. أيضاً: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، ص 321-324.

4 - هذا طبعاً رأي يجافي الصواب ولا يثبت أمام حقائق التاريخ.

5 - يقول أحد الفرنسيين: « إنّ منطقة القبائل هي مفتاح الجزائر، فحين تكون هذه المنطقة الجبلية هادئة وباقي الجزائر يشتعل ثورة، فإنّ سيادتنا لن تكون في خطر، وعلى العكس من ذلك، حين تشهد هذه المنطقة ثورة عامة، فإنّ هذا يحتاج جهوداً

ب- سياسة التنصير

منذ بداية الاحتلال عملت فرنسا في الجزائر، وبدوافع دينية صليبية حاقدة، على الاستيلاء على المساجد والزوايا وتحويل الكثير منها إلى كنائس ومراكز للشرطة والجيش وحتى اسطبلات لخيول الحرس المتجول¹، كما عملت على اضطهاد وتشريد العلماء والأئمة والفقهاء، ومصادرة الأوقاف الإسلامية التي يُنفق منها على المؤسسات الدينية والمشرفين عليها. وبينما كانت فرنسا تحارب الإسلام بهذا الشكل، كانت تشجّع رجال التبشير المسيحي للقدوم إلى الجزائر لتنصير أهلها، مستغلين في ذلك المجاعات والأوبئة التي حلت بالجزائر، فبينما كان الموت يحصد الأرواح في كل مكان، كان رجال الكنيسة يقدمون خدماتهم الإنسانية للجزائريين، فيطعمون الجوعى، ويسعفون المرضى، ويجمعون اليتامى في ملاجئ خاصة، كل ذلك بغرض إدخالهم في المسيحية، لأنّ هذا - في رأيهم - هو الطريق الوحيد لفرنستهم وجعلهم يقبلون بالوجود الفرنسي ويتوقفون عن الثورة عليه².

وبالنسبة لمنطقة الزواوة أو القبائل بدأت سياسة التنصير فيها حين أرسل الأب "كروزات" (*Creusat*) إليها سنة 1863م، حيث أقام كنيسة بالأربعاء ناث إيراثن وأخذ ينشط على مستوى قرى المنطقة، فأجرى اتصالات مع شيوخ الزوايا، وتعلّم القبائلية وتعرّف على عادات السّكان كي يسهل عليه التغلغل في وسطهم، وأقام مدرسة جعلها ملجأً للأيتام جمع فيه حوالي عشرين طفلاً، وبعد أن مهّد لأهدافه التبشيرية بالأعمال الخيرية، أخذ يحدث

كبيرة للقضاء عليها». وعقب "جول ليورال" الذي أورد هذا القول بقوله: «ولهذا، فإنّ منطقة القبائل يجب أن تكون معنا مادياً وروحياً». أنظر: Jules Liorel, *Kabylie du Jurjura, Opcit, p.8.*

¹ - يحيى بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 67.

² - يُستخلص من تصريحات رجال التنصير وحتى العسكريين الفرنسيين، أنّ هدف المنصرين في الجزائر ليس هداية الجزائريين إلى ديانة صحيحة تُدخل صاحبها الجنة، وإنما الهدف هو جعل هذا الجزائري يقبل بالوجود الفرنسي ويتوقّف عن الثورة والمقاومة، أي أنّ الهدف سياسي دنيوي وليس ديني روحي! من ذلك قول الجنرال بيجو للأب "بريمولت" وهو يقدم له مجموعة من أطفال المسلمين في ملجأً لليتامى: «حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين، فإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار». (خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية، ص 62). وهذه المقولة التي تُنسب للعديد من الشّخصيات الفرنسية: «إنّ العرب لا يُطيعون فرنسا إلّا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يُصبحوا فرنسيين إلّا إذا أصبحوا مسيحيين». (سعيدوني، الجزائر منطلقات، ص 75). والواقع أنّ الفرنسيين قد أدركوا أنّه لن يستتب لهم الوضع، ولن يقر لهم قرار في الجزائر، ما دام في صدور الجزائريين عقيدة الإسلام، تلك العقيدة التي كانت وراء اندفاع الجزائريين لمقاومة جيوش الاحتلال ببسالة رغم تقوّق أسلحته، لذلك سعوا لمحاربة هذه العقيدة واستبدالها بالعقيدة المسيحية.

السكان عن الديانة المسيحية¹، غير أنّ عمله هذا لم يصادف أيّ نجاح، فقد كان سكان القرى يرفضون إقامة المبشرين بينهم، ويبدون نفورهم من نشاطهم التنصيري². وقد اعترف الكولونيل "هانوتو" بفشل مساعي "كروزات" التنصيرية في المنطقة، وقال بأنه لم يسجل حالة تنصير واحدة بالرغم من الجهود التي بذلها مدة خمس سنوات³! ومن المعروف أنّ أحد الأسباب الرئيسية لثورة 1871م في منطقة القبائل هو نشاط المبشرين في المنطقة، وشعور السكان بخطر هذا النشاط الذي يهددهم في أعلى شيء بالنسبة إليهم وهو دينهم.

هذا وقد تجدد نشاط المبشرين وعرف انطلاقاً كبرى في المنطقة بعد قمع ثورة 1871م، ومما ساعد على ذلك انتصاب النظام المدني في الجزائر، وتعيين الأدميرال "دوقيدون" حاكماً عاماً عليها، وهو كاثوليكي متحمس، وصديق للكاردينال "لافيجري"⁴، مما سهّل مهمة هذا الأخير في الحصول على الإذن والدعم لإنشاء مراكز تبشيرية في منطقة القبائل، وهكذا تم فيما بين 1873 و1876م إنشاء خمسة مراكز للآباء البيض في كل من: توريرت عبد الله بواضية، ثاقمونت عزوز بآيت عيسى، بونوح بآيت إسماعيل (بوغني)، آيت الأربعة بآيت يني، واغزن بآث منقلات (عين الحمام)⁵.

كان "لافيجري" من المقتنعين بفكرة قابلية سكان منطقة القبائل للاندماج في فرنسا، ومن المتحمسين لها، لأنّ الدم الروماني المسيحي يجمع بين الفرنسيين والقبائل، ولأنّ القبائل إسلامهم سطحي، وبالتالي من السهل إعادتهم إلى ديانة أجدادهم⁶! وكان يحدوه أملٌ كبير

¹ - خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1870، مطبعة دحلب، الجزائر، 1992، ص 142.

² - من ذلك موقف سكان قرية "آيت فراح" التي ركز فيها "كروزات" نشاطه، فقد جمعهم أمين قريتهم "الحاج لونيس نايت علي عمر"، وسألهم بمحضر الكولونيل "مارتان" عما إذا كانوا يرغبون في اعتناق المسيحية، ويقبلون إقامة "كروزات" في قريتهم؟ فكانت إجابتهم: « لن نتخلى أبداً عن ديننا، وإذا ما أصرت الحكومة على إجبارنا على ذلك فإننا سنطلب منها منحنا وسيلة لمغادرة البلاد، وإذا لم نجد وسيلة فخير لنا أن نموت من أن نعتق دينكم.. وفيما يخص طلب هذا القس بأن نقبل إقامته بيننا، فليحفظنا الله من ارتضاء ذلك.. وإذا ما جاء يستقر في قريتنا فإننا سنخرج منها نحن!»! وحدث مثل هذا في بني يني، وغيرها من القرى. أنظر: أجرون، المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، ص 59. أنظر أيضاً: خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص 143-144.

³ - خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص 146، 151.

⁴ - الكاردينال "لافيجري"، (1825 - 1892م) عين على رأس أسقفية الجزائر في أواخر سنة 1866م، اشتهر بحماسه ويعمله من أجل تنصير المسلمين في إفريقيا. أسس جمعية مبشّري إفريقيا المعروفة بفرقة "الآباء البيض" (*Les pères blancs*) (1868م) التي نشطت في الجزائر، وخاصة في منطقة القبائل.

⁵ - محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 183-184.

⁶ - *Direche-Slimani Karima, p. 33-35.*

وهو إحياء المسيحية التي اندثرت في الجزائر، يقول في إحدى خطبه: « فعلى قمم الأطلس، التي تُكوّن مع بقايا اللّبيين والبربر أكثرية السّكان الأهالي، توجد بقايا ذرية المسيحيين، إنّه "لبنان" إفريقيا، لكنه لبنان تخلّت عنه أوروبا فاندثرت فيه المسيحية شيئاً فشيئاً. لقد كان علينا، منذ اليوم الأوّل، أن نلقي على هذه الجبال والسّهول صرخة الخلاص، علينا أن نقول لها: "إفريقيا المسيحية، اخرجي من قبرك"!.. ليعرف أبناءك من جديد تاريخك، ويعرف أنّنا ما جننا إليهم إلّا لنعيد إليهم النور، ونستعيد لهم المجد والشرف الذي كان لهم في الماضي»¹.

وعلى ضوء التجربة التي خاضها من قبل "كروزات" في المنطقة، حاول "لافيجري" أن يحدّد برنامجاً من عدة نقاط ليسير عليه المبشّرون: أن تنصب جهودهم لا على التنصير الفردي لصعوبة ذلك، وإنما على التنصير الجماعي، أي تنصير القرية بأكملها، وأن يتظاهر المبشّر بمظهر التدين حتى يحوز احترام السّكان²، وأن يتعلم اللّغة القبائلية ويندمج وسط السّكان، وأن يتحلّى بالصّبر والتسامح وتقبل الشّتم والسّب، وأن يسعى لجلب السّكان بواسطة الأعمال الخيرية، كزيارة المرضى في القرى للمعالجة، وتعليم الأطفال، مع عدم التعرّض للديانة المسيحية لأنّ ذلك ينقّر السكان ويفشل المساعي التبشيرية³. ولأنّ التعليم يستهدف فئة الأطفال التي يسهل التأثير عليها، على عكس الكبار الذين لم تُجد معهم كل المحاولات التنصيرية، فقد أسّس المبشّرون مدارس بكل مراكزهم⁴، كما ركزوا على الأعمال الطّبية كوسيلة للتأثير على السّكان، وتم استقدام الراهبات (الأخوات البيض) إلى المنطقة لتسهيل الوصول إلى العائلات المسلمة⁵. وتوالى - بعد ذلك - إقامة الكنائس والمدارس التبشيرية عبر كامل منطقة القبائل، حتى بلغ عددها في آخر القرن التاسع عشر ثلاثين كنيسة بالمنطقة، وسبعة عشر مدرسة تبشيرية موزعة على العديد من قرى المنطقة يتعلم فيها 2158 طفلاً⁶، بالإضافة إلى عدد من الملاجئ والمستشفيات.

¹ - Ibid, p. 34.

² - بلغ بهم الأمر أن أصبحوا يرتدون اللباس الأبيض بدل الأسود الذي يُعرف به رجال الكنيسة، وهذا تشبهاً بشيوخ المسلمين لتجنب نفور السكان منهم.

³ - خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص 155.

⁴ - نفسه، ص 157.

⁵ - محمد الصّغير فرج، تاريخ تيزي وزو، ص 184.

⁶ - ناصر الدين سعيدوني، في الهوية والانتماء الحضاري، مرجع سابق، ص 185.

وهكذا نشطت الحركة التبشيرية نشاطاً عظيماً، وتوغّلت في جبال جرجرة، فدخلت البيوت، وتحدثت المشاعر والعقائد، وقامت بدور الواعظ الديني، والطبيب، والمحسن، والمعلم، في حين كانت الزوايا والمدارس القرآنية تختفي وتتدنثر، لكن رغم هذه الجهود فإنّ الحركة التصيرية في منطقة القبائل لم تحقق نتائج أكثر من التي تحققت لها في المناطق الأخرى، وهو جلب بضع مئات من الأفراد الذين أقبلوا على اعتناق المسيحية فنبذتهم عائلاتهم، ورفضهم المجتمع القبائلي واعتبرهم كفاراً لا يجوز التعامل معهم، بل لا يُسمح لهم بأن يُدفنوا في مقابر المسلمين¹. وقد حُصّل "شارفيريات" (*Charveriat*) الذي زار منطقة القبائل بعد ستة عشر عاماً من تواجد الآباء البيض بها إلى نتيجة مفادها: « يستحيل التصير الفردي، وما يمكن الاعتماد عليه هو التصير الجماعي، والسبب في ذلك هو الروابط التي تربط الفرد بمجمعه وقرينته، والتي تجعله غريباً مبعداً عنها، إن ارتد عن دينه². والحقيقة أنّ ما ذكره "شارفيريات" هو أحد العوامل التي أدت إلى فشل سياسة التبشير، أما العامل الأساسي فهو الإيمان العميق الذي كان يميّز سكان المنطقة والجزائريين عامة، إذ مهما بلغت بهم الأمية والفقر، فإنّهم يعتقدون دائماً أنّ الدين الحق هو الإسلام وليس النصرانية المحرّفة، لذلك كانوا يُفضّلون الموت جوعاً على أن يتخلوا عن دينهم. وهذا ما اكتشفه "ليونار بارليت" (*L. Barlete*)، وهو أحد رجالات الاستعمار، وشهد به، حيث قال في سنة 1913م، وهو يتحدث عن بلدة ذراع الميزان التي عمل فيها طويلاً، وكتب عنها: « إنّ الإسلام هنا منطبع ومنقوش العمق، مما يجعل إزالته ليس بالأمر الهين في المدى القريب³.

ج - التعليم الفرنسي

عُرفت منطقة القبائل - قبل الاحتلال - بكثرة مؤسّساتها التعليمية المتمثلة في الزوايا والمدارس القرآنية، وبكثرة الأوقاف المحبوسة لصالح هذه المؤسّسات، وعُرفت أيضاً بحرص أهلها واهتمامهم بتعليم أبنائهم، ما أدى إلى انتشار التعليم بين سكانها خاصة الرجال⁴. وهذا

1 - نفسه، ص 185.

2 - خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص 158.

3 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998، ص 210.

4 - ذكر "هانوتو" أنّه لم يكن بين الرجال في المنطقة من لا يعرف القراءة إلاّ القليل النادر، وعكس ذلك بالنسبة للنساء، فإنّ الأمية في أوساطهن منتشرة جداً. أنظر:

- A. Hanoteau, A. Letournoux, *la Kabylie et les coutumes kabyles*, T3, Paris, s.d, p.106.

التعليم رغم نقائصه¹ فقد كان يوفر الحد الأدنى من العلم والثقافة للمجتمع، ويحفظ له ذاته في وجه الغزو التصيري الذي جاء في أعقاب الغزو العسكري للمنطقة، لذلك فقد اعتبرته فرنسا عقبة تقف أمام سياستها، وخطراً يهدد وجودها في المنطقة، ورأت في المؤسسات الدينية والتعليمية قلاعاً للصمود ورفض الاستعمار وسياسته التصيرية، لذلك سعت الإدارة الاستعمارية لمحاربة هذا التعليم، بمصادرة أوقافه، وتشريد رواده من الطلبة والمدرسين، وإغلاق الكثير من مؤسساته، حتى أنّ بعض حكامها المحليين كانوا يفخرون بكون بلديتهم لم يعد يوجد بها أية مدرسة قرآنية². أما ما بقي من هذه المؤسسات فقد وضعته الإدارة تحت الرقابة، وتدخلت في مناهجها التعليمية، فمنعت تدريس التاريخ، وتفسير القرآن، كما منعت تدريس باب الجهاد في الفقه³! وطبيعي بعد كل هذا أن يتدهور التعليم، ويصل إلى أدنى مستوياته مع نهاية القرن التاسع عشر، وهذا بشهادة الفرنسيين أنفسهم⁴.

وفي مقابل هذا، وبناءً على ما توصلوا إليه من دراستهم لخصائص سكان المنطقة وعاداتهم، رأى الفرنسيون أنّ الأرضية مهيئة في المنطقة لنشر التعليم الفرنسي، وأنّ الدخول التدريجي للغة فرنسا وأفكارها وتطورها الصناعي والتجاري في المنطقة، سيوصل إلى إدماج سكانها في فرنسا بطريقة سريعة⁵. وكتب "ماسكوراوي" يوماً قائلاً: « إذا صدق عزمنا، فإنّ بلاد القبائل ستتحول، في ظرف جيلين، وتصير فرنسية، ويكفي لتحقيق ذلك أن نعيّن معلماً في كل

¹ - فهو تعليم يركز على علوم الدين واللغة، ويهمل العلوم الأخرى كالتب والكيمياء، كما غلب عليه الحفظ وترديد ثقافة وعلوم السلف دون أي إضافة أو اجتهاد وتجديد، وهذا هو التعليم السائد في الجزائر والعالم الإسلامي عموماً!

² - آجرون، الجزائريون المسلمون، مرجع سابق، ص 616.

³ - ضيقت فرنسا الخناق على التعليم العربي الإسلامي بقرارات تعسفية مثل قرار 1892م، وقرار 1904م القاضيان بعدم السماح لأي معلم جزائري أن يفتح مدرسة لتعليم العربية دون الحصول على رخصة من الإدارة الفرنسية، وهذه الرخصة لا تُعطى إلا لمن يُثبت ولاءه لفرنسا، ويلتزم ببعض الشروط، منها ألا يُدرّس غير القرآن مع الامتناع عن تفسير آياته وخاصة التي تتحدث عن الجهاد، والقصد من ذلك هو تحويل التلاميذ إلى بباغوات يحفظون الآيات والسور القرآنية عن ظهر قلب دون أن يفهموا شيئاً من معانيها. ومن الشروط كذلك ألا تستقبل هذه المدارس الأطفال إلا بعد انتهاء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية! أنظر: يحيى بوعزيز، سياسة التسلط، مرجع سابق، ص 60-61. أيضاً: عبد القادر حلّوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص 193.

⁴ - شهد بذلك مثلاً "إيميل كومب" الذي جاء إلى الجزائر ضمن لجنة التحقيق لمجلس الشيوخ سنة 1892م، وقد قال بعد أن وقف بنفسه على وضعية التعليم الأهلي: «.. فكانت نتيجة انتصار أسلحتنا أن تفرّق الشيوخ والطلبة، وإضمحل التعليم العالي!» وهذا بعد أن اعترف بانتشار التعليم في الجزائر قبل الاحتلال. أنظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، الجزائر، 1984، ص 300.

⁵ - Jules Liorel, *Kabylie du Jurjura, Opcit*, p.39.

قبيلة (عرش) «¹. وتماشياً مع هذه الرؤية التي روج لها دعاة المشروع الاستعماري في منطقة القبائل، قرّرت الحكومة الفرنسية التي كان يرأسها "جول فيري" (Jules Ferry) إنشاء أربع مدارس عمومية سميت بالمدارس الوزارية، تم بناؤها في القرى التالية: تامازيرت، جمعة صهاريج، تيزي راشد، تاوريرث ميمون²، ارتفع عددها في سنة 1884م إلى ستة مدارس، وبلغ عدد التلاميذ المسجلين فيها في آخر السنة المذكورة 800 تلميذ³. وذكر تقرير فرنسي أنّ مجموع التلاميذ الذين استفادوا من التعليم الفرنسي في منطقة القبائل سنة 1909م كان حوالي 12051⁴.

لقد تم إنشاء هذه المدارس وسط عراقيل كبيرة أثارها المستوطنون ونوابهم، فقد كان هؤلاء مبدئياً ضد فكرة تعليم الأهالي⁵، سواءً في منطقة القبائل أو في غيرها من مناطق الجزائر، فهم يريدون «إبقاء الأهالي في حالة الجهل والأمية، حتى لا يشكّلوا خطراً على أسيادهم الأقل عدداً!»⁶، وحتى لا يفقدوا اليد العاملة الرخيصة، وقد رفض حكاهم المحليين الاستمرار في بناء المدارس «لجموع الحفاة العراة في وقت هم في أمس الحاجة إلى مدّ الطرقات المؤدية إلى مساحات الاستيطان»⁷، وهذا رغم تحمّل حكومة باريس الأعباء المالية لإنشاء هذه المدارس⁸.

¹ - آجرون، الجزائريون المسلمون، مرجع سابق، ص 612.

² - محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 73.

³ - آجرون، الجزائريون المسلمون، مرجع سابق، ص 616.

⁴ - عبد القادر حلّوش، سياسة فرنسا التعليمية، مرجع سابق، ص 89.

⁵ - محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 183.

⁶ - Charles Robert AGERON, *Histoire de L'Algérie Contemporaine, T2, 1^{ère} éd, Paris, 1979, p.166*.

⁷ - آجرون، الجزائريون المسلمون، مرجع سابق، ص 622.

⁸ - لذلك فإنّ التعليم الفرنسي لم يشمل إلا نسبة قليلة من أبناء الجزائريين، فالأرقام الخاصة بالتعليم الابتدائي في الجزائر ككل تدل على أنّ هذا التعليم لم يكن يستوعب في مطلع القرن الـ 20 سوى 3.5% من الأطفال الجزائريين الذين هم في سن الدراسة سنة 1902م، و4.7% سنة 1912م، مع العلم أنّ أغلب هؤلاء المحظوظين لم يكونوا يتّمون دراستهم الابتدائية، مما جعل التعليم الثانوي بالنسبة للجزائريين ضئيلاً جداً، إذ كان عدد تلاميذهم في هذه المرحلة التعليمية سنة 1900م 86 تلميذاً، ارتفع إلى 180 سنة 1914م (Ageron, *Histoire, T2, op.cit, p.163, 167*)، أما حظ الجزائريين في التعليم العالي فيكفي أن نعرف أنّ عددهم في سنة 1908م كان أقل من 50 طالباً، ارتفع إلى 100 طالب سنة 1929م! (غي، برفيلي، النخبة الجزائرية الفرانكوفونية 1880-1962، ترجمة محمد الحاج مسعود، دار القصة، الجزائر، 2007، ص 29-30).

أما الأهالي فقد استقبلوا هذه المدارس في بداية تشييدها بشيء من الاستغراب والحذر، وتساءلوا عن النوايا الحقيقية للإدارة وراء مبادرتها التعليمية، ثم تحول هذا التحفظ إلى معارضة علنية عندما لاحظوا أن فتح مدرسة فرنسية يقابله في كل مرة غلق زاوية أو مدرسة من مدارس تحفيظ القرآن¹، كما لاحظوا أن هذه المدارس الفرنسية يقتصر تعليمها على اللغة الفرنسية وثقافتها مع غياب تام لتعليم القرآن واللغة العربية في مقرراتها، لذلك فقد رفض السكان إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس خوفا من سموم الاستعمار التي تستهدف عقول أبنائهم وقلوبهم البريئة، ما جعل المفتش "شاربونو" (Cherbonneau) يقترح إحقاق "معلم" بكل مدرسة يتولى تدريس القرآن²، لكسب ثقة الآباء حتى يرسلوا أبناءهم للدراسة، وقد أكد تقرير لجنة مجلس الشيوخ لسنة 1892م أن « موضوع إدخال اللغة العربية في المقررات المدرسية كان محل انشغال الشرائح المستجوبة، وخاصة في منطقة القبائل، حيث طالبوا بها بإلحاح كبير »³، لكن يبدو أن الإدارة الفرنسية لم تستجب لهذا المطلب، كما لم تستجب لممثلي منطقة القبائل في "مجلس الوفود المالية" حين طالبوا بإنشاء مدرسة في بجاية على غرار المدارس الشرعية الفرنسية في كل من تلمسان وقسنطينة والعاصمة⁴.

هكذا وقف أهالي منطقة القبائل موقف المعارض والمقاطع للتعليم الفرنسي، لكن بعد عقود من الزمن أخذ موقف أكثرهم يلين، لكن مع ذلك ظلوا - كما كانوا دائما - حريصين جدا على تحصين أبنائهم دينيا، بتعليمهم القرآن واللغة العربية في صغرهم، وثمة شواهد كثيرة يمكن أن نسوقها هنا، منها أن القانون العرفي لقرية "إغيل فيكن" قد وضع تحت طائل العقوبة (غرامة مالية) كل من يهمل تعليم ابنه القراءة بعد مرور سنة واحدة على تغيير أسنانه⁵، ونص على مثل هذا قانون قرية "الشرفة بهلول"⁶، وهي مسقط رأس الشيخ الرزقي الشرفاوي. ويُلزم القانون العرفي لقرية "تيفاردوت" كل الأبناء في سن الخامسة على التردد على المدرسة القرآنية، سواء التحقوا بالمدرسة الفرنسية أم لم يلتحقوا⁷! وروى لي الشيخ "وُغلي بلخامسة"¹ من مدينة عزازقة، أن والده رفض

1 - محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 182.

2 - آجرون، الجزائريون المسلمون، مرجع سابق، 614.

3 - جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، مرجع سابق، ص 131.

4 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، مرجع سابق، ص 324.

5 - A. Hanoteau, A. Letournoux, T3, Opcit, p.330- 331.

6 - Mohand Tazrout, histoire politique de l'Afrique du nord, Parais, 1961, p.116.

7 - Hocine Ait Ahmed, Mémoire d'un combattant, l'esprit d'indépendance 1942- 1952, édition Bouchène, Alger, 1990, p.11.

إدخاله هو وإخوته المدرسة الفرنسية لأنّ جدهم أوصى بذلك، ولأنّ شاع بين الناس أنّ الذين درسوا الفرنسية لم يعيشوا طويلاً².

في الأخير نقول، رغم حجم الاستثمار الثقافي المرّكز الذي قامت به فرنسا في منطقة القبائل، فقد فشلت في تحقيق هدفها المنشود، وهو سلخ سكان المنطقة عن هويتهم ووطنيتهم، وإدماجهم في ديانتها وثقافتها، فأغلب الذين ارتادوا هذه المدارس لم يجتازوا المرحلة الابتدائية، وقد أفادهم الرصيد البسيط الذي أخذوه في المدرسة الفرنسية في حياتهم المهنية وفي نضالهم الوطني، وكل ما استطاعت فرنسا تحقيقه هو تكوين نخبة من المثقفين تجهل تاريخها، وتُعادي قيم مجتمعها، ومعجبة بكل ما هو فرنسي، وقد حاولت فرنسا أن تجعل منهم طبقة تخدم مصالحها، فكانت ميول أفراد هذه النخبة المفرنسة تتأرجح بين خدمة الوطن الذي نبتوا فيه، وخدمة الاستعمار الذي تشرّبوا ثقافته وقيمه، وظلّ عامة سكان المنطقة على تمسّكهم بدينهم ووطنيتهم، فكانت المنطقة مثالا للصمود الحضاري ومقاومة تأثيرات الاستعمار، ونموذجاً للنضال الوطني بشقيه: السياسي والإصلاحي، ثم كانت هذه المنطقة إحدى قلاع الجهاد المسلح خلال ثورة التحرير المباركة.

والخلاصة أنّ الشّيخ الشرفاوي ولد ونشأ في فترة عصيبة بالنسبة للجزائر وشعبها، بسبب الوجود الاستعماري الذي بلغ آنذاك ذروته في الظلم والطغيان والجبروت، وتميّزت هذه الفترة أيضا بتراجع المقاومة الوطنية المسلّحة، وبداية ظهور ملامح المقاومة السلمية، وتلك مرحلة جديدة من مراحل كفاحنا الوطني كانت في حاجة إلى نوع جديد من الرجال العاملين، وهم رجال العلم والثقافة، وأرباب الأدب والسياسة. ويشاء القدر أن يشهد أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ميلاد الكثير من أعلام وطننا الذين تصدّوا، بالفكر والقلم واللسان، لسياسة الاستئصال والمحو التي مارسها الاستعمار على مقومات الشّعب الرّوحية والوطنية، وعملوا على تعليم جماهير الشّعب وتوعيتها، وإعدادها فكريا وسياسيا ونفسيا للمعركة الحاسمة. ومن هؤلاء: الأمير خالد، وابن باديس، والإبراهيمي، ومصالي الحاج، وفرحات

¹ - وهو من مواليد 1927م، خريج الزيتونة ومعلم في المدارس الحرّة، وهو على قيد الحياة.

² - وعلي بلخامسة في لقائي معه بتاريخ: 2014/02/12م. وأسجل هنا للتاريخ معلومة شفوية وصلنتي وهي: في أول دخول مدرسي بعد استقلال الجزائر، وفي قرية من قرى منطقة القبائل رفض الآباء أن يدرس أبناؤهم اللّغة الفرنسية، ولم يعدلوا عن موقفهم هذا إلاّ بعد تدخل مجاهدي المنطقة الذين بيّنوا لهم أنّ الاستعمار قد رحل، وأنّ الفرنسية هي الآن مجرد لغة تُدرس لاكتساب العلم فقط!

عباس، ومبارك الملي، والعربي التبسي، والسعيد الجري، ومولود الحافظي، ومفدي زكرياء،
ومحمد العيد آل خليفة، وأحمد توفيق المدني، وإبراهيم بيوض، وغيرهم كثير، وقد كان
مُترجمنا الشيخ الرزقي الشرفاوي - الذي تغرب طويلاً في سبيل العلم، ثم عاد إلى الوطن
ونزل إلى ميدان العمل والنضال - أحد أبطال هذه المرحلة النضالية التي مهّدت لثورة
نوفمبر التحريرية.

* * *

الفصل الأول
الشرفاوي: النشأة والدراسة
1877 - 1907م

أولاً- أصله ونشأته

- 1- أصله ونسبه
- 2- اسمه
- 3- ولادته
- 4- مسقط رأسه
- 5- أسرته
- 6- نشأته

ثانياً دراسته الأولى

- 1- بدء دراسته في زاوية القرية
- 2- دراسته في زوايا أخرى بالمنطقة
- 3- شيوخه في الزوايا
- 4- دراسته في مدينة الجزائر
- 5- تأثره بأستاذه المجاوي
- 6- فكرة الالتحاق بالأزهر

ولد الشرفاوي في وطن كان يزرع تحت نير الاستعمار وقهره، ونشأ في أسرة بسيطة فقيرة، فشبَّ وكبُر - مثل جلّ أبناء جيله - في ظروف صعبة للغاية، فيها الكثير من المصاعب التي تشدّ المرء إلى الأرض، وتعوقه عن التطلّع إلى المعالي! فالظروف التي اكتتفت طفولة الشرفاوي وشطراً من شبابه لا تُنبئ أبداً بأنه سيبلغ ما بلغه من مكانة في العلم والمعرفة، خاصة مع سلوك والده الذي قاوم تعليم ابنه، ورأى أنّ بقاءه إلى جانبه في الحقل يرفع الغنم أجدى وأفيد من ارتياده للزاوية للتعلّم!

فإذا كانت المعلومات المتعلقة بهذه المرحلة من حياة الشرفاوي، والتي جمعتها من محيط العائلة، ومن بعض طلبته ومعاصريه، وكذا بعض المصادر المكتوبة، قليلة جداً، لا تسمح بالتبسّط في الموضوع، فإنّ هذا لم يمنع من إعطاء صورة - ولو مجملّة - لحياته في هذه المرحلة، خاصة فيما يتعلق بكفاحه من أجل العلم، إذ أنّ الشرفاوي - فيما يبدو - هو أوّل من ينفلت - من أبناء الأسرة - من دائرة الأمية، ويسلك طريق العلم، في إقدام نادر، وتحديّ عجيب لظروف عصره، إذ كان الجهل والفقر والاستعمار من أكبر العوائق في هذه السبيل!

أولاً- أصله ونشأته

1- أصله ونسبه

ينحدر الشيخ الرزقي الشرفاوي من عائلة (ابن القاضي)¹ التي تُعرف محلياً بـ "آث القاضي" أو "آث لقواضي"²، وهي عائلة عريقة، تنتمي إلى عرش "بني غبري"³، الواقع بنواحي عزازقة بولاية تيزي وزو. ويرتفع نسب هذه العائلة إلى الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي الصنهاجي، الذي برز على الساحة السياسية بالمغرب الأوسط في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وكان له دور كبير في مجيء الأخوين عروج وخير الدين بربروس إلى الجزائر، ثم إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية في هذه الفترة. وقد ترجم له ابن عسكر في (دوحة الناشر) فوصفه بقوله: «.. الشيخ الصالح، العالم بوظائف التشريع والمصالح، أحد أنصار هذا الدين وأئمنته المهتدين، أبو العباس أحمد بن القاضي الزواوي. كان من الفضلاء الأخيار، والصلحاء الأبرار، مجتهداً باذلاً نفسه وماله في إقامة شعائر الدين، وغزو أعداء الله الكافرين..»⁴.

ونقل ابن عسكر قولاً سمعه عن أحد معاصري ابن القاضي، وهو الشيخ أبو محمد الهبطي جاء فيه: «.. ما رأيت فيمن أدركت من المشايخ من كان على الجادة، وجاء بالتربية النبوية على أصلها المعروف من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلا رجلين، الشيخ سعيد بن عبد النعيم في حاحة، والشيخ أحمد بن القاضي بجبل زواوة، وكانا في عصر واحد»⁵.

1 - محمد عبد الرحمن قازو، (نجل الشيخ الرزقي الشرفاوي)، في شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26م. أحمد ساحي، أعلام من زواوة، دار الأمل، تيزي وزو (الجزائر)، 2015، ص 108. يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج 1، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1995، ص 313.

2 - "لقواضي" بصيغة الجمع، تعني بالقبائلية الفضاة.

3 - أو "آث غبري"، ويكتبه العلامة ابن خلدون "بني غبرين". أنظر: كتاب العبر، المجلد السادس، القسم الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت)، ص 262.

4 - محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1977، ص 126.

5 - المصدر نفسه، ص 103.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أحمد بن القاضي قد ذكره كل من اهتم بالتأريخ لهذه المرحلة من تاريخ الجزائر، غير أنّه لا أحد أعطى تفاصيل عن حياة هذه الشخصية التي كان لها وزنها في أحداث هذه المرحلة¹، خاصة فيما تعلق بنشأته وحياته قبل ظهوره على مسرح الأحداث ابتداءً من سنة 1512م! فكل ما نعرفه عنه في هذه المرحلة هو أنّه نشأ ببجاية، وقرأ بها على أعلامها²، وأنّه كان واليا على عنابة من قبل السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد، حسب بعض الباحثين³، أو قاضيا ببجاية حسب باحثين آخرين⁴، وحين سقطت بجاية بيد الاحتلال الاسباني سنة 1510م، كلفه السلطان الحفصي بقيادة جموع الزواوة لتحرير هذه المدينة⁵ التي كانت تابعة لحكم الحفصيين أيضا. وإثر ذلك لجأ ابن القاضي إلى الناحية الغربية من بلاد الزواوة، الموطن الأصلي لأجداده، وهناك أنشأ اتحادا كبيرا من القبائل، وأخذ يهيئ لمواجهة الاسبان.

في هذه الفترة كانت طلائع المجاهدين الأتراك وعلى رأسها الأخوين عروج وخير الدين⁶ قد وصلت إلى الحوض الغربي للمتوسط، وأخبار انتصاراتهم في الغزو البحري قد ذاعت وانتشرت، فتوجّهت إليهم أنظار المجاهدين الجزائريين، وفي مقدمتهم أحمد بن القاضي الذي

¹ - L. Charles Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine, Gigelli, paris, 1870, p.121.*

² - أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، درة الجبال في أسماء الرجال، ج 1، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة، (د-ت)، ص 164.

³ - Said Boulifa, *Le Djurdjura à travers l'histoire, depuis l'Antiquité jusqu'à 1930 organisation et indépendance des Zouaoua (Grande Kabylie) Alger, 1925, 109.*

أنظر أيضًا: نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد العثماني، دار الحضارة، الجزائر، (د-ت)، ص 50.

⁴ - أنظر مثلاً: المهدي البوعبدلي، نبذة تاريخية عن ولاية تيزي وزو، الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، 10-22 يوليو 1973م، المجلد الخامس، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص 2256.

⁵ - أحمد ساحي، أحمد بن القاضي الغبريني، "من أعلام الجزائر"، جريدة الشعب، (الجزائر)، عدد 8321، 3-4 أوت 1990.

⁶ - اتخذ الأخوان من الموائئ التونسية التي أذن لهم السلطان الحفصي باستعمالها منطلقا لهم في مهمتهم المتمثلة في إنقاذ إخوانهم الفارين من الأندلس الذين كانوا عرضة للاضطهاد والمطاردة من طرف الاسبان، وقد تكوّنت لهم قوة بحرية مؤلفة من حوالي ألف بحار وعشر سفن، وهذا قبل قدومهم إلى ساحل بجاية سنة 1512م. (ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، (الأعمال الكاملة)، دار البصائر، الجزائر، ص 25).

كاتب عروج مستجداً، لما رأى البلاد مهدّدة بالخطر الصليبي¹. وفي هذا يقول صاحب (نزهة الحادي): «.. كانت له (ابن القاضي) همّة شديدة في غزو الكفار، وقوّة وشكيمة عليهم.. ولما رأى قوّة شوكة النصارى الكفّار وانتشارهم في بلاد المغرب، وُضعف المسلمين عن مقاومتهم، كاتّب الترك وعرفهم عزّة هذه البلاد لِمَا يسمع من شدّة الأتراك في المعارك، ونجدتهم في الحروب والمضايق، وإرهابهم للكفرة، فقصّد بحسن نيّته أن يرفعوا من عزّة الإسلام ما انخفض، ويُقوّوا من أمره ما ضعّف، وقال: إنّ بلادنا بقيت لكّ، أو لأخيك، أو للذئب. فأقبل الترك نحوه مسرعين، وأخذ هو يحضّ الناس على اتّباعهم، والانخراط في سلوكهم، والسّمع والطّاعة لأميرهم عروج..»².

كان هذا بداية تعاون ابن القاضي مع الأخوين لتحرير الثّغور المحتلة، فقد حارب إلى جانبها منذ سنة 1512م، وخاض معها الكثير من المعارك. يقول شارل فيرو مبرزاً دور ابن القاضي في هذه الفترة: «.. حين هاجم خير الدين مدينة جيجل لاستردادها من الجنوبيين (1514م) كان أحمد بن القاضي في نجدته، وكان النصر الذي حققه على الجنوبيين قد متّن تحالفهما، ومن جيجل التي جُعلت قاعدة انطلاق ذهباً في سنة 1514م إلى بجاية في محاولة ثانية لتحريرها، وهنا ثارت كل القبائل القاطنة بالجبال المجاورة ضد الاسبان بفضل أحمد بن القاضي وغيره من المرابطين القبائل، وأنجدوا عروج وخير الدين بحوالي 20 ألف محارب.. وحين كتب سكان مدينة الجزائر إلى الأخوين لنجدتهم ضد خطر الإسبان، استطاع عروج بفضل مساعدة الأهالي ومنهم ابن القاضي أن يواجه حملة (دييغو دي فيرا) (Diego de Vera) سنة 1516م..»³.

وهذا البلاء الحسن الذي أبلاه ابن القاضي جعل خير الدين يقربه ويثق به، ويرسله في أواخر سنة 1519م كسفير إلى الباب العالي على رأس الوفد الجزائري الذي حمل رسالة أعيان مدينة الجزائر إلى السّلطان العثماني سليم الأوّل، ليشرح له الأخطار المحدقة

¹ - قيل أنّه كاتب أيضا السّلطان العثماني في ذلك. أنظر: أحمد عبد الرّحمن الثّقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار البصائر، ط 2، الجزائر، 2013، ص 31.

² - محمد الصّغير الوفراني المراكشي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة بوردين، أنجي، 1888، ص 17.

³ - L. Charles Féraud, Op.cit, p. 121- 125.

بالبلاد، ويطلب منه - باسم سكان الجزائر - النجدة والحماية¹. والرسالة المذكورة تدل على أنّ خير الدين كان عازما على القيام بنفسه بزيارة السلطان ليناشده تقديم المساعدة حتى يتمكن من تعزيز مراكز الدفاع، ومجابهة الأخطار المحدقة بالبلاد في هذه الفترة العصبية إثر مقتل عروج، غير أنّ أعيان مدينة الجزائر توسّلوا إليه ليبقى بالجزائر خوفا من الأعداء، وقد نصحوه أن يُعيّن أحمد بن القاضي لهذه المهمة، ومما جاء في آخر الرسالة: «.. ولهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرّس سي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد.. وإنّ المذكور حامل المکتوب (الرسالة) سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من حوادث..»².

هذا وقد نجح الوفد في مسعاه، إذ سارع السلطان بتعيين خير الدين حاكما على الجزائر برتبة "بايلرباي"، واعتبر الجزائر، ابتداءً من هذا الطرف، جزءاً من الدولة العثمانية³، ثم إنّ السلطان سرعان ما أمد الجزائر بألفين من جنود الإنكشارية، وعدد من المدافع والذخائر الحربية، وأذن لخير الدين بتجنيد عدد من المتطوّعين ليساعده في حفظ النظام⁴. ونتيجة لنجاح سفارة ابن القاضي كافأه خير الدين بإدارة كامل شرق البلاد⁵.

لكن الملاحظ هو أنّ هذا التحالف الذي كان سائدا بين آل القاضي وخير الدين سرعان ما تحوّل إلى صراع بين الطرفين، فقد شنّ حاكمهم حرباً ضروساً على الأتراك، واحتل مدينة الجزائر مدة خمس سنوات، اضطر خير الدين خلالها إلى الالتجاء إلى جيجل، ولم يتمكن من استرجاع مدينة الجزائر إلاّ في سنة 1527م، أما حاكم آل القاضي فقد انتهى أمره إلى القتل من طرف بعض أنصاره في خيمته، وفي معسكره بنواحي ثنية بني عائشة! ذكر هذا بوليفة⁶ ونكره

¹ - أنظر: عبد الجليل التميمي، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م"، المجلة التاريخية المغربية، (تونس)، العدد 6، جويلية 1976، ص 116 إلى 120. (الرسالة مؤرخة ب: 1 ذي القعدة 925هـ/ يوافق 24 أكتوبر 1519م، وقد عثر عليها التميمي ضمن أرشيف دار الوثائق باسطنبول، وقام بترجمتها من اللّغة العثمانية إلى اللّغة العربية وعلّق عليها، وحسب الباحث فإنّ الرسالة فيها ما يدل على أنّها كتبت في الأصل بالعربية، لكن هذا الأصل مفقود).

² - المصدر نفسه، ص 120.

³ - المصدر نفسه، ص 119.

⁴ - يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 260. أيضا: *De Grammont, histoire d'Alger sous la domination turque (1515- 1830), paris, 1887, p. 35-36.*

⁵ - عبد الجليل التميمي، أول رسالة، مرجع سابق، ص 119.

⁶ -Boulifa, *Op.cit*, p.130.

غيره أيضا¹. وقد أشكل هذا الأمر على معظم الدارسين لهذه الحقبة، فتساءلوا عن السبب الذي جعل ابن القاضي ينقلب من صديق وحليف للأتراك، إلى عدوٍ لدود لهم؟ غير أنّ ما ورد في مذكرات خير الدين بربروس التي تُرجمت من اللّغة التركية إلى اللّغة العربية ونُشرت سنة 2010م كفيل برفع اللبس وتوضيح الموقف. يقول خير الدين: « لقد كان ابن القاضي أحد عظماء العرب في الجزائر، كما كان يُكُنُّ لي قدراً كبيراً من الصّدق والمودة. حاول سلطان تونس أن يُحرّضه للخروج عليّ إلاّ أنّه لم يُوافقه على ذلك، ودعاه إلى لزوم الطّاعة للأتراك والتبعية لهم. الآن توفي هذا الرجل (ابن القاضي) العاقل وحلّ محله ولدٌ طائش يُدعى ابن القاضي أيضا، فكان أوّل ما فعله أن اتّفق مع سلطان تونس على أن يكونا يدا واحدة ضدي.. كانت الرسالة التي بعث بها هذا الولد الشّقي إلى سلطان تونس قد وقعت في يدي، وذلك قبل أن يمضي شهران على وفاة والده، ومما جاء في رسالته: لنكن أنا وإياك يدا واحدة لاستئصال شأفة الأتراك، ونطرد خير الدين من الجزائر.. لقد كان والدي يُحب الأتراك كثيرا، أما أنا فلا يوجد قوم أبغض إليّ منهم»²!

فمن كلام خير الدين يتضح أنّ الذي ثار على الأتراك ليس ابن القاضي الذي استتجد بهم وتعاون معهم، وإنّما هو ابنه الذي يحمل الاسم نفسه، ما جعل الأمر يختلط على المؤرّخين. ويدعم هذا الأمر ما أورده بعض الباحثين من أنّ سلطان تونس الحفصي كان كتب إلى أحمد بن القاضي (الأب) يراوده على نقض عهده مع الأتراك، فردّ عليه ابن القاضي قائلا: « إنّ أباه قد أوصاه بمعاونة الأتراك»³.

والذي نميل إليه في الموضوع هو أنّ أحمد بن القاضي (الأب) قد بقي على إخلاصه للأتراك حتى وفاته⁴، وأنّ ابنه الذي خلفه كان محل مساومات، وترغيب وترهيب من طرف الاسبان الذين انتشوا بانتصارهم على عروج في تلمسان، وسار الحفصيون والزيانيون في

¹-De Grammont, *Op.cit*, p.33.

² - مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد درّاج، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط 1، 2010، ص 109. أنظر أيضا: أحمد ساحي، الزواوة من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر 1512-1767م، تصدير الأستاذ أرزقي شويّام، دار الأمل، تيزي وزو، (الجزائر)، 2015، ص 3-4.

³ - محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980، ص 121. أيضا: أحمد ساحي، مقال أحمد بن القاضي الغبريني، مرجع سابق.

⁴ - لا نعم بالتحديد متى كانت وفاته، لكن بالتحري نرجّح أن تكون بعد وقت قصير من عودته من سفارته، أي ما بين 1520 و1522م.

ركاب الاسبان في مساعيهم لدى ابن القاضي (الابن) لحمله على التخلي عن نصره الأتراك خوفا من رسوخ قدم خير الدين في البلاد، ما جعل الابن ينساق لتلك المساعي، وينهض لقتال الأتراك، عكس والده الذي رأى وجوب طاعة الأتراك العثمانيين الوافدين إلى هذه البلاد من طرف الخلافة الإسلامية العثمانية التي لها حق الطاعة على عموم المسلمين. وهكذا ثار ابن القاضي (الابن) على الأتراك، فكانت النتيجة أن استقل آل القاضي بحكم جزء هام من منطقة زاووة، تحت اسم سلطنة أو إمارة "كوكو" التي كان مقرها في البداية بقرية "كوكو"¹، ومنها استمدت اسمها، ثم انتقلت إلى قرية "أورير" ثم "أشلام"²، وأماكن أخرى في أواخر عهدها، وقد اتسع مجال نفوذها في بعض فتراتنا إلى الجهة الشرقية من منطقة القبائل حتى شملت جغرافيتها ما بين مدينتي جيجل ودلس، أما من الناحية الزمنية فقد استمر وجودها أزيد من قرنين، وحكمها خلال هذه المدة أكثر من عشرة حكام³، وكان بعضهم يحدهو حلم إحياء الإمارة الحمادية الصنهاجية⁴، لولا معارضة قوية لقيتها من إمارة آل العباس أو آل المقراني⁵.

وكانت علاقات إمارة كوكو مع السلطنة التركية غير مستقرة، فتارة سلم، وتارة حرب، ومما يدل على التقارب الذي ساد بين الطرفين في بعض الفترات، المصاهرات المتكررة بين باشوات الجزائر وحكام الإمارة⁶، وكذا تحالفهما إبّان المعارك الكبرى ضد الإسبان، إذ ساهم صاحب كوكو بجنده في تحرير المرسى الكبير سنة 1563م، كما دعم القوات التركية في عملية تحرير تونس سنة 1573م⁷، لكن هذا لا ينفي كثرة الحروب والغارات المتبادلة، بين الأتراك وإمارة كوكو، وبين هذه الأخيرة وجيرانها آل المقراني، فكان من نتائج

1 - وهي من قرى عرش آث يحيى بدائرة عين الحمام (ولاية تيزي وزو).

2 - أورير وأشلام هي من قرى بني غبري.

3 - أنظر أحمد ساحي، الزواوة، مرجع سابق، ص 69-72.

4 - نفسه، ص 77.

5 - إمارة آل المقراني نسبة إلى العائلة التي كانت تحكمها، وآل العباس نسبة إلى مقرها الأول في قلعة بني عباس، قبل تحولها إلى مجانة، وقد استمر وجودها إلى عهد الاحتلال الفرنسي.

6 - هناك على الأقل ثلاثة باشوات أصهار لآل القاضي، تزوجوا بنات حكام كوكو، وهم: حسن بن خير الدين، علج علي، وعلي بتشين. (أنظر: أحمد ساحي، الزواوة، ص 55-56).

7 - نفسه، ص 76.

هذه العلاقات المضطربة مع محيطها، كثرة تقلب أحوال الإمارة، وتغيّر نفوذها من قوّة إلى ضعف والعكس، إلى أن انتهى أمرها حوالي سنة 1767م¹.

ويجدر التذكير هنا أنّ أحمد بن القاضي الذي تُنسب إليه أسرة الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي هو سليل أبي العباس أحمد الغبريني²، قاضي قضاة بجاية، وصاحب (عنوان الدراية)، فحسب العديد من الباحثين فإنّ الغبريني هذا يعتبر الجدّ الأكبر لعائلة آل القاضي، والشّخصية الأشهر من بين رجالاتها المعروفين منذ القرن الثالث عشر الميلادي³، وقد مات مقتولا سنة 1304م، وهذا الحادث المأساوي ذكره ابن خلدون، وخلاصته أنّ الغبريني ذهب في أواخر أيامه في سفارة لحاكم بجاية الحفصي أبي البقاء إلى قريبه ملك تونس، وعند عودته أشاع عنه بعض حسّاده أنّه حرّض سلطان تونس على احتلال بجاية، فرُجّ به في السّجن ثم قُتل⁴! وحسب بوليفة⁵ فإنّ ذرية الغبريني قد حملت منذ ذلك الوقت لقب (ابن

¹ - للمزيد عن تاريخ إمارة "كوكو" والأطوار التي مرّت بها، أنظر: أحمد ساحي، الزواوة، مرجع سابق، ص 38 وما بعدها. محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، ترجمة موسى زمولي، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص 26 وما بعدها. عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، دار الأمة، الجزائر، ط 2010، ص 48 وما بعدها. وبالفرنسية أنظر:

Said Boulifa, Le Djurdjura à travers l'histoire, Alger, 1925, 109 - 184.

² - أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني: عاش بين (644 - 704 هـ/1246 - 1304م)، بدأ تعليمه بمسقط رأسه (بني غبري)، ثم واصله ببجاية. فقيه وقاضٍ ومؤرّخ، شغل وظيفة التدريس في بجاية وجامع الزيتونة بتونس، وتولى القضاء في عدة أماكن آخرها بجاية. يعتبر كتابه (عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية) أهم المصادر التاريخية التي أرّخت للحياة الثقافية ببجاية في القرن السابع الهجري (13م)، إذ ترجم فيه لعشرات العلماء والأدباء والمؤرّخين وغيرهم ممن عرفتهم ببجاية في القرن المذكور. للمزيد عنه أنظر: عنوان الدراية، بطبعاته المختلفة. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط 2، 1980، ص 148-149. أيضا: معجم مشاهير المغاربة، تأليف جماعي، جامعة الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، دت، ص 410-412.

³ - أنظر مثلا: نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص 51. أحمد ساحي، الزواوة من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر، مرجع سابق، ص 38، وفي مقاله: أحمد بن القاضي الغبريني، الشّعب، مرجع سابق. محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 27-28. أيضا: كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 - 1541م، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 25. أيضا: *Boulifa, Op.cit, p. 117.*

⁴ - كتاب العبر، المجلد السادس، القسم الخامس، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، دت، ص 719.

⁵ - *Boulifa, Op.cit, p. 120.*

القاضي) تخليداً لذكرى هذا القاضي الكبير الذي ذهب ضحية وشاية كاذبة¹! ولأنّ هناك علاقة مصاهرة بين الغبريني والأسرة الحفصية التي كانت تحكم في تونس، فقد التجأت أرملته مع ابنها الصغير، إثر تلك النهاية التي لقيها زوجها، إلى القصر الملكي بتونس، فأحسن استقبالها، وكبّر الغبريني الابن وتربى مع أبناء الأسرة المالكة²، فنشأت علاقة متينة بين آل القاضي والأسرة الحفصية، حتى عُرف بعضهم بالتوانسة، كأبي القاسم التونسي المتوفى سنة 1368م، وأحمد التونسي المتوفى سنة 1693م وغيرهما³. ولا شك أنّ هذه العلاقة سمحت لآل القاضي بنسج روابط دائمة مع بني حفص، وأهّلت العلماء من آل القاضي لتولي وظائف هامة لصالح ملوك الأسرة الحفصية ووُلّاتها.

تلك إذن هي عائلة ابن القاضي التي اشتهرت في الماضي بالعلم والجاه، إذ تولى العديد من أفرادها وظائف التدريس والقضاء والإفتاء ومشيخة أشهر معاهد العلم في بجاية وتونس وزواوة، وحتى الجزائر العاصمة وشرشال وتلمسان وغيرها⁴، وبرزت في ميدان الجهاد في مطلع القرن السادس عشر الميلادي حين تعرّضت سواحل المغرب الأوسط لغارات الاسبان، وبرزت أيضاً في مجال الحكم والسياسة حين تأسست لهم إمارة "كوكو" في جبال جرجرة. لكن منذ سقوط الإمارة المذكورة في القرن الثامن عشر أفل نجم العائلة، وذهبت شهرتها. وحسب "لويس رين" فإن عائلة القاضي في أواخر القرن التاسع عشر كانت قد انصهرت ضمن التركيبة السكانية المحلية، ولم يعد لها سوى تأثير محدود في مرتفعات سيباو الأعلى⁵. ومع أنّ اسم القاضي بقي - إلى الآن - تحمله أسر في العديد من قرى القبائل الكبرى وفي بجاية وباتنة وعنابة وفي تونس⁶، فإنّ أسرة الشيخ الرزقي الشرفاوي لم تعد تحمل هذا الاسم، إذ أصبحت تحمل لقب "قازو". و(قازو) هو اللقب الذي أُعطي للأسرة لما أنشأت الإدارة الفرنسية نظام الحالة المدنية للمسلمين الجزائريين في أواخر القرن التاسع عشر، ولا ندري إن كان هذا اللقب من اختيار رب العائلة آنذاك، أم أنّه فُرض عليها، شأن الكثير من العائلات الجزائرية.

1 - أنظر أيضاً: نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، مرجع سابق، ص 51.

2 - محمد الصغير فرج، مرجع سابق، ص 27-28.

3 - أحمد ساحي، الزواوة من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر، مرجع سابق، ص 51 وبعدها.

4 - أحمد ساحي، "أشلام، القرية الآمن أهلها"، جريدة الشعب، (الجزائر)، عدد 8307، 18/07/1990.

5 - Louis Rinn, *Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Alger, 1891, p.10, (note de bas de page).*

6 - أحمد ساحي، "أشلام، القرية الآمن أهلها"، مرجع سابق.

2- اسمه

اسمه الحقيقي كما سُجِّل في الحالة المدنية ببلدية سيباو الأعلى: "قَازُو أرزقي بن محند بن علي أوقَازُو"¹. ويظهر أنّ لقب "قَازُو" الذي حملته العائلة منذ أواخر القرن التاسع عشر مستمد من اسم الجد "علي أوقازو"، على أنّ هذا اللقب اتخذته العائلة للاستعمالات الإدارية، في حين واصل أفرادها، ولفترة طويلة، تبني اسمهم القديم (ابن القاضي) المعروف لديهم.

فالرزقي الشرفاوي نفسه كان أحيانا يضيف لقب (ابن القاضي) إلى اسمه، إذ نجده مثلا في مقدمة كتابه المخطوط "الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزواوية" يورد اسمه كما يلي: ابن القاضي محمد الرزقي الشرفاوي، وكذلك في مقدمة مخطوطه "الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية"، الذي ألفه حين كان بمصر². كذلك فعل نجل أخيه البشير، الذي حمل اسم أبيه، حين كان مناضلا في صفوف الثورة التحريرية، فكان يُعرف ب: قازو المدعو بشير القاضي³. وفي هذا الصدد ذكر لي المرحوم عبد الرحمن قازو، نجل الشيخ الرزقي، أنّه حين أرسلته قيادة الثورة للدراسة في الخارج ضمن بعثة الطلبة سنة 1956م، وطُلب من الطلبة اتخاذ أسماء غير أسمائهم الحقيقية، اختار لنفسه اسم (قاضي)⁴. ومن هنا نفهم كيف احتفظت عائلة الشيخ الشرفاوي إلى الآن، شأن الكثير من العائلات الجزائرية، بذكرى اسمها العائلي الأصلي (القاضي).

هذا عن الاسم الحقيقي لمترجمنا، أما اسمه الذي اشتهر به فهو الشيخ محمد الرزقي الشرفاوي الأزهري، فبهذا الاسم عُرف حين كان أستاذا بالأزهر، وفي الجزائر بعد عودته، وبه كان يوقّع مقالاته في الصحف الشرقية والجزائرية التي كتب فيها. والشرفاوي نسبة إلى قرية "الشرفة" التي وُلد بها، وهي عادة كانت جارية عند طلبتنا وعلمائنا، ويبدو أنّ هذه

¹ - نسخة من الدفتر الأصلي لشهادة ميلاد الرزقي الشرفاوي، رقم 785، الصادرة ببلدية عزازقة، ولاية تيزي وزو، بتاريخ: 2012/06/17م.

² - أنظر الملحق رقم: 13، ص 313.

³ - وحسب ما أفادني به هشام قاضي، نجل بشير قاضي، فإنّ هذا الأخير قد أعاد، بعد الاستقلال، اسمه العائلي في الحالة المدنية إلى "قاضي". (مكالمة هاتفية معه بتاريخ: 2015/03/26). وهو يريد بذلك إحياء الاسم الأصلي للعائلة حتى لا تنقطع شجرة "آل القاضي". (شهادة ابنة عمه السيدة قازو فاطمة: شهادة شفوية بتاريخ: 2016/6/8م ببيتها العائلي بقرية "أقني بورار"، بالأربعاء نايت إيراثن).

⁴ - محمد عبد الرحمن قازو، (نجل الشيخ الرزقي الشرفاوي)، في شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

النسبة قد تباها منذ كان طالبا في الأزهر الشريف¹. أما نسبه للأزهر التي اشتهر بها بعد ذلك، فلكونه خريج الأزهر الشريف، حيث نال أعلى شهادة تمنحها هذه المؤسسة العلمية العريقة، وهي شهادة "العالمية"، بعد سنوات طويلة من الدراسة والتّحصيل.

ونشير هنا إلى أنّ الانتساب للأزهر في تلك العهود كان ينطوي على شرف عظيم، ومنزلة علمية رفيعة في الجزائر ككل، وفي منطقة زاوية بالخصوص²، وقد حمل لقب "الأزهري" قبل الرّزقي الشرفاوي، من علماء الجزائر الذين درسوا بالأزهر، الشّيخ محمد بن عبد الرّحمن الجرجري الأزهري المتوفى سنة 1793م، مؤسس الطريقة الرّحمانية بجبال جرجرة، والشّيخ صالح بن مهنا القسنطيني المتوفى سنة 1910م، والشّيخ المولود الزريبي المتوفى سنة 1925م، كما حمله الشّيخ المولود بن صديق الحافظي الأزهري المتوفى سنة 1948م، وهو زميل الشرفاوي في الأزهر، وقد نال هو الآخر شهادة العالمية، وعاد إلى أرض الوطن في بداية العشرينات من القرن الماضي، في حين مكث الشرفاوي بمصر مشغلاً بالتدريس، وامتدت إقامته هناك إلى عام 1933م.

وفضلا عن الشرفاوي، وابن القاضي، كان الشّيخ يُكنى أيضا بـ: الغبريني، والزواوي، والجزائري.

3 - ولادته

تشير شهادة ميلاد الشّيخ الرّزقي الشرفاوي إلى أنّه سُجّل في سجل المواليد ببلدية سيباو الأعلى (عزازقة حاليا) في سنة 1892م، وهي السنة التي أنشأت فيها فرنسا سجل الحالة المدنية بهذه البلدية³. وتشير وثيقة الميلاد هذه إلى أنّ عمره آنذاك 15 سنة⁴، وهذا يعني أنّ ميلاد الشّيخ الشرفاوي كان في سنة 1877م، الموافقة لسنتي 1293/1294هـ. ولا يمكن

¹ - محمد أرزقي الشرفاوي، هكذا كان يوقع في عرائض الطلبة المغاربة التي عثرنا عليها ضمن وثائق الأزهر حين كان طالبا بالأزهر، وهكذا أورد اسمه في رسالة أرسلها من الأزهر في عام 1328 هـ / 1910م إلى الصادق بن العربي البسكري التاجر بمدينة عزازقة، إذ جاء في آخرها: (محمد أرزقي الشرفاوي المجاور بالأزهر الشريف، رواق المغاربة بمصر المحروسة). غير أنّ اسمه في سجلات الأزهر هو كالتالي: محمد رزق الشريف. أنظر مثلا: دار الوثائق القومية، ووثائق الأزهر، سجل طلبة رواق الأتراك والشّوام والمغاربة، وحدة الحفظ 314، السجل رقم 623، الكود الأرشيفي: 001211 - 5004.

² - محمد أرزقي فراد، إضاءات في تاريخ الجزائر، معالم وأعلام، دار الأمة، الجزائر، 2014، ص 95.

³ - محند سعيد لعربي، عزازقة عبر التاريخ، ج 1، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، 2017، ص 103.

⁴ - شهادة ميلاد الرّزقي الشرفاوي، أنظر الملحق رقم: 1، ص 300.

لنا تحديد لا يوم ولا شهر الميلاد، لأنّ التاريخ حُدّد جزافيا، على افتراض ولادته قبل تاريخ التسجيل، وهذه حالة معروفة بالنسبة لكثير من أجدادنا الذين وُلدوا أثناء الفترة الاستعمارية، خاصة في أواخر القرن التاسع عشر.

ومما يؤكّد صحّة ما ذهبنا إليه، بخصوص تاريخ ميلاد مترجمنا، وثيقة كتبها الشرفاوي بخط يده حين طلبت منه الإدارة الفرنسية ذلك¹، وكذا الكثير من التقارير الإدارية الفرنسية التي أوردت هذا التاريخ نقلا عن الشرفاوي نفسه، وهذا خلافا لما ذكره تلميذه الأستاذ محمد الصّالح الصّديق في كتاباته العديدة²، ونقله عنه جلّ الذين كتبوا عن الشرفاوي بعد ذلك³.

4 - مسقط رأسه

على بعد ثلاثة كيلومترات شرق مدينة عزازقة (ولاية تيزي وزو)، تقع قرية كبيرة تدعى "الشرفة بهلول"، هي مسقط رأس الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، وإليها يُنسب كما ذكرنا آنفا. والشرفة بهلول، أو "الشرفاء بهلول" - كما يكتبها البعض - هي من قرى عرش "بني غبري" المشهور ببلاد الزواوة، بما أنجب من علماء أفاضل، خدموا العلم والتّقاليد الإسلاميّة في داخل القطر الجزائري وخارجه خلال العصور الوسطى⁴.

¹ - وهي نبذة قصيرة عن حياته كتبها بطلب من المتصرف الإداري لبلدية "سيباو الأعلى" في بداية عودته من مصر، مؤرخة في 1934/10/15. وقد عثرنا في الأرشيف الفرنسي على النسخة الأصلية للوثيقة باللّغة العربية (أنظر الملحق رقم: 7، ص 306)، وعلى ترجمتها الفرنسية: (A.N.O.M, Aix- en-Provence, 91505/52).

² - فقد جعل تاريخ ميلاد الشّيخ الشرفاوي سنة 1880م، الموافقة حسب له: 1302هـ. وهذا غير صحيح، لأنّ التاريخ الميلادي هنا لا يوافق التاريخ الهجري، إذ أنّ سنة 1880م توافق سنتي: 1297/1298هـ، كما أنّ السنّة الميلادية مخالفة لما ورد في سجل المواليد، وهو وثيقة إدارية رسمية لا يرقى إليها أدنى شك.

³ - أنظر مثلا الأبحاث التي نُشرت ضمن أعمال الملتقى الوطني حول الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، بتنظيم الجمعية الدينية لزواوة الشرفة، يومي 27-28 جوان 2012م، بزواوة الشرفة، طبعته دار الأمل، تيزي وزو، د-ت. كذلك العديد من المقالات والكتابات المنشورة على الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الأنترنت). في حين أورد الدكتور يحيى بوعزيز في كتابه: (أعلام التّقاليد، ج 1، ص 313) تاريخ ميلاد الشرفاوي كما يلي: 1302هـ الموافق لعامي 1884-1885م، وهي تواريخ غير صحيحة أيضا، وقد اعتمد في ذلك على ترجمة مختصرة للشرفاوي زوده بها الأستاذ حسن عليّ.

⁴ - منهم أبو العباس أحمد الغبريني صاحب "عنوان الدراية" الذي سبق أن ترجمنا له، وولده أبو القاسم أحمد الغبريني (ت 1369م) الذي تولى الفتيا بتونس ودرس عليه عدد من علماء تونس، وولده الآخر أبو سعيد أحمد الغبريني، فقيه وخطيب، وأبو مهدي عيسى بن أحمد الغبريني، قاضي تونس وعالمها، وأبو محمد بن يوسف بن جماعة الغبريني، فقيه ولغوي ونحوي وقاضي ببجاية، وعبد الرّحمن بن علي الغبريني البجائي، من علماء القرن التاسع الهجري ومن شيوخ العلامة عبد الرّحمن الثعالبي. أنظر: يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والتّقاليد، ج 1، مرجع سابق، ص 289-

يقع عرش بني غبري بنواحي عزازقة، ومدينة عزازقة هي مقر بلدية سيباو الأعلى المختلطة التي أنشأتها فرنسا سنة 1882م¹، وهي جزء من دائرة تيزي وزو التي تتبع آنذاك لعمالة الجزائر، وكانت تضم ستة دواوير: بني غبري، إيلولة، أكفادو، آيت زكي، بني يجر، تامغوط. كانت مساحة بلدية سيباو الأعلى تقدر بـ 51423 هكتار، أما عدد سكانها فقد بلغ حسب إحصاء سنة 1891م 41045 نسمة، منهم حوالي 600 نسمة من الأوربيين موزعين على ثلاثة مراكز استيطانية² مساحتها 4793 هكتار، يشتغلون في الفلاحة واستغلال الخشب (غابة إكورن)، وكأعوان في الإدارة والأمن³.

وخلال عهد الاحتلال كان عرش بني غبري يضم خمسة عشر قرية كبيرة⁴، ذكرها هانوتو وزميله، وهي: ثملحيت، إكورن، أحميل، شبال، مقنيعة، أشلام، إيفيعة، تابورث، أورير ناث اسعد، آث اسعد، آث بوعضة، شرفة بهلول، بوهني، إعزوقن⁵، وكل قرية من هذه القرى تضم عدة قرى صغيرة. فقرية الشرفة مثلا تضم ست (06) قرى صغيرة، وهي: ثدارث ثمقرانت، شرفة بهلول، ثالا حمو، فليكي، ثينقيشت، ثيزرا⁶. وحسب ذات المصدر فقد كان تعداد سكان الشرفة في أواخر القرن التاسع عشر 370 نسمة⁷، وهذا بعد أن اضطر الكثير من سكانها إلى الهجرة بسبب الاحتلال الفرنسي.

وأصل تسمية القرية فيما يبدو هو كلمة "الشرفاء" (بضم الشين وفتح الراء)، بمعنى قرية الأشراف، والأشراف صفة تُطلق على جماعة أو أسرة منتسبة لآل الرسول صلى الله عليه وسلم. وقرى الأشراف كثيرة في الجزائر، وبلاد زاوية بالخصوص، وما يميّز هذه القرية عن

291. أيضا: المهدي البوعبدلي، تراجم بعض مشاهير علماء زاوية القبائل الصغرى، ضمن أعماله الكاملة، الجزء

الأول، القسم الثاني، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص 273 وبعدها.

1 - محند سعيد لعربي، عزازقة عبر التاريخ، ج 1، مرجع سابق، ص 103.

2 - هي: عزازقة، إكورن، آث بوعضة.

3 - معلومات مستقاة من عدة مراجع منها:

A. Hanoteau, A. Letournoux, *la Kabylie et les coutumes kabyles*, T2, Paris, 1893, p.366.

Alain Mahé, *Histoire de la Grande Kabylie XIX^e - XX^e siècles*, Editions Bouchène, 2001, p.209 et 234.

4 - حسب التقسيم الإداري الحالي يشمل هذا العرش أراضي تتوزع على ثلاث بلديات هي: عزازقة، إيفيعة، وإكورن.

5- A. Hanoteau, A. Letournoux, *T1, Opcit*, p.332- 333.

6 - أما مجموع سكان بني غبري فقد بلغ في سنة 1891م 5732 نسمة. هانوتو، ج 1، مرجع سابق، ص 333.

7 - هانوتو، ج 1، نفسه، ص 333.

القرى الأخرى التي تحمل هذا الاسم، هو إضافة كلمة "بهلول"، فيقال (شرفة بهلول)¹، وهذا نسبة إلى الولي الصالح سيدي أحمد بن عاصم المكنى "سيدي بهلول" الذي حل بهذا المكان في حوالي القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، وأسس زاوية حملت اسمه أيضا، وهي ما تزال قائمة إلى الآن، ويوجد ضريحه أسفل هذه الزاوية، وقد وصفه الورثياني في رحلته بقوله: « الولي الصالح، والشريف الواضح سيدي بهلول بن عاصم.. وقد اشتهر أمره أنه تلميذ الشيخ سيدي يحيى (العيدلي)، وأنه تزوج بنت الشيخ المذكور، وكراماته كثيرة، وحال أولاده مع الناس كذلك »².

من الناحية الطبيعية، تتربع القرية على ربوة قليلة الارتفاع تقع الزاوية على أعلاها، ما يجعلها تشرف على المناطق المحيطة بها، إذ تظهر للناظر من ساحة الزاوية إلى جهة الجنوب الشرقي جبال جرجرة الشامخة جلية بقممها الصاعدة، وأخاديدها النازلة، وهو منظر يُشعر بالرّهبة، ويُوحي بعظمة الخالق سبحانه. وفي أسفل تلك الجبال، وحول القرية تقع الكثير من القرى المتناثرة وسط الغابات والأحراش وبعض الحقول، وتبدو "الشرفة" وكأنها تحتل مركزا وسطا بين تلك القرى، ويجري أسفل القرية وادي "بوهير" الذي تلتقي عنده الروافد الرئيسية المشكّلة لنهر سيباو³.

أما من الناحية الاقتصادية فإنّ موارد القرية الأساسية تتمثل في الحبوب وبعض الأشجار المثمرة كالتين والزيتون، وبعض الخضروات، وكذا تربية المواشي. ولأنّ هذه الموارد لا تسد حاجات سكان القرية، رغم النمط التقشفي للاقتصاد الريفي الجبلي، فإنّ عددا كبيرا من أبناء القرية يذهبون لتأجير سواعدهم للكولون في سهول سيباو، أو يهاجرون إلى الجزائر العاصمة وفرنسا بحثا عن عمل يضمن لهم العيش، فالإحصائيات تدل على

1 - أحمد ساهي، "شرفا - بهلول بن عاصم الغبريني"، جريدة الشعب، (الجزائر)، الحلقة الأولى، العدد 10559، 1994/12/10.

2 - الحسين الورثياني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثيانية)، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2008، ص 23. أنظر أيضا: أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج 1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ص 363-365.

3 - ينبع نهر سيباو من أعالي جبال جرجرة، ويمتد على نحو 120 كلم طولا، ويصب في البحر المتوسط بالقرب من ساحل مدينة دلس.

أنّ عدد من هاجر إلى فرنسا من بلدية سيباو الأعلى في سنة 1930م بلغ 7200 مهاجر¹، دون أنّ نملك الإحصائية الخاصة بقرية الشّرفة وحدها.

وأما من الناحية التّقافية والدينية، فقد عُرفت القرية بحرصها الشّديد على تعليم أبنائها، فكان من قوانينها الخاصة قانون يوجب على الأب أن يُعلّم ابنه القراءة بعد مرور سنة على الأكثر من تغيير الطّفل لأسنانه، ويجعل هذا القانون تحت طائل العقوبة كل أب لا يلتزم بذلك². وقرية الشّرفة محظوظة بوجود زاوية عريقة بها، وهي من زوايا العلم التي اهتمت بتعليم القرآن الكريم وعلومه المختلفة، وكانت عبر القرون تمد القرى المجاورة بالأئمة ومعلمي القرآن ومبادئ العربية والدين، واشتهر أهل الشّرفة بنسخ القرآن ومختصر خليل حتى قيل (مصحف الشّرفاوي)³. أما بعد الاستقلال فقد كانت زاوية الشّرفة من الزوايا التي احتضنت التعليم الأصلي خلال السّبعينات، وكان من مدرّسيها آنذاك أساتذة مصريون أزهيون، منهم الشّيخ سليمان خميس جُمعة الذي ذكر لطلّبه أنّه كان يعرف الشّيخ الشّرفاوي عالماً في الأزهر⁴.

وفضلاً عن إشعاعها التّقافي والروحي الذي أعطته لها الزاوية⁵، كانت لقرية الشّرفة مشاركةٌ وحضورٌ في الكثير من الأحداث التاريخية التي عرفتها المنطقة، ودون العودة إلى الماضي البعيد، نذكر أنّها ساهمت في مقاومة الغزو الفرنسي سنة 1830م، فقد ذكر الضّابط الفرنسي "روبان" أنّ من ضمن مجاهدي منطقة القبائل الذين ساروا لنجدة الداوي

¹- Alain Mahé, *Opcit*, p.337

²- Mohand Tazrout, *histoire politique de l'Afrique du nord, Paris, 1961, p.116.*

³ - أحمد ساحي، "شرفا - بهلول بن عاصم الغبريني"، *جريدة الشعب*، (الجزائر)، الحلقة الثانية، العدد 10565، 1994/12/17.

⁴ - نكر لي هذا إمام متقاعد بزاوية الشّرفة دَرَسَ بالزاوية خلال هذه الفترة، وقال أنّ أستاذهم الشّيخ سليمان كان كثيراً ما يمر بعد صلاة الفجر على قبر الشّيخ الشّرفاوي القريب من الزاوية ليترحم عليه. الشّيخ عبد الحميد عاشير، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/09م.

⁵ - لقد زرنا قرية الشّرفة مرارا، فسرّنا ما رأينا من جمال طبيعتها، وطيبة أهلها، كما زرنا أيضا زاويتها، فلقينا من شيوخها كل الترحيب، ووجدنا الزاوية كعهدها تحاول أن تؤدي دورها في خدمة الدين والمجتمع مع كثرة المعوقات حسب ما أفادنا به القيّمون عليها. لكن ما يُؤسف له أن تبقى في هذه الزاوية بعض البدع والمنكرات = = منها تخصيص قاعة بجوار المسجد مفتوحة للزوار الطّالبيين للبركة والذرية والزواج وغيرها من الأمور التي لا يهبها إلا الله، فضلاً عما يحدث هناك من إشعال الشّموع وتلطّيح الجدران بالحناء، وغيرها من المظاهر التي ما أنزل الله بها من سلطان!

حسين أبناء عرش "آث غبري" الذين ساروا تحت قيادة الشيخ بوحميل وإشراف المرابط سي أحمد أومالك الذي حمل لواء زاويتهم (أي زاوية الشرفة)¹.

وشاركت القرية أيضا في مختلف المقاومات المسلحة التي عرفتها المنطقة ضد الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر، وتعرض أهلها للتقتيل والاضطهاد والتشريد خلال اجتياح جيش الاحتلال لهذه المنطقة، وخاصة عقب ثورة 1871م التي كان لسكان آث غبري دور عظيم فيها، وكان من الإجراءات العقابية التي فرضتها فرنسا عليهم بعد هذه الثورة، مصادرة ثلاثة آلاف هكتار من أراضيهم، شملت الأراضي الفلاحية والمساحات الغابية، وهي تعادل 22 % من أراضيهم، وفرض غرامة مالية قدرت بأكثر من 113 ألف فرنك²، وهو ما زاد في فقرهم، ودفع بالكثير منهم إلى الهجرة إلى البلاد العربية والإسلامية فرارا بدينهم. وكانت الهجرة قد بدأت قبل ذلك، فقد ذكر تقرير فرنسي رسمي أنّ من بين مائتي (200) عائلة نزحت من منطقة القبائل سنة 1864م كان منها 60 عائلة من قرى الشرفة وحدها³، وقد ذكر الشيخ أبو يعلى الزواوي في كتابه (تاريخ زواوة) أسماء بعض الشرفاويين الذين كانوا بالشام⁴. وتعرضت زاوية الشرفة خلال هذه الفترة أيضاً، مثل كل زوايا المنطقة، لمختلف أنواع القمع والترهيب فأغلقت أبوابها وشرد من فيها، وامتنح الشيخ الذي كان يشرف على شؤونها آنذاك، إذ طلبت منه سلطات الاحتلال أن يقبل تقلد مسؤولية كعمثل لفرنسا الاستعمارية مقابل السماح له بإعادة فتح الزاوية، لكن الشيخ رفض رفضا باتا، وقال: «لِنَبْقَ الزاوية مغلقة الأبواب، إذا تعلق أمر الاستئناف بهذا العرض المُشين!»⁵.

¹- Joseph Nil Robin, *Notes Historiques sur la grande Kabylie de 1830 à 1838*, éditions Bouchène, Alger, 1999, p.29, 32.

²- Plarier, Antonin, *Banditisme et dépossession foncière en Algérie In: Propriété et société en Algérie contemporaine, Quelles approches? [en ligne], Aix-en-Provence: Institut de recherches et d'études sur le monde arabe et musulman, 2017, site Internet: <http://books.openedition.org/iremam>, p.2 et 4.*

³ - تقرير مؤرخ في 1888/11/22م، موجّه من عامل عمالة الجزائر إلى الحاكم العام للجزائر موضوعه: أسباب هجرة الجزائريين إلى الأراضي العثمانية ما بين سنتي: 1847 - 1864م، الأرشيف الوطني لما وراء البحار، أكس - آن - بروفانس، ملف: 9H 98/58. نقلاً عن: عمار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1871 - 1918، دار هومة، الجزائر، 2007، ملحق رقم 8، ص 311 - 312.

⁴ - أبو يعلى الزواوي، تاريخ الزواوة، مراجعة وتعليق سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ط 1، 2005، ص 111.

⁵ - رواية شفوية للشيخ محمد أولقاسم شريفي (ت 2008م) الذي تولى الإشراف على زاوية الشرفة والتعليم بها لأكثر من ثلاثة عقود بعد الاستقلال. نقلنا الرواية عن: سي فضيل منى، الزوايا بين الماضي والحاضر، دراسة سوسولوجية

أما في القرن العشرين فقد أنجبت القرية للجزائر أبناء بررة كثيرين، خدموا الحركة الوطنية بشقيها السياسي والإصلاحي، فمن رجال النضال السياسي صاري أرزقي المدعو "بوكفوس"¹، وبلقاسم الطاهر المدعو "شعرا" الذي انتظم في حزب الشعب وكان رفقة المناضل حسين آيت أحمد²، والأستاذ قازو بشير المدعو "بشير قاضي"، ومن رجال الإصلاح مترجمنا الشيخ الرزقي الشرفاوي، والشيخ بن سعيدان عضو جمعية العلماء، والشهيد محمد سعيد عدنان تلميذ الشيخ الرزقي ومعلم في مدارس جمعية العلماء، والشيخ صالح صالح خريج زاوية القرية وجامع الزيتونة ومعلم مدرسة "أحريق" الإصلاحية. أما مساهمة القرية في ثورة التحرير المباركة فتجيب عنه تلك اللوحة التذكارية التي أقيمت في إحدى أركان ساحة الزاوية والتي نُقشت عليها أسماء عشرات الشهداء من أبناء هذه القرية! ويذكر الشيخ محمد أوبلقاسم الذي سبق ذكره أنّ الجنود الفرنسيين احتلوا زاوية الشرفة أثناء الثورة وعبثوا بمحتويات مكتبتها وحولوها إلى مركز مراقبة في سنة 1956م، لكنهم اضطروا إلى مغادرتها وذلك بسبب موت جنديين فجأة، أحدهما لسعه عقرب، والآخر سقط من أعلى البناية³.

في الأخير نقول، إذا كانت بعض القرى أو البلدات الصغيرة اشتهرت في التاريخ رغم صغرها، وقلة سكانها، لأنّ بها نهرٌ جارٍ، أو جبلٌ عالٍ، أو بركانٌ ثائر، أو غير ذلك من ظواهر الطبيعة اللافتة، أو لأنّ بها عالمٌ جليل وُلد أو دُفن بها، فإنّ شهرة قرية "الشرفة بهلول" تعود، حسب الأستاذ محمد الصالح الصديق، لثلاثة أمور، هي:

أولاً - لأنها قرية الولي الصالح "بهلول بن عاصم".

ثانياً - بها زاوية تُنسب إلى هذا الولي، تُعنى بتحفيظ القرآن، وتدريس الفقه واللغة.

مونغرافية لزاوية الشرفاء سيدي بهلول وزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي بمنطقة القبائل، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2004-2005، ص 211.

¹ - صاري أرزقي: جُنّد أثناء الحرب العالمية الثانية، وخلال ذلك أُصيب بمرض تسبب في بتر يده، فسُمي "بوكفوس" (أي صاحب اليد الواحدة)، ناضل في حركة مصالي الحاج، وفي الثورة التحريرية، أُصيب بالنابالم فسبب له إعاقة في الرجل فكان يقول: لقد أعطيت لفرنسا يدي، وللجزائر رجلي. عاش سنوات بعد الثورة. (معلومات شفوية أفادني بها الشيخ وعلي بلخامسة).

²-Madjd Cherifi, *les Racines d'un Kabyle de Cherfa Nath Ghobri depuis le XII^e siècle*, Alger – Livre Editions, Alger, 2013, p. 56.

³ - أعمال الملتقى الوطني حول الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 29.

ثالثاً- لأنها قرية العالم الأزهري الشيخ محمد الرزقي الشرفاوي¹، موضوع هذه الدراسة. ففي هذه القرية ولد مترجمنا، وعلى أرضها نشأ وأمضى طفولته وشطرا من شبابه، ومنها انطلق إلى الأفاق البعيدة، طالبا العلا، وإليها عاد بعد طول اغتراب، تحدوه رغبة عارمة، وتدفعه عزيمة قوية في مقاومة عوامل التخلف، وطبي صفحة الجهل المخيمة على القرية، وعلى المنطقة بكاملها.

5 - أسرته

جدّه "علي أوقازو" أو "علي عزوق"، حسب تقرير فرنسي كان رجل دين، وأحد مقدمي الطريقة الرّحمانية²، وكان حتى الخمسينات من القرن التاسع عشر، يسكن في قرية عزازقة³، لكن مصادرة سلطات الاحتلال الفرنسي لأراضيه بسبب مشاركته في المقاومة المسلحة التي قادتها لالا فاطمة نسومر، جعلته ينتقل بأسرته إلى قرية "الشرفة بهلول"، ليستقر على قطعة أرض يملكها هناك، وهي كل ما تبقى له آنذاك من الأرض⁴.

والده "مُحَنَّد وَعَلي"⁵، لم تُسغه الظروف لدخول المدرسة، مثل الغالبية الساحقة من أبناء جيله من الجزائريين، لأنه وُلد في وقت عصيب، اندثرت فيه حلقات الدرس، وجفّت فيه ينابيع العلم، نتيجة الحروب الطّاحنة التي عرفتها البلاد منذ وطأت أقدام الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر سنة 1830م، فكان فلاحا، يشتغل بالأرض وتربية الغنم. توفي في حدود سنة 1913م.

والدته هي السيّدة "تسعديت بنت محند"، من عائلة بن طاحه، من قرية الشّرفة أيضا، هي الأخرى لم تدخل المدرسة، لكنها كانت متدينة وتخشى الله⁶.

أما **الإخوة** فهم ثمانية، خمسة أطفال وثلاث بنات، وهم على التوالي: علي، أمقران، عيني، ذهبية، أرزقي، يمينة، باعيز، بشير¹.

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار، شهادات وموقف، دار الأمة، الجزائر، الطبعة الأولى، 1998، ص 15.

² - تقرير غير مؤرّخ، الأرشيف الوطني لما وراء البحار: A.N.O.M,Aix- en-Provence, 91505/52

³ - هي الآن دائرة تقع إلى الشّرق من مقر الولاية تيزي وزو، وتبعد عنها بحوالي 35 كلم.

⁴ - محمد عبد الرّحمن قازو، نجل الشّيح الشرفاوي: شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

⁵ - قيل أنّه كان وحيد أبيه من الذكور مع ست بنات، فكان يدعو الله أن يرزقه الذكور من الأولاد. (أفادني بهذا السيّد قازو بشير بن محند سعيد، من أحفاد الأسرة).

⁶ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26.

هي إذن أسرة كثيرة الأفراد، كأغلب الأسر الجزائرية آنذاك، محافظة، تعيش في منطقة ريفية معروفة بتمسكها بالدين والتقاليد، ومن الناحية المادية كانت بسيطة الحال، لا جاه لها ولا نفوذ لدى دولة الاحتلال، أما من الناحية العلمية والثقافية فكان من بين أفرادها من تعلم وحظي بقسط من العلم، وهم ثلاثة فقط من الأبناء الثمانية:

أولهم المترجم له، الشيخ الرزقي الشرفاوي الذي اغترب في سبيل العلم، واجتهد في تحصيله حتى صار عالماً متضلعا في الكثير من العلوم الدينية واللغوية.

ثانيهم الشيخ البشير²، أصغر إخوته، الذي درس في زوايا المنطقة فقط، ثم درس في بعضها، فكان له أثره المحمود في طلبته، وكانت له ميول إصلاحية أثمرت في الأوساط التي يتصل بها ثمارا طيبة، وكان يقول: ما وصل الغرب إلى ما وصل إليه إلا بالعلم والعمل³.

أما ثالثهم فهو الشيخ باعزیز، الذي تعلم في زوايا المنطقة أيضا، واشتغل في التعليم، قبل الاستقلال وبعده⁴، وهو الوحيد الذي كان على قيد الحياة، من إخوة الشيخ الرزقي، حين عاد من مصر عام 1933م، مع أخته يمينه.

ومما سبق يمكن أن نسجل عن أسرة مترجمنا ثلاث ملاحظات:

أولها- أنه لا أحد من البنات أدخلت المدرسة، وتفسير ذلك أن البنات آنذاك محرومة تماما من حق التعليم، خاصة في المناطق الريفية.

ثانيها- أن الأبناء الثلاثة الذين نالوا حظا من العلم، كانت ولادتهم ونشأتهم في آخر القرن التاسع عشر، حين استأنفت بعض الزوايا والمساجد نشاطها التعليمي، تحت رقابة سلطات الاحتلال، نتيجة الهدوء النسبي الذي عرفته المنطقة منذ نهاية ثورة 1871م.

ثالثها- أنه لا أحد من هؤلاء الثلاثة دخل المدرسة الفرنسية، لأن الأسر الجزائرية آنذاك كانت ترفض التعليم الفرنسي خوفا على عقيدة أبنائها.

¹ - أفادني بهذه المعلومات حفيد الشيخ الرزقي الشرفاوي من ابنته "زهرة" الذي يحمل الاسم نفسه: أرزقي قازو.

² - وهو والد المناضل السياسي بشير قاضي، توفي سنة 1927م، وقد تم تسمية ابنه الذي وُلد بعد وفاته بشهرين باسمه، وتلك عادة لدى كثير من أسر المنطقة آنذاك.

³ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 15.

⁴ - علي قازو، نجل الشيخ باعزیز، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/05/20. وذكر لي الشيخ محند وُعلي بلخمس (من مواليد 1927م)، أن والده الذي كان تاجرا في عزازقة جلب الشيخ باعزیز لتعليمه هو وشقيقه القرآن واللغة العربية بأجرة، وهذا خلال ثلاثينات القرن الماضي، ولمدة أربع سنوات. (ذكر لي هذا في مقابلي معه بتاريخ: 2014/02/12).

6- نشأته

للأسف لا نملك إلا القليل من المعلومات التاريخية حول طفولة الشيخ الرزقي، والظروف الخاصة التي نشأ فيها، لكن مع ذلك نعلم أنه نشأ في بيئة ريفية محافظة، فورث منها البساطة والخصال الحميدة. أما من الناحية المادية فلم تكن طفولته مريحة، فقد نشأ وسط أسرة كبيرة العدد، بسيطة الحال، تمتهن الفلاحة وتربية الغنم، وتتنزع بتضايف جهود أبنائها لقمة العيش من مواردها القليلة، فإذا رُزق الأطفال بشبعة من طعام بسيط في إحدى وجبات اليوم فهم على حظٍ وافر من النعمة، وهذا هو حال الكثير من الأسر الجزائرية آنذاك، وأسر منطقة القبائل خاصة، لضغط الاستعمار، وقلة الموارد الاقتصادية في هذه المنطقة الجبلية. وهذه الظروف وإن كان فيها معاناة، فإنّ مزيتها أنّها تجعل الفرد يتعود شطف العيش، ويتمرس على الاعتماد على النفس ومواجهة الصعاب منذ وقت مبكر من حياته.

منذ بداية الغزو الفرنسي للجزائر، شهدت البلاد، الكثير من المقاومات والانتفاضات، كان آخرها بالنسبة لمنطقة القبائل ثورة المقراني والحداد سنة 1871م، التي وقعت قبل ولادة الشيخ الرزقي بسنة سنوات، وقد كان والده من المجاهدين في هذه الثورة، وحسب بعض الروايات، جرح في إحدى معاركها، وتمكن من الهرب إلى القرية ونجا من المطاردة!¹ ومما يُذكر في هذا الشأن أيضاً، أنّ جدّ الشيخ الرزقي (علي أوقازو) كان من المشاركين في مقاومة لالا فاطمة نسومر (1854-1857م)، وقد عوقب بسبب ذلك، بمصادرة أراضيه بعزازقة².

ففي هذه الظروف التعيسة من الناحية المادية، والمفعمة بالروح الوطنية والثورية من الناحية المعنوية، نشأ الشيخ الشرفاوي وشبّ، إذ كان مثل أبناء جيله، يسمع حكايات المقاومة وقصص أبطالها، فتمتلئ نفسه حماساً وتوقاً للجهاد في سبيل الله والوطن، ويرى ممارسات الاستعمار وظلمه، فيتألم لما أصاب وطنه جراء الاحتلال الأجنبي، ويود أن يحارب هذا الاحتلال كما حاربه أبوه وجدّه³. على أنّ السلاح الوحيد الذي يمكن أن يقاوم

¹ - محمد عبد الرحمن قازو، نجل الشيخ الرزقي: شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

² - نفسه.

³ - نفسه. ونكر لي أيضاً أنّ سيف جدّ الشيخ الرزقي بقي (مرشوقاً في حائط الدار!)، وأصبحت له روح رمزية، فكان الشيخ الرزقي ينظر إلى هذا السيف ويعطي له الحمية، خاصة حين يسمع القصة.

به الاستعمار آنذاك هو العلم، فهو الأداة الفعّالة للكفاح من أجل البقاء، فكان اتجاه الشرفاوي للعلم والدراسة جهاداً في سبيل الله، وصار ذلك بالنسبة إليه عقيدة راسخة، ووجهة أساسية ارتضاها لنفسه في كل أدوار حياته.

ثانياً - دراسته الأولى

1- بدء دراسته في زاوية القرية

ذكرنا فيما سبق أنّ قرية الشرفاء كانت بها زاوية تُعنى بتعليم القرآن الكريم، وتدرّس الفقه واللغة، وذكرنا أيضاً أنّ أهل هذه القرية كانوا معروفين بحرصهم الشديد على تعليم أبنائهم، لذلك لا غرو أن يصبح من عاداتهم آنذاك أن يدخلوا أبناءهم الزاوية ليتعلموا القراءة والكتابة ويحفظوا القرآن الكريم أو أجزاء منه، حتى أنّهم كانوا يتنافسون في ذلك ويعتبرونه مناط الشرف، ويعدّون التخلف عنه منقصة¹.

¹ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 16.

لذلك ما إن بلغ الشرفاوي سن الدراسة، وهي في العادة خمس أو ست سنوات، حتى ألحقه والده بزواوية القرية (شرفة بهلول)، التي لا تبعد عن البيت العائلي إلا ببضع العشرات من الأمتار، وهناك بدأ الطفل حفظ القرآن الكريم بطريقة الألواح السائدة آنذاك¹، لكن يبدو أن الوالد لم يدخل ابنه الزاوية رغبة في العلم والمعرفة، وإنما فعل ذلك مجارة للعادة التي عليها أهل القرية، إذ أنه لم يكد يمضي على الابن بالزاوية شهر حتى أخذ في منعه من التعلّم ومحاولة فصله من الزاوية، ليرعى الغنم، وليساعده في أعمال الفلاحة²!

اعتمد الوالد أولاً على وسائل الإغراء، فحاول التأثير على الولد وجعله يستجيب لرغبة والده فيترك الزاوية، وينقطع إلى الغنم شأن الكثير من أترابه في القرية، ولما لم ينفع معه هذا الأسلوب، عمد إلى وسائل أخرى لعلها تكون أجدى وأنفع، فكان يُلفت نظره إلى بعض الطلبة الكبار الذين لم يظفروا - مع طول إقامتهم بالزاوية - لا بتعلّم العلم، ولا بحفظ القرآن، وأصبحوا بعد مدة طويلة قضوها في الزاوية أحلاس المقاهي، أو عُمالاً أو تجاراً، فلو أنهم رُشِدوا في صغرهم لما ضاعت أعمارهم في الزاوية³.

كان الشرفاوي، على حداثة سنّه، يحب العلم، وتحدوه رغبة قوية في التعلّم، أما والده الذي أنهكته الأعمال، وأعيته الأيام في طلب الرزق، فكان يريد من ولده أن ينقطع عن التعليم، ويبقى إلى جنبه ليرعى الغنم، ويخفف عنه بعض أعباء المعيشة! ومما يُحكى عن الشرفاوي في هذه المرحلة، أنه كان يذهب إلى الزاوية فيأتي والده ليصرفه منها⁴. وأحياناً يُخبئ له ثيابه وخاصة "برنوسه" أيام الشتاء، حتى لا يتمكن من الذهاب إلى الزاوية⁵! وهذا

¹ - طريقة كانت تسود في كل زوايا ذلك الوقت، إذ يجلس الطلبة والشيخ على الحصير، ويكتب الطلبة الآيات التي يملئها عليهم الشيخ معلم القرآن على ألواحهم الخشبية بقلم مُعدّ من القصب، وحبر مصنوع من مواد طبيعية، وبعد حفظ الآيات واستظهارها أمام الشيخ، تُمحي الألواح في حوضٍ مُعدّ لذلك ثم تُطلى بمادة الصلصال، ليُعاد الكتابة عليها مرةً أخرى.

² - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 16.

³ - نفسه، ص 16.

⁴ - محمد عبد الرحمن قازو، نجل الشيخ الرزقي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

⁵ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 16.

رغم ما ظهر على الطفل من مخايل الفطنة والنَّجاجة، وما شهد به معلّمه من قوة الحافظة التي يتمتع بها¹.

هكذا صيرت الظروف المعيشية القاسية، بسبب الاستعمار، الكثير من آبائنا وأجدادنا، إذ لا يعرف أحدهم إلا أرضه وغنمه وفأسه، كما أخبر بذلك الشرفاوي عن والده²، ولا يفكر إلا فيما يسدُّ الجوع، ويُبقي على الحياة، أما القراءة والتعلّم فهي من ترف الأعمال ونوافلها التي لا ينبغي للعاقل أن يصرف فيها وقته وجهده!

تكررت حينئذٍ الوالد وتعدّدت وسائله لحمل ابنه على ما يريده له، ووقف الطفل حائرًا بين وبين، وفي الأخير استجاب الولد لرغبة والده، فخرج من الزاوية، وتوقف عن الدراسة، وانصرف إلى رعي الغنم، غير أنّ قلبه ظل مشدودا إلى الزاوية واللّوحة والقراءة.

2- دراسته في زوايا أخرى بالمنطقة

ضاق الطفل ذرعا بما هو فيه، وأدرك وهو في تلك السن أنّ مكانه الطبيعي هو المدرسة وليس الحقل، فأخذ يفكر في طريقة للخلاص، وما هي إلا أيام حتى لاحت له فكرة ونفّذها من غير تردد، إذ ترك الغنم وغادر البيت، دون أن يخبر أحدا، والتحق بزاوية سيدي أحمد بن إدريس³ بقرية بعرش "يُولَة أومالو". كانت هذه الزاوية على غرار أغلب زوايا المنطقة، تؤوي طلبة العلم وحفظة القرآن، وتنفق عليهم من أوقافها، وتتيح لهم التفرغ للدراسة، مع بعض الأعمال التي تُقوي فيهم الإرادة، والاعتماد على الذات، وتُعدهم

¹ - محمد الصّالح الصّديق، في تقديمه لكتاب إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية، دار طليطلة، الجزائر، طبعة 2012، ص 7.

² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26.

³ - أحمد بن إدريس البجائي الزواوي: يُنطق لدى أهالي المنطقة بـ "سيدي وذريس"، درس ببجاية ثم رحل إلى المشرق ودرس بالأزهر، وعند عودته استقر ببجاية مدرّسا ومفتيا وقاضيا، عرف بالورع والزهد وسعة العلم، له عدة مؤلفات منها "شرح على مختصر ابن الحاجب"، تتلمذ عليه عدد من العلماء المشاهير مثل: عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحيى، عبد الرحمن الوغليسي، ويحيى الرهوني. غادر بجاية لما اختلّ بها الأمن، والتجأ إلى بلاد زاوية واستقر بجبل "يُولَة" = "أومالو" أين أسس زاويته، وبقي فيها شيخا ومعلما إلى وفاته سنة 760 هـ / 1358م. تقع الزاوية قرب قرية (آيت علي ومُخند)، وتبعد عن قرية الشّرفة بحوالي 21 كلم، وهي لا تبعد عن زاوية الشّيوخ عبد الرحمن التّلولي التي درّس بها الشّيوخ الشّرفاوي بعد عودته من مصر إلا بنحو 800م. للمزيد أنظر: أحمد ساحي، أعلام من زاوية، مرجع سابق، ص 11 وما بعدها. أيضا: المهدي البوعبدلي، تراجم بعض مشاهير زاوية القبائل الصّغرى والكبرى، الأصالة، العدد 14-15، ماي - جوان 1973، ص 271. أيضا: أحمد بابا التتبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج 1، دراسة وتحقيق محمد مطبع، مطبعة فضالة، المغرب، 2000، ص 92-93.

لمواجهة أعباء الحياة، وهي تختص بتعليم القراءات السبع والعشر، وتعليم علوم اللّغة والدين.

وجد الشرفاوي ضالته في هذه الزاوية، فانتظم في سلك طلبتها، وواصل حفظ القرآن الكريم، أما والده فقد ارتاع لاختفاء ولده، وبقي أياما موزع الفكر، مشتت البال، ولما اكتشف أمره ارتاح واطمأن، وأدرك خطأه من قطع ابنه عن القراءة¹، إذ ما كان من حقّه كأب أن يقف حجرَ عثرةٍ في طريق ابنه، ويحول بينه وبين رغبته في العلم، لذلك ما كان من الأب في الأخير إلا أن ترك ابنه يسير في الوجهة التي ارتضاها لنفسه، فتركه يدرس بالزاوية، وصار يتابع أخباره، ويهتم بصحّته وتعليمه فيها.

ومعلوم أنّ موقف الابن هنا لم يكن عقوقا لوالده أو تمردا عليه، ولا ترفعا منه عن القيام بأعمال الفلاحة والرّعي، بل إنّ موقفه هذا، وفي تلك الظروف، يعتبر "ثورة" على الواقع المرير الذي أراد الاستعمار فرضه على الجزائريين، وذلك بنشر الأمية والجهل في أوساطهم، حتى يضمن بقاءه في وطنهم إلى الأبد! والوالد لو انكشف له الغيب إذ ذاك، لعلم أنّ ابنه النابغة لم يُخلق لعمل بسيط لا يستعمل فيه مواهبه الفكرية، بل خُلق لجهاد عظيم يفيد دينه ووطنه، وليكون أحد مصابيح هذا الوطن في ليله الاستعماري الحالك! ولو أدرك قيمة العلم، لكانت أسمى أمنياته أن يتعلّم ابنه، ويصير عالماً تنتفع الأمة بعلمه، لكن أنّا له ذلك، وهو الذي حرّمته ظروف الاحتلال من نعمة العلم، فلم يدخل يوما المدرسة.

وهكذا تابع الطفل تعليمه بزاوية أحمد بن إدريس حتى أتم حفظ القرآن الكريم حفظا جيّدا، وأتقن رسمه وتجويده، وكان إذ ذاك لا يتعدى الرابعة عشر من عمره²، وهو ما يدل على ذكاء الطالب وقوّة ذاكرته. انتقل بعد ذلك إلى زاوية (سيدي اعمر والحاج) الواقعة بعرش آث يجّر³، وهناك اعتكف لسنوات على دراسة علوم اللّغة العربية كالنحو والصّرف،

¹ - محمد الصّالح الصّديق، "الشيخ الرّزقي الشرفاوي الأزهري، صور من حياته"، محاضرة شارك بها في أعمال الملتقى الوطني حول الشيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 89. أيضا مقابلتي معه بتاريخ: 2013/08/26.

² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26.

³ - زاوية سيدي عمرو والحاج: تأسست على يد الولي الصّالح سيدي اعمر والحاج (ت 805هـ / 1403م) الذي ينتمي - حسب الرّوايات - إلى الأسرة الإدريسية التي حكمت المغرب الأقصى والغرب الجزائري من عام 788 إلى عام 923م، تقع في القرية التي تحمل اسم هذا الولي الصّالح، ببلدية بوزقان حاليا، وعلى بعد 65 كلم شرق مدينة تيزي وزو عاصمة الولاية. (مطبوعة عن الزاوية حرّرها الأستاذ عبد الرّحمن زعتوت، وهو أحد مسيّري الزاوية وعضو في التسبيحة الزوايا لولاية تيزي وزو).

وعلوم الدين كالفقه والتوحيد، وكذا الحساب¹، وكانت طريقة التدريس السائدة آنذاك هي دراسة المتون في مختلف العلوم والفنون.

لا ندري متى كان انتقاله إلى الزاوية الأخيرة، ولا سبب انتقاله إليها، ولا نعلم عدد السنوات التي قضاها فيها، ولا في الزاوية التي قبلها، غير أنّ المعروف عن الزوايا في ذلك الوقت أنّها تتفاوت في مستواها التعليمي بحسب مستوى من يتولى التدريس بها، وأنّ الطّلاب كانوا ينتقلون من زاوية إلى أخرى لأسباب مختلفة، قد يكون بعض هذه الأسباب وجود شيخ يتقن فنا من فنون العلم التي يرغب الطّالب في دراستها، أو أنّ أستاذا ذا مستوى عالٍ حلّ بهذه الزاوية أو تلك.

3 - شيوخه في الزوايا

أثناء بحثنا في الأرشيف الفرنسي عثرنا على الكثير من التقارير التي كان يحزرها قايد دوار "إيلولة" ويرسلها دوريا إلى حاكم بلدية سيباو الأعلى المختلطة حول سير الزوايا في دواره، منها زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي التي كان الشيخ الشرفاوي مدرّسا بها خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي². ومن المعلومات التي تكرر ورودها في هذه التقارير أسماء أبرز الشيوخ الذين تتلمذ عليهم شيخ كل زاوية، ومن خلال هذه التقارير توصلنا إلى معرفة بعض شيوخ الشرفاوي حين كان طالبا في زوايا منطقته، وهم: الشيخ الطاهر أوهندو، والشيخ محند والمختار الينيوي، والشيخ محند السعيد (آث أحمد)، وفيما يلي كلمة موجزة عن كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة:

- الشيخ الطاهر الهندي، أو "الطاهر أوهندو" نسبة إلى قرية "هندو" الواقعة بالقرب من عزازقة. ورد ذكره في الكثير من التقارير الفرنسية كمعلم للشرفاوي³. وهو شيخ معروف بزهده وصلاحه ومكانته بين الناس، يُحسن فضّ الخصومات وإصلاح ذات البين، درّس في العديد من زوايا المنطقة⁴، منها تلك التي درّس بها الرّزقي الشرفاوي. ويبدو أنّ الشرفاوي قد أخذ عنه العلم والتوجيه أيضا، فقد ذكره في إحدى رسائله، وأثنى عليه بكلمات

¹ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 17.

² - هناك صندوق يحوي وثائق أرشيفية حول الزوايا الواقعة ببلدية سيباو الأعلى المختلطة: سيدي عبد الرحمن اليلولي، سيدي أحمد بن إدريس، سيدي عمر والحاج، تفريث أومالك، وزاوية آث زلال. الأرشيف الوطني لما وراء البحار: (A.N.O.M,Aix-en-Provence, 91505/5)

³ - الأرشيف الوطني لما وراء البحار: (A.N.O.M,Aix-en-Provence, 91505/52)

⁴ - معلومات أفادني بها الأستاذ حسن عليلي في مقابلي معه بتاريخ: 2014/11/25م.

فيها الكثير من معاني الاحترام والتقدير والتبجيل لشيخه، والاعتراف بفضلها، إذ وصفه بقوله: «.. سيدي وأستاذي ومؤدبي، سيدي الشيخ الطاهر الهندي، إمام زاوية أحمد بن إدريس¹، وكثيرا ما أشتاق إليه..»².

يبقى أن نشير إلى أننا لا نعلم في أيّ الزوايا الثلاث تتلمذ عليه الشرفاوي! كما أن تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته يبقى غير معروف أيضا، وما نعلمه هو أنه كان حيا في سنة 1927م، إذ كان مدرّسا بزاوية سيدي علي أويحيى³، وقيل أنه مات في السنة التي عاد فيها الشيخ الشرفاوي من مصر، وقبل وصوله إلى القرية بأيام.

- **الشيخ محند والمختار الينيوي**، فقيه ولغوي ومتصوف، وعالم مغمور من علماء زاوية، أحسبه من جيل الشيخ أبي القاسم البوجلبي (1926-1898م)، والشيخ محمد وعمارة الوزلاحي (1842-1921م)، والشيخ الشريف الإفليسي (1850-1917م)، الذين امتهنوا التعليم في زوايا الزواوة، وخدموا القرآن ولغة القرآن عقودا من الزمن، في وقت جفت فيه - أو كادت - ينابيع العلم في البلاد بسبب سياسة فرنسا الاستعمارية! لم أعر على ترجمة له فيما طبع أو نُشر، لكن بعد بحث وسؤال تحصلت على مخطوطة تضمنت نبذة عن حياته⁴، كما وجدت له ترجمة قصيرة في كتاب غير منشور للأستاذ حسن علي⁵، ومنهما اجتزأت هذه المعلومات:

من مواليد سنة 1830م، بقرية "تانساوت" ببني يني، بولاية تيزي وزو. تعلم بزاوية جدّه بمسقط رأسه، ثم بزوايا أخرى بمنطقة زاوية حيث تلقى دروسا في مختلف العلوم والفنون.

¹ - تولى الشيخ الطاهر مشيخة زاوية أحمد بن إدريس من سنة 1909م إلى سنة 1912م. تقرير لشيخ زاوية ابن إدريس (وعلي الطيب وعمارة) بتاريخ 1944/8/7م. الأرشيف الوطني لما وراء البحار:

(A.N.O.M,Aix-en-Provence, 91505/52)

² - رسالة مخطوطة أرسلها الشرفاوي من الأزهر إلى صديقه الصادق بن العربي البسكري (نسبة إلى قرية إيسكرين) التاجر بمدينة عزازقة، مؤرخة بتاريخ 16 ربيع الأول 1328هـ (27 مارس 1910م). والرسالة عثرنا عليها في أرشيف الزاوية السحنونية بجمعة صهريج، بلدية مقلع، وقد أطلعنا عليه نجله لونيس محند الصالح. أنظر الملحق رقم: 2، ص 301.

³ - تولى التدريس بها عامي 1926-1927م. نكر هذا الشيخ سعيد قاضي في كتابه: الجرجية في ترتيب القرآن الكريم، دار زمورة، الجزائر، ط 1، 2013، ص 104.

⁴ - مخطوطة من ثماني صفحات أمدني بها مشكورا الأستاذ عبد المجيد بن طاحة، وهي بخط السيّد: العربي يوسف بن محمد، مؤرخة في: 11 محرم 1344هـ، الموافق لـ 11 جويلية 1925م.

⁵ - محمد حسن علي الجبري، أعلام بلادي (الجزائر)، كتاب مرقون، ص 82.

عُرف بذكائه، وقوة صبره على طلب العلم، ومن شيوخه: الشيخ العربي الأندلسي (ت: 1847م)، والشيخ ابن خراط، والشيخ يحيى بن حمود بعرش آث ورتيلان، وقد أجازته هذا الأخير، كما أجازته مطلقاً الشيخ محمد أمزيان بن الحداد، صاحب الطريقة الرحمانية، حين زاره بقريّة "صدوق"، وعرف شيوخه وما حصله من علوم، المنقول منها والمعقول. قام برحلة إلى الحجاز رفقة والده لأداء فريضة الحج، التقى خلالها بعدد من العلماء، وفي طريق عودتهما أقاما شهرا كاملا بدمشق، ونزلا بمصر، وهناك حضر مجلس الشيخ عيش بالأزهر الشريف¹.

بعد عودته إلى الوطن انتصب للتدريس في الزوايا والمعاهد والمساجد، و«.. أقبل على بث العلم، وإفادة الناس، وكان رحمه الله لا يأنف في درسه من مبتدئ ولا بليد، كان دائما ناصحا أميناً، إماماً متواضعاً، عفيفاً، لا يكاد جلسه يمل من مجالسته..»². «.. يتميز بالصرامة، والجديّة، والانضباط، وحب العمل، والتواضع، لا يخاف في الله لومة لائم»³. أخذ عنه عدد غير قليل، منهم الشيخ الرزقي الشرفاوي إذ ورد ذكره في تقرير فرنسي كأحد شيوخه في زاوية سيدي عمر والحاج⁴.

توفي عن عمر تجاوز الثمانين عاماً، وقد رثاه بعض طلبته بقصيدة طويلة، نثبت منها هذه الأبيات⁵ على ما فيها من هينات:

يا ليت لي الفصاحة بلا عثار * لأنشر مدائح شَيْخي المُختارَ
إذ في قلبي فراقه كَيِّ بالنار * تسعرت ومالي عنه الاصطبارُ
بالدموع البوادرِ مثلُ الأمطارِ * عيني جودي لفقدي سيد الأبرارِ
لو بالدماءِ مُقلتي حقاً بكث * بحقه فلا تقي ولو بالمعشارِ

- الشيخ **محمّد السعيد** (آث أحمد)، من قرية سيدي عمرو والحاج، بعرش آث يجّر، وهو من شيوخ الشرفاوي في زاوية سيدي عمرو والحاج أيضاً¹، ذكره الأستاذ عبد الرحمن زعتوت في مطبوعة أنجزها عن الزاوية المذكورة، لكن دون أيّ معلومات أخرى عنه².

1 - المخطوط المذكور سابقاً.

2 - نفسه.

3 - حسن علي، أعلام بلادي، ص 82.

4 - التقرير مؤرخ في: 31 جانفي 1942م ضمن العلبّة الأرشيفية رقم:

(A.N.O.M,Aix-en-Provence, 91505/52)

5 - العربي يوسف بن محمد، مخطوطة، مصدر سابق.

فعلى هؤلاء الشيوخ وأمثالهم تتلمذ الشيخ الشرفاوي في بداية مشواره التعليمي، فأخذ عنهم العلم والأدب، فضلاً عن التشجيع على مواصلة الدراسة، لما كانوا يرونه فيه من مواهب فطرية، وأخلاق عالية، ورغبة قوية في طلب العلم.

هكذا إذن، رغم عوامل التثبيط التي واجهت الشرفاوي في حادثة سنّه، فإنّه لم يستسلم ولم يضعف، ولم يقل (صحّ مني العزم والدّهر أباي)، بل إنّه انطلق في الآفاق، بحثاً عمّا يحقق آماله، ويبلّغه مقصوده، فكان في ذلك كالتّائر الذي حلّق مبكراً بأجنحته الخاصة، معتمداً على نفسه في اختيار وجهته، وتحديد أهدافه، ومواجهة العقبات التي تصادفه في طريقه، وما أكثرها آنذاك.

4- دراسته في مدينة الجزائر

بعد سنوات من الدراسة قضاها الشرفاوي في زوايا منطقتّه، استوفى خلالها ما تقدمه هذه الزوايا من دروس ومقرّرات، توسعت مداركه الفكرية، وزادت رغبته في العلم والمعرفة أكثر، فطمحت نفسه إلى المزيد. كانت وجهته هذه المرة مدينة الجزائر، علّه يجد بها ما يريد، ولما لا وهي أمّ القطر وعاصمته، يُفترض أن يكون بها من المتّقين والمتعلّمين، ومن مراكز التعليم ووسائله ما لا يوجد في المناطق الرّيفية والمدن الداخلية. فضلاً عن هذا فهي أقرب الحواضر الكبرى إلى مسقط رأس مترجمنا.

وبالفعل فقد كان بمدينة الجزائر في مطلع القرن العشرين عدد من الجوامع والمساجد أغلبها كانت أمكنة علم، تُلقى فيها دروس الفقه والحديث واللّغة، ويجتمع فيها العلماء والطلبة للدراسة والتباحث، وكان من العلماء المشهورين بدروسهم في بعض هذه المساجد: الشّيخ عبد القادر المجاوي الأستاذ بالمدرسة الثّعالبية³، والشّيخ عبد الحليم بن سماية المدرّس بالثّعالبية أيضاً، والشّيخ محمد السّعيد بن زكري مفتي المالكية وصاحب كتاب (أوضح الدلائل في إصلاح الزوايا ببلاد القبائل)، والشّيخ أبو القاسم الحفناوي صاحب

¹ - الأرشيف الوطني لما وراء البحار، تقرير بتاريخ: 22 جانفي 1941م:

(A.N.O.M,Aix-en-Provence, 91505/52)

² - عبد الرّحمن زعتوت، زاوية سيدي عمرو والحاج، مرجع سابق، ص 8.

³ - مدرسة الثّعالبية: هي إحدى المدارس الرّسمية الثّلاث للتعليم الإسلامي الفرنسي التي تتولى تكوين الأئمة والقضاة والمدرسين. كان مقرها عند التأسيس سنة 1850م في مدينة المدية ثم نُقلت إلى البليدة ثم إلى الجزائر في سنة 1859م. ولضيق المكان نُقلت في سنة 1904م إلى مبنى جديد أنشئ بجوار ضريح "سيدي عبد الرحمن الثّعالبي"، وأصبحت تحمل اسم المدرسة الثّعالبية.

كتاب (تعريف الخلف برجال السلف)، والشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة، وهو من أوائل رجال النهضة والإصلاح في الجزائر، وغيرهم. وكان هؤلاء الأعلام يكوّنون ما يُعرف بكتلة المحافظين¹.

وفي هذه المدة أيضا ظهر بالعاصمة بعض النوادي والجمعيات الثقافية، وصدرت بها بعض الصحف، وكانت صُحف الشُّرق مثل "المنار" تصل إلى بعض مثقفيها بطريقة أو بأخرى، وأفكار الإصلاح والتجديد التي نادى بها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده تعرف طريقها إلى الجزائر عبر هذه الصحف وغيرها من المطبوعات الشرقية، رغم الرقابة الشديدة التي يفرضها الاستعمار على مثل هذه الأمور آنذاك. وفي سنة 1903م نزل الشيخ محمد عبده بالمدينة زائرا، فكان لزيارته وما رافقها من لقاءات ودروس ومحاضرات، أثر فكري ومعنوي في أوساط المثقفين بالجزائر².

وهنا تجدر الإشارة إلى أننا لم نتوصل إلى معرفة تاريخ انتقال الشرفاوي إلى العاصمة، ولا الفترة التي أقامها بهذه المدينة على وجه التحديد، لغياب المعطيات والوثائق، والرّاجح أن يكون ذلك بين آخر تسعينات القرن التاسع عشر، ومفتتح القرن العشرين، وكان إذ ذاك في بداية العشرينات من عمره.

ومهما يكن الأمر، فإنّ المؤكّد هو أنّ الشرفاوي قد قضى بالعاصمة سنتين³ أو أكثر، احتك خلالها بجوّها الثقافي، وتعرّف على الكثير من طلابها وعلمائها وفقهائها⁴، وتلمذ على يد أحد أبرز علمائها في هذه الفترة، وهو الشيخ عبد القادر المجاوي، ولا ندري إذا كانت دراسته عليه في المدرسة الثعالبية التي كان المجاوي إذ ذاك مدرّسا رسميا فيها، أم

¹ - من أهداف الكتلة المحافظة: الدفاع عن الثقافة الإسلامية واللغة العربية، ومعارضة السياسة الفرنسية الرامية إلى محو الشخصية الوطنية وإدماج الجزائر في فرنسا. للمزيد في الموضوع أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 3، 1986، ص 152.

² - كانت الزيارة في شهر سبتمبر، ودامت عشرة أيام فقط، لكن مع ذلك كانت حدثا ذا أهمية وآثار طيبة في نفوس الناس خاصة علماء الجزائر الذين التقاهم. وكانت خلاصة نصائح الإمام لجلسائه خلال الزيارة: الجدّ في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية، لأنّه رأى أن لا نهضة لأمة إلاّ بالعلم، وأنّ كل معركة سياسية تسبق النهضة العلمية والتربوية لن تأتي بالثمار الطيبة المرجوة!

³ - قال بهذا حسن علي، (ضمن كتاب: يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج 1، مرجع سابق، ص 314. أيضا: محمد نسيب (من طلبة الشرفاوي) في كتابه: صرخات الحق المظلوم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د.ت، ص 162.

⁴ - حسن علي، ضمن كتاب أعلام الفكر والثقافة، المذكور سابقا، ص 314.

درس عليه خارجها، والغالب على الظنّ هو أنّ ذلك كان في بعض مساجد العاصمة التي كان الشّيخ المجاوي يُدرّس بها للعامّة¹، وربما في حلقات خاصة أيضا كان يعقدها الشّيخ لطلّبتة، ونحن نرجّح هذا الرّأي، لاعتبارات عدة نوجزها في الآتي:

أولا- أنّ التّسجيل في المدرسة الثّعالبية لا يُتاح إلّا لحاملي الشّهادة الابتدائية، وبعد اجتياز امتحان القبول²، ونحن نجزم بأنّ الشّرفاوي لم يدخل قطّ المدرسة الفرنسية.

ثانيا- انتماء الشّرفاوي لأسرة ثورية، أو على الأقل غير معروفة بولائها للاستعمار، يجعلنا نستبعد احتمال قبوله في هذه المدرسة التي يُنتقى طلبتها بعناية.

ثالثا- عُرف الشّرفاوي بطبعه الثّائر، ونفوره من الاستعمار وكل ما له علاقة بالاستعمار، وهذا - في رأيي - يجعل احتمال انخراطه في مدرسة رسمية حكومية تُعدّه لتولي وظيفة دينية تحت السّلطة الفرنسية أمرا مستبعدا جدا.

على أنّ الاحتمال الذي يبقى واردا هو أنّ يكون الشّرفاوي قد درس بعض الوقت في مدرسة الثّعالبية كمستمع حر، أي أنّه لم يُسجّل بها بصفة رسمية، ذلك أنّ الوالي العام، حين رأى عزوفا عن التّسجيل في المدارس الرّسمية الثّلاث، رغم الإصلاحات التي أدخلها مرسوم 1895م على مقرّرات هذه المدارس، أصدر مقرّرا بعث به لعمال العمالات يرخص فيه لصنف من الطّلبة الذين لا تتوفّر فيهم شروط التّسجيل بقبولهم كمستمعين، على أن يتابعوا دروسا في اللّغة الفرنسية في المدرسة أو الدروس المسائية المخصّصة للكبار خارجها³. وإذا صحّ هذا الأمر، أي انخراطه في الثّعالبية كطالب حرّ، فإنّه يكون قد حضر دروس المجاوي في المدرسة، فضلا عن دروسه خارجها.

¹ - هذا ما ذهب إليه الأستاذ محمد الصّالح الصّديق في مقابلي معه بتاريخ: 2013/08/26، وسجله أيضا في تقديمه لكتاب: إثبات هلال رمضان، طبعة 1955، صفحة (ب)، وأيضا في مقاله عن الشّرفاوي في مجلة الثقافة، عدد 22، أوت - سبتمبر 1974م، ص 10. غير أنّه في كتابه: الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، حياته وآثاره، الذي صدر عن دار الأمة سنة 1998م، ذكر أنّ الشّرفاوي التحق بالمدرسة الثّعالبية، فواظب على دروس المجاوي فيها، كما درس عليه خارج المدرسة، ولما راجعته في الأمر رجّح أن تكون دراسة الشّرفاوي على الشّيخ المجاوي خارج الثّعالبية.

² - هذا ما نصّ عليه مرسوم 1895/07/23م، القاضي بإعادة تنظيم المدارس الرّسمية الثّلاث. أنظر في ذلك: جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار 1830-1944م، (منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954)، مطبعة دار هومة، الجزائر، د-ت، ص 177.

³ - أنظر: جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر، مرجع سابق، ص 182-183.

ولا ندري أيضا أين كان الشرفاوي يقيم خلال هذه المدة، إذ لم يكن له في مدينة الجزائر لا أهل ولا أقارب يأوي إليهم¹، فهل كان يتدبر أمر مبيته ومعيشته بنفسه، على ما في ذلك من مشقة وتكلفة يصعب على مثله توفيرها؟ أم أنه كان يسكن في بعض المساجد التي تحتوي على حجرات لإيواء الطلبة الغرباء عن المدينة؟ وهذا موجود آنذاك، إذ هناك عقارات عبارة عن أوقاف محبوسة لفائدة المساجد. وفي كل الأحوال، فإن حياة الشرفاوي في هذه المدة لم تكن سهلة، إذ لم يستطع التفرغ تماما لطلب العلم، فكان عليه أن يقرأ، وفي الوقت ذاته يقوم ببعض الأعمال ليؤفر بعض المال يسدّ به حاجاته الضرورية²!

5- تأثره بأستاذه المجاوي

الشيخ عبد القادر المجاوي³ أبرز علماء النهضة الجزائرية في مطلع القرن العشرين، امتحن التدريس في قسنطينة ثم في الجزائر العاصمة مدة تجاوزت الأربعين سنة، تخرّج على يده جيل من الأئمة والقضاة والمدرسين. كان المجاوي واسع العلم، خبير بأساليب التربية والتعليم، يُلقي دروسه بأسلوب جميل يحببها للطلبة فيصغون إليها باهتمام كبير، ويذكي غرامهم بالعلم بوجودان حبّ العلم المتأجّج فيه، وبِحجّته وتحريضه في كل مناسبة على القراءة والاعتماد على

¹ - محمد عبد الرحمن قازو، نجل الشيخ الشرفاوي: شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

² - نفسه. أيضا السيدة زهرة قازو، ابنة الشيخ الشرفاوي في مقابلي معها ببيتها العائلي بقرية الشرفة، بتاريخ: 2014/03/29.

³ - عبد القادر المجاوي: (1848-1914م)، ولد بتلمسان، وتوفي بقسنطينة. درس بمسقط رأسه، ثم بجامع القرويين بفاس المغربية، وبعد تخرّجه عاد إلى وطنه حوالي سنة 1870م. اشتغل بالتدريس في بعض مساجد قسنطينة، وفي 1898م وُظف كأستاذ في القسم العالي بالمدرسة الثعالبية. في 1908م عُين إماما خطيبا بجامع سيدي رمضان في حيّ القصبية. ساهم بفعالية في النهضة الثقافية الجزائرية بكتبه ودروسه ونشاطه في الصحافة وفي النوادي الثقافية، وصنّف عدة مؤلفات في فنون مختلفة، وقد أحصى له بعض الباحثين 18 عنوانا بين مطبوع ومخطوط. للمزيد عنه أنظر: عبد الرحمن دويب، الشيخ عبد القادر المجاوي التلمساني، حياته وأعماله، دار زمורה للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، المجلد الأول. أيضا: محمد الصّالح الصّديق، أعلام من المغرب العربي، ج1، موفم للنشر، الجزائر، ط 2، 2008، ص 39 وما بعدها. أيضا ما كتبه عنه عبد الرزاق بلعباس محقق كتاب: المرصاد في مسائل الاقتصاد، تأليف عبد القادر المجاوي وعمر بريهمات، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز جدة، (د.ت)، ص 52-64.

النفس في التحصيل¹. من مؤلفاته المطبوعة كتاب بعنوان (إرشاد المتعلمين)²، وهو كتاب صغير في حجمه، كثير الفائدة في وقته، حثّ فيه على التعلّم والإصلاح، ودعا من خلاله إلى اليقظة، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة³.

وإضافة إلى دروسه في المدرسة الرسمية (الثّعالبية)، كان المجاوي يُدرّس العلوم العربية والشّرعية في بعض مساجد العاصمة، مثل مسجد سيدي محمد الشّريف⁴، ومسجد سيدي رمضان⁵. حضر الشّيخ محمد الخضر حسين درسه في شرح الحديث الشّريف (الدين النّصيحة) خلال زيارته للجزائر سنة 1904م، فلاحظ أنّ له طريقة دقيقة ومركّزة، إذ يقتصر على تناول موضوعه من كل جوانبه دون أن يتعداه إلى موضوع آخر، أو يخلط ببعده ببعض، فاستحسن منه ذلك واستلهم منه الطريقة المثلى في التدريس⁶. ومما سجّله الشّيخ الخضر عن المجاوي أيضا قوله: « ولهذا الشّيخ أيضا خلقٌ عظيم نحمده عليه، وهو سلوكه في معاملة التلامذة طريقا وسطا، لا ينحطّ عن مكانة عزّة النفس، ولا يرتفع عن ساحة التواضع، تحمله عواطف النّسب العلمي عن العناية بشؤونهم، وبذل الوُسع في قضاء مآربهم، ويصدّه علوّ الهمة عن مجاراتهم فيما يزري بخطّته الشّريفة.. »⁷.

¹ - محمد علي دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر من 1921 إلى 1975م، ج 3، عالم المعرفة، الجزائر، ط 1، 2013، ص 50-51.

² - طُبِعَ الكتاب في القاهرة، مطبعة الوهبية، سنة 1877م، وهي السنة التي وُلِدَ فيها الشّرفاوي.

³ - عن محتوى الكتاب وأهميته، أنظر: سومية أولمان، دور الشّيخ المّجاوي عبد القادر وكتابه "إرشاد المتعلمين" في الصّمود الفكري بالجزائر، الديوان الوطني لحقوق المؤلّف، الجزائر، (د-ت).

⁴ - مما يؤكّد هذا ما أورده الشّيخ الخضر حسين عن زيارته إلى مدينة الجزائر في نوفمبر 1904م: « والتقينا بالعالم الشّهير الشّيخ عبد القادر المّجاوي بعد شهودنا مجلس درسه "جوهرة التوحيد" بمسجد سيدي محمد الشّريف.. وبعد صلاة التراويح ذهب الشّيخ ونحن في صحبته إلى جامع الشّريف، وأقرأ درسه الاعتيادي من "الأربعين النووية" في مجمع عظيم من الخاصة والعامة.. ثم عدنا إلى السمر ومعنا جماعة من التلامذة ». أنظر: محمد الخضر حسين، الرّحلات، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، المجلد الحادي عشر، الكتاب (22)، دار النوادر، دمشق، 2010، ص 38.

⁵ - هذا مما أفادني به الأستاذ محمد الصّالح الصّديق في مقابلي معه بتاريخ: 2013/08/26. لكن يجدر التنكير بأنّ المّجاوي عُيّن خطيبا في مسجد سيدي رمضان عام 1908م، أي بعد ذهاب الشّرفاوي إلى مصر، لكن هذا لا يمنع أنّ يكون المّجاوي ألقى دروسا تطوعية بالمسجد المذكور قبل هذا التاريخ.

⁶ - محمد الخضر حسين، الرّحلات، مرجع سابق، ص 38.

⁷ - نفسه، ص 38.

وبالفعل فقد كان المجاوي يهتم بتلاميذه، ويحرص على توجيههم، وتعبئة نفوسهم بحب العلم، ومما كان يردده أمامهم، وسجله الشرفاوي في بعض أوراقه، قوله: « لو أنّ الله تعالى بعث الشعور في مظاهر هذه الطبيعة، وأقدرها على الكلام، ما تمت في هذا الوجود سوى العلم والمعرفة ¹! ومما كان يردده على مسامع طلابه أيضاً، قوله: « تلقيتُ هذا العلم على أساتذة فحول، وأنا متأكد من أنّ جهودهم لم تذهب سدى ². وبالفعل فقد انتفع وتأثر به الكثير من طلابه، ويكفي المجاوي فخراً أن يكون من تلاميذه: الشيخ حمدان لونيسي³، والشيخ الشرفاوي الأزهرى، والشيخ السعيد الجري، والشيخ إبراهيم أطفيش، وغيرهم ممن أصبحوا بعد ذلك علماء أيضاً ساهموا في نهضة الجزائر العلمية والإصلاحية.

لقد واطب الشرفاوي على دروس الشيخ المجاوي ولازمه سنتين على الأقل، فانتفع كثيراً بعلمه، وتأثر بأخلاقه، ووقع تحت تأثيره المغناطيسي⁴! وأعجب الشيخ المجاوي بذكاء الشرفاوي، وبحبه للعلم، وتعلقه به، وتوسم فيه مستقبلاً علمياً زاهراً، فأخذ يغذيه دائماً بنصائحه وتوجيهاته⁵، وكان يقول له، وبمحضر الطلبة أحياناً: « إذا ظللت على سعيك هذا وراء العلم، فعماً قريب تتال منه حظاً عظيماً ⁶! ومما بقي عالقا بذاكرة الطالب عن أستاذه المجاوي ما أسداه له من توجيهات ونصائح غالية قبل ذهابه إلى الأزهر⁷.

6- فكرة الالتحاق بالأزهر

كان الشرفاوي كلما تقدم سنّه تغلغل حب العلم في قلبه، وطمحت نفسه للعلا، وتطلعت للمزيد من النقافة والمعرفة. فبعد أن نال حظاً وافراً من ذلك على أستاذه المجاوي، وأنس من نفسه القدرة على المضي في طريق العلم، والترقي في مدارجه، رأى أن يسلك طريق الهجرة لبلوغ مراده، لأنّ أفق العلم في بلاده محدود، بسبب الاستعمار الفرنسي الجائر الذي

1 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 17.

2 - حسن علي الجري، أعلام من بلادي (الجزائر)، ج 1، كتاب مرقون، ص 72.

3 - وهو من شيوخ الإمام ابن باديس.

4 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26.

5 - نفسه.

6 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 17.

7 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/10.

أغلق كل الأبواب في وجوه أبنائها، وحرّمهم من نور العلم والمعرفة، وهو يدعي أنّه ما جاء إلى هذه البلاد إلاّ ليُشعل شموع العلم، ويُخرج أهلها من ظلام الجهل.

ومن بين المعاهد الإسلامية المشهورة خارج الجزائر آنذاك: جامع الأزهر في مصر، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب الأقصى، اختار الشرفاوي التوجّه للدراسة في الجامع الأزهر، رغم أنّه أبعد هذه المعاهد عن الجزائر. وثمة مجموعة من العوامل الموضوعية يمكن أن تكون من وراء سلوكه هذا الطّريق، وإنّ بدا آنذاك صعباً، ومحفوفا بالمخاطر، وهي:

أولاً- شهرة الأزهر التي فاق بها غيره من المعاهد الإسلامية، إذ كان قبلة الأنظار لطُلاب العلم والمعرفة آنذاك، الذين يريدون مزيداً من التعمق والتبحر في مختلف العلوم الدينية واللّغوية. وربما كان الشرفاوي على علم بنظام الأزهر وما يوفّره من تسهيلات للطلبة الغرباء، إذ يُعطي لكل طالب جارية من الخبز، وثن الإدام، ومكاناً يسكن فيه في أحد أروقتة.

ثانياً- ليس ببعيد أنّ أستاذه المجاوي كان يذكر الأزهر في دروسه، وبنوّه بفضلّه، ويذكر مشاهير العلم الذين تخرّجوا منه¹، ومنهم طائفة من علماء الجزائر سبق لهم أن درسوا بالأزهر، وتلقوا العلم على كبار مشايخه وعلمائه، وهذا كله مما يثير همّة الشرفاوي ويحفزه للهجرة والدراسة في الأزهر الشريف.

ثالثاً- سُمعة الشّرق آنذاك، إذ كانت الصّحف الشّرقية التي تصل إلى الجزائر تحمل أخبار النهضة الأدبية والإصلاحية في الشّرق، وكان الشّيخ محمد عبده قد حلّ بالجزائر زائراً في سنة 1903م، وربما كان الشرفاوي، وهو طالب بالعاصمة، ممن استمعوا لبعض دروس الشّيخ عبده، أو وصلتته أصداء هذه الزيارة، وهذا مجرد احتمال، لأنّنا لا نملك ما يثبت ذلك.

فمن المحتمل جداً، أنّ هذه العوامل مجتمعة، هي التي فجرت في نفس مترجمنا الرغبة الشّديدة في الالتحاق بالأزهر، دون أن ننسى حبه للعلم. والمهم أنّ الشرفاوي اهتم كثيراً بفكرة الأزهر، بل إنّ الأزهر قد شغل عقله، وتعلّقت به همّته، وفي الأخير صمّم على السّفر! لكن كيف السّبيل؟ والمسافة بعيدة، واليد فارغة، والاستعمار يحاصره ويمنع عنه

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 18.

وعن أمثاله من الجزائريين الهجرة من أجل الدراسة في أي بلد عربي، وهو لا يستطيع الحصول على المال اللازم ولا جواز السفر!

ظلَّ الشَّرْفَاوِي مدة يطارد اليأس من قلبه، ويُقَلِّب الأمر على وجوهه، وأخيرا فاتح أستاذه المَجَاوِي برغبته، وعرض عليه الفكرة والخطة، وهو على يقين بأنَّ أستاذه، بعلمه وتجربته في الحياة، سيفيده ويضيء له الطريق. وكانت الخطة أن يسافر بدون رخصة، وهو طريق محفوف بالمخاطر لا يسلكه إلا المغامرون بحياتهم، فكان الشَّرْفَاوِي من المغامرين الشَّجعان الذين لا تتثنى عزائمهم العوائق والعقبات مهما كانت، بل إنَّه يجد لذة في كسر كل عائق يعترض طريقه إلى العلم.

في بادئ الأمر أشفق الشَّيخ المَجَاوِي على الطَّالِب، فحاول أن يثنيه عن عزمته، فبصَّره بما سيواجهه من مشاق مضنية، وظروف قاسية، وذكره أنَّ السفر إلى مصر بلا رخصة مغامرة مجهولة العواقب، ومفتوحة على كل الاحتمالات، لكن لما رأى الشَّيخ إصرار الطَّالِب، وقوة إيمانه بالله، وظمأه للعلم، ورضاه بكل ما يواجهه من شدائد ومحن في سفره وأثناء إقامته بمصر، وأنَّ ذلك كله سيهون أمامه في سبيل العلم، أكبر فيه كل ذلك، وشجَّعه على المُضي في سبيله، وقال له:

إذن أوصيك بوصيتين¹:

أولاً- أحسن الظنَّ بالله سبحانه، واتقيه في السر والعلانية.

ثانياً- إنَّك ستواجه أهوالاً ومشاق كثيرة، وربما واجهت مهالك، فعليك بالصَّبر، فإنَّ الله لن يتخلى عنك.

ثم تلى عليه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾².

وصايا غالية أصغى إليها الطَّالِب باهتمام، ووعاها عقله وقلبه، فكانت له نعم الزاد في رحلته، بل وفي حياته كلها، حيث ظل يستضيء بها، ويدين لها بالفضل والتقدير، وظلت

¹ - محمد الصَّالح الصَّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م.

² - سورة النساء، الآية 99.

تعمل عملها في مشاعره وعواطفه طوال حياته، وكان هو الآخر يزود بها بعض طلبته الذين اغتربوا عندما كان أستاذا بالمعهد اليلولي¹.

¹ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 18.

الفصل الثّاني

الشّرفاوي في مصر

(1907-1933م)

أولاً- أوضاع مصر والأزهر وصور من معاناة الشّرفاوي أيام الطّلب

1- أوضاع مصر والأزهر

أ- أوضاع مصر السّياسية والثّقافية

ب- نظام الأزهر

ج- رواق المغاربة

2- صور من معاناة الشّرفاوي في سبيل العلم

أ- رحلة العذاب إلى مصر

ب- معاناة الشّرفاوي في أوّل عهده بالأزهر

ج- أحواله الصّعبة في رواق المغاربة

ثانياً- دراسته وأعماله في مصر

1- الشّرفاوي في الأزهر

أ- دراسته وشيوخه

ب- نيّله للشّهادة العالميّة

ج- قصة الرّسائل التي شيّبته!

2- مكوث الشّرفاوي بمصر وأهم أعماله فيها

أ- زواجه

ب- أهم أعماله في مصر

ج- حجه وما حدث له من تحوّل في مشاعره تجاه الوطن

لم تكن الجزائر وهي ترزح تحت نير الاحتلال لتسع طموح أمثال الشرفاوي فيما يريده من العلم، وما كان هو يقدر - بعد أن ذاق حلاوة العلم - الاكتفاء بما ناله من رصيد علمي في بلاده، لذلك لم يكن أمامه من سبيل يسلكه سوى طريق الهجرة، وكانت الوجهة التي اختارها هي الأزهر الشريف، رغم بُعد المسافة، وقلة ذات اليد، وكثرة العقبات التي يضعها الاستعمار أمام طلاب العلم الجزائريين آنذاك.

سافر الشرفاوي إلى مصر بطريقة كادت تُفضي به إلى الهلاك، وانخرط في الأزهر فعاش ظروفًا قاسية خلال سنوات الطلب، ولكنه كابد وصبر واجتهد في التحصيل حتى نال شهادة العالمية. وبعد تخرجه مكث بمصر مشغلاً بالتدريس والبحث والكتابة، متابعا لشؤون الوطن، ومشجعا لجهود أبنائه في سبيل الإصلاح والنهضة.

كان مجموع المدة التي قضاها الشرفاوي بمصر تزيد عن ربع قرن، وفضلا عن التكوين العلمي الذي أخذه من الأزهر ومن شيوخه فيه، فقد احتك بجو مصر السياسي والفكري، فأسهم كل ذلك في تكوينه، وإثراء تجاربه، وأثر في توجيه مساره الفكري والنضالي في المستقبل، وهذه مرحلة هامة من حياة الشرفاوي نعرضها في هذا الفصل.

أولاً- أوضاع مصر والأزهر وصور من معاناة الشرفاوي أيام الطلب

1- أوضاع مصر والأزهر

أ- أوضاع مصر السياسية والثقافية

حين حلّ الشرفاوي بمصر سنة 1907م كان قد مضى على غزو بريطانيا لمصر ربع قرن من الزمن، وكانت الساحة السياسية في مصر تتجاذبها ثلاث قوى سياسية¹: القوة الأولى وهي سلطة الإنجليز التي انتصبت في مصر منذ سنة 1882م، وسيطرت سيطرة تامة على أجهزة الإدارة والحكم، وأخضعت البلاد للحكم العسكري، وعملت على تصفية العناصر الوطنية، واهتمت بمشروعات الري والزراعة، وخصوصاً زراعة القطن لتكون مصر مزرعة تمد مصانع النسيج في بريطانيا بما تحتاجه من هذه المادة الخام². وقد عانى الشعب وعانت البلاد من هذه السلطة الاستعمارية، ولم تفِ إنجلترا بوعدها، إذ ادعت في البداية أنّ وجودها في مصر لن يطول، وأنها ستسحب منها بمجرد عودة الأمن إلى البلاد وإقرار سلطة الخديوي فيها.

القوة الثانية وهي سلطة الخديوي³ ويمثلها في هذه المدة عباس الثاني (1892-1914م). ومنصب الخديوي الذي أبقاه الإنجليز في مصر لم يكن في الحقيقة إلا صورة لسلطة شكلية لا قوة لها في الواقع، إذ لا يستطيع الخديوي فعل شيء إلا بأمر من المعتمد البريطاني في مصر، فهذا الأخير هو صاحب السلطة الفعلية في البلاد حتى لقب أحدهم وهو "اللورد كرومر"، بـ (ملك مصر غير المتوج).

أما القوة الثالثة فهي الحركة الوطنية المصرية التي كان عليها أن تواجه المستعمر الغاصب، بالإضافة إلى سلطة الخديوي بما هي عليه من ضعف وتخاذل أمام الإنجليز. وكانت الحركة

¹ - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، شوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، (دار الثقافة، القاهرة، 1997)، ص 254-283.

² - محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، (الإسكندرية، 1998)، ص 150.

³ - خديوي: هو اللقب الذي حمله حكام مصر من أحفاد محمد علي باشا بدءاً من عام 1866م، وأول من حمل هذا اللقب هو إسماعيل باشا.

الوطنية في مصر في هذه المدة يقودها مصطفى كامل¹، الذي أصدر جريدة "اللواء" (1900م)، وأسس أول حزب سياسي في مصر وهو "الحزب الوطني" (1907م)، وكانت أهم مبادئه استقلال مصر وجلاء الانجليز عن البلاد، ونشر التعليم، وتقوية العلاقات بين مصر والدولة العثمانية، وقد تجلّى نضاله في الخطابة والمقالات وتأليف الكتب، وسافر إلى الخارج من أجل التعريف بقضية وطنه، والتشهير بمساوئ الاحتلال وجرائمه². ولما توفي سنة 1908م، خلفه على رأس الحزب محمد فريد الذي سار في نضاله على نهج سلفه، وقد اضطلع وسُجن ونُفي خارج مصر (1912م)، لكنه واصل نضاله في سبيل قضية وطنه في تركيا وأوروبا إلى أن مات مشرداً في برلين سنة 1919م.

وإلى جانب الحزب الوطني، عرفت مصر في مطلع القرن العشرين أحزاباً سياسية أخرى بعضها وطني معتدل، وبعضها موالٍ للإنجليز. من الصنف الأول حزب الأمة، تكوّن في سنة 1906م، وكانت صحيفة "الجريدة" هي المعبرة عن مبادئه، تولى رئاسة تحريرها أحمد لطفي السيد، وكان شعاره "مصر للمصريين"، ومن أهدافه المطالبة بالدستور والاستقلال عن الدولة العثمانية وإنجلترا، لكن دون أن يجاهر ببعائه للإنجليز³. وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية الذي أسسه في سنة 1907م صاحب جريدة "المؤيد" الشيخ علي يوسف، وهو مماليء للخديوي⁴. على أنّ الحزبين الأخيرين لم يحظيا بالتأييد الجماهيري مثل الذي حظي به الحزب الوطني.

ومن الصنف الثاني، أي الأحزاب الموالية للاحتلال، الحزب الوطني الحرّ (1907م)، وكان أنصاره من المهاجرين السوريين المتعاونين مع الاحتلال، وبعض المصريين الذين

¹ - مصطفى كامل: (1874-1908م)، شاب مصري، تابع تعليمه الثانوي بمصر والجامعي في كلية الحقوق بفرنسا، بدأ نضاله منذ كان طالباً في الثانوية، ولما أنهى دراسته وعاد إلى مصر وهب حياته لخدمة وطنه، يعتبر باعث الحركة الوطنية في مصر، اشتهر بصدق الوطنيّة، وبعد الهمة والجرأة والفصاحة، أسس أول حزب وطني في مصر، عاش حياة قصيرة (34 سنة)، لكنّها مليئة بألوان متعددة من الكفاح. للمزيد عنه أنظر: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 1984.

² - للمزيد أنظر: تيودور رودستين، تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، ترجمة علي أحمد شكري، مصر، 1927، ص 488-489. عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص 376.

³ - عمر عبد العزيز عمر، دراسات، مرجع سابق، ص 376 وبعدها.

⁴ - نفسه، ص 410.

رشاهم الاستعمار للحد من نشاط الحزب الوطني، وكانت جريدة "المقطم" هي المعبر عن هذا التيار، وكذا حزب المصريين المستقلين (1908م)، وكان معظم أعضائه من الأقباط¹. وبينما كان الوطنيون في مصر يطالبون انجلترا بإنهاء الاحتلال والجلء، سارعت إنجلترا - مع قيام الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، وانضمام الدولة العثمانية إلى ألمانيا - إلى إعلان الحماية على مصر، وعزلت الخديوي عباس الثاني، وعيّنت مكانه حسين كامل وأعطته لقب "سلطان"، وكان ألعبوبة بيد الإنجليز! وقد مهدت سلطات الاحتلال لهذه الخطوة بإعلان الأحكام العرفية لتحقيق الهدوء ومنع الشعب المصري من الاحتجاج. ولأن الأزهر أحد المصادر الرئيسية التي كانت تُقلق الإنجليز، فقد سعوا لتعطيل الدراسة فيه، ولما فشلوا في ذلك عمدوا إلى إضعافه من خلال تقليص عدد الدارسين فيه². وأكثر من ذلك، طلب الإنجليز من مجلس الأزهر الأعلى أن يرسل منشورا دوريا إلى المعاهد الدينية في القاهرة والأقاليم لحض الطلبة على التزام الهدوء والسكينة، كما نشرت مشيخة الأزهر إعلانا دعت فيه الطلبة إلى الهدوء وعدم الخوض في الأمور السياسية، وأن يلزموا منازلهم بعد الساعة السادسة مساءً. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سعى حسين رشدي رئيس الوزراء آنذاك، إلى أن يصدر الأزهر بيانا يدعو فيه الشعب كله للامتنال للأحكام العرفية، وبالفعل صدر بيان باسم هيئة كبار العلماء يدعو الشعب إلى الهدوء والبعد عما لا يعينهم، والمقصود عدم الاشتغال بالأمور السياسية³! ولا شك أن صدور مثل هذا البيان في ذلك الوقت يعد مكسبا كبيرا للسلطة الإنجليزية التي مضت في تطبيق سياستها القمعية في مصر، فمنعت الاجتماعات، وضيقت على الصحافة، وألغت الأحزاب، وسخرت اقتصاد البلاد لخدمة مجهودها الحربي، وجنّدت الآلاف من الشباب لخدمة الجيش الإنجليزي المحارب، وفرضت على الشعب أعمال السخرة في تعبيد الطرق

¹ - نفسه، ص 413-414.

² - كان عدد طلبة الأزهر في ذلك الوقت 8222 طالبا، فتم - تحت ضغط الإنجليز - فصل 3006 طالب بحجة عدم انتظامهم في الدراسة واشتغالهم بغير طلب العلم، واعتبروا الاشتغال بالسياسة اشتغالا بغير العلم، ثم قاموا بتخريج ألف طالب في امتحان عُقد على عجل، وبذلك انخفض عدد الطلبة إلى النصف! أنظر: سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصرية، سلسلة كتاب الهلال، (دار الهلال، مصر، العدد 431، نوفمبر 1986)، ص 252.

³ - نشر البيان في 10 نوفمبر 1914م، وأمضاه 12 من هيئة كبار العلماء و15 من العلماء. أنظر نص البيان في: سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصرية، مرجع سابق، ص 255-256.

وحفر الآبار ومدّ أنابيب المياه، وغير ذلك من الأعمال التي أحسّ بوطأتها الشعب بكافة طبقاته فكان لابد من قيام الثورة¹.

فبمجرد انتهاء الحرب قرّر الوطنيون إرسال وفد إلى باريس لعرض قضية بلادهم في مؤتمر الصّح، لكن السّطات الإنجليزيّة رفضت سفر هذا الوفد إلى باريس، واعتقلت رئيسه سعد زغلول² وثلاثة من زملائه، وفتهم إلى جزيرة مالطة، فأدى ذلك إلى قيام ثورة شعبية عارمة في مارس 1919م، بدأت بقيام مظاهرات طلابية في المدارس والأزهر هتفت بحياة "سعد" وحرية مصر، فلما قمعت السلطات الإنجليزيّة المظاهرات بالرصاص أضرب المحامون والموظفون، وثار الفلاحون في الرّيف، وعمّت الثورة سائر مدن مصر وقراها. ورغم موقف الأزهر السّابق الذي اتسم بالسلبية تجاه الاحتلال عند إصداره البيان، إلا أن الأزهر سرعان ما نهض واستعاد مكانته وتأثيره على الناس مرة أخرى، وظهر ذلك جليا في دوره الريادي أثناء ثورة 1919م. «.. فقد كان الأزهريون في مقدمة صفوف المتظاهرين، ومن أكثر الطلبة جرأة وحماسة وتضحية، ومن أشدّ العاملين على بث روح الثورة والإضراب في طبقات الشّعب، وكثيرا ما كانت المظاهرات تبدأ من الأزهر، هذا إلى أنّ الاجتماعات العامة كانت تُعقد فيه غالبا، فكان يموج كل مساء بالألوف المؤلّفة لسماع الخطب النارية والقصائد الحماسية تُلقى فيه ضد الاحتلال والحماية، فكان يتعاقب على المنبر الأزهريون وطلبة المدارس، وبعض العلماء والقساوسة والمحامين والصحفيين والعمال وغيرهم من مختلف الطبقات والجموع تؤمّه وقت إلقاء الخطب، فيضيق فناء المسجد على سعته، وفيه كانت تُدبّر المظاهرات وتُرسم الخطط..!»³.

وتحت ضغط الثورة اضطرت إنجلترا إلى العفو عن سعد والسماح له بالسّفر إلى باريس على رأس الوفد المصري، ولما خابت آمال المصريين في مؤتمر الصّح، تابع الشّعب ثورته، وقاطع البضائع الإنجليزيّة، فخشيت إنجلترا من تقاوم الوضع فلجأت إلى المراوغة، فأرسلت لجنة

¹ - إسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج 2، دار المريخ، الرياض، 1983، ص 32.

² - سعد زغلول: (1857-1927م)، رجل قانون، تعلم في الأزهر، كان له اتصال بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، اشترك في ثورة أحمد عرابي، تولى منصب وزير العدل، ووزير المعارف. انفرد بقيادة الحركة الوطنية ما بين 1919-1927م، أسس حزب الوفد 1918م، وترأس الوزارة المصريّة 1924.

³ - سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصريّة، مرجع سابق، ص 261.

"ملنر"، ثم أصدرت في 28 فيفري 1922م تصريحاً يلغي الحماية ويعترف باستقلال مصر¹، وفي نفس السنة أعلن أحمد فؤاد² أنّ مصر دولة ملكية مستقلة، غير أنّ هذا الاستقلال لم يكن كاملاً، إذ كان مشروطاً بتحفظات، ومهدداً بين حين وآخر بالطغيان من ناحية المستعمر تارة، وأخرى من ناحية القصر، ولم تتخلص مصر نهائياً من النفوذ الإنجليزي، ومن فساد الملكية إلا بعد ثلاثة عقود من الزمن! تلك هي البيئة السياسية التي عاشها مترجمنا في مصر، فماذا عن البيئة الثقافية؟

يجدر التذكير بأنّ مصر تعتبر من أوائل البلدان العربية التي ظهرت بها النهضة الثقافية الحديثة، إذ تعود بداياتها إلى محاولات الإصلاح والتحديث التي قام بها محمد علي باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وبرغم الاحتلال الذي وقع سنة 1882م، فإنّ الحركة الثقافية في مصر ظلت نشطة، إذ كانت تسير جنباً إلى جنب مع الحركة الوطنية السياسية. ومما ساعد على ذلك وجود الأزهر الذي يهتم بتعليم علوم العربية والشريعة، ووجود الجامعة³ وكثير من المدارس والمعاهد التي تُدرّس العلوم العصرية، إضافة إلى الصحف والمجلات والنوادي التي تنشر الثقافة وتوجّه الرأي العام، والمطابع التي تنشر كتب التراث العربي الإسلامي وكتب العلوم الحديثة التي يترجمها المختصون من أعضاء البعثات العلمية الذين عادوا من أوروبا.

ومن ناحية أخرى كان لأفكار التجديد والإصلاح الديني التي نادى بها الأستاذ جمال الدين الأفغاني⁴ الذي وفد إلى مصر، وتلاميذه وفي مقدمتهم الشيخ محمد عبده¹، وكذا

¹ - رأفت غنيمي الشّخ، التاريخ المعاصر للأمة العربية الإسلامية 1416 - 1992، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1992، ص60.

² - تولى الحكم بعد وفاة حسين كامل 1917م.

³ - عارض الإنجليز فكرة تأسيس جامعة في مصر، وحاولوا عرقلة المشروع، لكن المشروع تحقق بفضل تبرعات الشعب المصري، ومساعي بعض الشخصيات مثل: مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول، وافتتحت الجامعة سنة 1908م، وهي أولى الجامعات الحديثة في الوطن العربي.

⁴ - جمال الدين الأفغاني: (1839 - 1897م)، مفكر ومصالح نائر، وفيلسوف الإسلام في عصره. جال الشرق والغرب داعياً المسلمين إلى الوحدة ومقاومة الاستعمار الغربي، جريء في مواقفه مع الحكام المستبدين، صاحب جريدة "العروة الوثقى" التي أصدرها في باريس رفقة تلميذه محمد عبده، حظيت دعوته بانتشار واسع في أرجاء العالمين العربي والإسلامي. زار مصر أول مرة سنة 1870م، ثم عاد إليها في مارس 1871م، وأقام بها حتى 1879م، فكان له تأثير في جيل كامل من المثقفين والأدباء.

انتاج كبار الأدباء والشعراء أمثال: أحمد شوقي (1868-1932م)، وحافظ إبراهيم (1871-1832م)، كان لكل ذلك دوره في إحداث اليقظة الفكرية والسياسية في مصر. وأيضا انتقال جماعة من أدباء الشام ومفكريها إلى مصر بسبب استبداد الحكام بالشام، نذكر منهم: الشيخ رشيد رضا²، تلميذ الإمام محمد عبده وصاحب مجلة "المنار"، وجورجي زيدان مؤسس مجلة "الهلال"، وسليم بشارة تقلا مؤسس جريدة "الأهرام"، ويعقوب صروف وفارس نمر مؤسس مجلة "المقتطف"، والشيخ طاهر الجزائري³ الذي لجأ إلى مصر واستقر بها إلى قبيل وفاته سنة 1920م، إذ ساهم هؤلاء في إنعاش الحركة الثقافية في مصر.

فهذه الروافد مجتمعة ساهمت في إحداث جوٍ من الحيوية الأدبية والفكرية في مصر، ربما لا مثيل له في بلاد عربية أخرى آنذاك، وقد وصف شاهد عيان جزائري وهو الشيخ المولود الزريبي هذا الجو الثقافي، بعد أن قضى سنوات بمصر طالبا بالأزهر، فقال: «.. إن مصر هي معدن الأدباء، ونادي الضرفاء، وما لها بدل فيما رأت عيني، فقد رأيت بها المحاسن ما لا تحيط به العقول، سيما المدارس الفخمة التي هي منبع الفحول، ولا أظن أنه

¹ - محمد عبده: (1849-1905م)، من رواد حركة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث. عالم أزهري، رافق الأفغاني وتلمذ عليه، ناصر ثورة أحمد عرابي، فسجن ونفي إلى الشام، ومنه التحق بأستاذه في باريس فأصدرا معا جريدة العروة الوثقى. عاد إلى مصر سنة 1889م فتولى منصب القضاء، ثم عين مفتيا للديار المصرية. ناد بإصلاح المؤسسات التعليمية والدينية. وفضلا عن مؤلفاته العديدة، ترك الشيخ عبده تلامذة كثيرون ساهموا في النهضة الفكرية وفي قيادة الحركة السياسية في مصر.

² - محمد رشيد رضا: (1865-1935م)، حلّ بمصر سنة 1897م، وأصدر في العام التالي مجلة المنار التي استمرت في الصدور إلى وفاته. لازم الشيخ محمد عبده وتأثر به واعتنق أفكاره في الإصلاح والتجديد الديني.

³ - الشيخ طاهر الجزائري (1851-1920م): ولد في دمشق من أب جزائري مهاجر من زاوية، أصبح من أعلام النهضة في المشرق، تدين له نهضة الشام، ويكفي أنه ألف العديد من الكتب، وساهم في الصحف، وأنشأ عددا من الجمعيات والمكتبات، وتولى وظائف معظمها علمية وتعليمية، وأخرج تلاميذ أبرزهم: محمد كرد علي، ومحب الدين الخطيب، وسعيد الباني، وابن أخيه سليم الجزائري. هاجر سنة 1907م من سوريا فرارا من اضطهاد الأتراك، ولم يرجع إليها إلا عند قيام حكومة فيصل في أواخر 1919م، لكن توفي في فاتح العام الموالي. عنه أنظر: عدنان الخطيب، الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من مدرسته، معهد البحوث والدراسات العربية، 1971. أيضا: حازم زكريا محي الدين، الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، سلسلة علماء مفكرون معاصرون (3)، دار القلم، دمشق، ط 1، 2001.

يحاكيها في هذا الوقت قطر من الأقطار، وسائر المطبوعات العلمية المستعملة عندنا اليوم لا تصدر إلاّ منها، إلاّ نادراً..»¹.

هذا هو بصورة عامة وموجزة المناخ السياسي والثقافي العام للمجتمع المصري أثناء تواجد الشرفاوي بمصر، وقد عاش مترجمنا هذا المناخ بكل ما فيه من أفكار وأحداث وقضايا، ولا شك أنّ الكثير من ذلك تسرّب إلى وعيه، وأثر في تفكيره.

ب- نظام الأزهر

الجامع الأزهر بالقاهرة، مسجد عظيم، أصبح بعد فترة وجيزة من تأسيسه² - إلى جانب كونه مكانا للعبادة والصلاة - جامعة إسلامية كبرى تُدرّس فيها مختلف العلوم الدينية واللغوية والعقلية³، وفُتحت أبواب الجامع لطلاب العلم من البلاد الإسلامية الأخرى للالتحاق به، وكانت دراسة العلوم الدينية فيه تجري على المذهب الشيعي، واستمر الأمر كذلك إلى العهد الأيوبي، إذ كان الأيوبيون من أهل السنة، فجعلوا المذاهب السنية الأربعة هي التي يتم بمقتضاها تدريس العقيدة والفقهاء⁴. والأزهر في تاريخه الطويل قد مرّ بمراحل كثيرة، ازدهر في بعضها، وانتكس أمره في بعضها الآخر، والمقام هنا لا يتسع للكلام عن هذا التاريخ الذي يمتد لأكثر من ألف عام⁵، لكن نقتصر على ما يخدم بحثنا، وهو نظام التدريس في الأزهر، وقوانين الإصلاح التي صدرت لتنظيمه في آخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

كان نظام التدريس المتبع في الأزهر نظام الحلقات الدراسية التي تُقام في صحن المسجد، وفيها يجلس الأستاذ مسنداً ظهره إلى أحد أعمدة المسجد، ويتحلق حوله الطلاب

¹ - المولود بن محمد الزريبي، بدور الأفهام أو شמוש الأحلام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام، المطبعة التونسية، تونس، 1334 هـ، ص 60.

² - تأسس الأزهر بمصر أيام انتقال الفاطميين إليها من المغرب، على يد قائدهم جوهر الصقلي، شرع في بنائه سنة 359هـ/ 970م، وتم بناؤه في عامين، وانفتح للصلاة في يوم 7 رمضان من سنة 361هـ/ 972م.

³ - عُقدت أول حلقة تدريس في الجامع عام 378هـ/ 988م.

⁴ - الموسوعة العربية العالمية، (1)، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط 2، الرياض، 1999، ص 588.

⁵ - للمزيد عن تاريخ الأزهر ودوره التربوي والفكري والسياسي أنظر: محمد كامل الفقي، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، مكتبة النهضة، مصر، ط 2، 1965. أحمد محمد عوف، الأزهر في ألف عام، (سلسلة البحوث الإسلامية، مطبعة الأزهر، القاهرة، 1970). محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر يحكي قصته في ألف عام، دار الوفاء، الإسكندرية، ط 1، 2002. سعيد إسماعيل، دور الأزهر في السياسة المصرية، مرجع سابق.

للاستماع إلى الدرس. وكان الطالب يلتحق بالأزهر مختاراً دون التزام بسن معينة، يختلف إلى من أراد من العلماء لتلقي العلم عنه، ويقيم فيه ما شاء أن يقيم، وهو غير ملزم بالانتظام في الدراسة، فقد ينقطع عنها لفترة ثم يعود إليها. والطالب إذا أصبح أهلاً للتدريس استأذن أساتذته، وجلس للتدريس حيث يجد مكاناً خالياً، وعرض نفسه على الطلبة، فكانوا إذا لم يجدوا فيه الكفاية للإفادة انفضوا عنه، وإذا التقوا حوله، ولزموا درسه، ووثقوا فيه، فتلك شهادة بصلاحيته للتدريس، بعدها يجيزه شيخ الأزهر، فيحصل على شهادة الإجازة في التدريس¹.

والملاحظ أنّ الأزهر رغم شهرته كمؤسسة علمية إسلامية كبرى، فقد تأثر بطابع التخلف الثقافي الذي خيم على العالم الإسلامي في أواخر العصور الحديثة، فكانت الدراسة فيه تكاد تقتصر على علوم اللغة والدين، في حين أهملت العلوم الأخرى التي عرفت تقدماً في أوروبا. ومع أنّ مصر عرفت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، على يد حاكمها محمد علي باشا، حركة تحديثية أدت إلى إدخال نظم التعليم الغربية في مدارسها، فإنّ الأزهر ظل حتى أواخر هذا القرن كما كان، بعيداً عن هذه التطورات، فلا قوانين تُنظم سير العمل، ولا لوائح تنظيمية تحدد المناهج والفرق الدراسية وسنوات الدراسة والامتحانات.. الخ. وأول قانون صدر بتطوير الأزهر كان سنة 1288هـ/ 1872م²، في عهد الشّيخ محمد العباس المهدي، شيخ الأزهر أيام الخديوي إسماعيل، وقد نصّ القانون على تنظيم طريقة نيل شهادة العالمية، بإجراء امتحان شفهي أمام لجنة من ستة علماء بالأزهر يختارهم شيخ الأزهر، وقسم الناجحين

¹ - للمزيد في الموضوع أنظر: التعليم الإسلامي في مصر، نور الإسلام، (مجلة تصدرها مشيخة الأزهر)، الجزء الأول، المجلد الرابع، 1352م، ص 57.

² - إنّ أول من طالب بإصلاح الأزهر ودفعه في طريق المشاركة في التطور العلمي والنهضة الحديثة هو رفاة الطّهطاوي (1801- 1873م)، وهو مفكر مصري أزهري، أطلع على الفكر والثقافة الغربية وخاصة الفرنسية أثناء إقامته بفرنسا حين عُيّن مرشداً لأول بعثة طلابية أرسلها محمد علي باشا إلى فرنسا سنة 1926م لتلقي العلوم الحديثة، إذ دعا في كتابه: "مناهج الألباب" (1869م) إلى ضرورة تطوير المناهج الدراسية في الأزهر بإدخال العلوم الحديثة التي سماها "العلوم الحكيمة العملية"، وقد أورد في كتابه المذكور ما دلّ على أنّ للأزهر في الماضي نصيباً كبيراً في تدريس العلوم المختلفة، من بينها الطب والفلك، جنباً إلى جنب مع العلوم الدينية، ونبّه إلى أنّ العلوم التي يظهر الآن أنّها أجنبية، هي في أساسها علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية. أنظر: رفاة الطّهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصرية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، 2012، ص 481 - 488.

إلى ثلاث درجات، وبيّن مواد الامتحان وهي إحدى عشرة مادة دراسية: الأصول، الفقه، الحديث، التفسير، التوحيد، النحو، الصّرف، المعاني، البيان، البديع، المنطق¹.

غير أنّ أبرز من اهتم بإصلاح شؤون الأزهر هو الشّيخ محمد عبده، فمنذ عودته من منفاه سنة 1889م أمسك الخوض في المسائل السّياسية وكّرّس حياته للإصلاح الديني والاجتماعي، وكان يرى أنّ نقطة البدء يجب أن تكون من الأزهر، وأن يكون إصلاح نظام التعليم فيه، وإخراجه من الجمود الذي ضرب حوله أول ما يتجه إليه التفكير²، وبالفعل تمكن من إقناع الخديوي عباس الثّاني³ بذلك، فأصدر في سنة 1313هـ/ 1895م قرارا بتشكيل مجلس إدارة الأزهر من كبار شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة، وكان الشّيخ محمد عبده أحد أعضائه، وأخذ الشّيخ عبده يحرك مجلس الإدارة للإصلاح، فنظم مرتبات المدرسين، ووضع لهم نظاما ثابتا لحضور الدروس بالأزهر، وحضور الطّلاب وانتظامهم، ووضع لائحة لكساوي التّشريف، وتنظيم الجراية، ومساكن الطلبة، والإشراف الصّحي عليهم، وحدد أوقات الإجازات، وقصّر العطلة الصيفية، ونظم مكتبة الأزهر، وأنشأ مكنتات في المعاهد الملحقة بالأزهر⁴. وبسعي منه أصدر الخديوي عباس الثّاني، رغم معارضة بعض شيوخ الأزهر المحافظين، قانون الإصلاح في عام 1314هـ/ 1896م الذي أدخل علوما جديدة تدرّس إلى جانب العلوم الأحد عشر، وهي: الأخلاق، مصطلح الحديث، الحساب، الجبر، العروض، القوافي، فقه اللّغة، الإنشاء، التاريخ الإسلامي، مبادئ الهندسة، تقويم البلدان، الخط، وجعل مدة الدراسة 12 عاما، فُسّمت إلى فترتين: الفترة الأولى مدتها ثمان سنوات، يُعطى الطالب بعدها شهادة "الأهلية"، والفترة الثّانية مدتها أربع سنوات يُمنح الطّالب بعدها شهادة "العالمية"⁵.

1 - أحمد محمد عوف، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق، 85-86.

2 - يجدر التذكير هنا أنّ الشّيخ محمد عبده سبق له أن درّس بالأزهر، ونال فيه شهادة العالمية سنة 1877م، وكان ساخطا على حال الأزهر ومناهج الدراسة فيه منذ كان مجاورا في هذا الجامع. أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ص 317.

3 - تولى الحكم بعد وفاة والده الخديوي توفيق سنة 1892م، وظل فيه إلى أن عزله الإنجليز سنة 1914م.

4 - أنظر: عباس محمود العقاد، عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده، القاهرة، د.ت، ص 120 وما بعدها. أحمد أمين، زعماء الإصلاح، مرجع سابق، ص 318. محمد كامل الفقي، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، مرجع سابق، ص 275-276.

5 - أحمد محمد عوف، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق، ص 86، 87.

والواقع أنّ استجابة الأزهر لضرورة الإصلاح والتجديد كانت بطيئة جداً، فقد توفي الشيخ عبده دون أنّ يحقق كل ما كان يصبو إليه من إصلاح وتجديد في الأزهر وغيره من المؤسسات التعليمية والدينية، بسبب تردد الحكام، ومعارضة شيوخ الأزهر المحافظين الذين رأوا في دعوته هدم لثوابت الأزهر التي بقيت لمئات السنين، وتسريب للتغريب في غطاء الإصلاح والتجديد! وحين صدر قانون 1908م الذي نصّ على إدخال جميع المواد التي كانت مقرّره في المدارس الحكومية، ماعدا اللغات الأجنبية، على مناهج الأزهر، لقي هذا القانون معارضة من قبل طلاب الأزهر، حيث أضربوا عن الدراسة، وطالبوا بإلغائه، وساندتهم في ذلك أساتذتهم، فاضطرت الحكومة إلى إلغاء العمل بهذا القانون، وإبقاء العمل بالقوانين السابقة¹.

كان أهم إصلاح عرفه الأزهر هو الذي جاء به قانون رقم 10 لسنة 1911م، فقد نص هذا القانون على إنشاء مجلس أعلى للأزهر، وهيئة لكبار العلماء، وجعل الدراسة في الأزهر والمعاهد الدينية التابعة له ثلاثة أقسام: أولي، وثانوي، وعالي، ومدة كل قسم خمسة أعوام على الأقل وسبعة على الأكثر، وأنواع الشهادات ثلاثة: أولية وثانوية وعالمية، ومن أقام بالمعاهد أقصى المدة المحددة لأي قسم من الأقسام الثلاثة ولم يحصل على شهادة ذلك القسم يُحى اسمه من سجلاتها². وحدد القانون العلوم التي تُدرّس في الأزهر والمعاهد التابعة له وهي: علوم دينية، وعلوم اللغة العربية، وعلوم رياضية وغيرها، وحدد القانون لكل قسم العلوم التي تُدرّس فيه³.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ تطبيق هذه القوانين الإصلاحية كان بصفة تدريجية، لذلك فقد أصبح التعليم في الأزهر منذ هذا التاريخ على نوعين اثنين، التعليم النظامي، ويُقصد

¹ - يرى بعض الباحثين أنّ من أسباب هذه الحركة الاحتجاجية لطلاب الأزهر إصدار وزارة المعارف لقانون إنشاء مدرسة للقضاء الشرعي سنة 1907م، وهي ثاني مدرسة تنافس الأزهر، بعد مدرسة دار العلوم (1872م) التي من مهامها إعداد مدرسي اللغة العربية الذين فضلتهم وزارة المعارف للعمل في مدارسها آنذاك، ومن البديهي أن يشعر الأزهريون أنّ الحكومة أصبحت في غنى عنهم، لأنّ لها مدرسة لتخريج معلمي العربية في مدارسها هي دار العلوم، ومدرسة لتخريج القضاة، فخاف القائمون على الأزهر من تقلص ظلّه، ومن عدم إقبال الناس عليه، حيث لم يبق بعد ذلك للعلماء سوى وظائف الإمامة والخطابة في المساجد. أنظر في هذا: سعيد إسماعيل علي، دور الأزهر في السياسة المصرية، مرجع سابق، ص 243-250.

² - أنظر: قانون الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، (مطبعة الجمالية، القاهرة، ط 1، 1329 هـ/ 1911م).

³ - تفصيل ذلك أنظره في المصدر نفسه، ص 7-8.

به الأقسام العلمية التي ظهرت بموجب قوانين الإصلاح، وفيه تدرس العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، وكذا العلوم الحديثة. وهو متاح للغرباء والمصريين على حد سواء، بشرط القدرة على الاستمرار والانتظام في جميع أقسامه، والتعليم غير النظامي، ويسمى أيضا بالقسم المؤقت، وهو الذي يسير وفق ما نصّ عليه قانون 1896م، وهو متاح أيضا للمصريين والغرباء، ومن خصائصه: أن الطالب فيه يمكنه أن يقطع مراحل التعليم في أوجز مدة بحسب حاله واستعداده، بينما لا يستطيع ذلك في أقسام الأزهر النظامية، كما أنّ العلوم المقررة فيه هي العلوم الدينية والعربية، أما غيرها من العلوم فللطلاب الخيار في دراستها، ويُعفى من الامتحان فيها في شهادة العالمية.

استمر الأزهر خاضعا لهذه القوانين، مع ما أُدخل عليها من التعديل في مواد التدريس، ونظام التعليم، إلى أن صدر قانون 1930م، في عهد الشيخ محمد الأحمدى الطواهرى¹، وقد جعل الدراسة في الأزهر أربع مراحل: ابتدائية وثانوية وعالية، ومرحلة التخصص. وجُعل للقسم العالى ثلاث كليات: كلية اللغة العربية، كلية لشريعة، وكلية أصول الدين². ونقل هذا القانون الطلاب من المسجد إلى المباني النظامية، وتطورت الدراسة من حلقات حول الأساتذة، إلى محاضرات تُلقى في المدرجات³.

هذا وقد عرف الأزهر تطوّرات أخرى بعد هذا التاريخ، وهي خارجة عن الإطار الزماني لبحثنا، لذلك نكتفي بالإشارة إلى أنّ أهم هذه التطورات هي تلك التي جاء بها قانون 1961م، إذ أصبح الأزهر بموجبه جامعة شاملة، تضم إلى جانب كليات اللغة والشريعة وأصول الدين، كليات أخرى مدنية، هي: كلية الهندسة والعلوم، كلية الإدارة والمعاملات، كلية الزراعة، كلية الطب، وكذا كلية البنات الإسلامية التي فتحت المجال لدخول الفتيات إلى هذه الجامعة العتيقة⁴.

¹ - محمد الأحمدى الطواهرى (1878 - 1944م)، شيخ الأزهر بين 1929 - 1935م، دعا في كتابه "العلم والعلماء" (1904م) إلى ضرورة إصلاح الأزهر، ودافع باستماتة عن الأفكار الإصلاحية للشيخ عبده. عنه أنظر: فخر الدين الأحمدى الطواهرى، السياسة والأزهر، من مذكرات شيخ الإسلام الطواهرى، (دار الشروق، ط 1، 2011).

² - للمزيد أنظر: التعليم الإسلامى في مصر، نور الإسلام، مرجع سابق، ص 60 وما بعدها.

³ - للمزيد عن إصلاح الأزهر أنظر: الصعدي عبد المتعال، تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ط 1، د-ت.

⁴ - محمد طنطاوي، "جامعة عمرها ألف عام"، مجلة العربي، العدد 70، يناير 1973م، ص 95. أيضا: الشيخ طه الولى، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1988، ص 524 ما بعدها.

ج- رواق المغاربة

عُرف طلاب العلم الذين يؤمّون الأزهر بالمجاورين، لأنهم يقيمون بجوار الأزهر، وهم ينقسمون إلى طوائف، بحسب البلدان التي يأتون منها أو حسب المذهب الفقهي، ولكل طائفة رواق خاص بها ملاصق للجامع¹، وبلغ عدد الأروقة خمسة وعشرون رواقًا، منها: رواق الصّعايدة، رواق الحرمين، رواق الشّوم، رواق المغاربة، رواق الأتراك، رواق الحنفية، رواق الحنابلة.. إلخ. وهناك رواق مخصّص للمكفوفين. وكان لكل رواق شيخ، وأوقاف خاصة به يُصرف على ساكنيه من ريعها، إذ يؤمّن الرواق لكل ساكن فيه ما يسمى "الجرابية"، وهي عدد من الأروقة يُعطاه الطالب كل يوم².

كان من بين أروقة الأزهر رواق المغاربة المخصّص للطلبة الوافدين من بلدان المغرب: طرابلس، تونس، الجزائر، والمغرب الأقصى، وهو - إلى جانب كونه مغاربيًا - كان معقلًا للمذهب المالكي³. يقع رواق المغاربة في الجانب الغربي من صحن الجامع بجوار رواق الأتراك، وفضلا عما فيه من مرافق لإيواء الطلبة، أُلحقت به مكتبة مهمة تعد الأكبر على الإطلاق من بين مكتبات الأروقة، تجاوز عدد كتبها ثمانية آلاف مجلد، وتتميّز باحتوائها على الكثير من نواذر المخطوطات⁴. ورواق المغاربة من أوائل الأروقة التي أنشئت في الأزهر، فقد أنشئ قبل عهد سلطان المماليك "قَيْتَبَاي" (1468-1496م) بفترة طويلة، فقد

¹ - يتكون الرّواق من حجرات متّصلة بأسوار الأزهر، ويُعد بجانبها محلاتّ الغسيل وأخرى للوضوء وغيرها لإعداد الطّعام، وتقام في الرّواق مجالس الذكر وحلقات العلم. أول من جعل لطلاب الأزهر رواقا يسكنون فيه الخليفة الفاطمي العزيز بالله ابن المعز، ثم أخذ الملوك والأمراء وأصحاب اليسار، مصريين وغيرهم، في تشييد الأماكن لسكنى الطّلاب.

² - لم يضع الأزهر أمام الطّلاب الوافدين أية عراقيل، إذ لم يشترط فيمن يريد الانتساب إليه إلّا شرط واحد وهو: أن يكون حافظا لربع القرآن الكريم على الأقلّ إذا كان من المغاربة أو الشّوم أو اليمنيين أو أهل الحرمين أو أهل بغداد، وأعفى الأعراب غير العرب من هذا الشرط، كالأتراك والأكراد والأفغان والهنود والجاوة، إذ لا يشترط فيهم إلّا معرفة التلاوة الصّحيحة في المصحف الشّريف. أنظر: إعلان شيخ الأزهر المحرر في ديسمبر 1913م، والمتضمن لشروط قبول انتساب طلبة العلم الغريباء بالجامع الأزهر وهو يستند إلى قرار المجلس الأعلى للأزهر بجلسته المنعقدة بتاريخ 6 نوفمبر 1913م، (ضمن أوراق وكالة وقنصلية فرنسا في مصر، أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية): صندوق 13، ملف 2، رقم: 353PO/2/72.

³ - حسام محمد عبد المعطي، "رواق المغاربة في الجامع الأزهر في العصر العثماني"، مجلة الروزنامة، الحولية المصرية للوثائق، العدد الثالث 2005، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006، 169.

⁴ - عبد الرحمن إسحق السيّد حسن، رواق المغاربة في الأزهر الشّريف في الفترة من (1214-1349هـ/1800-1930م)، دراسة تاريخية ووثائقية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأزهر، قسم التاريخ والحضارة بكلية اللّغة العربية بأسبوط، 2017، ص 30.

وُجد مكتوبا على بابه: « أَمَرَ بتجديده مولانا وسيّدنا السلطان الملك الأشرف "قيتباي" »¹.
والأمر بتجديد الرواق يعني أنّ الرواق كان قائما قبل عهد "قيتباي" بفترة طويلة حتى احتاج
إلى تجديده.

لقد وَجد الرواق العون المادي من حكام وأعيان مصر، ومن التجار المغاربة بها، ومن
المحسنين والمشجعين للعلم من أمراء وأثرياء البلدان المغربية عبر القرون، حتى غدا من
أغنى أروقة الأزهر أوقافاً²، وكان أهمها ما يُعرف بالوقف الكبير الموقوف على العلماء
والطلاب المنتسبين إلى الرواق، وكذا مصالح الرواق، وهو يتكون من مجموعة كبيرة من
المنازل والمحلات الواقعة في عدة شوارع من القاهرة مثل: بني سويف، الغورية، الأشرفية،
النحاسين، سوق اللّيمون، حارة الروم.. إلخ، والوقف الصغير الذي يتكون من أوقاف خاصة
بطائفة معينة من مجاوري الرواق، مثل وقف المزيّن ووقف التاجوري، أو أنها أوقاف مشتركة
بين رواق المغاربة وجهات أخرى مثل وقف يعقوب باشا صبري³. ويتولى شؤون رواق
المغاربة شيخ يُختار بواسطة طلاب وعلماء الرواق ثم يُرسم هذا الاختيار من قبل شيخ
الأزهر، ولما كانت الغلبة في الفترة المعنية بالدراسة للطرابلسيين، فقد كان شيوخ الرواق
منهم، فحين حلّ الشرفاوي بالأزهر كان على رأس رواق المغاربة الشيخ علي صالح
الفزاني⁴، وخلفه في 1914م الشيخ محمد التاجوري إلى سنة 1922م، وبعده تولى مشيخة
الرواق الشيخ عبد الله الرُّجَيْبِي إلى سنة 1946م⁵.

وكانت الجارية والمرتبّات النقدية في الرواق تُوزّع منذ القديم على ستين طالبا على أنّهم
مستحقون، أما من جاء بعدهم فينتظر خلو المكان في الستين بانتقال أحدهم ليُدخله

¹ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517 - 1798)، دراسة في تأثير
الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات
الجامعية، (الجزائر - تونس)، 1982، ص 100.

² - نفسه، ص 100.

³ - *Extrait du règlement du Riouak Magrébin, Mosquée d'El- Azhar, publié aux frais du cheikh du
Riouak 1910, (A.D.C, série K, carton 56, dossier 1, N° 65CPCOM/11). Voir assi: Agence et
consulat General de France en Egypte, Traduction du Rapport de Mohamed Abou Nasr El
Barada, 14/08/1912, A.E, Carton 13, Dossier 2, N° 353PO/2/72.*

⁴ - علي صالح الفزاني، من طرابلس، ليبيا، تولى مشيخة الرواق مدة 18 سنة، وعلى فترتين: (1886 - 1887م)،
(1896 - 1913م).

⁵ - عرفنا هذا من خلال وثائق الأزهر.

مستحقاً على حسب الترتيب الانتسابي الأول فالأول، فانقسم الطلبة بهذا الاصطلاح إلى طائفتين: مستحقين ومنتظرين¹، ولما قام أهل البذل والعطاء بوقف الأوقاف على طائفة من المنتظرين، كمساعدة لهم بعد استئثار طائفة المستحقين بالمرتبات والجرایات، أصبح طلبة هذا الرواق ينقسمون من حيث الاستحقاق إلى ثلاث فئات هي:

- طلبة الرتبة الأولى (المرتّبون)، وهم الأقدم، وعددهم ستون (60)² يتقاضون جرايتهم من الوقف الكبير.

- طلبة الرتبة الثانية (المتطوّعون)، وعددهم عشرون ويتقاضون جرايتهم من الوقف الصغير.

- الطلبة المنتظرون، وهذه الفئة غير محصورة بعدد معين، وهم لا يأخذون شيئاً من أوقاف الرواق³.

ويظهر من نظام رواق المغاربة أنّ الطالب في بداية انتسابه للرواق يُسمح له بالدراسة في الأزهر على نفقته مدة من الزمن، قد تطول وقد تقصر، وينتظر شغور الأماكن، فإذا انقطع أو مات أو تخرّج أحد طلبة الرتبة الأولى يُنقل أقدم طلبة الرتبة الثانية إلى الرتبة الأولى، ويصبح يأخذ من الجراية مثل ما يأخذه زملائه في هذه الرتبة، وإذا شغل مكان في الرتبة الثانية بذهاب طالب أو وفاته، يُعوّض بأحد الطلبة المنتظرين وهكذا..

هكذا كان نظام الجراية برواق المغاربة حين حلّ الشرفاوي بالأزهر وسكن بهذا الرواق في سنة 1907م.

¹ - مامي إسماعيل، تاريخ إنشاء الأزهر ونظامه، (النجاح)، العدد 480، 12 أوت 1927.

² - لماذا رقم الستين؟ قيل أنّ رواق المغاربة في بداية تأسيسه كان يأوي إليه أبناء البلاد المغربية، بلا فرق بين من كان قسده طلب العلم ومن كان قصده الحج، وكان إيراد أوقافه يُوزع عليهم على السواء، فاستمر على هذه الحالة حيناً من الزمن، ثم حدث شغب ونزاع في بعض السنين بين الطائفتين: طلبة العلم والحجاج، ولما تقام النزاع بينهما، رُفِع الأمر إلى من بيده الحكم من ولاة الأمور، فجمع كبار العلماء للنظر في الأمر، فكان حكمهم إخراج الحجاج من الرواق وتخصيصه لطلبة العلم، وكانوا إذ ذاك ستين طالباً، فصار الإيراد من ذلك العهد يُوزع على ستين طالباً على أنّهم مستحقون، واصطلحوا على أن من جاء بعدهم ينتظر خلو المكان في الستين. مامي إسماعيل، "تاريخ إنشاء الأزهر ونظامه"، النجاح، العدد 480، 12 أوت 1927.

³ - Extrait du règlement du Riouak Magrébin, Op,cit.

2- صور من معاناة الشرفاوي في سبيل العلم

أ- رحلة العذاب إلى مصر

بعد أن تعرّفنا على أوضاع مصر خلال فترة وجود الشرفاوي بها، ونظام الأزهر ورواق المغاربة آنذاك، نعود الآن لنتابع مسيرة مترجمنا في سبيل العلم، ولنبدأ بما عرّض له من مخاطر في رحلته إلى مصر.

ذكرنا من قبل أنّ الشرفاوي تآقت نفسه لطلب العلم في الأزهر، وأخذ يفكر جدّياً في السفر إليه، ولما اشتدّت رغبته، وقوي عزمه، شاور أستاذه الشيخ المجاوي، فما كان من هذا الأخير - أمام عزم الطالب وتصميمه - إلا أن شجّعه وزوّده بنصائح الغالية. انتصح الشرفاوي بنصائح أستاذه، فأحسن الظنّ بالله، وتسلّح بالصبر، ودبّر السفر على متن باخرة أقلعت من ميناء الجزائر باتجاه الإسكندرية، تسلّل إليها سرّاً، ولم يكن معه آنذاك من النقود سوى خمسون فرنكاً¹، أما عمره فكان في حدود الثلاثين.

إنّ الرواية المتوفرة لدينا عن كيفية ذهابه إلى مصر هي أنّ الشرفاوي كان يعمل في الجزائر العاصمة في شركة نقل بحرية إنجليزية تتولى نقل الحيوانات بين الجزائر ومصر، فخطّط ليُبحر متخفياً في إحدى بواخر هذه الشركة ليواصل تعليمه بالأزهر، فتسلّل إلى الباخرة بصفته عاملاً²! وحسب معلومات استقّتها الإدارة الفرنسية من إخوته، فإنّ الشرفاوي حين غادر القرية كانت بحوزته رخصة للذهاب إلى بوفاريك³ من أجل العمل، ومن هناك ذهب إلى مصر⁴! إنّ الرواية الأخيرة تبدو أنّها لا تتوافق - في ظاهرها على الأقل - مع الرواية الأولى، وهذا في تقديري يعود: إما إلى أسلوب التلميح الذي كان يمارسه الجزائريون آنذاك حين يُدلّون بمثل هذه المعلومات للإدارة الاستعمارية، أو أنّ المكان الذي قصده الشرفاوي للعمل فيه ببوفاريك له علاقة ما بالميناء، كأن يكون مثلاً مزرعة لها علاقة بتصدير الحيوانات إلى مصر! أما عن تاريخ سفره فقد سجل الشرفاوي في ورقة كتبها بخطّ

¹ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 19.

² - معلومة أفادني بها الشيخ المولود إيمون، وهو من طلبة الشيخ الرزقي الشرفاوي في زاوية سيدي عبد الرحمن الليولي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/29م. وقرباً من هذا الكلام أوردته محند عبد الرحمن المقنيعاوي، (نجل الرزقي المقنيعاوي صديق الرزقي الشرفاوي)، في تقييداته (مخطوط).

³ - بوفاريك كانت آنذاك قرية صغيرة تبعد عن مدينة الجزائر بـ 35 كلم. وهي حالياً تتبع لولاية البليدة.

⁴ - تقرير فرنسي مؤرّخ في: 1912/03/02م. أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية:

يده¹، أنه ذهب من قرية الشَّرفة إلى العاصمة في أوّل أكتوبر من سنة 1907م، وركب الباخرة من العاصمة الجزائرية إلى مصر في منتصف الشهر نفسه. أي بعد نصف شهر يكون قضاؤه في تدبير خطة السفر، وتحين الفرصة لينفلت من رقابة الاستعمار.

والثابت أنّ الشرفاوي أبحر إلى مصر في باخرة مُعدّة لنقل الحيوانات، وذهب في رحلة فيها الكثير من المغامرة والمخاطرة بالحياة، ويكفي أنّ مكانه أثناء الرحلة كان بين الحيوانات، وفي قسم منها يكاد يعدم فيه الهواء²! ومن أحواله التي رسخت في ذاكرته، وبقي يذكرها لطلبته وبعض خاصته، حال الباخرة في يوم من أيام الرحلة، لما هبّت رياح عاتية، فجعلت الأمواج المتلاطمة تلعب بالباخرة، حتى كادت تبعث بها إلى قاع البحر³! ولنا أن نتصور معاناة الشرفاوي خلال أكثر من عشرين يوما قضاها في الباخرة وهو في ذلك الجوّ الخانق وسط الحيوانات، وتحت وطأة الجوع والعطش، وهاجس القلق والخوف من الغد المجهول، إذ لا يدري إلى أين تسوقه الأقدار، إلى الأزهر أم إلى السجن؟

ولا شك أنّ الشرفاوي، وهو في تلك الحال، قد تزامنت على نفسه مشاعر هي مزيج بين الخوف والرّجاء، واليأس والأمل، وتمثلت في مخيلته صورتان، إحداها سوداء مفزعة، والأخرى مشرقة مؤنسة، يتمثل نفسه في الأولى مكبلاً يُساق إلى سجن مُظلم، وفي الأخرى يتسابق مع زملائه الطلبة إلى حلقات العلم في رحاب الأزهر الشريف! وبينما هو في تلك الحال، يقاسي الشدائد، ويتحمّل المتاعب، رست الباخرة في ميناء الإسكندرية! كان الشرفاوي قد هدّه الجوع والتعب، وأضناه السفر ومخاطره، لذلك نزل وهو شبيه بالميت، فأسغفه بعض الأهالي بالغذاء والدواء والنوم، ولما أفاق أوصلوه إلى القاهرة، وأخيرا حطّ رحاله في الأزهر الشريف⁴، ليبدأ خطواته الأولى في طريق التحصيل في هذا الجامع الذي طالما تلهّف شوقا إليه، وطالما تعذّب في الطريق للوصول إليه.

1 - نبذة قصيرة عن حياته كتبها بطلب من المتصرف الإداري لبلدية "سيباو الأعلى" في بداية عودته من مصر، مؤرخة في 1934/10/15. (A.N.O.M,Aix- en-Provence, 91505/52)

2 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية: 2013/08/26م، وفي كتاباته العديدة. أيضا: محمد عبد الرّحمن قازو (نجل الشيخ الرزقي الشرفاوي)، شهادة شفوية: 2014/02/26.

3 - محمد الصالح الصديق، "جوانب من شخصية العلامة الشيخ محمد الرزقي الشرفاوي الأزهرى"، البصائر، العدد 298، 24-31 جويلية 2006، (الحلقة الأولى).

4 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية: 2013/08/26.

وثمة أسئلة تتبادر إلى الذهن ولا نجد لها أجوبة: كيف كان أكل الشرفاوي ونومه خلال مدة الرحلة؟ وهل كان معه من المؤن والتغذية ما يكفيه خلال الطريق؟ وكيف انفلت من الرقابة هنا وهناك، وهو لا يملك جواز سفر ولا تذكرة؟

والواقع أنّ من تأمل في تبصر في هذه الرحلة وما حفّها من مخاطر، وما لقي الشرفاوي فيها من شدائد وأهوال، أدرك حفظ الله له في الطريق، وتوفيقه له في رحلته، إذ وصل مصر حياً رغم أنّها كانت رحلة عذاب ومخاطر من أولها إلى آخرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، علّم علو همّة الشرفاوي، وقوّة صبره، وغلاء العلم عنده، إذ لم يكن يبالي بما قد يصيبه في سفره ما دامت الغاية هي العلم، فإن تحققت الغاية فذلك مراده وأمله، وإن قدر الله غير ذلك كان من شهداء العلم! وفي مثل حاله قال الإمام الشافعي رحمه الله:

سأضرب في طول البلاد وعرضها * أنال مرادي أو أموت غربياً

فإن تلفت نفسي فله دُرّها * وإن سلّمت كان الرجوع قريباً

ب- معاناة الشرفاوي في أول عهده بالأزهر

بعد رحلة شاقة في البحر كاد أن يهلك فيها، كما رأينا، وصل الشرفاوي إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف، وقيد اسمه في رواق المغاربة، وهناك التقى مجموعة من إخوانه الطلبة الجزائريين الذين هاجروا قبله، فاستقبلوه، وسرّوا بمغامرته، وفرحوا بقدمه¹، فهو من الطلبة القلائل الذين استطاعوا الوصول إلى الأزهر من الجزائر، رغم القيود والرقابة الشديدة التي فرضها الاستعمار الفرنسي على بلادهم! كان من زملائه الذين سبقوه إلى الأزهر: محمد المولود الزريبي من زريبة الوادي، محمد العربي أحمد معمر السوفي من وادي سوف، محمد الصّغير التومي المشدلي من امشدالة ولاية البويرة، محمد البشير الجزائري من الجلفة، المولود بن الصّديق الحافظي من بني حافظ ولاية سطيف، وهذا الأخير انتسب إلى الأزهر في السنة نفسها التي انتسب فيها الشرفاوي للأزهر، وتزاملا فيه مدة طويلة، وغالباً ما تتابع اسمهما في قوائم الطلبة برواق المغاربة، وفي سجلات الطلبة بالأزهر².

وجد الشرفاوي العون من زملائه على حسب استطاعتهم، إذ قدموا له بعض ما لديهم من الضروريات اللازمة حتى يخفّفوا من متاعبه، وأسعفوه بفراش انقطع للنوم فيه مدة، ولما

1 - نفسه.

2 - أنظر مثلاً: وثائق الأزهر الشريف بدار الوثائق القومية بالقاهرة، سجل طلبة رواق المغاربة، وحدة الحفظ 314، السجل 623، الكود الأرشيفي: 001211 - 5004.

استعاد بعض حيويته ونشاطه حدّثوه عن قوانين الأزهر، ونظام الدراسة فيه، وأخبروه بما عانوه من متاعب في أول عهدهم بالأزهر¹. ولا شك أنّ الشرفاوي أدرك - مما سمعه من زملائه - أنّ ما ينتظره من معاناة ليس بالأمر الهين، لكن هذا لم ينل من عزمته، بل إنّه أبهرهم بما أبداه من عزيمة واستعداد لتحمل مثل تلك المعاناة وأكثر في سبيل العلم²، لأنّه يعلم جيدا أنّ معالي الأمور وعرة المسالك، محفوفة بالمكاره، والعلم أرفع مقام تطمح إليه الهمم، فلا يبلغ إليه الطالب دون تعب ومعاناة.

فبعد أن تمت إجراءات الانتساب انخرط الشرفاوي في سلك الطلبة بجامعة الأزهر وبدأ الدراسة، غير أنّ الوضع المادي للطالب كان صعبا للغاية، فقد ظل مدة عام أو أكثر محروما من أي عطاء³، لأنّه كان ضمن فئة الطلبة المنتظرين، الذين لا يأخذون شيئا من إيراد أوقاف الرّواق التي توزّع فقط على فئة المستحقين كما ذكرنا آنفا، ما جعله يتجرّع آلام الجوع، ويعيش حياة عسيرة جدا، يصعب على القلم تصويرها! ويكفي ما ذكره ذات يوم لأحد طلبته بزواوية سيدي عبد الرّحمن اليلولي، بعد أن أسمع الشّيخ مرّ الشكوى من معاناة الطلبة وشظف عيشتهم في الزواوية التي أتى منها، إذ ذكر أنّه كان، ولقربا عام، يعيش من الفضلات التي يعثر عليها في سوق الخضر بالقرب من الأزهر، إذ كان يذهب في الليل خفية إلى هذا السوق، فيجمع ما رماه البقالون في النهار من خضر وفواكه، فيغسلها، وينقيها، ويقتات بها بعيدا عن الأعين، وكثيرا ما يعود خاوي الوفاض لعدم وجود ما يصلح، وقلما يظفر بطعام يجود به عليه محسن، ومع هذا كان يتظاهر دائما لمن لا يعرفه بالاكنتاء والاستغناء⁴.

هذا عن مأكله، فماذا عن ملبسه؟ يروي الشّيخ الشرفاوي عن نفسه أيضا، أنّه مرّت عليه أيام، خلال هذه المدة، وهو لا يملك من الثياب التي يخرج بها إلّا تلك التي عليه، فكان إذا غسلها يحبس نفسه، ولا يخرج حتى تجف⁵!

وأمام هذه الحالة من الضيق والحرمان التي كان يعيشها وهو في الأزهر، كادت عزمته تفتر، إذ خامرته فكرة ترك الأزهر والعودة إلى الوطن، ولكن الله أراد له شيئا آخر! فقد روى

1 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26.

2 - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 19.

3 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26.

4 - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 19 - 20.

5 - محمد عبد الرّحمن قازو، نجل الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26. (وهذا مما سمعه عن أمه وعمته "يمينه").

الشرفاوي لبعض خاصته أنه في هذه الفترة العارضة من الضعف هرع إلى جامع الأزهر، بين صلاتي المغرب والعشاء، فصلى ركعتين، واتّجه إلى الله سبحانه، ومن خشوعه بكت عيناه، ودعا الله أن يمده من قوته، ويشمله برحمته، ويعطيه من الصبر ما يعينه على مواصلة الطريق، وعاهد الله أن يقاوم إلى حدّ الموت في سبيل العلم، وعندما فرغ من صلاته ودعائه، أحسّ ببرودة الطمأنينة تغمره من كل الجوانب، وأحسّ بتحوّل جذري في نفسه من التفكير في العودة إلى الوطن إلى التصميم على البقاء هناك، ومواصلة المجاهدة حتى يحقق أمنيته¹.

بعد هذه الحادثة اطمأنّ قلب الشرفاوي، وزال ما كان ينتابه من تردد، وعاد إليه نشاطه، وقويت عزيمته، حتى كأنه بُعث من جديد، فباشر دراسته في الأزهر بجدٍ واهتمامٍ رغم الصعوبات والمعاناة.

ومما يذكره الشيخ الشرفاوي في لهجة تفيض صدقاً وأملًا، أنه في أول عهده بالأزهر - وهو في تلك الحال من الفقر - كان يمرّ بشيخٍ متسوّل على قارعة الطريق، وقد غطّى بجناحه الأيمن زوجته وبجناحه الأيسر بنته، وهو يدعو قائلاً: « يا من يرى ولا يرى، أرزق عبادك الفقراء، إنّ ابنتي وزوجتي في بُردتي كما ترى، يا من يرى ولا يرى »، فكان الشرفاوي عندما يمرّ به، ويسمع هذا الدعاء يشعر بشيءٍ من الطمأنينة والأمل في أعماقه²!

ومما يُروى عن الشيخ في هذه الفترة أيضاً، أنه أخذ على نفسه عهداً ألاّ يقرأ رسالة تردّ عليه من أهله حتى يُنهي دراسته³! فعل ذلك مخافة أن تحمل تلك الرسائل أخباراً تشير عواطفه أو تشغل باله، فيضطرّ إلى العودة للوطن، قبل إتمام دراسته والوصول إلى هدفه الذي سافر من أجله! والعجيب أنّ الشرفاوي وقى بالعهد الذي أبرمه مع نفسه، وقضى

¹ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م. (يقول الرّواي أن هذه الأخبار ذكرها الشّرخ الشرفاوي لطلبته عدة مرات في حلقات دروسه، كما رواها لزوجته).

² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة بتاريخ: 2017/12/15م.

³ - هذا خبر متواتر، رواه لي نجل الشّرخ الشرفاوي محمد عبد الرّحمن، وابنته زهرة، وسمعتة من الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، كما سجله في كتبه، وذكره غيرهم أيضاً أمثال: الشّرخ صالح من قرية الشّرفة، والشّرخ وعلي بلخامسة من مدينة عزازقة.

قراءة ثلاث عشرة عاما دون أن يفتح رسالة واحدة من الرسائل التي وردت عليه من أهله في الجزائر!¹

تلك هي معاناة الشرفاوي في بداية التحاقه بالأزهر، فماذا عن أحواله بعد ذلك؟

ج- أحواله الصعبة برواق المغاربة

بين أيدنا وثيقة موقعة من قبل شيخ رواق المغاربة الشيخ علي صالح الفرزاني، تضمنت أسماء الطلبة المغاربة بجامع الأزهر في سنة 1911م، وكان عددهم آنذاك: 145 طالبا، منهم 45 طالب جزائري²، في هذه الوثيقة نجد اسم الشرفاوي ضمن طلبة الرتبة الثانية³، أي أنه لم يعد ضمن فئة المنتظرين المحرومة من ريع أوقاف الرواق. والطالب من هذه الفئة كان خلال هذه الفترة يتقاضى 25 قرشا في الشهر، ويُعطى أربعة أرغفة عن كل يوم⁴.

ومن الوثائق الفرنسية الهامة التي سلّطت الضوء على أوضاع الطلبة المغاربة في الأزهر، التقرير الرسمي الذي كتبه الكومندان "قاضي" (Cadi)⁵ عضو البعثة العسكرية التي أرسلتها فرنسا إلى الحجاز بقيادة العقيد "بريمون" سنة 1916م، بعد زيارته للطلبة المغاربة في رواقهم بجامع الأزهر، وإطلاعهم على حالة معيشتهم وإقامتهم هناك. تضمن التقرير قائمة الطلبة

¹ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م. ورواه غيره أيضا.

² - الوثيقة من 6 صفحات، بعنوان: بيان أسماء مجاوري رواق المغاربة بالجامع الأزهر، مؤرخة بـ: 1911/12/24م. ضمن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية:

(A.M.A.E.F, Carton 13, Dossier 2, N° 353PO/2/72)

³ - أنظر الملحق رقم: 5، ص 304.

⁴ - Agence et consulat Général de France en Egypte, Traduction du Rapport de Mohamed Abou Nasr El Barada, 14/08/1912, A.E, Carton 13, Dossier 2, N° 353PO/2/72.

⁵ - الكومندان قاضي: (1866-1939م)، هو الشرف قاضي بلعربي، من نواحي قالمه، ينتمي إلى عائلة امتهنت القضاء لدى الفرنسيين فالتصق بها اسم المهنة "قاضي"، ولا علاقة لهذه العائلة مع عائلة القاضي التي ينتمي إليها الشيخ الشرفاوي. درس بالمدرسة المتعددة التقنيات بباريس، وتخرّج في المدفعية الثقيلة، وكان الجزائري الوحيد الذي بلغ رتبة ضابط مدفعية. عين عضوا في البعثة العسكرية التي أرسلتها فرنسا إلى الحجاز سنة 1916م، وأثناء تردد البعثة على مصر كلفه ممثل الحكومة الفرنسية بالقاهرة الوزير (دوفرانس) بزيارة الأزهر وكتابة تقرير حول أوضاع الطلبة المغاربة فيه ففعل. رُقي أثناء أداء مهامه في الحجاز إلى رتبة "كولونيل" (عقيد). وقيل إنّه تجنّس بالجنسية الفرنسية، وأصبح مواطنا فرنسيا. عنه أنظر: سعدالله، خارج السرب، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2005. أيضا: نبذة كُتبت عنه إثر وفاته في جريدة "النجاح"، عدد 2309، 1939/07/20م.

الجزائريين بالأزهر وعددهم آنذاك 29 طالبا، ينتمون إلى مختلف جهات القطر الجزائري¹، وقد جاء ترتيب الشرفاوي الثاني في القائمة، متبوعا بزميله المولود بن صديق الحافظي²، ثم محمد العربي السّوفي³. وصف الكومندان قاضي إقامة الطلبة بقوله: «الذين لهم إمكانات مادية يكرّون غرّفا في المدينة، أما الآخرون - والشيخ الشرفاوي واحد منهم - فيعيشون في غرف صغيرة جدا بالجامع، وقد زرت العديد منها، وكل ما يوجد بها من أثاث هو حصيرة وفرّاش، وزيادة على حالة الغرف البائسة، فهي ضيّقة جدا»⁴! أما تغذيتهم فكان الطلبة - حسب ما ورد في التقرير - يكتفون عادة بما يُعطى لهم من إيرادات أوقاف الرواق، وهو - آنذاك - أربعة أو خمسة أرغفة في اليوم، وقليل من النقود، تتراوح ما بين قرشين إلى 22 قرشا في

¹ - *Le Commandant Cadi, Rapport au sujet de nos étudiants musulmans, sujets et protégés, élèves à l'Université d'El-Azhar, 1916. (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 14H/41).*

قم الكومندان تقريره إلى رئيس البعثة العسكرية الفرنسية، "الكولونيل بريمون" (*Brémond*)، الذي أحاله بدوره إلى "لوفرانس" (*Defrance*)، وزير فرنسا المفوض المكلف بالوكالة والفضلية العامة لفرنسا بالقاهرة، كما أحاله على السلطات الفرنسية في باريس والجزائر. ونسخة التقرير التي بين أيدينا عثرنا عليها في الأرشيف الوطني لما وراء البحار، وهي التي بعث بها السيد "لوفرانس" إلى السيد "بريو" (*Briand*) وزير الشؤون الخارجية، بتاريخ 15/09/1916م. ويبدو أنّ هذا التقرير تنقّصه قائمة الطلبة التونسيين والمراكشيين بالأزهر لأنّ التقرير حول الطلبة المغاربة وليس الطلبة الجزائريين فقط. أنظر نسخة التقرير الذي ترجمه إلى العربية وعلّق عليه الدكتور عبد الجليل التميمي، في دراسة بعنوان: وثائق حول الطلبة المغاربة بجامعة الأزهر بالقاهرة خلال سنتي 1916-1918، المجلة التاريخية المغربية، العدد 17-72، ماي 1993.

² - المولود الحافظي (1880-1948م)، من بني حافظ بنواحي سطيف. انتسب إلى الأزهر سنة 1324هـ/1907م، نال شهادة الأهلية سنة 1333هـ/1915م، وشهادة العالمية للغرباء سنة 1335هـ/1917م، وشهادة العالمية الأزهرية سنة 1336هـ/1919م، وصار من علماء الأزهر. في سنة 1921م عُيّن ناظرا مشتركا في إدارة أوقاف رواق المغاربة مع شيخ الرواق محمد التاجوري، وفي جوان 1922م قدم منكرة إلى المجلس الأعلى للأزهر يلتمس فيها الترخيص له بإجازة لا تقل عن أربعة أشهر لزيارة وطنه، وقال فيها: إنّه تلقى رسالتين من أهله يطلبون فيهما السفر إليهم لأمر ضروري، وأنّه قد عزم على السفر لقضاء أمور خاصة ولصلة رحمه. غادر مصر دون رجعة في أوت 1922م قبل الترخيص له بالإجازة. (معلومات من وثائق الأزهر، دار الوثائق القومية بالقاهرة. أنظر مثلاً: سجل طلبة رواق الأتراك والشّوام والمغاربة، رقم: 001211-5004. أيضا: دفتر قيد محاضر وقرارات مجلس إدارة الأزهر من سنة 1921 إلى سنة 1924م، رقم: 002156-5004. وهنا يجدر التنبيه إلى أنّ هذه المعلومات الأرشيفية تغد ما ذهب إليه بعض الكتاب من أنّ الحافظي قد غادر مصر بأمر من السلطات الإنجليزية التي نعمت عليه بسبب دفاعه عن حقوق الطلبة المغاربة في أوقاف رواقهم!

³ - محمد العربي أحمد السّوفي من وادي سوف بالجنوب الجزائري. تقيد سجلات الطلبة الغرباء بالأزهر الشريف أنّه انتسب إلى الأزهر سنة 1324هـ/1907م، نال شهادة الأهلية سنة 1332هـ/1914م، وشهادة العالمية سنة 1338هـ/1920م. ولا نعرف عنه أكثر، وقد يكون مات في مصر. (دار الوثائق القومية، وثائق الأزهر، سجل طلبة رواق الأتراك والشّوام والمغاربة، رقم: 001211-5004).

⁴ - تقرير الكومندان قاضي المذكور آنفا.

الشهر، وهذا بالنسبة لفئة المستحقين، أما فئة المنتظرين وعددهم آنذاك 160، فلا يحصلون على شيء¹.

نعم لقد ساهمت هذه "الجرية" في رفع بعض الغبن عن الشرفاوي، ولكنها في الواقع لم تكن تفي إلا بأقل القليل من النفقات الضرورية، والضرورية جدا للطالب، لذلك بقي الشرفاوي يعيش طيلة سنوات الدراسة في خصاصة وفاقة شديدة، وهو وضع عانى منه أغلب من هم في مثل وضعه من الطلبة الغرباء الذين لم يكن أهاليهم يصلونهم بشيء، لذلك كان هؤلاء الطلبة يتوجهون من وقت إلى آخر بشكاويهم إلى شيخ الأزهر، والجهات المسؤولة في الحكومة المصرية، طالبين منها التدخل لرفع الغبن عنهم، وقد اشترك الشرفاوي في توقيع العديد من هذه العرائض إلى جانب زملائه الطلبة المغاربة في رواقهم، وكانت هذه الشكاوى تصل بطريقة أو بأخرى إلى القنصلية الفرنسية بالقاهرة لاهتمامها بقضية الطلبة المغاربة في الأزهر، لذلك وجدنا الكثير منها في أرشيف الخارجية الفرنسية²، وصورنا بعضها³.

ويؤكد حالة الفقر هذه التي عاشها الشرفاوي في الأزهر ما أورده الشيخ أبو يعلى الزواوي⁴ في بعض كتاباته، فقد ذكر أنه لقي الشرفاوي في مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، ووصف حاله في هذه المدة فقال: «.. كان معي مدة الحرب بمصر ربّما يحتاج إلى شراء قلم أو ورقة أو كتاب، فلا يجد فلساً في جيبه، ولبث نحو عشرين سنة في الأزهر وما وصلوه بنقير ولا

¹ - المصدر نفسه.

² - A.M.A.E.F, Carton 13, Dossier 2, N° 353PO/2/72.

³ - نماذج من هذه العرائض، أنظر: الملحقين: 3 و4، ص 302 وص 303.

⁴ - أبو يعلى الزواوي: (1866-1952م)، عالم ومصلح، ولد بقرية "تاعروست"، عرش إيغيل نذكري، دائرة أرفون (ولاية تيزي وزو)، درس ببعض زوايا منطقتة ثم هاجر إلى الشام حوالي 1902م، واشتغل كاتباً بالقنصلية الفرنسية بدمشق. في سنة 1914م لجأ إلى مصر فرارا من مطاردة السلطة التركية التي اتهمته بتعاطفه مع إحدى التنظيمات السياسية السرية المناهضة للحكم العثماني في الشام، وأقام مدة الحرب بمصر وهناك التقى بعض شيوخ الأزهر، والشيخ رشيد رضا، والشيخ الطاهر الجزائري، كما تعرّف على الرزقي الشرفاوي وأقاما معا في هذه المدة. عاد إلى الجزائر بعد الحرب، وعيّن إماماً خطيباً بجامع سيدي رمضان بالعاصمة. ولم تمنعه وظيفته الرسمية من اعتناق مبدأ الإصلاح، بل إنّه انخرط في جمعية العلماء وأصبح من رجالها البارزين. خلف العديد من الكتب، بعضها نُشر وبعضها بقي مخطوطاً، وكذا الكثير من المقالات في الصحف الجزائرية والمشرقية. عن حياته وآثاره، أنظر خاصة: الشيخ أبو يعلى الزواوي، حياته وأعماله، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، محمد الأمين فوضيل، (أربعة مجلدات)، دار زمורה، الجزائر، 2013.

قطمير.. وهو محتسب لفاخته وحاجته..¹ «! نكر الزواوي هذا في سياق انتقاده لظاهرة بناء الأضرحة والقَبَب للأولياء في عصره، وخاصة في بلاد الزواوة، وقد أعاب على الناس إنفاقهم الأموال الطائلة في هذه الأمور غير المجدية، والمنهي عنها شرعاً، في حين لا ينفقون على المدارس وطلبة العلم شيئاً، وقد ضرب لذلك مثالا بأهل عزازقة وقرية الشرفة بهلول مسقط رأس الشَّيخ الشَّرْفَاوي، الذين بنوا قُبَّةً لولدهم بمائة ألف فرنك، ..» وتركوا أحد طلبتهم الشَّيخ الرزقي (الشَّرْفَاوي) الأزهرى في الأزهر نحو عشرين سنة في أشدَّ الحاجة إلى القيام والنَّفقة والكتب، وأنا مشاهد لحاجته وفقره مثلي، إذ كنَّا معا في مصر، ثم لما قَدِمْتُ قبله وجدت أهل قريته الشَّرْفَاء بينون القُبَّة لجدِّهم بمائة ألف، ليُباهوا سائر الشَّرْفَاء الذين لأجدادهم قَبَب..² «.

وما يجدر التنويه به، هو أنَّ الشَّرْفَاوي رغم هذه الخصاصة التي عانى منها طيلة سنوات دراسته بالأزهر، فإنَّه لم يستسلم ولم يفشل، بل تحدى كل الصَّعاب، فكان في إقبال دائم على البحث والتحصيل، لا يُبالي بما هو فيه من فقر وحرمان، لأنَّه كان يجد لذَّته الكبرى في العلم، فصبر واحتمل، وكابد واجتهد، حتى نال مراده من العلم.

ثانياً - دراسته وأعماله بمصر

¹ - أبو يعلى الزواوي، "في البدع الاعتقادية، درسي"، البصائر، العدد 142، 1938/12/02م.
² - أبو يعلى الزواوي، "أحاديث جمعية العلماء وحوادثها"، البصائر، العدد 91، 1937/12/17م.

1- الشرفاوي في الأزهر

أ- دراسته وشيوخه

حين التحق الشرفاوي بالأزهر في آخر سنة 1907م كان الأزهر قد ازدهر بعض الشيء بفضل جهود المصلحين الذين عملوا على إصلاحه وتخليصه من الجمود الذي كان يسيطر على أساليب التعليم فيه، وكانت فيه جماعة من الشيوخ المدرسين النابهين الموسوعيين، فكان الطالب المحب للعلم، مثل الشرفاوي، يجد في حلقاته الميدان الفسيح لتحصيل العلوم الشرعية واللغوية وبعض العلوم العقلية.

ففي رحاب هذا الجامع بدأ الشرفاوي جهاده ضد العدوين المتحالفين عليه، الجهل والفقر¹، فأقبل على الدراسة يعطيها كل جهده ووقته، فيحضر حلقات الدرس الكثيرة التي كان يزخر بها جامع الأزهر، ويتلقى علوم اللغة العربية وآدابها، وعلوم الحديث والتفسير والفقهاء والمنطق وغيرها من العلوم المقررة²، وهذا رغم صعوبة أحواله المعيشية في رواق المغاربة كما رأينا. ويبدو أنّ تلك الأحوال الصعبة، ووحشة الغربة لم تزد الشرفاوي إلا انصرافا إلى الدرس، وتفرّغا للتحصيل، لشعوره بالمسؤولية، وسعيه لوضع قدميه في الطريق الصحيح نحو مستقبل تعلّقت به آماله، وتطلّعت إليه همّته.

كانت الدراسة في القسم المؤقت³ الذي انتظم فيه الشيخ الشرفاوي تتم وفق كتب مقرّرة لكل مادة خلال سنوات الدراسة الاثنتي عشر، ففي الفقه مثلا يتدج الطالب في دراسة كتب

¹ - محمد نسيب، صرخات الحق المظلوم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د.ت، ص 164.

² - أورد الكومندان قاضي في تقريره المذكور أنفا قائمة العلوم التي تدرس في الأزهر، وهي نفسها تقريبا التي ذكرناها، ثم زعم أنّ المدارس الإسلامية التي أنشأتها فرنسا في الجزائر أحسن من حيث برامجها ومستوى تعليمها مما هو موجود في الأزهر، لذلك خلّص في تقريره إلى قوله: « وبما أنّ طلبتنا يجدون في جامعاتنا كل ما يُرضي رغباتهم للتعمق في فهم دينهم وديناهم، فلا داعي إذن أن نسمح لهم بالهجرة إلى الأزهر في مصر! » والواقع أنّ التعليم في المدارس الفرنسية الإسلامية في الجزائر، رغم أنّ تعليمها يعتبر "تعلّما عاليا"، إلاّ أنّه في الحقيقة إذا قارناه بمستوى التعليم في الأزهر، أو حتى في الزيتونة والقرويين يمكن إدراجه ضمن التعليم الابتدائي، وهذا حتى بعد الإصلاح الذي مسّها في أواخر القرن التاسع عشر. أنظر في الموضوع: عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص 140 و202. أيضا تقرير قاضي:

-Le Commandant Cadi, Rapport au sujet de nos étudiants musulmans, sujets et protégés, élèves à l'Université d'El-Azhar, 1916. (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 14H/41).

³ - ويسمى أيضا التعليم غير النظامي، وقد سبق التعريف به.

الفقه المالكي¹، وهي: شرح ابن تركي، ثم شرح الزرقاني، ثم شرح ابن الحسن على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ثم الشرح الصغير والشرح الكبير، ثم شرح الخرشبي، ثم مجموع الأمير وحاشيته. وفي النحو يدرس متن الأجرومية، ثم شرحه للشيخ خالد، ثم شرح الأزهرية، وشرح القطر، ثم شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وشرح الأشموني على الألفية. وفي البيان يدرس رسالة الدردير والسمرقندية، وفي المعاني يدرس شرح السعد مع حاشية التجريد، وفي المنطق يدرس شرح الأخضري على السلم، وشرح إيساغوجي وشرح التهذيب، وشرح القطب على الشمسية، وفي التوحيد متن السنوسية والخريدة وشرحها، وفي أصول الفقه يدرس شرح جمع الجوامع، أو مختصر ابن الحاجب، أو شرح التحرير للكمال. وفي علم الأخلاق يدرس بداية الهداية للغزالي، ثم الإحياء له أيضا، وفي علم الكلام يدرس شرح المصنف للسنوسية، ثم شرح عبد السلام على الجوهرة، فشرح العقائد النسفية، وشرح المسائرة، وشرح الطوالع للأصفهاني. ويدرس الطالب التفسير والحديث من خلال كتبهما المشهورة، أما الحساب والجبر والهندسة وتقويم البلدان (الجغرافيا) والتاريخ فقد اختيرت لها كتب حديثة توافقت².

وفضلا عن حلقات الدرس، هناك مكتبة الرواق، ومكتبة الأزهر الغنية، وغيرهما من المكتبات العامة خارج الجامع، وكذا جو مصر الأدبي والعلمي الذي يكتنف الأزهر، وهو جو يساعد الطالب ويزيده نشاطا ورغبة في العلم. وهكذا تفتحت أبواب العلم أمام الشرفاوي، وازداد شعوره بحلاوته، ووجهه شيوخه في هذا الميدان أحسن توجيه، فكان ينهل العلوم والمعارف من كل مظانها، فلا يكتفي بحلقات الدرس، بل يقرأ ويبحث، ويخالط علماء الأزهر ويستفيد منهم³. ولا شك أنه كان بين زملائه - وهو بهذا النشاط وبما عُرف عنه من رغبة في العلم - مثالا في الأخلاق والتحصيل العلمي واغتنام الوقت فيما يُفيد.

¹ - يُدرس الفقه في الأزهر على المذاهب السنية الأربعة، وبالنسبة للطلبة المغاربة يدرسون الفقه المالكي.

² - أوراق خاصة بمواد التعليم بالأزهر سنة 1900م، دار الوثائق القومية، وثائق عابدين، الكود الأرشيفي: 006821-

0069. أيضا: الصعيدي عبد المتعال، تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح، مطبعة

الاعتماد، القاهرة، ط 1، (د-ت)، ص 60-63.

³ - محمد الصالح الصديق، شهادة بتاريخ: 2014/04/22م.

ودرس الشيخ الشرفاوي في الأزهر على أكثر من عشرين عالما من أكابر علمائه¹، وكان بعض مدرّسيه ممن ازدانت بهم الحياة الثقافية المصرية في أوائل القرن العشرين، وكانوا دعامة النهضة الدينية والأدبية في العالم العربي كافة. يقول الأستاذ محمد الصّالح الصّدّيق، وهو من طلبة الشرفاوي النّابيين: كان الشرفاوي يُثني على العلماء الذين درس عليهم في الأزهر، ويذكر كيف يُدرّسون وكيف يجيبون، ويشيد بفضائلهم ومحاسنهم، وأحسب أنّه كان يتحدث - حين يتحدث عنهم - ليس بلسانه فقط ولكن بكل جوارحه، خاصة اثنين منهم: الشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ يوسف الدّجوي اللّذين تأثر بهما كثيرا²، وبدرجة أقل كان يذكر الشيخ الحمالوي، والشيخ السّمالوطي³. وفيما يلي نبذة موجزة عن كل واحد من هؤلاء الأربعة:

- الشيخ محمد بخيت المطيعي⁴: (1854 - 1935م)، من أكابر علماء المسلمين، وأكبر مفتٍ للإسلام في عصره⁵، حنفي المذهب، ولد ببلدة "المطبعة" بأسسوط، وتوفي بالقاهرة. درس بالأزهر ثم درّس فيه بعد أن نال شهادة العالمية من الدرجة الأولى سنة 1875م. دُعي لتولي القضاء في سنة 1879م، فتدرّج في وظائفه من أصغرّها إلى أكبرها حتى تولى قضاء مصر، ومنذ وفاة الإمام محمد عبده أمسى الأستاذ الأكثر احتراماً في مصر والذي كان يمارس بمعية الشيخ رشيد رضا سلطة وأستاذية المدرسة الإصلاحية⁶، وإن لم ينل شهرة الشيخين.

¹ - محمد الصّالح الصّدّيق، في تقديمه لكتاب إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية، طبعة 2012، مرجع سابق، ص 31.

² - محمد الصّالح الصّدّيق، شهادة بتاريخ: 2015/11/03م.

³ - محمد الصّالح الصّدّيق، شهادة بتاريخ: 2014/04/10م.

⁴ - عنه أنظر: زكي محمد مجاهد، الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجري، دار الغرب الإسلامي، ج 2، ط 2، بيروت، 1994، ص 497-499. أيضا: مجلة الإسلام، "المغفور له الشيخ محمد بخيت المطيعي"، العدد الصّادر بتاريخ: 1935/10/25م، ص 38-39. أيضا: موقع دار الإفتاء المصرية، تراجم وسير، المفتون، فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي. (<http://www.dar-alifta.org>)

⁵ - شوقي أبو خليل، الإسلام وحركات التحرّر العربية، دار الفكر المعاصر، بيروت - دار الفكر، دمشق، ط 5، 1991، ص 60.

⁶ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1925 إلى 1940، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 96.

في سنة 1914م عُيِّن مفتيًا للديار المصرية، ولما أُحيل على التقاعد (1921م) أقام في بيته يُفتي كما لو كان في دار الإفتاء، فكانت ترد إليه الأسئلة من جميع أقطار العالم الإسلامي فيجيب عنها، وكان له كُتّاب يتولون له كتابة ما يحزره ويمليه ويرسلونه إلى السائلين، ويُنفق هو على ذلك كلّه من خالص ماله¹! ورغم كثرة مشاغله ما بين القضاء والإفتاء والتدريس، وتردّد العلماء عليه في الأوقات الكثيرة، فقد بارك الله في وقته، فكانت له عددٌ من الرسائل والكتب بلغت قرابة العشرين منها: شرح جمع الجوامع في أصول الفقه، القول المفيد في علم التوحيد، القول الجامع في الطلاق البدعي والمنتابع، إرشاد الأمة إلى إحكام الحكم بين أهل الذمة، حاشية على شرح الدردير على الخريدة في علم الكلام، الكلمات الحسان في الأحرف السبعة وجمع القرآن، أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام، أحسن البيان في دفع ماورد من الشُّبه على القرآن، تطهير الفؤاد عن دنس الاعتقاد.. إلخ. ولشغفه بالكتب فقد جمع مكتبة كبيرة أُهديت بعد وفاته للأزهر.

كان الشرفاوي يكثر من ذكر شيخه هذا، فيفيض في التنويه بفضائله ومآثره، والإشادة في إعجاب شديد بسعة علمه، وعمق إدراكه، وبعد نظره، وتقانيه في خدمة طلبة العلم وعشاقه، لا فرق بين طلبته وغيرهم، وكان يقول: أخذت عن الشيخ بخيت زيادة عن العلم حسن استغلال الوقت، والحرص عليه، لأنه كالسيف في حدّته وسرعة انقضائه². وحسب الأستاذ محمد الصالح الصديق، فإنّ الشرفاوي قد تأثر بالشيخ بخيت من حيث مناحيه الفكرية، وطريقته في البحث والمناظرة، وتأصيل القواعد وتفريع الأصول، واستنباط الأحكام من أدلة الشريعة، ونظرته إلى ضعف المسلمين وانحطاط نفسيتهم، وعِلل تأخرهم عن الركب الحضاري³.

ومما كان يذكره الشرفاوي عن شيخه أيضا، أنّه رغم كبر سنّه أبي أنّ يكون شيخا عجوزا، إذ ظلّ يعمل ويؤلّف⁴، وأنّه لم ينقطع أبدا - رغم الوظائف - عن التدريس وإفادة

¹ - عبد الحميد بن باديس، "العلامة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي رحمه الله"، الشَّهاب، ج 11، م 11، قسنطينة، فيفري 1936م، ص 606.

² - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 25.

³ - نفسه، ص 26.

⁴ - محمد الصالح الصديق، شهادة بتاريخ: 2014/04/10م.

الطلبة بالإرشاد والتوجيه، وإجابة المستفتين من مختلف أرجاء العالم الإسلامي نيفا وستين سنة¹.

هذا وقد تتلمذ على الشيخ بخيت طلبة كثيرون من مختلف البلدان العربية والإسلامية، وفضلا عن الرزقي الشرفاوي، كان من طلبته الجزائريين اللذين نالوا شهادة العالمية من الأزهر، وأصبحوا بعد ذلك من أعلام الإصلاح في الجزائر: الشيخ المولود الزريبي، والشيخ المولود الحافظي، وقد أشاد هذا الأخير، وكان زميلا للشرفاوي بالأزهر، بشيخه في إحدى مقالاته فقال: «.. وقد كنا نحضر دروسا خصوصية على أساتذة موظفين بدوائر الحكومة مع كثرة أشغالهم، وقلة أوقاتهم.. خصصوا لنا أوقاتا يأتون إلينا من أمكنة بعيدة، مع تحملهم للمصاريف اليومية التي تلزمهم في الذهاب والإياب! فكان من جملتهم حضرة أستاذنا الشيخ محمد بخيت.. يأتي إلينا من الإسكندرية إلى الأزهر ثلاث ليالٍ في كل أسبوع، فيلقي دروسا ثمينة في التفسير والحديث، وكان وقتئذ موظفا بذلك الثغر البعيد عن القاهرة بمقدار 217 كيلومترا. وأما بعد انتقاله إلى القاهرة فصار يلقي علينا درسا صباح كل يوم قبل ذهابه إلى دار الإفتاء، ودرسا آخر من المغرب إلى ما بعد العشاء، وأما بعد أخذه للمعاش فقد رتب لنا ثلاث حصص في اليوم..»².

وممن عرف فضل الشيخ بخيت ومنزلته العلمية من علماء الجزائر، الإمام عبد الحميد بن باديس، فقد كتب إثر وفاته في سنة 1935م مقالا في "الشهاب" أوجز فيه حياته، ونوه بفضائله وسعة علمه ومواقفه الحميدة، وذكر أنه تعرّف عليه في طريق عودته من رحلة الحج سنة 1913م، إذ زاره في داره بطلوان حاملا معه رسالة من شيخه حمدان لونيبي، فكتب له إجازة علمية بخط يده³.

- الشيخ يوسف الدجوي⁴: (1870-1946م)، من مدرّسي الأزهر ومن كبار فقهاء المالكية في مصر، وهو لا يقل في علمه عن الشيخ محمد بخيت. ولد بقرية "دجوة" من

¹ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 24.

² - المولود بن الصديق الحافظي، "صوت العلم يناديكم، فهل من مجيب"، الشهاب، العدد 35، قسنطينة، 5 جويلية 1926.

³ - عبد الحميد بن باديس، الشهاب، ج 11، م 11، قسنطينة، فيفري 1936م، ص 606.

⁴ - عنه أنظر: محمود حمدي زقزوق (إشراف وتقديم)، موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة، (3)، مطابع الأهرام، القاهرة، 2004م، ص 1179-1182. محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سبيل أعلامها المعاصرين، ج 2، دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت، ط 1، 1995.

أعمال محافظة القليوبية، وتوفي بإحدى ضواحي القاهرة. كفّ بصره منذ صغره، ومع ذلك جدّ في التحصيل حتى صار موسوعة في العلوم النقلية والعقلية، وواحدا من علماء الأزهر الذين يُستمع إلى آرائهم حين تشتبه الأمور في قضية من قضايا العلم والدين. ومعروف عنه أنّه بدأ التدريس قبل أن ينال درجة العالمية، ولما نالها أسندت إليه مشيخة الأزهر تدريس الكتب العويصة، على غير عاداتها مع حديثي التخرّج، وهذا لكفاءته العلمية. وكان الدجوي، منذ صدر شبابه وعلى مدى خمسين عاما، يُلقي دروسا للعامّة في التفسير بالرّواق العباسي، تشبّها بالأستاذ الإمام محمد عبده، وكان الطلبة يحضرون دروسه هذه بأوراقهم، وقد كتبوا من تفسيره الكثير.

جاء عنه في كتاب الأعلام الشّرقية: «.. كان آية في الذكاء، وسرعة الخاطر، وجودة البيان، وقوّة الذاكرة، وسعة العلم. يحضر حلقات دروسه في الأزهر مئات تناهز الألف من العلماء وطلبة العلم، وتتوارد إليه استفتاءات من شتى الأقطار والجهات، وله مقالات وفتاوى كثيرة نُشرت في الجرائد والمجلات، وكان سمحا كريماً، يعطف على الغرباء»¹. وللدجوي مؤلّفات عديدة، منها: رسائل السّلام، ألّفه لمسلمي أمريكا²، الجواب المنيف في الرّد على مدّعي التحريف في الكتاب الشّريف، تنبيه المؤمنين لمحاسن الدين، الرّد على كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق.

لقد تأثر الشّرفاوي بالشّيخ الدّجوي واستفاد من علمه، مثل ما تأثر واستفاد من الشّيخ محمد بخيت، فكان يذكره في دروسه، ويشيد بعلمه وفضائله، ومما علّق بذاكرة الأستاذ محمد الصّالح الصّديق من كلام أستاذه الشّرفاوي قوله: إنّ بعض النّاس نزع الله منهم البصر، لكن أعطاهم بصيرة، ومن أمثال هؤلاء الشّيخ الدّجوي الذي عاش كفيها طوال حياته، ومع ذلك كان بحرا في مختلف العلوم وبالأخصّ في الفقه والحديث والتفسير³. ومما كان يذكره الشّرفاوي عن شيخه أيضا، أنّه كان في درسه يعيش حالة صوفية حينما يتحدث

¹ - زكي محمد مجاهد، الأعلام الشّرقية ج 1، مرجع سابق، ص 422-423.

² - تلقى شيخ الأزهر سليم البشري رسالة من باحث أمريكي وهو (إيفان.م. دي) اعتنق الإسلام، ويريد أن يكون داعية لهذا الدين، ويريد كتابا يساعده على ذلك، فانتدب الشّيخ البشري الشّيخ الدّجوي لوضع كتاب يبين فيه حقائق الإسلام، فألّف الدّجوي هذا الكتاب في أيام معدودة، وقد ترجم إلى اللّغة الإنجليزيّة، وطبعت منه عشرة آلاف نسخة أرسلت لمن لا يقرؤون العربيّة من الأجانب. محمد رجب البيومي، النهضة الإسلاميّة في سبيل أعلامها، ج 2، مرجع سابق، ص 246-247.

³ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة بتاريخ: 2015/11/03م.

عن الإسلام أو عن رسالة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، ومواقفه وجهاده، فكان وهو يلقي الدرس يتحرك نحو الأمام، حتى إذا شعر بأنفس الطلبة، عرف أنّ وقت الدرس قد انتهى¹.

وكان الشرفاوي عندما يتحدث عن الشيخ الدجوي يتحدث عنه في معرض الحديث عن قضايا فكرية فلسفية، مما يدل على أنّ الشيخ عميق التفكير، واسع الأفق². ومن الجوانب التي تأثر فيها الشرفاوي بالدجوي، نزعتة السلفية في العقائد، ثم التنسك والتصوّف، وأسلوبه في الدرس والمحاضرة، حيث يتدرج من الجزئيات إلى الكليات، ومن المسائل السهلة إلى المسائل الصعبة، كما أخذ عنه طريقته في الدعوة إلى الله، ومنهجه في التفكير في أحوال المسلمين وأوضاعهم³.

ويعلق الأستاذ محمد الصّالح، تلميذ الشرفاوي وأعرف الناس به، عن تأثر الشرفاوي بالشيخ بخيت والشيخ الدجوي فيقول: « وليس معنى هذا أنّ الشيخ الشرفاوي صورة طبق هذين العالمين، بل إنّه يعكسهما في هذه المناحي والجوانب، ثم له شخصيته المستقلة التي لها مجالاتها وصلواتها، كما سيتضح ذلك في كثير من مواقفه وأعماله الفكرية والوطنية..⁴»

- الشيخ محمد السّمالوطي⁵: (1856-1934م)، فقيه ومحدّث مالكي أزهرى، نال العالمية سنة 1914م. ولد ببلدة سمالوط بمحافظة "المنيا" بصعيد مصر، وعمل في مدرسة العقادين بالقاهرة، ثم عين مدرساً للعلوم الشرعية بالجامع الأزهر، وكان يلقي دروساً في مسجد الحسين ومسجد السيدة زينب بالقاهرة، وفي سنة 1920م اختير عضواً بهيئة كبار العلماء. عُرف بسعة علمه، وشدة نكائه، ودفاعه عن الحق، وبعده عن ذوي النفوذ وأرباب المناصب، وقد عمل على تحقيق الكتب ونقدها وتوضيح ما فيها من فوائد، وكتابة بعض المؤلفات العلمية، والشعرية. ونتيجة لاجتهاده وعلمه الغزير قصده الناس لأخذ الفتاوى عنه

1 - نفسه.

2 - محمد الصّالح الصديق، شهادة بتاريخ: 2014/04/10م.

3 - محمد الصّالح الصديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 26-27.

4 - نفسه، ص 27.

5 - عنه أنظر: زكي محمد مجاهد، الأعلام الشرقية، ج 2، مرجع سابق، ص 354، أيضاً: موقع ذاكرة الأزهر:

(<http://www.alazharmemory.eg>)

خاصة أبناء الصعيد الذين انتشر بينهم المذهب المالكي، وقد ترك العديد من التلاميذ وطلاب العلم من داخل مصر وخارجها الذين أثروا الحياة العلمية والدينية، منهم الشيخ الرزقي الشرفاوي الذي يكون قد حضر دروسه في العلوم التي كان يُدرّسها وهي: الحديث والتفسير والفقهاء.

- الشيخ أحمد بن محمد الحملاوي: (1856 - 1932م)، مدرّس مصري، شافعي المذهب، تخرج بدار العلوم ثم بالأزهر، كان ضليعاً في علوم العربية: نحوها وصرفها ولغتها وعروضها وبلاغتها وأدبها، زاول المحاماة الشرعية مدة، وعمل في التدريس الى سنة 1928م، ووضع كتباً مدرسية، منها: شذا العرف في فن الصرف، زهر الربيع في المعاني والبيان والبدیع، مورد الصفا في سيرة المصطفى، وله ديوان شعر مطبوع أكثره مدائح نبوية¹.

هؤلاء الشيوخ الأربعة انتفع بهم الشيخ الشرفاوي عظيم الانتفاع، وظلّ يذكرهم طوال حياته بالتمجيد والإجلال. وهناك شيوخ آخرون، مثل: محمد حسنين مخلوف العدوي، وسعيد بن علي الموجي، ومحمد أمين الشنقيطي² وغيرهم كثير، وكان يعترف بفضلهم اعتراف العالم المتواضع، ويقول: «لولاهم ما بلغت هذه الغاية التي بلغتها»³!

لقد كثر شيوخ الشرفاوي بطول مكوثه بالأزهر، وتنوع العلوم التي أراد تحصيلها، من علوم الشريعة مثل الفقه والحديث والأصول، وعلوم العربية، وعلم الكلام، وكذا علم الفلك، ومما يدل على دراسته لهذا العلم أنّه درّسه لبعض طلبة رواق المغاربة حين كان بالأزهر، وقد أشار الشرفاوي إلى ذلك في مقدمة أحد مخطوطاته⁴، وأيضاً سلسلة المقالات التي كتبها في جريدة "البصائر" حول هلال رمضان⁵.

ب- نيّله للشهادة العالمية

¹ - عنه أنظر: أعلام وشخصيات، "أحمد بن محمد الحملاوي"، شبكة الأنترنت، موقع:

(<https://islamhouse.com>)، أيضاً: موقع ضفاف (<http://www.dhifaaf.com>)

² - نكرهم الأستاذ محمد الصالح الصديق في تقديمه لكتاب: إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية، المطبعة العربية، الجزائر، 1955، صفحة (ج).

³ - محمد الصالح الصديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، دار هومة، الجزائر، 2010، ص 179.

⁴ - أنظر: الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية، رسالة في العمل بالربيع المجيب، (مخطوط)، ص 1.

⁵ - سيأتي الكلام عنها في المبحث الخاص بآثاره ضمن الفصل الأخير.

بعد نحو ثمانية أعوام من الدراسة بالأزهر دخل الشيخ الرزقي الشرفاوي الامتحان فنجح فيه ونال الشهادة الأهلية¹، كان ذلك في سنة 1333هـ/1915م²، ثم بقي في الأزهر مشغلا بالعلوم المقررة للشهادة العالمية. وحسب وثائق الأزهر فإن الشرفاوي قد تقدم لشهادة العالمية غير النظامية في سنة 1337هـ/1919م فرسب، ولما قرّر المجلس الأعلى للأزهر إعادة امتحان ساقطي هذا الامتحان³ تقدم الشرفاوي للامتحان مرة أخرى فنال شهادة العالمية، كان ذلك في مطلع سنة 1921م⁴، وعمره آنذاك أربع وأربعون (44) عاما، وهذا بعد أن قضى في رحاب الأزهر مدة ثلاثة عشرة سنة يتلقى العلم على أكابر علمائه.

وما من شك أنّ الشرفاوي لم يضيّع وقتا في اللغو، وإنّما كان يقضي نهاره، وشطرا من ليله في تحصيل المعارف حتى حاز على ثروة واسعة من الفقه وأصول الدين، والتفسير والحديث، واللغة العربية وآدابها، تجمعت له في سنوات طويلة قضاها في الحفظ والقراءة والتحصيل، ساعده في ذلك ذكاء وقاد، وذاكرة قوية، وصبر متميز، وقراءة دائمة، فكان محصوله العلمي على قدر مواهبه الفطرية، وجهده الذي لا يكل.

¹ - ذكر الشرفاوي هذا في ورقة كتبها بخط يده، وهي مؤرخة في: 15 أكتوبر 1934م. الأرشيف الوطني لما وراء البحار: (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

² - متوسط درجاته في امتحان الأهلية 27 من 50، وترتيبه في قائمة الناجحين 115 من 216 ناجح. أنظر: وثائق الأزهر الشريف بدار الوثائق القومية بالقاهرة، تقرير لجنة المراقبة عن نتيجة امتحان شهادة الأهلية لطلاب الأزهر ومعهد الإسكندرية 1332 إلى 1333هـ، المحفظة 88، الملف 1، الكود الأرشيفي: 003967 - 5004.

³ - في جلسته المنعقدة في 25 شوال 1338 هـ/ 12 جويلية 1920م، قرر المجلس الأعلى للأزهر إعادة امتحان ساقطي امتحان العالمية بأقسامها في عام 1337هـ/1919م، على أن يبدأ امتحانهم في شهر محرم 1339 هـ/ سبتمبر 1920م. وتفيد وثائق الأزهر أيضا أنّ في العام الدراسي 1919-1920م تعطلت الدراسة في الأزهر بسبب وقوع اضطرابات. أنظر: وثائق الأزهر الشريف بدار الوثائق القومية، سجل قرارات المجلس الأعلى للأزهر، وحدة الحفظ 317، السجل 1125 (1919-1920)، الكود الأرشيفي: 002230 - 5004.

⁴ - جرى الامتحان فيما بين 18 سبتمبر 1920 إلى 11 جانفي 1921م، وعُرضت نتيجته على المجلس الأعلى للأزهر وصادق عليها بجلسته المنعقدة يوم الأربعاء 24 جمادى الأولى 1339هـ/ 2 فبراير 1921م. كان عدد الناجحين 149 من 262 ممتحن، وقد جاء الشيخ الرزقي في الرتبة (61)، ومتوسط درجاته 26.64 من 50. أنظر: وثائق الأزهر الشريف بدار الوثائق القومية، أوراق جلسة المجلس الأعلى للأزهر، المنعقدة في 24 جمادى الأولى 1339هـ/ 2 فبراير 1921م، وحدة الحفظ 320، الملف 04، الكود الأرشيفي: 002254 - 5004.

وهكذا تُوجَّ الشرفاوي بشهادة "العالمية"، وأجيز إجازة عامة في التدريس والتعليم¹. ويذكر الشيخ الشرفاوي لطلبته في زاوية عبد الرحمن التلوي أنّ أعضاء اللّجنة عندما انتهوا من امتحانه شكروه، وشكروا البلاد التي أنجبتهم²، وغمرت البهجة أوساط الطلبة خاصة المغاربة، فأقاموا له حفلا بهيجا في رواق المغاربة³ حضره الطّلاب وعدد من الأساتذة، وألقيت فيه كلمات نوّه فيها أصحابها بعزيمة الطّالب، وكفاءته العلمية، وذكر الشرفاوي أنّ من الطلبة من بكوا من شدّة الفرح والتأثّر بما لاقاه في سبيل العلم من محن وشدائد، ثم كَلَّل ذلك كله بالنجاح⁴.

ج- قصة الرسائل التي شيبته!

لم يكتف الشرفاوي سفره إلى مصر عن أهله⁵، ولما وصل إلى هناك أخبرهم بوصوله وبغوانه في الأزهر⁶، لكنه قطع الصّلة بهم، كما ذكرنا من قبل، إذ أخذ عهدا على نفسه ألا يكتب إليهم، ولا يقرأ رسائلهم التي تصل إليه! فعل ذلك ليتفرّغ للعلم، والعلم كما قيل: « لا يُعطيك بعضه حتى تعطيه كُلك »! إنّ رسائل الأهل قد تحمل إليه ما يُكدر صفوه، ويُشغل باله عن العلم، فقرّر أن يوصد بابها! قضى الشرفاوي في الأزهر طالبا ثلاث عشرة عاما، وخلال هذه المدة وردت عليه عدة رسائل من أهله، فلم يقرأ واحدة منها، حتى نال

1 - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 27. وذكر لي نجل الشرفاوي أنّه وجد ضمن وثائق والده قبل أن تتعرض للتلف إجازتين للتدريس، واحدة أعطاها له الشّيخ بخيت المطيعي، والأخرى الشّيخ يوسف الدّجوي، دون أن يتذكر المواد التي أجيز له تدريسها في هاتين الإجازتين. محمد عبد الرّحمن قازو، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

2 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26.

3 - الحفل ربما كان على شرف الطلبة المغاربة الذين نجحوا في هذا الامتحان، إذ لم ينجح فيه من الغرباء غير المصريين إلّا هؤلاء المغاربة الثلاثة وهم: الشرفاوي، محمد العربي السّوفي من الجزائر أيضا، وعبد الله عبد الكافي من طرابلس الغرب، وكان هذا الأخير الأوّل في ترتيب الناجحين. أنظر: وثائق الأزهر الشّريف بدار الوثائق القومية، أوراق جلسة المجلس الأعلى للأزهر، المنعقدة في 24 جمادى الأوّل 1339هـ/ 2 فبراير 1921م، وحدة الحفظ 320، الملف 04، الكود الأرشيفي: 002254 - 5004.

4 - محمد الصّالح الصّديق، جوانب من شخصية العلامة الشّيخ محمد الرّزقي الشرفاوي الأزهري، البصائر، العدد 298، 24- 31 جويلية 2006. أيضا: محمد نسيب، صرخات الحق المظلوم، مرجع سابق، ص 164.

5 - ذكر لي الأستاذ عبد المجيد بن طاحا أنّ جدّته حكّت له أنّ الشّيخ الرّزقي قبل سفره مرّ عليها ليودّعها لأنّها بنت خاله، وقال لها: إني ذاهب إلى الشّرق لطلب العلم. عبد المجيد بن طاحا، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26.

6 - الشّيخ المولود إيمون، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/29.

شهادة العالمية¹، وهنا حدثت له قصة أليمة مع هذه الرسائل، وفيما يلي ملخص القصة كما رواها لطلبته وبعض خاصته.

يقول أحد طلبته: «.. في ليلة يوم الامتحان، وبعد انتهاء الحفل، ذهب الشرفاوي إلى غرفته ليستريح، وتمدد على السرير، وحاول أن يستسلم للنوم ويخلد للراحة بعد إرهاق الامتحان والتعب المضني، لكن الذكريات تزاومت عليه، وهاجمت قلبه، وألهبت عواطفه، وأيقظت أشواقه، وعاوده الحنين، ومرّت عليه قوافل الأيام والأعوام، وتذكّر الأهل بعد الانقطاع الذي دام سنوات طويلة، واستعرض صورهم، ومروا أمامه واحدا تلو الآخر: أبوه، أمه، إخوته، وتحرق قلبه، وسالت دموعه، وقام فورا وأخذ الورقة وأمسك بالقلم ليكتب لهم رسالة يخبرهم بنجاحه في الامتحان، ونيل الشهادة العالمية، فما كاد يخطّ خطا حتى تذكر تلك الرسائل المكدسة في صندوقه المغلق منذ سنين، وعلى الفور قام وفتح الصندوق وأخذ يقرأ الرسائل واحدة تلو أخرى بشوق وشغف، فكل رسالة تحمل في طيّها خبر وفاة أحد أفراد أسرته، ابتداءً من الأم² والأب والإخوة والأعمام والعمات، واسترسل في القراءة حتى آخر رسالة، فوجد معظم أفراد الأسرة قد فارقوا الحياة، والتحقوا بالرفيق الأعلى، وأحسّ الشيخ بحزن عميق، فامتزج الفرح بالفاجعة الأليمة، وبسمة الأمل بالكآبة الخرساء، فكاد الشيخ أن يسقط من شدة الصدمة المفاجئة³!

وحدّث الشرفاوي أقاربه أيضا، وهو يصوّر لهم ما لاقاه من شدائد ومصاعب حين كان طالبا بالأزهر، أنّه حين قرأ تلك الرسائل، هزّه ما وجد بها من أخبار مؤلمة، فاغتم بذلك غمّا شديدا، ووضع كفه اليمنى على ذقنه متأثرا، كانت لحيته سوداء، ولما رفع يده وجد موضع كفه قد شاب! وبات ليلته حزينا مغموماً، فلما أصبح رأى لحيته بيضاء في المرأة⁴! لقد ابيضّت لحيته في ليلة واحدة، ولا غرو في ذلك، فإنّ الصدمة عليه كانت مضاعفة،

¹ - محمد الصالح الصديق، شهادة بتاريخ: 2013/08/26م.

² - يُذكر أنّ أمّه قد فقدت بصرها في آخر حياتها. ومن اشتياقها لابنها الرزقي الشرفاوي كانت تقول: « لو أنّ ابني الرزقي يتكلّم أمامي وأسمع صوته فسأبصر من جديد! ». عن السيدة فاطمة قازو، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/06/08م.

³ - محمد نسيب، صرخات الحق المظلوم، مرجع سابق، ص 164 - 165.

⁴ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م، أيضا: محمد عبد الرحمن قازو (نجل الشرفاوي)، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26. أيضا: محند عبد الرحمن المقنيعاوي، (نجل الرزقي المقنيعاوي صديق الشرفاوي)، في تقييداته (مخطوط).

ولولا لطف الله به لطاش عقله! فهذه الوقائع المؤلمة التي ألمت بأسرته في أوقات متباعدة، نزلت عليه في وقت واحد، فكأنَّ الحزن كان يعصره كل يوم وكل ساعة طيلة تلك السنوات¹، فمن أين لشعره الأسود أن يبقى أسوداً؟ وكيف للشباب أن يبقى شباباً؟ وقيماً قال الشاعر²:

وما شَابَ رأسي من سنينَ تتابعتُ * عليَّ ولكن شَيَّبَتني الوقائعُ

لقد تأثر الشرفاوي أشدَّ التأثر لهذه الأحداث الأليمة، وتلك طبيعة الإنسان، لكنه صبر لقضاء الله وقدره، وثبت أمام تلك الصدمة، ولم تذهب نفسه فريسة الجزع واليأس، لأنَّه تعود على تقلبات الأيام، وصفعات الدهر! لقد صقلته المحن والمصائب، وعلمته التجارب، فكانت المحن والمصائب بالنسبة إلى الشيخ، كالرياح التي تزيد النار اشتعالاً وتأججاً، وتزيده هو المحن والشدائد قوَّة وعزماً!

قيل: إنَّ المرءَ لا ينالُ العلمَ إلاَّ بالسَّفرِ إليه، والتنقل من مكان إلى آخر في طلبه، ومكابدة المصاعب من أجله، وتراثنا الإسلامي حافل بأخبار مشاهير العلم وأربابه الذين ساحوا في البلدان، وقطعوا المسافات الطوال بحثاً عن جواهر العلم ودقائقه، وتحملوا في سبيل ذلك الكثير من المتاعب والشدائد³، والشيخ الشرفاوي قد مرَّ بكل هذا وأكثر، ويكفي أنَّه مات أعزَّ النَّاسِ إليه ولم يشهد جنازتهم! وقيماً قال أحد العارفين: « لا ينالُ هذا العلمَ إلاَّ من عطَّل دُكَّانَه، وخرَّب بُسْتانَه، وهَجَرَ إخوانَه، ومات أقربُ أهله إليه فلم يشهد جنازته »⁴!

2- مكوث الشرفاوي بمصر وأهم أعماله فيها

أ- زواجه

يبدو أنَّ الشيخ الشرفاوي، بعد النجاح الذي حقَّقه في امتحان العالمية، اتَّجه بتفكيره إلى البقاء في مصر لبعض الوقت، بدل العودة إلى الجزائر مباشرة بعد تخرجه، ويغلب على

¹ - تشير الدراسات الحديثة إلى أنَّ أسباب الشَّيب عديدة منها: الوراثة، والتقدم في السَّن، والتغذية، وكذا العوامل النفسية مثل الحزن الشَّديد، وهذا الأخير هو الذي فعل فعله في الشيخ الشرفاوي.

² - وهو أبو الطُّفَيْلِ عَمْرِ بْنِ وَائِلَةَ الْكِنَانِي، قيل أنَّه من آخر مَنْ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤْتًا، إذ مات بعد مائة سنة.

³ - من أراد التوسُّع في هذا الموضوع فليراجع كتاب: عبد الفتاح أبو غدة، صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 10، 2012م.

⁴ - القول للفقير السمرقندي "أبي نصر أحمد العياضي"، نقله الحافظ البغدادي في كتابه: (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)، ونقلناه نحن عن: عبد الفتاح أبو غدة، صفحات من صبر العلماء، مرجع سابق، ص 111.

الظن أن موت أقرب أهله وأعزهم إليه: أبوه وأمه وإخوته، وهم أقوى ما يشد المرء إلى بلده ومسقط رأسه، هو أهم عامل جعله يختار المكوث بمصر بعد تخرجه! على أن الشرفاوي ما كان له أن يبقى هناك لو لا حصوله على وظيفة التدريس التي تُخرجه من حالة الخصاصة التي كان فيها طيلة سنوات الطلب، وتضمن له - ولو الحد الأدنى - من العيش الكريم.

والظاهر أن الشرفاوي، بعد سنوات من العمل بالتدريس، طاب له المقام، فأراد الاستقرار بمصر واتخاذها موطنًا دائمًا له، ومما يرجح هذا الاحتمال مصاهرته لأسرة مصرية اشتهرت بالثقافة والتدين، وكانت المرأة التي اقترن بها متوسطة الثقافة، حسنة الأخلاق، عاش معها أربع سنوات¹ في مودة ووثام، ولم تُغضبه إلا مرة واحدة، حين أرادت أن تنتقص من قيمته لأنه ليس مصريًا، فسبته بمغربيته²، فاستشاط غضبًا وأدبها، وقال لها في لهجة قوية صارمة: « لا تنسي أنني جزائري، يرضى أن يموت، ولا يقبل أن يُهان »، ومن ذلك الحين لانت وصارت أكثر طواعية له واحترامًا³.

لم يخلف الشرفاوي مع زوجته المصرية، وقيل أنها أسقطت جنينًا⁴ أو جنينين⁵ قبل تمامهما، وقد طلقها عندما اعتزم العودة إلى الجزائر سنة 1933م، لعدم موافقة أهلها لها على مرافقته.

ب- أهم أعماله بمصر

أقام الشرفاوي بمصر - بعد تخرجه - أكثر من عشر سنوات، ظل خلالها يبحث ويكتب، ويفيد بفكره وقلمه، وفيما يلي أهم أعماله في مصر قبل عودته إلى أرض الوطن سنة 1933م، نوجزها في نقاط:

¹ - ذكر لي المرحوم محمد عبد الرحمن قازو، نجل الشيخ الشرفاوي أنه لما كان طالبًا في زاوية سيدي عبد الرحمن اللولي في خمسينات القرن العشرين أطلع على وثائق والده، فوجد فيها قسيمة زواجه في مصر مدة أربع سنوات قبل عودته. شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

² - أي قالت له: "يا مغربي"! وتقصد الجزائري، إذ أن المشاركة آنذاك لا يُفرقون بين أبناء الأقطار المغاربية، فالكل عندهم "مغاربة".

³ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 28، أيضا: شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م.

⁴ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/07م.

⁵ - السيدة فاطمة قازو (ابنة باعزير شقيق الشرفاوي)، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/06/08م.

● اشتغاله بالتدريس، فقد ذكر الشرفاوي في ورقة كتبها بخط يده أنه بعد أخذه للعالمية اشتغل بالتدريس في مصر نحو عشر سنين¹. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المتواتر عند طلبة الشرفاوي ومحيطه العائلي هو أن الشيخ درس بالأزهر. بل شاع بين طلبته الكبار في المعهد اليلولي - حسب ما ذكر لي الأستاذ محمد الصالح الصديق - أنه لم يُسمح قبل ذلك بالتدريس في الأزهر لغير المصريين إلا للشيخ الشرفاوي، لعلمه وكفاءته²، إذ لم يكن له في مصر حسبٌ ولا نسب يشفع له في تولي هذه الوظيفة التي هي مطمح الكثير من الطلبة والعلماء بمصر، ولكن فرض نفسه بكفاءته، وسعة علمه، وسلوكه القويم! للأسف لم نجد فيما تصفحنا من أرشيف الأزهر في دار الوثائق بمصر وثائق تشير إلى توظيف الشيخ كمدرس رسمي بالأزهر، لذلك لا ندري إن كان قد درس فعلا في الجامع الأزهر أو في معهد من المعاهد الدينية الإسلامية التابعة له، أم أنه درس فقط في رواق المغاربة؟

ومما يدعم الفرضية الأخيرة، ما كتبه الشيخ المولود الحافظي في جريدة النجاح سنة 1926م حين تكلم عن ضرورة إرسال وفد إلى مصر لتمثيل الجزائريين في مؤتمر الخلافة المقرر عقده في القاهرة في تلك السنة، أو انتداب مجموعة من علمائهم الموجودين بمصر الحاملين للعالمية الأزهرية، وقد ذكر منهم ستة علماء قال إنهم كلهم من الحائزين للشهادة العالمية، وميّز بين صنفين من العلماء فوصف الشيخين: السعدي بن محمد الخنشلي وإسماعيل بن علي الجيجلي بـ "المدربين رسمياً بالأزهر"، ووصف الشيخ الشرفاوي وثلاثة علماء آخرين أنهم من علماء رواق المغاربة بالجامع الأزهر³. ويدعم هذا أيضا رسالة كتبها الشرفاوي لمجلس إدارة الأزهر بتاريخ 22 أبريل 1930م يلتمس فيها الترخيص له بالسفر إلى الجزائر لزيارة الأهل، وقد قدمها باعتباره "أحد علماء رواق المغاربة"، ما جعل

¹ - نبذة قصيرة عن حياته كتبها بطلب من المتصرف الإداري لبلدية "سيباو الأعلى" في بداية عودته من مصر، مؤرخة في 1934/10/15. (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

² - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/07م.

³ - المولود بن الصديق الحافظي، "نداء للأمة إلى مؤتمر الخلافة فهل من مجيب؟"، النجاح، العدد 291، 23 أبريل 1926م.

المجلس المذكور يحوّل طلبه على شيخ الرواق لإبداء رأيه¹، فلو أنّ الشرفاوي كان مدرّسا رسميا في الأزهر لطلب المجلس رأي رئيس القسم الدراسي الذي كان الشرفاوي يشتغل به. والمؤكد هو أنّ الشرفاوي اشتغل بعد تخرّجه بالتدريس، وهي المهنة التي يحبها، ويجد نفسه فيها، حتى أنّه لم يكن يكتفٍ بتقديم الدروس المقرّرة خلال السنّة الدراسية، بل كان يتطوّع لتقديم الدروس حتى في فترات الإجازة، فقد ذكر - مثلاً - في مقدمة مخطوطه "الرسالة الفتحية" أنّ بعض طلبة رواق المغاربة طلبوا منه أن يدرّس لهم "الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية" للعلامة بدر الدين المارديني في بطالة الصّيف الأزهرية، أي في عطلة الصّيف، فلبى طلبهم²! ولا شك أنّ للشّيخ الشرفاوي في مصر تلامذة كثيرين، درسوا عليه خلال هذه المدة، وانتفعوا بعلمه³، غير أنّنا لم نتمكن من التعرّف على أيّ واحدٍ منهم، لبعد هذه الفترة الزمنية، وغياب الوثائق والشّهادات الشّفوية.

• بالموازاة مع اشتغاله بالتدريس، كان الشرفاوي، وهو بمصر، يتابع باهتمام أخبار الوطن، وذلك من خلال الصّحف العربية التي كانت تصدر في الجزائر، وكذا الرسائل التي تصله من بعض علماء الجزائر خاصة الشّيخ أبي يعلى الزواوي، إذ كانا يتراسلان في شؤونٍ مختلفة، وخاصة في شؤون الجزائر، وتاريخ منطقة زاووة⁴. وكان الشّيخ ينشر مقالات من حين إلى آخر في الصّحف الجزائرية مثل "الصّديق" و"النجاح"، وفي الصّحف المصرية أيضا مثل "الأهرام" و"الأخبار". وكان الشّيخ يتفاعل مع ما يجري في الوطن من أحداث، فيطرب لما يسرّ من أخباره، ويتأثّر ويتألّم لما يُحزن منها. وهنا يجدر أن نسجّل أنّ الشرفاوي يُعتبر من الجزائريين الأوائل الذين سعوا لشرح معاناة مواطنيهم في الجزائر لإخواننا الشّرقيين خلال القرن العشرين. ففي سنة 1924م قرأ مقالا في جريدة "النجاح"

1 - وثائق الأزهر الشّريف بدار الوثائق القومية بالقاهرة، دفتر قيد محاضر وقرارات مجلس إدارة الأزهر من 17 يونية 1928 لغاية 9 نوفمبر 1930م، وحدة الحفظ 317، السجل 1092، الكود الأرشيفي: 002159 - 5004، قرار رقم 19.

2 - أنظر: مقدمة الرّسالة الفتحية في الأعمال الجيبية، رسالة في العمل بالربع المجيب، من (مخطوط)، ص 1.

3 - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 28.

4 - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2010، ص 32-33.

الجزائرية تحت عنوان: (مبدأ فرنسا العدالة والمساواة، ولكن أين العدالة والمساواة؟)¹، حول حادثة محزنة وقعت في بعض المحاكم الجزائرية، فراسل جريدة "الأخبار" المصرية، ورجاها أن تنشر المقال على صفحاتها حتى يقف عليها الرأي العام، وليعرف ما يرتكبه رجال فرنسا (المتمدنة) في مستعمراتها من الظلم والجور، « فيحكم - كما قال - حكمه العادل على مدنيّتهم وحضارتهم، وما يدعونه من العدالة والمساواة »².

• ومن أعمال الشرفاوي وهو بمصر أيضا، إسهامه في تأسيس (جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية)، وهي جمعية خيرية إصلاحية تأسست بالقاهرة، سنة 1924م، تضم أفراد جاليات إفريقيا الشمالية: طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش. وحسب ما ورد في جريدة "النجاح"³ فإن أول من فكر في تأسيس هذه الجمعية «.. هو حضرة الفاضل العلامة الشيخ محمد الرزقي الشرفاوي الزواوي، وسعى سعيا متواصلا، وأخيرا تكّلت مسعاه بالنجاح بمساعدة العالم العلامة الفاضل محمد الخضر حسين وبعض الوطنيين الغيورين أمثال العلامة الفاضل الشيخ إبراهيم أطفيش⁴، وغيره..». فبعد أن سنّوا للجمعية قانونها الخاص، دعوا أفراد الجاليات

¹ - أشار الشرفاوي إلى أنّ المقال نُشر في العددين: 115، 116 من جريدة النجاح، وللأسف لم أقف على المقال لغياب العددين المذكورين في الميكروفيلم الخاص بالجريدة الموجود على مستوى المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة.

² - خلاصة هذه الحادثة التي « أدمت القلوب، وقطعت الأكياد » - كما وصفها الشرفاوي - أنّ أحد الفرنسيين استأجر جماعة من الجزائريين للعمل على أن يؤدي لهم كل خمسة عشر يوما أجورهم، وعند نهاية المدة المذكورة أدى لهم أجورهم، فاستأنفوا العمل خمسة عشر يوما أخرى، لكن هذه المرة رفض الفرنسي أن يدفع أجورهم في الوقت المتفق عليه، فتقدم إليه أحد العمال وطلب منه دفع أجورهم، وأخذ يشرح له فقرهم وحاجتهم للمال، وأنّ له ستة أولاد وليس له درهم واحد ينفقه عليهم، وبينما كان العامل المسكين يحاول استعطاف الفرنسي ليعطيهم أجورهم في ذلك اليوم، أطلق الفرنسي النار على العامل ليبرديه قتيلاً، فزُفع الأمر إلى المحكمة، وهذه الأخيرة بدل أن تتصف المظلوم وتقتص من الجاني، أطلقت سبيل الجاني، وقصارى ما قضت به عليه من الجزاء أن حكمت عليه بمبلغ خمسة آلاف فرنك يسلمها لأولاد المقتول! هذا وقد ختم الشيخ مقاله بقوله: «.. وقد اطلعت الجالية الجزائرية في مصر على هذا الحكم الجائر فاستشاطت قلوبهم غيظاً، وأخذهم الأسف الشديد على ما يجري في وطنهم، وما يُسام به شعبهم من العسف والاضطهاد فقاموا غصبة واحدة يحتجون على هذه المعاملة القاسية والأحكام التي لا يزال الشعب الجزائري يتجرّع بها غصص الإهانة والاستعباد في القرن العشرين». أنظر: جريدة "الأخبار"، العدد 1363، 7 أوت 1924م.

³ - جزائري قديم بمصر، "حالة إخواننا بمصر، إخفاق المساعي الجليّة"، النجاح، العدد 254، 11 ديسمبر 1925م.

⁴ - أبو إسحاق إبراهيم أطفيش: (1886 - 1965م)، من بني يزقن بغرداية، في الجنوب الجزائري، تعلم بمسقط رأسه، وكان أبرز معلميه الشيخ محمد بن يوسف أطفيش الملقب بالقطب. درس بالزيتونة، نفته فرنسا إلى تونس ثم إلى مصر، وهناك انكبّ على تحقيق التراث الإسلامي، وأنشأ مجلة "المنهاج" سنة 1924م، وشارك في إنشاء العديد من الجمعيات، ومثّل الجزائر في المؤتمر الإسلامي بالقدس 1931م.

المذكورة إلى عقد اجتماع عمومي بمقر عيادة الدكتور عبد العزيز قاسم يوم 4 جويلية 1924م، وفيه تم انتخاب المجلس الإداري للجمعية الذي ضم عضوين من كل جالية من الجاليات الأربع، على النحو الآتي¹:

- الأستاذ عبد الله عبد الكافي والأستاذ محمد التهامي نصر عن الطرابلسيين.
- الأستاذ محمد الخضر حسين والأستاذ الطاهر محمد التونسي عن التونسيين.
- الأستاذ محمد الرزقي الشرفاوي والدكتور عبد السلام العبادي عن الجزائريين.
- الدكتور عبد العزيز قاسم والأستاذ محمد عبد الوهاب المحامي عن المراكشيين.
- السيد صالح أفندي مبروك أمينا للصندوق.
- الأستاذ محمد شقرون سكرتيراً للجمعية.

وفي 8 جويلية عقد المجلس الإداري اجتماعا لانتخاب الرئيس أسفر عن اختيار الشيخ الخضر حسين رئيسا للجمعية، «.. لمكانته العلمية، وتقلبه في كثير من المناصب العالية، ولما يعهد فيه من الكفاءة والإخلاص وصدق العزيمة..»². أما مقاصد الجمعية وأهدافها الرئيسية فهي كما جاء في قانونها³:

- تمهيد وسائل التعارف بين أبناء الجاليات المذكورة، وإسعاف ذوي الحاجات منهم حسب الاستطاعة.

- تنوير أفكارهم وبتّ الأخلاق الفاضلة بينهم.
- الدفاع عن حقوقهم بالطرق الحكيمة السليمة.
- إنشاء منتدى تُلقى فيه محاضرات علمية أدبية⁴.

هذا وقد نشرت الصحافة المصرية الصادرة آنذاك خبر تأسيس هذه الجمعية¹، وكتبت مجلة "الزهراء" للأستاذ محب الدين الخطيب أنّ الجمعية قد شكّلت لجنة لنشر آداب إفريقيا

¹ - أنظر جريدة "الأخبار"، العدد 1342، 12 جويلية 1924م.

² - الأخبار، العدد 1342، 12 جويلية 1924م.

³ - يضم قانون الجمعية توطئة وعشرين مادة، نصت المادة الثّانية منه على أنّ شعار الجمعية هو الآية الكريمة «وتعاونوا على البرّ والتقوى» (سورة المائدة: 2)، ونصت المادة الرابعة على تقسيم أعضاء الجمعية إلى أعضاء: عاملين، مساعدين، وأعضاء شرف. أنظر النص الكامل للقانون في: محمد الخضر حسين، جبهة الدفاع عن إفريقيا الشماليّة، موسوعة الأعمال الكاملة، المجلد التاسع، الكتاب (16)، اعتنى به ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، دمشق، بيروت، الكويت، ط 1، 2010، ص 95-98.

⁴ - نفسه، ص 96.

الشّمالية العربية وحضارتها، تتولى البحث عن الكتب التي تعرّضت لهذا الموضوع، وإلقاء المحاضرات فيه، وترجمة ما ورد عن ذلك في الصّحف والكتب الأجنبية، وقرّرت نشر ما يحرّره أعضاؤها في مجلة "الزهراء"²، وقد افتتحت الجمعية سلسلة محاضراتها بمحاضرة قدمها رئيسها الشّيخ الخضر حسين مساء الجمعة 5 صفر 1343هـ، بعنوان: (حياة ابن خلدون ومُثُل من فلسفته الاجتماعية)³.

هذه الجمعية هي ربما أوّل جمعية سعت لتنظيم الجاليات المغاربية بمصر وتوحيد صفوفها، غير أنّ فعاليتها غير واضحة الآن، وربما وجدت ضغوطاً قوية من طرف القنصليات الأوربية بمصر، وبخاصة القنصلية الفرنسية⁴، التي كانت تتوجس كثيراً من نشاط المغاربة في مصر⁵، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، إذ أصبحت مصر والقاهرة بالذات، ملجأ للكثير من قادة النهضة والنضال من مختلف البلدان العربية.

• ومن أخبار الشّرفاوي القليلة التي صادفناها في الصّحف، وجوده كعضو في (جمعية تضامن العلماء)، وهي جمعية كانت تنشط بمصر⁶، وكان من القضايا التي اهتمت بها قضية الخلافة الإسلامية، إذ كانت تعارض قرار إلغائها الذي اتّخذه المجلس

1 - مثل جريدة "الأخبار" في عددها الصادر بتاريخ 12 جويلية 1924م، وجريدة "السياسة" في عددها الصادر بتاريخ: 16 جويلية 1924م. وكتبت عنها أيضاً: جريدة "الوزير" التونسية في العدد 175 الصادر بتاريخ: 23 سبتمبر 1924م.

2 - أنظر: الزهراء، الجزء الثالث، المجلد الأول، 15 ربيع الأول 1343هـ / 1924.

3 - الزهراء، الجزء الرابع، المجلد الثاني، 15 ربيع الثاني 1343هـ. وقد نُشرت المحاضرة في المجلة في ست (06) حلقات، وهي منشورة أيضاً ضمن: الأعمال الكاملة للشّيخ الخضر حسين، المجلد 11، الكتاب (20)، دار النوادر، دمشق، بيروت، الكويت، ط 1، 2010، ص 55 وما بعدها.

4 - حالة إخواننا بمصر، "إخفاق المساعي الجليّة"، النجاح، العدد 254، 11 ديسمبر 1925م.

5 - في تقرير مؤرّخ في 21 جانفي 1921م، بعث به "هنري قيار" (Henri Gaillard)، وزير فرنسا المفوض بمصر، إلى وزير الخارجية بباريس، لاحظ فيه "هنري" أنّ مصر توفّر أجواء من الحرية تساعد على نشر الدعاية المضادة للدول الغربية أكثر من أي منطقة أخرى، وقال أنّ الأمر سيزداد خطورة إذا ما حصلت مصر على استقلالها، خاصة مع وجود طلبة في الأزهر ينتمون إلى مختلف الأقطار الإسلامية، وهذا يمثل عاملاً قوياً لنشر الدعاية في تلك الأقطار عن طريق الصّحف المحلية، وخاصة أقطار إفريقيا الشّمالية. أنظر:

Archives Diplomatique, Série K. Carton 102, Dossier 1, Afrique/Affaires musulmanes, Dossier général 1918- 1940, 55CPOM/2.

6 - لا ندري متى تأسست هذه الجمعية، وما نعرفه هو أنّها كانت في بداية العشرينات تهتم بقضية الخلافة، واعتداءات الصّهيونية في القدس، وكان يترأسها الشّيخ محمد فراج المنيّاوي، سكرتير الأزهر ورئيس تحرير مجلة "المؤتمر الإسلامي". أنظر: وثائق عابدين بدار الوثائق القومية بالقاهرة، وثائق خاصة بالخلافة، 20مايو 1924م، الكود الأرشيفي: 006983 - 0069. أيضاً: وحدة الحفظ 205، رقم: 004009 - 0069.

الوطني لتركيا الكمالية الذي لا يعبر - حسبها - إلا عن رأي أعضائه المعدودين، وكانت الجمعية تدعو إلى عقد مؤتمر إسلامي يضم الأمراء وكبار العلماء وذوي الرأى لدراسة مشكلة الخلافة¹! واشترك الشرفاوي أيضا في التنديد بالسياسة الفرنسية في المغرب الأقصى، حين صدر ما يُعرف بالظهير البربري² الذي استهدف الشعب المغربي في دينه ووحدته، إذ كان الشيخ من الموقعين على عريضة موجهة إلى رئيس الحكومة الفرنسية، نشرتها مجلة "الفتح"³، ومما جاء فيها: «.. نحن التونسيين والجزائريين والمراكشيين والطرابلسيين، علماء وطلابا بالأزهر الشريف، وبالمدارس، وأعيانا وتجارا وصنّاعا من الجاليات المذكورة بالقاهرة، نلفت نظر فخامتكم إلى ما يأتي: إن استصدار فرنسا مرسوما سلطانيا يخول لها أن تتولى إدارة الشؤون الدينية لأمة البربر الإسلامية العظيمة، استصدار الغرض منه الفصل بين تلك الأمة الإسلامية الكبيرة وبين دينها الإسلامي الحنيف، وهذا عمل لا يجوز قانون، ولا تسمح به شريعة، ولا يرضى به مسلم ولا غير مسلم ممن يحترمون الشرائع الدينية والعهود. لذلك نحن نستصرخكم وندعوكم باسم الدين والإنسانية والعهود المقطوعة، أن ترجعوا عن ذلك المرسوم الذي يؤلم أكثر من 300 مليون مسلم في أعزّ شيء لديهم»⁴.

وخلال السنين التي قضاها الشرفاوي في مصر كانت حياته تتراوح بين حلقات الدرس في الأزهر الشريف، وأروقة المكتبات العامة بالقاهرة، يطالع فيها ويدرس كتب التراث الإسلامي، وما يُترجم إلى اللغة العربية من الكتب الحديثة، واستمر على ذلك حتى ملأ وطابه من العلم، وصار عالما جليلا⁵. ومما يدل على المكانة العلمية التي كان يتمتع بها الشرفاوي في الأزهر،

¹ - منشور جمعية تضامن العلماء، جريدة الأخبار، العدد 1240، 12 مارس 1924م. (نجد الشرفاوي ضمن قائمة الأعضاء الموقعين لهذا المنشور باسم "محمد رزق" وهو الاسم الذي عُرف به آنذاك في وثائق الأزهر).

² - الظهير البربري: مرسوم سلطاني صدر في 16 ماي 1930م، يجعل الأحكام القضائية التي تجري على سكان المغرب البربر - بخصوص الأحوال الشخصية: الزواج، الطلاق، الميراث - أحكام مستمدة من العادات والأعراف القديمة لا من الشريعة الإسلامية. وقد أثار هذا الظهير استياء الوطنيين ورجال الإصلاح في سائر البلاد الإسلامية، كما أثار استياء الجالية المغاربية في مصر. للمزيد في الموضوع أنظر: علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مؤسسة علال الفاسي، الدار البيضاء، ط 6، 2003، ص 161 وما بعدها.

³ - "احتجاج المغاربة في مصر على ما يجري في المغرب الأقصى"، الفتح، العدد 216، 17 ربيع الثاني 1349هـ، السنة الخامسة، ص 12.

⁴ - العريضة تحمل توقيعات كثيرة منها توقيع مترجمنا الذي كُتب اسمه كما يلي: محمد الرزقي الشريف، عالم بالأزهر.

⁵ - الأستاذ محمد الصالح الصديق من خلال كتاباته وشهاداته الشفوية.

أنّ هذا الأخير كان يحيل عليه بعض الأسئلة التي ترد إليه ليجيب عليها¹. وأيضاً ما ذكره الشيخ المولود الحافظي حين كتب في جريدة "النجاح" بحثاً أهل الرأي في الجزائر على ضرورة أن يكون للجزائريين مندوبون يمثلونهم في مؤتمر الخلافة الذي تقرر عقده بالقاهرة سنة 1926م، فذكر أنّه إذا تعذر إرسال وفد يمثل الجزائر في هذا المؤتمر فإنّه يوجد للجزائر في الأزهر "علماء أجلاء"، يمكن للجزائريين أن يختاروا منهم من يمثلهم في المؤتمر، وقد رشّح لذلك ستة أسماء من العلماء منهم الشيخ الشرفاوي²، وقد استحسّن "النجاح" هذا الاقتراح. ومع أنّ الأمر بقي مجرد اقتراح، إذ لم يكن للجزائر تمثيل في المؤتمر المذكور³، فإنّ وجود الشرفاوي ضمن المقترحين للمهمة المذكورة له دلالتة، لأنّ الشيخ الحافظي كان زميلاً للشرفاوي في الأزهر سنوات طويلة، وهو يعرف جيداً قدر الرجل ووطنيته ومكانته العلمية⁴.

¹ - أنظر مثلاً: جواب عن سؤال في الزكاة تُعطى لتلامذة المدارس الفقراء، أجاب عليه الشيخ الشرفاوي وزميله في الأزهر الشيخ الحسين بن أحمد البوزيدي. النجاح، العدد 219، 30 جويلية 1925م.

² - الشيوخ هم: السعدي بن محمد الخنشلي، إسماعيل بن علي الجيلي، الرزقي الشرفاوي، عبد القادر الونشريسي، محمد العربي السوفي، الحواس البوزيدي. وبعد أن ذكرهم قال: «.. فيكفي لنا أن نرسل تلغرافات إلى مؤتمر الخلافة باعتبار هؤلاء الأساتذة، كلهم أو بعضهم، نواباً عنّا معشر الجزائريين، يمثلوننا بمؤتمر الخلافة، كما نرسل تلغرافات كذلك إلى هؤلاء الأساتذة بما ذكر ليستعدوا إلى التمثيل..». المولود بن الصديق الحافظي، "تداء للأمة إلى مؤتمر الخلافة فهل من مجيب؟"، النجاح، العدد 291، 23 أفريل 1926م.

³ - انعقد المؤتمر فيما بين 13 و19 ماي 1926م، ترأسه شيخ الأزهر، وحضرته الكثير من الشخصيات والوفود الممثلة للشعوب الإسلامية من مختلف أرجاء المعمورة. كان موضوع المؤتمر هو النظر في مسألة الخلافة الإسلامية التي ألغاهها مصطفى كمال أتاتورك في سنة 1924م، غير أنّ المؤتمر لم يُسفر عن شيء، إذ رأى المؤتمرون أنّ الوقت غير صالح للفصل في المسألة على وجه يرتضيه الشرع، وقرروا إرجاء ذلك إلى وقت مناسب! والواقع أنّ المؤتمر فشل لظروف العالم الإسلامي آنذاك (الضعف والاستعمار)، وكثرة الطامعين في الخلافة أمثال شريف مكة حسين بن علي، وحاكم مصر الملك فؤاد، وبخصوص هذا الأخير انقسم رأي = علماء الأزهر بين مؤيد لترشيحه للخلافة، ومعارض لهذا الترشيح، وقد ذكر هؤلاء أنّ مصر لا تصلح داراً للخلافة لتسلط الإنجليز عليها! للمزيد أنظر: سون جويونج، الخلافة الإسلامية من 1876-1924م، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، قسم التاريخ والحضارة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، 1984، ص 429-430.

⁴ - تجدر الإشارة إلى خطأ ورد ضمن مداخلة الأستاذ صالح آيت علجت في ملتقى العلامة الشيخ الرزقي الشرفاوي (تنظيم زاوية الشرفة 27-28 جوان 2012م)، إذ ذكر أنّ المؤتمر المقصود هو مؤتمر القدس الذي انعقد في سنة 1931م.

ويذكر السيد إسماعيل مامي¹ أنه أثناء رحلته إلى مصر في سنة 1927م، وخلال زيارته المتكررة إلى الأزهر، تعرّف على علماء مغاربة كانوا في الأزهر، ذكر منهم خمسة، أحدهم الشيخ الرزقي الشرفاوي، وقد أشاد بهم بقوله: «.. علماء أجلاء، يفتخر بهم الوطن لو كانوا بين ظهرانينا، فيهم من أدرك أسمى الدرجات، نالها عن جدارة وبعد كدٍ وجدٍ، علماء أضافوا إلى جودة تحصيلهم، وسبقهم في حلبة الامتحانات، حسن السيرة، والتدين الحقيقي..»².

ج- حجه وما حدث له من تحوّل في مشاعره تجاه الوطن

قبل عودته إلى الجزائر سنة 1933م زار الشرفاوي الحجاز وأدى فريضة الحج³، وخلال رحلته هذه حدث له ما لم يكن بالحسبان، إذ لم يكد يعود إلى مصر حتى هاجت أشواقه إلى الجزائر، وحنّ إليها حنينا قويا لم يقدر معه أن يصرف همّته نحو عمله⁴، فقرّر العودة إلى الجزائر بعد أكثر من ربع قرن من الاغتراب.

لما رجع الشيخ إلى مصر، حدّث زوجته بمشاعره وأحاسيسه، وأخبرها برغبته في العودة إلى الجزائر، وخيرها بين مجيئها معه وبقائها في مصر، فاخترت بلا تردّد أو تفكير مصاحبة زوجها، ولما عرض الأمر على والديها رفضا لأنّها وحيدتهما، وحاول الشيخ في أيام إقناعهما ولكنهما أصرا على موقفهما، مؤكّدين أنّ اغترابها عنهما بمثابة موتها، وخاصة إلى وطن بعيد كالجزائر، واستاءت أمّها بالخصوص استياءً كدّر عليها صفو حياتها وحياة العائلة كلّها⁵.

وكم كان الموقف صعبا للطرفين، فلا الشيخ الشرفاوي استطاع أن ينثني عن عزمه المصمّم على العودة إلى الجزائر، ولا الوالدان المسكينان قادرين على مفارقة وحيدتهما وقلّة كيديهما!

¹ - إسماعيل مامي: (1889-1957م)، كاتب وأديب، اشتغل بالصحافة، من أهل قسنطينة، درس بالزيتونة، ولكنّه لم يتمّ تعليمه، وانصرف إلى الصحافة مساعدا لمدير جريدة "النجاح" عبد الحفيظ بن الهاشمي. عادل نويهض، معجم

أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط 1، 1980، ص 283.

² - إسماعيل مامي، "سياحة استطلاعية"، النجاح، العدد 478، 7 أوت 1927م.

³ - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 29.

⁴ - نفسه.

⁵ - نفسه، ص 29.

وبعد أن استنفذ كل طرف الوقت كلّهُ لإقناع الطرف الآخر، دون جدوى، جاء القرار الأخير الذي لا مفرّ منه، إذ طلق الشرفاوي زوجته، وهو بذلك غير راضٍ، ولا شكّ أنّ الشيخ قد قرأ الحساب لما ينجر لوالديها من آلام دائمة، ولابنتهما في الجزائر من منغصات الغربية ومكدراتها، فأثر فراقها! ومما يدل على صعوبة الموقف، أنّ الطلاق وقع في اللحظة الأخيرة، إذ تمسك كل طرف بالآخر، فلم يُطلق الشيخ زوجته إلا حين همّ بالصعود إلى الباخرة، إذ حضر أبوها، وهناك طلقها وهي في البيت تبكي حظّها¹، فكانت تلك اللحظة لحظة طلاق ووداع في آن واحد! فعل الشرفاوي ذلك وهو مكروه، وبعد أن أرضى والديها وخاصة أمها، وترك لزوجته البيت والأثاث²، ليعود هو خالي الوفاض من متاع الدنيا، كما ذهب ذات يوم قبل أكثر من ربع قرن، لكن عاد وهو يحمل زادا وافرا من العلم والثقافة، وعزيمة قوية، وقلبا ينبض بالحماس لخدمة الوطن.

أما حيثيات هذا التحوّل المفاجئ في حياة الشرفاوي وأسباب عودته إلى الجزائر فذلك ما سنحاول بيانه في الفصل الآتي.

¹ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م. أيضا: محمد عبد الرحمن قازو، نجل الشيخ الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

² - السيّد زهرة قازو، ابنة الرزقي الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/29. أيضا: السيّد فاطمة قازو، ابنة الشيخ باعزیز شقيق الرزقي الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/06/08م.

الفصل الثالث

عودته إلى الجزائر، أعماله وموقف فرنسا والطّريين منها

أولاً- عودته إلى الجزائر وأعماله

1- عودته وظروف استقباله

أ- أوضاع الجزائر ومنطقة زاوة قبيل عودته

ب- أسباب عودته

ج- ظروف استقباله

د- أسباب اختياره العمل بجمال زاوة

2- أعماله في التربية والإصلاح والوطنية

أ - اشتغاله بالتدريس

ب- الكتابة والتأليف

ج- الإرشاد والإصلاح

د - إصلاح ذات البين

هـ - النشاط السياسي

و- الكشافة الإسلامية

ثانياً- موقف فرنسا والطّريين من أفكاره ونشاطه

1- موقف الإدارة الفرنسية

أ- تشديد الرّقابة عليه

ب- إخضاعه للبحث والمساءلة من وقت إلى آخر

2- معارضة الطّريين لنشاطه الإصلاحي

أ- من هم الطّريون الذين حاربوا الشّرفاوي؟ ولماذا؟

ب- الشّيخ أحمد داوي يقود الحملة ضد الشّرفاوي

ج- فتوى "الرّبيبة" واشتداد الحملة على الشّرفاوي

د- الشّيخ أحمد المقنيعاوي يرسل الأزهر في مسألة "الرّبيبة"

هـ- الشّيخ أحمد داوي يرسم خطة لإيقاع الشّرفاوي!

3- عداء أهل القرية للشّرفاوي

بعودته إلى الجزائر في سنة 1933م، بدأت مرحلة جديدة من حياة الشيخ الشرفاوي، مرحلة كانت حافلة بالعمل والعطاء في مجال التربية والإصلاح والوطنية، فقد تولى التدريس في بعض زوايا منطقة زاوية أين عمل على النهوض بمستوى التعليم، وفي الوقت ذاته سعى بلسانه وقلمه، ومن خلال احتكاكه بالناس إلى بث أفكاره الإصلاحية، ومواجهة ما كان يخيم على هذه المنطقة من جهل وخرافة وجمود.

وبقدر ما كانت هذه المرحلة حافلة بالنشاط التربوي والإصلاحي للشيخ، كانت أيضا مشحونة بالصراع والاصطدام بشيوخ الزوايا - في المنطقة - الراضين للتجديد والفكر الإصلاحي، مما سبب للشيخ مشاكل عدّة، ومضايقات عنيفة، فضلا عن مضايقات الاستعمار ورقابته المستمرة! لكن الشيخ تابع عمله بصبر وثبات، واستمر على نهجه الوطني، وأفكاره الإصلاحية إلى أن قضى نحبه رحمه الله.

أولاً- عودته إلى الجزائر وأعماله

1- عودته وظروف استقباله

أ- أوضاع الجزائر ومنطقة زاوية قبيل عودة الشرفاوي

بعد مقاومة طويلة، وتضحيات عظيمة قدمها الجزائريون في سبيل الدفاع عن وطنهم، عرفت الجزائر منذ مطلع القرن العشرين تحوُّلاً في أسلوب النضال وتركز في مجمله على العمل الثقافي والنضال السياسي، وشهدت البلاد نهضة فكرية، من مظاهرها: ظهور الصحافة والنوادي الثقافية، والتعليم الحرّ، وحركة التأليف وإحياء التراث الفكري والحضاري للجزائر، وكان من وراء ذلك عوامل عديدة، منها الداخلية، كجهود المصلحين الأوائل، أمثال صالح بن مهنا، وحمدان لونيبي، وعبد القادر المجاوي، وابن سماية، ومحمد السعيد بن زكري وغيرهم، ومنها الخارجية كتأثير حركة النهضة والإصلاح التي ظهرت في المشرق، ووصول تأثيرها إلى الجزائر عبر الصحف والكتب التي كانت تدخل الجزائر بطرق سرّية رغم الحصار الاستعماري المفروض عليها لعزلها عن محيطها العربي الإسلامي، وكذا زيارة الشيخ محمد عبده سنة 1903م. ومن العوامل التي ساعدت على بثّ الوعي في أوساط الجزائريين أيضاً، الحرب الكبرى التي شهدها العالم (1914-1918م)، وما صاحبها من أحداث وشعارات، ومشاركة الجزائريين في هذه الحرب.

وبعد هذه الحرب ظهر الأمير خالد بن الهاشمي الذي تزعم في الجزائر حركة سياسية للمطالبة بحقوق الجزائريين، ورفع الظلم الاستعماري الذي كان يُثقل كاهلهم، وكانت للأمير خالد نشاطات في داخل الوطن وخارجه، وخاصة في فرنسا. ولئن تمكن الاستعمار من وقف نشاط الأمير ونفيه، فإنّ تأثيره في أوساط المهاجرين بفرنسا قد ساعد على ظهور حركة سياسية استقلالية متمثلة في حزب "نجم شمال إفريقيا" الذي تأسس بباريس سنة 1926م. كانت هذه الحركة مغربية في البداية، ثم وطنية جزائرية بعد ذلك، وقد كان لمهاجري منطقة القبائل دور بارز في هذه الحركة، إذ كانوا يشكّلون الأكثرية من بين المغتربين الجزائريين بفرنسا، غير أنّ نشاط هذه الحركة بقي يقتصر على أوساط المهاجرين الجزائريين، ولم يبدأ في التسرّب إلى أرض الوطن إلا في أواسط الثلاثينات.

وحين عاد الشرفاوي إلى الوطن سنة 1933م، كان قد مرّ على قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نحو سنتين، غير أنّ العمل الإصلاحي كان قد بدأ مع مطلع القرن العشرين كما ذكرنا، وقد اشتد ساعده مع عودة ابن باديس من رحلته إلى الحج سنة 1918م، وعودة علماء آخرين أيضا من تونس ومن الشرق بعد إتمام دراستهم أمثال: المولود الحافظي، والإبراهيمي، والعقبي، والتبسي، والميلي، وكذا أحمد توفيق المدني الذي نفثه فرنسا من تونس إلى الجزائر موطن أجداده سنة 1925م، وقد أعطت صحافة ابن باديس (المنتقد ثم الشهاب) دفعا هاماً لحركة الإصلاح، وقد كان العاملون في الحقل الإصلاحي - قبل تأسيس الجمعية - تجمعهم الفكرة دون أن يجمعه أيّ تنظيم.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أنّ فرنسا كانت قد أقامت في 1930م احتفالا كبيرا بمناسبة مرور قرن على احتلالها للجزائر، وكان هذا الاحتفال وما حدث فيه من تظاهرات واستعراضات، وما صاحبه من تصريحات، قد أنكأ جروح الجزائريين، وذكرهم بمآسي الغزو والاحتلال التي نزلت بأبائهم وأجدادهم، وذهب بعض قادة الاستعمار وأساطينه في كتاباتهم وتصريحاتهم الاستفزازية إلى أنّ فرنسا قد نجحت في القضاء على الإسلام والعربية في الجزائر، وأنّ الجزائر قد عادت إلى أحضان العالم اللاتيني المسيحي، وستبقى كذلك وإلى الأبد! فاستفزت بذلك مشاعرهم، وأشعرتهم أكثر بخطورة الاستعمار على عقيدتهم ووطنيتهم، فكان ذلك أحد العوامل القوية التي دفعت العلماء - وهم الفئة الأكثر وعياً بخطورة المشروع الاستعماري في الجزائر - إلى تأسيس جمعيتهم، حتى تتكفل جهودهم في سبيل صيانة الشخصية الوطنية، لذلك فإنّ احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر قد خدم القضية الجزائرية، وفي رأي أحمد توفيق المدني فإنّ هذا الاحتفال « قد قدّم القضية الجزائرية عشرين سنة على الأقل.. »¹.

ومن الظروف التي تجدر الإشارة إليها أيضاً، ذلك الصّراع الذي اشتد بين الطُّرق والزّوايا المنحرفة التي يغذيها الاستعمار من جهة، وعلماء الإصلاح والتجديد وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد بن باديس من جهة أخرى، ذلك أنّ من أعمال الاستعمار التي ترمي إلى محاربة الإسلام وتشويه صورته، سعيه بكل الطُّرق لاستمالة رجال الطُّرق الدينية والزوايا، وتشجيعهم على نشر البدع والخرافات، وقد نجح - إلى حد ما - في هذا المسعى، وهذا

¹ - تركي رايح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص 66.

بعد أن ذهب الكثير من الشيوخ والعلماء المخلصين خلال حروب المقاومة، وتدخلت إدارة الاستعمار في اختيار شيوخ الزوايا ممن غلب عليهم الجهل، وسيطرت على نفوسهم حظوظ الدنيا، فسقطوا في شرك الاستعمار وحبائله! وهنا يجدر التذكير بأنّ الزوايا كانت قبل الاحتلال منبع العلم وأكبر عامل لإصلاح المجتمع، ثم بعد وقوع الغزو الفرنسي كانت منبع الثّورة، وشيوخها كانوا في الغالب هم قادة المقاومة طيلة القرن التاسع عشر، لذلك سعى الاستعمار لاختراق هذه المؤسسات، وجعلها تخدم أهدافه. لكن يجب أن نشير إلى أنّ هناك زوايا قد نجت من هذا المصير المشؤوم، واستمرت تخدم الدين والعلم رغم مضايقات الاستعمار ورقابته¹.

هذا بخصوص أوضاع الجزائر عامة، أما بالنسبة لمنطقة القبائل فقد أشرنا في مدخل هذا البحث إلى أنّ من دعائم السياسة الفرنسية الاستعمارية في منطقة القبائل منذ القرن التاسع عشر، تكثيف المدارس الفرنسية في المنطقة، وتركيز نشاط المبشرين فيها بغرض توهين صلة سكانها بالإسلام واللغة العربية، لغة القرآن ولغة الدين، وهذا تمهيدا لتصيرهم وفرنستهم والقضاء على ما عُرفوا به من صلابة في العقيدة، وعنّف في المقاومة، ورفض دائم للغزاة! وقد نبّه الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه الذي صدر سنة 1932م إلى خطورة هذه السياسة بقوله: «.. وكيفيك بأنّ عدد الطلبة في مدارس الحكومة ببلاد القبائل بلغ نحو الثلاثين ألفا، وفي بقية البلاد الجزائرية عموما لا يوجد من الصّبيان المسلمين في المدارس إلاّ ثلاثين ألفا، وكذلك بلاد الجرجرة موضع عناية كبيرة من طرف رجال التبشير المسيحي، من طرف الآباء البيض وغيرهم، ولهم هناك مدارس علمية وصناعية بدیعة البناء، كثيرة العمران..»².

وهذه السياسة التعليمية والدينية التي ابتدأت فيها فرنسا منذ عقود من الزمن، قد بدأت تؤتي أكلها في المنطقة، ففي هذا الوقت بالذات ظهر من أبناء المنطقة من يدعو إلى الإدماج، وهم خريجو هذه المدارس الفرنسية اللائكية منها والتبشيرية، وفيهم من يعادي في كتاباته الدين الإسلامي واللغة العربية، ففي سنة 1930م كتب شخص من المنطقة اسمه "بلقاسم إيبازيزن"، تمسح وحمل لقب "أوغسطين"، مقالة يدعو فيها إلى "جزائر مسيحية"،

¹ - للمزيد عن الزوايا ودورها في عهد الاحتلال أنظر: محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، دمشق - الجزائر، د.ت.

أيضا: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3/4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998.

² - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 106.

ويُشجّع الشّباب القبائلي على الإقبال على المسيحية بهدف إفشال ما أسماه بالحركة القومية الإسلامية الآتية من المشرق¹. في سنة 1931م قام شخص آخر متجنس من المنطقة يدعى "حسين لحمق"، بنشر كتاب بعنوان (رسائل جزائرية)²، وهو عبارة عن بيان يشيد بماضي "الشّعب البربري" قبل الإسلام، في حين يقفز على العهود الإسلامية من تاريخ الجزائر التي تبدأ في القرن السابع الميلادي، وتبعاً لذلك فهو يتغنى بشخصيات العهد القديم مثل: يوغورطة وماسينيسا وأوغسطين³، في حين يتجاهل الشّخصيات التي أنجبتها الجزائر في العصر الإسلامي وهي بربرية أيضاً، أو بالأحرى أمازيغية مثل: طارق بن زياد والناصر بن علناس ويوسف بن تاشيفين والمهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي وإغمراسن والشّيخ الحداد وغيرهم. لكن "لحمق" وأمثاله من خريجي المدرسة الاستعمارية يتبنّون نفس التفسير الاستعماري لتاريخ الجزائر انطلاقاً من الموقف المعادي للصبغة الإسلامية التي اصطبغ بها سكان الجزائر وكامل شمال إفريقيا منذ القرن السابع الميلادي، فكان هؤلاء المستلبين أشبه بمن ينكر أباه ليعتز بجده، والأولى بالأصيل أن يعتر بجده وبأبيه الذي انحدر من ذلك الجد! وذهب "لحمق" أبعد من ذلك، فكان يصرّح بأنّه يشعر بقربه من أوغسطين، أكثر من شعوره بالقرب من عقبة بن نافع⁴! وبعد إبداء الحسرة والأسف على فرض الإسلام على بلاده، راح يؤكّد أنّ مستقبل فرنسا في الجزائر يمثّله البربر⁵!

والواقع أنّ مثل هذه الأصوات تشكّل في ذلك الوقت نشازاً ثقافياً في منطقة القبائل، لكنّها إذا لم تجد من يتصدى لها، ويكبح جماحها، بتعليم الناس وإرشادهم وتوعيتهم، فلا شك أنّها ستجد مع الوقت مواقع في قلوب الناس وعقولهم، وبذلك يقع المحذور! لذلك فقد ذهب الأستاذ أحمد توفيق المدني إلى حد إطلاق إنذار حقيقي بالخطر فقال: «.. إنّ بلاد زاوّة اليوم قد أصبحت من الجهتين الإسلامية والعربية في خطر كبير، فلينتبه المسلمون لذلك قبل فوات

¹ - Augustin Ibazizene, *le port de Beraq'mouch, paris, 1979*.

نقلاً عن: رابح لونيسي، دعاة البربرية في مواجهة السّلطة، دار المعرفة، الجزائر، د.ت، ص 33.

² - Hesnay Lahmek, *Lettres Algériennes, paris, 1931*.

³ - شارل روبيير أجرون، تاريخ الجزائر المعاصر من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954، ج 2، ترجمة جمال فاطمي وآخرون، دار الأمة، الجزائر، ط 1، 2008، ص 551.

⁴ - وظاهر هنا أنّ أوغسطين يرمز للديانة المسيحية، وعقبة يرمز للديانة الإسلامية.

⁵ - شارل روبيير أجرون، تاريخ الجزائر المعاصر، ج 2، مرجع سابق، ص 551.

الوقت.. «¹! ثم أضاف قائلاً: « إنني وإن كنت كثير التناول بمستقبل الإسلام في الجزائر، قوي الإيمان بالنهضة العربية والإسلامية الحديثة، فإنني أخشى على هذا القسم من الوطن أن تعبت به الأيدي، وأن ينفصم حبل اتحاده مع بقية البلاد، فإلى تلك الناحية يجب أن تتجه أنظار المفكرين والعلماء من المسلمين »².

وفي إطار الصراع الذي اشتدّ في هذه الفترة بين أنصار الطُرقية المنحرفة، وبين أنصار الإصلاح والتجديد، كان أكثر زوايا منطقة القبائل آنذاك، رغم جهودها في مجال التعليم وحفظ القرآن وإصلاح ذات البين، من أنصار الطُرقية، وكان بعض أصحابها يقاومون الفكر الإصلاحي أشدّ المقاومة، ومن شدّة عدائهم للإصلاح فقد شوّهوا صورة المصلحين، وألحقوا بهم أوصافاً مشينة ليُنقروا الناس منهم، فالإمام ابن باديس يدعونه "ابن إبليس"، والشيخ الطيّب العقبي جعلوا من اسمه شتيمة تُلصق بكل من تُشتمّ فيه رائحة الإصلاح، إذ يوصف بأنه "عُقبي"، أو "أعُقبي" بالقبائلية³! وهو عندهم "زنديق" ينبغي أن تُطهر منه الأرض، وقد بَشّر أحدُ الطُرقيين بالجنة من يقتله ويريح العالم من شروره⁴، وفي هذه الفترة كانت الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل ما تزال تبحث عن موطئ قدم، رغم مساهمة بعض شيوخها في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين⁵.

ولعل ما يزيد الأمر خطورة، ضعف التعليم بأغلب زوايا منطقة القبائل، وانتشار الخرافات والبدع التي شوّهت صورة الإسلام الصحيح، وكذا هجرة علماء المنطقة نحو

1 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص 109.

2 - نفسه، ص 128.

3 - أسندت للشيخ الطيّب العقبي مهمة المحاضرة والتدريس بنادي الترقّي منذ مجيئه إلى العاصمة سنة 1931م، فكان - في كتاباته الصحفية ودروسه في النادي - ينتقد بشدّة بدع الطُرقيين وخرافاتهم، وما يدعونه من تصوف زائف، ويفضح ما في زواياهم من خبايا، الأمر الذي جلب له عداة الطُرقيين.

4 - محمد الصالح الصديق، في شريط الذكريات، ج 3، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 26.

5 - ضمت تشكيلة المجلس الإداري لجمعية العلماء عند تأسيسها ثلاثة أسماء من شيوخ منطقة القبائل، وهم: الشيخ السعيد الجري من آث جبر، والشيخ محمد فضيل الإيراثي من الأربعاء ناث إيراثن، والشيخ المولود الحافظي من بني حافظ بالقبائل الصغرى. ومن شيوخها الذين اعتنقوا مبدأ الإصلاح في هذه الفترة أيضاً الشيخ علي أولخيار الذي كان ينشر أفكار الإصلاح بالمنطقة عن طريق الدروس والخطب، وكانت المدرسة الحرّة الأولى والوحيدة التي تأسست بالمنطقة حتى ذلك الوقت هي مدرسة دلس سنة 1931م. أنظر: محمد أرزقي فراد، بلاد زاوية من خلال نصوص الحركة الإصلاحية، دار الأمة، الجزائر، 2016، ص 22-23، أيضاً: محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 204-205.

الحواضر، خاصة إلى مدينة الجزائر، مثل الشيخ أبي يعلى الزواوي، والشيخ باعزير بن عمر، والشيخ أحمد بن زكري، ووالده من قبل الشيخ محمد السعيد بن زكري¹، وهو ما أثر سلبا على المنطقة التي كانت في حاجة إلى أمثال هؤلاء العلماء، لنشر الفكر الإصلاحية فيها، وإحياء تعاليم الدين كما جاء بها القرآن والسنة النبوية الصحيحة، لا كما يريدونها الدجالون والمشعوذون والمتاجرون بالدين، وهذا فضلا عما كانت تصادفه الحركة الإصلاحية في المنطقة من اضطهاد ومضايقة من قبل الإدارة الفرنسية الاستعمارية، من ذلك مثلا منع العلماء والمدرسين من الانتقال إلى هناك للمساهمة في الوعظ والتعليم².

وهذه الوضعية التي كانت عليها منطقة القبائل من الناحية الدينية والتعليمية، إذا تأملناها، أدركنا كم كانت المنطقة في حاجة إلى عالمٍ مثل الشرفاوي.

ب- أسباب عودته

من الوثائق التي عثرنا عليها في أرشيف الأزهر رسالة قدمها الشيخ الشرفاوي بتاريخ 22 أبريل 1930م لمجلس إدارة الأزهر يلتمس فيها الترخيص له بالسفر إلى الجزائر خلال الإجازة الصيفية لزيارة أهله وقضاء مصالح تخصه، وقد ذكر في رسالته أنه مضى عليه نحو أربع وعشرين سنة لم يزر فيها بلده ولا وصل فيها رحمه³! والملاحظ أنّ الشرفاوي لم يأت لزيارة الأهل خلال هذه المدة، رغم أنّ إدارة الأزهر قد وافقت على طلبه، ومنحت له إجازة من أربعة أشهر للقيام بذلك. لم نجد في وثائق الأزهر ما يشير إلى سبب عدول الشرفاوي عن زيارة الجزائر كما طلب⁴، وكل ما نعلمه هو أنّ الشيخ - قبل عودته إلى

¹ - محمد السعيد بن زكري (1851- 1914م)، من قرية "إبسكرين"، عُيّن إماماً في مسجد سيدي رمضان بالجزائر العاصمة سنة 1896م، ثم مدرّساً بالمدرسة الثعالبية، وأخير عُيّن مفتياً للمالكية في العاصمة سنة 1908م، وهو صاحب كتاب (أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل)، الذي صدر في طبعته الأولى سنة 1903م. عنه أنظر كتابه المذكور، تحقيق وتعليق محمد عبد الحليم بيشي، البصائر الجديدة، الجزائر، ص 105.

² - يُذكر أنّه حين كُلفت جمعية العلماء الشيخ حمزة بوكوشة بالإشراف على مدرسة الشببية التي تأسست بمدينة تيزي وزو سنة 1934م، قامت الإدارة الفرنسية بطرده من هذه المدينة بحجة أنّه "عربي" لا مكان له في منطقة القبائل! ذكر هذا: محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 205- 206. أيضاً: محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر في الجزائر، ج 2، دار الأمة، الجزائر، ط 1، 1999، ص 156.

³ - وثائق الأزهر الشريف بدار الوثائق القومية بالقاهرة، دفتر قيد محاضر وقرارات مجلس إدارة الأزهر من 17 يونية 1928 لغاية 9 نوفمبر 1930م، وحدة الحفظ 317، السجل 1092، الكود الأرشيفي: 002159 - 5004، قرار رقم 19.

⁴ - ربما لأنّه وجد صعوبة في الحصول على جواز السفر من القنصلية الفرنسية بالقاهرة.

الجزائر في سنة 1933م - قد أدى فريضة الحج¹، وبعد عودته من البقاع المقدسة قرّر العودة إلى الجزائر، وكان سفره هذا سفر انقطاع عن مصر والأزهر، لا سفر لزيارة الأهل كما ورد في طلبه.

إنّ المكانة العلمية التي كانت للشرفاوي في الأزهر، ووظيفة التدريس التي كان يباشرها في مصر، وكذا زواجه في مصر، كل ذلك يُنبئ بأنّ الشّيخ كان ينوي قضاء بقية حياته في مصر²، غير أنّ الشّيخ لما عاد من رحلة الحج عاد بقلب يحنّ بقوة إلى الوطن، وعقلٍ استبدّت به فكرة العودة نهائياً إلى الجزائر حتى أصبحت شغله الشاغل! ولم تُعرف علّة لهذا التحوّل المفاجئ، إذ أنّ الشرفاوي لم يعلّله في حياته بأيّة علّة³، أما الأستاذ محمد الصّالح الصّديق فقد رجّح أن يكون السبب هو أنّ الشرفاوي التقى في البقاع المقدسة بطائفة من أهل الشّرفة وعزازقة وجهات أخرى من زاوة، وقضى معهم أياماً وهم يتحدثون عن المنطقة وعن الجزائر، فعاوده الحنين إلى الوطن بقوة، فقرّر العودة⁴.

وتذهب بعض الروايات إلى أنّ الشرفاوي عاد إلى الوطن بعد أن راسله أخوه باعزيز وطلب منه العودة⁵. وحسب تقرير حرّره أحد أعوان الإدارة الفرنسية حول الشّيخ الشرفاوي، فإنّ عودة هذا الأخير إلى الجزائر كانت تلبية لنداء وإلحاح بعض أعيان قرية الشّرفة، دون أن يذكر أسماءهم⁶، وحسب نفس التقرير أيضاً، فإنّ هؤلاء الأعيان هم الذين بعثوا إليه بمبلغ أربعة آلاف فرنك يستعين بها على العودة⁷.

وإذا صحّت هذه الروايات، فقد يكون أقارب الشّيخ الشرفاوي وبعض أعيان قريته أرسلوا إليه يطلبون عودته حين بلغتهم أخباره عن طريق الحجاج بعد عودتهم إلى البلد، وربما من تلك الأخبار رغبة الشّيخ في العودة إلى الوطن، أو وعدٌ بذلك، مع قلة ذات اليد، ومن هنا

1 - إذا كان الشّيخ قد حج في نفس السنة التي عاد فيها إلى الجزائر، فهذا يعني أنّ حجه كان في أفريل 1933م الذي يوافق شهر ذي الحجة من سنة 1351هـ.

2 - مما يدل على ذلك أيضاً رسالته التي ذكرناها إذ طلب فيها مجرد إجازة لزيارة الأهل.

3 - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي حياة وآثار، مرجع سابق، ص 29.

4 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة بتاريخ: 2013/08/26م.

5 - السيّد فاطمة قازو، عن والدها باعزيز، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/06/08م. وباعزيز هو الوحيد من إخوة الشّيخ الرّزقي الذي كان حياً عند عودته من مصر.

6 - ربما هم الذين ذكرهم الأستاذ محمد الصّالح الصّديق في كتابه المذكور سابقاً: الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، ص 29.

7 - تقرير "خوجة"، قايد دوار أكفادو، مؤرخ في 1936/03/23م. (A.N.O.M, Aix- en-Provence, 91505/52)

كان طلبهم منه، وإلحاحهم عليه بالعودة، وإرسال مبلغ من المال يعينه على العودة العاجلة قبل أن ينغلق قلبه على الجزائر.

ومهما تكن أسباب هذا التحوّل المفاجئ في حياة الشرفاوي، فإنّ المؤكد هو أنّ قرار عودته إلى الجزائر قد وُلد أثناء رحلته إلى الحج، وأنّ لقاءاته ببعض مواطنيه في البقاع المقدسة قد أثّرت، بشكل حاسم، في اختيار وجهته الجديدة.

أجل، إنّه لمن اليسير تصور ذلك الجو المفعم بالورع الروحي الذي كان يرفل فيه الشيخ الشرفاوي وهو في البقاع المقدسة، وكذا الشّعور الوجداني الذي كان يملأ قلبه وهو يلتقي أبناء وطنه، وربما أبناء منطقتة وقريته ممن عرفهم في أيام الطفولة والشباب، فكل هذا من شأنه أن يثير في نفسه ذكريات الماضي، ويستثير فيها الحنين إلى الوطن والأهل والعشيرة بعد طول اغتراب.

ففي مثل هذه الأجواء الروحانية التي صنعها المكان والزمان، وغدّتها اللقاءات والنقاشات التي قلبت هموم الوطن وجراحاته، واستعادت ذكريات الماضي وآلامه، وما صاحب كل ذلك من خلوات مع النفس، وتأمّلات انتابت مترجمنا حول مستقبل الوطن ومستقبله هو أيضا في ديار الغربة، ففي هذه الأجواء النفسية والروحية، التي اتّصلت فيها ذكريات الماضي بهموم الحاضر، وامتزجت فيها هذه وتلك بالتفكير في مآلات المستقبل وهواجسه، ففي هذه الأجواء والظروف وقع تحوّل جذري في تفكير الشرفاوي، إذ لم يعد يحده سوى طموح واحد، هو العودة إلى الوطن.

ولا شك أنّ الشرفاوي قد عرضت على مخيلته، وهو يتدكّر الوطن، صوّر من معاناة الجزائر من ضغط الاستعمار وظلمه، وما يخيم على أهلها من جهل وتخلف، وبخاصة منطقة زاوية التي يُحارب فيها الإسلام والعربية بلا هوادة، وهو ما حرّك في نفسه إحساسا آخر، هو وجوب العودة إلى الوطن لخدمة دينه ولغته، فذلك من الأمور الواجبة على من كان في مثل مستواه علما وثقافة، وعليه، فإنّه لا يحق له أن يبقى في الشّرق يعيش في هدوء وطمأنينة، ووطنه منكوب، وشعبه في جهل وظلام، ومن غير اللائق - أيضاً - أن يبقى يُفيد الغير بعلمه، ويحرم وطنه وإخوانه وهم أحوج إلى هذا العلم الذي عانى الكثير من أجل تحصيله! وربما يكون قد شعر بالندم، أو بتأنيب الضمير على السّنوات التي أمضاها في مصر بعد تخرّجه، لأنّ لمصر من العلم والعلماء ما يكفيها وزيادة.

والملاحظ أنّ الشرفاوي، حين قرّر العودة إلى الجزائر، لم يفكر في مستقبله، بل فكر في واجبه نحو وطنه، وهذا يدل على قوّة وطنيته التي ملكت عليه مشاعره، واستعداده للتضحية في سبيله بخدمة دينه ولغته، إذ لولا ذلك لبقى في مصر بعيداً عن جحيم الاستعمار الفرنسي في الجزائر!

ج- ظروف استقباله

لما بلغ خبر عودة الشرفاوي إلى الوطن وشاع، فرح أهله وأهل المنطقة وأعيانها، واستبشروا خيراً¹، كيف لا والأمر يتعلق بعودة أحد أبنائهم البررة بعد اغتراب طال أمده، يعود وهو قمة شامخة في العلم، ولا شك أنّ هذا العالم سيخدم بعلمه المنطقة، ويرفع من مكانتها، وينير بعلمه الطريق لإخوانه، ويرفع من ذكر العائلة. وتحضيراً لهذا الحدث اجتمع أعيان قرية الشرفة بهلول بدعوة من ثلاثة أشخاص لهم وزنهم في القرية، وهم: الحاج أمقران، والحاج محمد السعيد آث أمقران، والشيخ قازو باعزیز شقيق الشيخ الشرفاوي، وبعد أن تداولوا في الموضوع، اقترحوا أن يجمعوا له مالاً يستعين به على عودته، ولكن الفكرة لم تلق استحساناً من جميع الحاضرين، إذ عارضها معظمهم، متعللين بالفقر، والحاجة إلى من يعينهم هم، لذلك انفض الاجتماع دون نتيجة، ولكن الشيخ باعزیز قام، وبإشارة من بعض أعيان القرية، باستخراج رخصة من السلطات المحلية بمدينة عزازقة لجمع المال لهذا الغرض، وفعلاً جمع بها من عرش بني غبري 1500 فرنك وبعث بها إليه².

عاد الشرفاوي من مصر على متن الباخرة³، ولما نزل بميناء الجزائر وجد في استقباله جمعاً غفيراً من الناس، فيهم العلماء والطلبة، وفيهم الأهل والأقارب، وبعض أعيان مدينة

1 - يقول الأستاذ محمد الصالح الصديق: قبل أن يأتي الشرفاوي بنحو شهرين، وأنا صغير، كنت أسمع والذي يذكر للناس الذين يجتمعون معه أنّ هناك عالماً من قرية الشرفة يجمعون له المال ليعود، وكان الناس فرحين، وهذا يدل على أنّ أهالي المنطقة كانت متشوّقة لمجيء الشيخ من مصر. شهادة شفوية بتاريخ: 2015/03/29م.

2 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 29-30. قال أنّه نقل ذلك عن المرحوم الشيخ طاهري محمد السعيد، وهذا الأخير عن الشيخ باعزیز. ونذكر هنا أنّ التقرير الذي ذكرناه سابقاً يذكر مبلغ 4000 فرنك، وهذا ربما بإضافة ما جُمع من جهات أخرى غير عرش بني غبري، وممن تبرع ببعض المال في هذا الإطار: الشيخ أبو يعلى الزواوي (شهادة السيّد زهرة قازو، ابنة الشيخ باعزیز)، والشيخ أحمد بن زكري (من شهادة الأستاذ محمد الصالح الصديق).

3 - أطلعني السيّد خالد شريف، حفيد الشيخ الشرفاوي، على النسخة الأصلية لجواز السفر الذي عاد به الشرفاوي من مصر، وهو صادر عن القنصلية الفرنسية بالقاهرة بتاريخ: 1933/05/24م، ويحمل رقم: 160، صالح لمدة عام، ولسفر واحد. وتقيد التأشيرات الواردة فيه إلى أنّ الشرفاوي: ركب الباخرة من الاسكندرية يوم 06 جوان، ونزل بمرسيليا

الجزائر، منهم الشيخ أحمد بن زكري الأستاذ بالمدرسة الثعالبية¹، والشيخ محمد الطيب وعَمَّار² شيخ زاوية أحمد بن إدريس، وكان من مستقبله أيضا الإمام عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ أبو يعلى الزواوي وهما من كبار أعضاء جمعية العلماء، وقد استبشر بعودته رجال الإصلاح خيرا، واعتبروا صاحبها مددا لصفهم في الجزائر.

وإثر وصول الشيخ الشرفاوي دعاه الحاج محمد السعيد إِحْفَافَن³ للإقامة في فندقه "قصر الشتاء" بساحة الشهداء، وكان إذ ذاك من الفنادق الشهيرة بالعاصمة، وفي مساء

يوم 10 جوان. ولا يشير الجواز إلى تاريخ الركوب والنزول في رحلته من مرسيليا إلى الجزائر، وتفسير ذلك أن هذا التنقل يعتبر داخلي لكون الجزائر آنذاك هي أرض فرنسية حسب قوانين الاستعمار، فجواز السفر هنا لا يُؤشّر عليه، ويتحول إلى مجرد وثيقة هوية تُستظهر. أنظر الملحق رقم: 6، ص 305.

¹ - أحمد بن زكري: هو نجل الشيخ محمد السعيد بن زكري الذي تولى الإفتاء في الجزائر ابتداءً من سنة 1908م، وهو من مواليد سنة 1893م بالجزائر العاصمة، خريج مدرسة الثعالبية حيث تحصل على الشهادة العليا من المدرسة في جويلية 1916م، وكان ترتيبه الثاني من بين 16 طالبا في دفعته، وُظف في نفس العام بمصلحة الملكية الأهلية بالولاية العامة، ثم أُسندت إليه مهمة الترجمة بنفس المصلحة في 1920م، وفي ديسمبر 1921م عُين كأستاذ مستخلف في المدرسة الثعالبية، ثم كأستاذ رسمي ابتداءً من سنة 1924م. وظل أستاذا إلى أن عين مديرا للمدرسة ابتداءً من 1 أبريل 1942م خلفا للسيد "روفييه" الذي استقال من منصبه. وحسب الوثائق التي عثرنا عليها في الأرشيف الفرنسي، فقد اختير لهذه الوظيفة المهمة: لكفاءته، وانضباطه، وأيضا لكونه مسلماً يحمل الجنسية الفرنسية! ولا ندري مصيره بعد ذلك. المصدر: ملف أحمد بن زكري ضمن صندوق ملفات أساتذة مدرسة الجزائر، الأرشيف الوطني لما وراء البحار: (A.N.O.M. 14H 44)

² - محمد الطيب وعَمَّار (1896 - 1946م)، من مواليد قرية "إبوزيدن" بدوار أوزلاقن، ناحية آقبو، ولاية بجاية. درس على والده الشيخ محند وعمارة الوزلاحي تلميذ الشيخ الحداد وأحد المشاركين في ثورة 1871م، ثم عمل على الاستزادة من العلم بمجهوده الخاص، فكان عصاميا في ثقافته. درس بزواية سيدي الموقّ بصدوق (بجاية)، ثم تولى ابتداءً من سنة 1929م مشيخة زاوية سيدي أحمد بن إدريس. وتشير بعض التقارير الفرنسية إلى أنه عُين إماما أكبر على مسجد هذه الزاوية في سنة 1938م بقرار من والي الجزائر "البريفي"، بمرتب يقدر بـ 24500 فرنك في العام! ربما لجعله في صفّ الموالين لها، لكن مع ذلك عُرف باحتضانه للفكر الإصلاحية والتحرري، وهو الذي قال في سنة 1942م: « لو تندلع الحرب بين فرنسا وإبليس لتجنّدت في جيش إبليس ضد فرنسا »! كما عُرف بنزعة التجديد والانفتاح على ثقافة العصر. عنه أنظر: محمد أرزقي فراد، المآثر العلمية لعائلة محمد وعمارة الوزلاحي، الشروق اليومي، الحلقة الثانية، العدد 2426، 208/10/11. أيضا: عبد العزيز وعلي، أحداث ووقائع في تاريخ ثورة التحرير بالولاية الثالثة، دار الجزائر للكتب، الجزائر، 2011، ص 146. تقرير القايد بتاريخ: 1944/02/22م، الأرشيف الوطني لما وراء البحار، آكس - أن - بروفانس.

³ - الحاج محمد السعيد إِحْفَافَن: أصله من الأربعاء نايت إيراثن، سكن في مدينة الجزائر لمدة طويلة، كان يملك مقهى وفندق بساحة الشهداء. رجل وطني، غير متعلّم لكنّه يحب العلم ويجالس العلماء، كان يسمع عن الشيخ الشرفاوي قبل مجيئه من مصر عن طريق الشيخ السعيد أبي يعلى، وهو الذي وفر له الإقامة في فندقه "قصر الشتاء"، عند نزوله بالجزائر، وأصبح بعد

الغد من وصوله أقام صاحب الفندق المذكور حفلة صغيرة بفندقه على شرف الشرفاوي، ولا يستبعد أن يكون ابن باديس هو من أوصى بتهيئة الشاي والحلوى لهذا الغرض¹، بعد أن عرف مكانة هذا العالم الوافد، وبلغه نبأ نبوغه وعالميته.

حضر الحفلة جمع من العلماء في مقدمتهم الشَّيْخَان: ابن باديس، والطَّيِّب العقبى، كما حضرها جمع من الأعيان ومحبي العلم والعلماء، وفيها تداول الكلمة الشَّيْخ الثلاثة: ابن باديس، العقبى، والشرفاوي، وكان محور الحديث هو أوضاع الجزائر والحركة الإصلاحية فيها، وكيفية النهوض بالأمة والحفاظ على شخصيتها بنشر العلم والوطنية، ومحاربة البدع والخرافات التي أماتت الدين، وشوَّهت تعاليمه السَّمحة، وكان الشَّيْخ الشرفاوي على اتِّصال بحركة الإصلاح وهو بمصر، إذ كان صديقه الشَّيْخ السَّعيد أبو يعلى الزواوي يكاثبه ويُطلِّعه على كل كبيرة وصغيرة بالجزائر². وفي هذا اللقاء عرض الشَّيْخ ابن باديس على الشَّيْخ الشرفاوي العمل معه في صف جمعية العلماء، واقترح عليه الإقامة بالعاصمة، ليعزِّز جهادها الفكري والإصلاحي والقلمي، ولأنَّ ذلك أُفيد له وأدعى إلى نشر علمه وثقافته، لكن الشَّيْخ الشرفاوي اعتذر له، مفضلاً الإقامة بمسقط رأسه، والعمل في تلك المناطق الرِّيفية والجبلية التي تغطِّ في النوم، وتتمرِّغ في وحل الظلام³، فهي أولى به من العاصمة وغيرها من المدن التي فيها أمثال ابن باديس والعقبى والإبراهيمي وغيرهم من العلماء العاملين، على أن يبقى إلى جانبهم في العمل الإصلاحي الذي هو السَّبب الرئيسي الذي دفعه للعودة إلى الوطن⁴.

ذلك في طليعة محبيه وأنصاره، يلتقيان كلما ذهب الشرفاوي إلى العاصمة. ويذكر الأستاذ محمد الصالح الصديق الذي أخذت عنه هذه المعلومات، أنه كان، بعد موت الشرفاوي، يلتقي الحاج إحقافن، فكان هذا الأخير لا يتوقف عن الكلام عن الشرفاوي والإشادة به، وفي مرات عدة طلب من الأستاذ أن يكتب عن شيخه، مما يدل على أنه صاحبه كثيرا وملاًه بالكلام الطيب. وفاته ربما في الثمانينات من القرن العشرين. (معلومات شفوية من الأستاذ محمد الصالح الصديق).

¹ - محمد الصالح الصديق، شهادة بتاريخ: 2016/08/01م.

² - محمد الصالح الصديق، الشَّيْخ الرَّزْقِي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 32. أيضا لنفس الكاتب، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 33.

³ - محمد الصالح الصديق، الشَّيْخ الرَّزْقِي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 32. أيضا: شهادة بتاريخ: 2013/03/26م.

⁴ - يذكر الأستاذ أحمد ساهي، أنّ ابن باديس عرض على الشرفاوي التعاون في إطار الجمعية، واقترح عليه الإقامة بالعاصمة ورئاسة نادي التَّرقِي. أنظر: أحمد ساهي، أعلام من زواوة، مرجع سابق، ص 108.

أقام الشَّيْخ الشَّرْفَاوِي بمدينة الجزائر أياماً، لازمه فيها الأستاذان أحمد بن زكري والشيخ الطَّيِّب وَعَمَّارَةٌ، وقد ظَلَّتْ صُحْبَةٌ هَذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ لَهُ حَتَّى تَوَفِّيَ، وَخِلَالَ هَذِهِ الْأَيَّامِ زَارَهُ فِي مَقَرِّ إِقَامَتِهِ بِالْفَنْدُقِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَمُحِبِّي الْعُلَمَاءِ، وَبَعْضُ أَهْلِ زَوَاوَةِ الْمُقِيمِينَ بِالْعَاصِمَةِ، وَتَنَافَسَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ فِي تَكْرِيمِهِ، وَكَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَدْعُوهُ إِلَى بَيْتِهِ يَدْعُو مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، فَكَانَ فِي كُلِّ بَيْتٍ يَنْزِلُ فِيهِ يَتَحَلَّقُ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَيَسْتَفْتُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ فِي مَوَاضِعَ شَتَّى: فَهَذَا يَسْأَلُ عَنْ عُلَمَاءِ مِصْرَ وَمُؤَسَّسَاتِهَا الْعِلْمِيَّةِ، وَآخَرُ عَمَّا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعِلْمَ الْحَدِيثَ مِنَ الْاِكْتِشَافَاتِ وَالْاِخْتِرَاعَاتِ، وَآخَرُ يَسْأَلُ عَنْ حَيَاةِ الْأَرْوَاحِ وَإِدْرَاكِهَا بَعْدَ الْمَوْتِ.. إلخ. هَذَا وَقَدْ ذَكَرَ مِنْ حَضَرَ بَعْضُ هَذِهِ الْمَجَالِسِ وَالْمَادَبِ أَنَّ الْأَسْتَاذَ الشَّرْفَاوِيَّ كَانَ يَفِيضُ عَلَى الْحَاضِرِينَ عِلْمًا وَأَدْبًا فِي أَسْلُوبٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الْعَذُوبَةِ وَالْجَزَالَةِ، وَالرَّوْنُقِ وَالْحَلَاوَةِ، وَكَثِيرًا مَا تُقْلَى عَلَيْهِ اسْئَلَةٌ فَارِغَةٌ جَافَةٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُقَابَلَ بِالرَّفْضِ، وَلَكِنَّ الْأَسْتَاذَ الشَّرْفَاوِيَّ كَانَ رَحْبَ الصَّدْرِ، مَرِنَ الطَّبْعِ، يُقَابَلُ كُلَّ سَائِلٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ فِي رَفْقٍ وَحَنَانٍ وَتَلَطُّفٍ¹.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَضَاهَا بِالْعَاصِمَةِ مَحَاطًا بِالْإِجْلَالِ وَالتَّكْرِيمِ كَمَا رَأَيْنَا، التَّحَقَّقَ الشَّيْخُ الشَّرْفَاوِيُّ بِمَسْقَطِ رَأْسِهِ، قَرْيَةَ "الشَّرْفَةِ بَهْلُول" الَّتِي غَادَرَهَا مِنْذُ سَبْعَةِ وَعَشْرِينَ سَنَةً، وَهَكَذَا عَادَ الشَّيْخُ إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا وَتَرَعَّرَ فِي أَحْضَانِهَا، وَقَضَى فِيهَا أَيَّامَ طِفْلُوتهِ، فَاسْتَقْبَلَهُ أَقَارِبُهُ وَأَهَالِي الْقَرْيَةِ الْمَجَاوِرَةِ بِإِكْبَارٍ وَتَقْدِيرٍ يَلِيْقُ بِمَقَامِهِ وَمَكَانَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ، وَيُقَالُ أَنَّ أَوَّلَ مَا قَامَ بِهِ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَى الْقَرْيَةِ هُوَ زِيَارَةُ الْمَقْبَرَةِ حَيْثُ تَرَحَّمُ عَلَى أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ الْمَتَوَفِينَ².

وَلِضَيْقِ السَّكَنِ عِنْدَ أُسْرَتِهِ، عَرَضَ عَلَيْهِ شَيْخُ زَاوِيَةِ الشَّرْفَةِ آنَذَاكَ، الشَّيْخُ بَلْقَاسِمُ أُثَاخُوخْتُ، أَنْ يَقِيمَ عِنْدَهُ بِأَحَدِي حِجْرَاتِ الزَاوِيَةِ حَتَّى تُبْنَى لَهُ دَارٌ، وَبِالْفِعْلِ سَكَنَ الشَّرْفَاوِيُّ بِالزَاوِيَةِ، وَشَرَعَ أَهْلُهُ فِي بِنَاءِ بَيْتِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ بِنَاءُ الْبَيْتِ أَصْرَ ابْنِ عَمِّهِ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ السَّعِيدِ عَلَى أَنْ يَنْزِلَ عِنْدَهُ فِي مَنْزِلِهِ، فَانْتَقَلَ الشَّيْخُ إِلَيْهِ، وَقَضَى فِيهِ أَيَّامًا رِيثًا يَتِمُّ بِنَاءُ بَيْتِهِ³، وَظَلَّ الشَّيْخُ مَدَّةً يَسْتَقْبَلُ النَّاسَ⁴، مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ وَغَيْرِهِمْ، الَّذِينَ يَزُورُونَهُ لِرُؤْيَيْهِ وَالتَّرْحِيبِ بِهِ.

1 - محمد الصَّالِحُ الصَّدِيقُ، الشَّيْخُ الرَّزْقِيُّ الشَّرْفَاوِيُّ، حَيَاةٌ وَأَثَارٌ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص 33 - 34.

2 - السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ قَارُو، شَهَادَةٌ شَفْوِيَّةٌ بِتَارِيخٍ: 2016/06/08م.

3 - محمد الصَّالِحُ الصَّدِيقُ، الشَّيْخُ الرَّزْقِيُّ الشَّرْفَاوِيُّ، حَيَاةٌ وَأَثَارٌ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص 34. أَيْضًا مِنْ بَعْضِ شَهَادَاتِهِ.

4 - السَّيِّدَةُ زَهْرَةُ قَارُو، شَهَادَةٌ شَفْوِيَّةٌ بِتَارِيخٍ: 2016/02/23م.

لقد تزامنت عودة الشرفاوي إلى الوطن مع العطلة الصيفية، فاستغل هذه المدة لأخذ قسط من الراحة، وما أن حان موسم الدراسة حتى التحق بزواية سيدي عبد الرحمن اليلولي وشرع في التدريس بها، وتبليغ رسالته التي عاد من أجلها، وهي نشر العلم والثقافة والإصلاح، وصنع الرجال في هذه الجبال النائية المعزولة.

د - أسباب اختياره العمل بجبال زاوية

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا اختار الشيخ الشرفاوي العمل في المناطق الريفية بجبال زاوية، وبالذات في زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي الواقعة في قمة جبل "إيلولة"؟ مع أن العاصمة أو غيرها من الحواضر هي أنسب لمستواه الفكري والثقافي، خاصة وأن الإمام ابن باديس عرض عليه، كما رأينا، أن يقيم بالعاصمة، ويعمل في إطار جمعية العلماء.

وفي الواقع فإن اختيار الشيخ منطقة زاوية لتكون مقرا لإقامته، وميدانا لعمله التربوي والإصلاحي، يعود، في رأبي، إلى ثلاثة عوامل هي:

العامل الأول - هو أن هذا الاختيار كان بالدرجة الأولى استجابة لرغبة طلبة زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي الذين ألحوا في طلب الشيخ ليكون أستاذا في زاويتهم. فمن المعروف أن طلبة هذه الزاوية كانوا هم الذين يتولون تعيين الأساتذة في زاويتهم، فكانوا يتطلعون باهتمام شديد لاستقدام الأكفاء من الأساتذة، ولا سيما بعد أن تفتحت أعينهم على الحركة الإصلاحية¹، لذلك ما أن سمعوا بخبر عودة الشيخ الشرفاوي إلى الجزائر، حتى سارعوا إلى الاتصال بالشيخ الطيب وعمارة، شيخ زاوية سيدي أحمد بن إدريس القريبة من زاويتهم، وطلبوا منه أن يتوسط لهم لاستقدام الشيخ الشرفاوي للتدريس في زاويتهم، وبالفعل فقد قام الشيخ الطيب بهذه المهمة فور نزول الشرفاوي بالميناء، لذلك ما كان منه، حين عرض عليه الشيخ ابن باديس الإقامة بالعاصمة والعمل في إطار جمعية العلماء، إلا أن اعتذر له، لهذا الوعد الذي قطعه على نفسه، مؤكدا له أنه سيكون مع الجمعية بقلمه

¹ - محمد الصادق وعلي، جهود الشيخ الرزقي الشرفاوي في الدعوة والإصلاح، محاضرة شارك بها في أعمال الملتقى الوطني حول الشيخ الرزقي الشرفاوي، تنظيم الجمعية الدينية لزواية الشرفة، يومي 27/28 جوان 2012م، مرجع سابق، ص 140-141.

وفكره، وأنه سيبقى على اتصال بزملائه العلماء بالعاصمة، ويلتقيهم من حين لآخر من أجل التشاور وتبادل الرأي¹، فكان كذلك حتى توفي رحمه الله.

العامل الثاني- ما ذهب إليه الأستاذ محمد الصالح الصديق من أنه لا يبعد أن يكون الشرفاوي قد قبل الإقامة أو اختارها في المنطقة الريفية هروبا من ضجيج المدينة وصخبها، وطلبا لراحة الفكر بعد سبعة وعشرين سنة من الإقامة بالمدينة². ومعروف أن زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي التي طلبته شيخا تقع في قمة جبل "إيلولة"، وهو مكان منعزل في الجبال، وهو بذلك يوفر السكينة والهدوء، ويعين على العلم والعبادة والتأمل³، والشرفاوي يعرف جيدا موقع هذه الزاوية ومزاياها العديدة التي تجعل منها زاوية متميزة عن سائر الزوايا بالقطر الجزائري، ككثرة طلبتها، واستقلاليتها، وحرية أساتذتها في التعليم⁴، لذلك صادف اختيار طلبتها هوى في قلبه، فقبل بذلك. ويمكن أن نضيف هنا أن الشيخ اختار هذه الجبال ليكون بين أهله وأقاربه بعد غربته الطويلة التي حرمتها الدفء العائلي.

العامل الثالث- الوضعية الدينية والتعليمية السائدة في المنطقة، والتي سبق أن شرحناها، وهي وضعية تطرح تحديات أمام صفوة الأمة وعلمائها أمثال الشرفاوي الذي لا شك أنه قد بلغته تلك الصرخة التي أطلقها الأستاذ توفيق المدني في كتابه الأنف الذكر، إذ كان الشرفاوي - وهو بمصر - يتابع باهتمام أوضاع بلاده، ويهتم بما يحدث فيها من أعمال في ميدان التربية والكتابة وغيرها من الجهود التي كان يقوم بها رجال الإصلاح، ومن الذين كان يتراسل معهم وهو بمصر الشيخ أبو يعلى الزواوي، إذ كانا يتراسلان في شؤون مختلفة، وخاصة في شؤون الجزائر، ومنطقة زاوية⁵! فلا يبعد إذن أن تكون التحديات التي ذكرناها، إحدى العوامل التي جعلت الشرفاوي يختار، بعد عودته من مصر، قضاء ما تبقى من عمره مرابطاً في جبال زاوية خدمة للقرآن ولغة القرآن.

ومهما يكن من أمر، فإن الظروف التي ذكرناها، تؤشر لأهمية وجود شخصية علمية في درجة الشيخ الرزقي الشرفاوي في منطقة زاوية آنذاك، وفي زاوية عبد الرحمن اليلولي

1 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 32-33. وأيضا من شهادته العديدة.

2 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 33.

3 - محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، مرجع سابق، ص 119.

4 - سيأتي لاحقا التعريف بهذه الزاوية.

5 - محمد الصالح الصديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 33.

التي طالما كانت مصدر إشعاع فكري وديني للمنطقة كلّها. ولا شكّ أيضا أنّ الإمام عبد الحميد بن باديس قد أدرك هذه الأهمية، فحمد للشرفاوي اختياره، بعد الاتّصالات التي كانت له بالسكان في قرى المنطقة وجبالها خلال جولته التي قادته إلى المنطقة سنة 1931م، فقد ذكر الأستاذ باعزير بن عمر الذي كان آنذاك في رفقة الإمام، أنّ الإمام صرّح إثر تلك الجولة بقوله: « من الواجب علينا أن نولي بعد اليوم وُجُوهنا شطر هذه الجبال الأهلة بالسكان في مختلف جهات القطر كلّها، لأنّ اتّصالنا بها اتّصالٌ بالشعب الذي طالما أُرهب المغيرين عليه من الأجانِب بثباته وشجاعته، وقاوم غزوهم حتى أجلاهم مذمومين مدحورين، وبقي هو قويا كطبيعة أرضه، ثابتا كجباله »¹.

2- أعماله في التربية والإصلاح والوطنية

أ- اشتغاله بالتدريس

تقول بعض الروايات أنّ الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي حين عاد إلى الوطن عرّضت عليه الولاية العامة عدة وظائف لتحوّل بينه وبين التعليم، لكنّه رفض، وأجابهم بقوله: إنّما تعلّمت لأُعلّم!² والواقع أنّ التعليم هو العمل الذي كان يحبّه الشّيخ ويهواه، ويرى نفسه خُلِق له، فقد مارس التعليم في مصر لأكثر من عشر سنوات، وحين عاد إلى الجزائر اختار العمل في هذا الميدان أيضا لما له من دور في تغيير أحوال الأمة، وبناء جيل واعٍ بواقعه المرير في ظل الاستعمار، متطلّع لتغيير هذا الواقع عندما يحين وقت التغيير، وتلك هي الطّريقة المثلّية التي اختارها من قبل الإمام عبد الحميد بن باديس والشّيخ البشير الإبراهيمي ورفاقهما في جمعية العلماء، فلا غرابة إذن، إن وجدنا الشّرفاوي يكرّس جلّ وقته، منذ عودته إلى الجزائر، لنشاط التدريس الذي مارسه في بعض زوايا زاووة، إذ أقبل عليه بكل جدٍ وإخلاص، رغم الصّعوبات وقسوة الحياة في تلك الجبال النائية.

• توليه التدريس بزواوية عبد الرّحمن اليلولي

¹ - باعزير بن عمر، من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسيين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، منشورات الحبر، الجزائر، ط 2، 2007، ص 25.

² - من أوراق المرحوم أحمد قادري، وهو من طلبة الشّيخ الشّرفاوي في زاوية عبد الرّحمن اليلولي.

إنّ أهم زاوية درّس بها الشّيخ الشّرفاوي، بعد عودته من الشّرق، هي زاوية الشّيخ عبد الرّحمن اليلولي¹، وهي زاوية متميّزة وفريدة من نوعها في طريقة إدارتها، إذ يتولى طلبتها بأنفسهم تسيير شؤونها، واختيار الأساتذة للتدريس بها.

فبناءً على الوعد الذي قطعه لطلبة الزاوية المذكورة، إثر نزوله بميناء الجزائر، تعيّن الشّرفاوي رسمياً مدرّساً بها في شهر جويلية 1933م²، ليبدأ التدريس بها فعلاً مع بداية العام الدراسي الجديد، أي في شهر أكتوبر من العام ذاته، وما كاد النّاس في المنطقة يسمعون بتعيينه في الزاوية، وقد بلغهم ما بلغهم من أنّه خرّيج الأزهر، حتى أخذوا يبعثون بأبنائهم وأقاربهم إليها، وحتى الطلبة القدامى الذين تخرّجوا من هذه الزاوية عادوا إليها، رغبة في العلم، وحرصاً على الاستفادة من هذا العالم المتميّز³.

وضع الشّيخ الشّرفاوي برنامجاً محكماً للدراسة، شمل التفسير والحديث والفقه والتوحيد وعلوم اللّغة العربية من نحو وبلاغة وبيان وإنشاء وآداب، وكذا بعض العلوم العقلية كالمنطق والحساب والتاريخ. هذا وقد لازم الشّيخ التدريس بهذه الزاوية منذ عودته إلى الوطن إلى وفاته، ما عدا عاماً واحداً قضاه في زاوية أخرى، وقد تخرّج عليه في هذه الزاوية طلبة كثيرون، ولأهمية هذه المرحلة من حياة الشّيخ الشّرفاوي، فقد أفردناها بفصل مستقل يلي هذا الفصل.

• انتقاله إلى زاوية سيدي موسى لمدة عام

كان انتقال الشّرفاوي إلى هذه الزاوية⁴ في العام الدراسي الواقع بين سنتي: 1938 و1939م. هذا ما سجّله العديد من التقارير الإدارية التي عثرنا عليها في الأرشيف الفرنسي⁵. أما سبب أو أسباب هذا الانتقال فتبقى غير واضحة. فحسب تقرير موجّه إلى

1 - سيأتي التعريف بها لاحقاً.

2 - الأرشيف الوطني لما وراء البحار: (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

3 - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 131.

4 - زاوية سيدي موسى الوغليسي: زاوية قديمة ومشهورة تأسست في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، على يد الشّيخ الجليل سيدي موسى، من قرية "تنبّذار"، بدوار بني وغيليس، ناحية سيدي عيش، ولاية بجاية حالياً. كانت قاعدة للمجاهدين في ثورة 1871م. خلال النصف الأول من القرن العشرين درّس بها علماء كبار أمثال: الشّيخ السّعيد الجري (ت: 1951م)، ومترجمنا الذي قضى بها عاماً واحداً، والشّيخ السّعيد أبهلول الورتلاني (ت: 1945م)، الذي درّس بها خمسة وثلاثين سنة!

5 - A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52.

حاكم بلدية سيباو الأعلى مؤرخ في 28 سبتمبر 1938م، فإن المجلس المسيّر لزاوية عبد الرحمن اليلولي قد قرّر إنهاء مهام الشيخ الشرفاوي في الزاوية¹، لكن دون ذكر أسباب ذلك، والظاهر أنّ هذا القرار جاء بعد أن قرّر الشرفاوي الذهاب، ومما يدل على ذلك أنّ التقرير ذاته يذكر أنّ بعض الطلبة اقترحوا استقدام الشيخ المولود الحافظي إلى الزاوية، وأنّ من وراء هذه الفكرة شخص يُدعى لحوازي علي بن محند، ولا ندرى وظيفة هذا الشخص، في حين رفض كل أعضاء المجلس الاستشاري هذا الاقتراح، وتمسك أغلبهم ببقاء الشيخ الشرفاوي في الزاوية².

وإذا كانت هذه المعلومات لا تفسّر سبب مغادرة الشرفاوي لزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، فإنّها قد سلّطت بعض الضوء على الموضوع، ذلك أنّني لما عرضت محتوى التقرير على الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، وطلبت رأيه في ذلك، نشطت ذاكرته، فأكد لي أنّه فعلا وقع همس آنذاك بين الطلبة حول استقدام الشيخ الحافظي إلى الزاوية، لكن لا أحد طلب من الشرفاوي الذهاب³، فمن المحتمل إذن أنّ يكون الشرفاوي قد قرّر الذهاب بمجرد أن تنهّى ذلك إلى سمعه، أي دون أن يُفتح في الأمر، وعليه فإنّ قرار مجلس الطلبة بإنهاء مهام الشرفاوي في الزاوية قد يكون ترسيما لقرار بدر - قبل ذلك - من الشرفاوي نفسه. ومما يؤيد هذا الذي ذهبنا إليه، ما جاء في تقرير آخر من أنّ استقالة الشرفاوي من الزاوية كانت استجابة لرغبة شخصية أكثر منها تخلصا من النفور الذي تولّد في محيطه بالزاوية⁴!

ومهما يكن الأمر، فإنّ الشرفاوي لم ينقطع عن التدريس خلال هذا العام، فبمجرد أن شاع أمر خروجه من الزاوية التي كان بها، سارع إليه طلبة زاوية سيدي موسى الوغليسي يطلبونه شيئا لهم، فاستجاب لطلبهم، رغم بُعد الزاوية عن مقر سكناه، والتحق بها مدرسا مباشرة بعد انقضاء العطلة الصيفية لذلك العام.

¹ - A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52, Rapport du : 28/09/1938.(E.G.Khodja).

² - Ibid.

³ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/03/21م.

⁴ - الأرشيف الوطني لما وراء البحار، تقرير حاكم بلدية سيباو الأعلى إلى الحاكم العام، مؤرخ بـ:

(A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52) 1938/12/31م.

وحسب الأستاذ محمد الحسن فضلاء، فإنَّ السَّنة التي قضاها الشَّيخ الشَّرْفاوي في زاوية سيدي موسى هي التي غاب فيها والده الشَّيخ السَّعيد أبهلول عن هذه الزاوية لظروف عائلية حالت دونه ودون اللِّحاق بها¹.

ومما يُذكر عن هذه السَّنة التي قضاها الشَّرْفاوي في سيدي موسى، أنَّ هذه الزاوية امتلأت في هذا العام، وحتى الطلبة القدماء الذين تخرَّجوا منها، رجعوا إليها لما سمعوا بتولي الشَّيخ الشَّرْفاوي التدريس فيها². أما فنون العلم التي درَّسها لطلبته في هذه السنة، ونوع الكتب التي اعتمدها في دروسه، فلا نعلم عن ذلك شيئاً، عدا التفسير، فقد درَّسه بكتاب (روح المعاني) للإمام الألويسي، كما كان يفعل في زاوية الشَّيخ عبد الرَّحمن اليلولي، إذ ختم تدريس الجزء الأوَّل منه³.

وللأسف لم نعثر على أيِّ وثيقة أرشيفية عن الشَّرْفاوي خلال فترة تواجده بزاوية سيدي موسى، كما لم نجد أيِّ طالب من طلبته هناك، رغم بحثنا الحثيث، واتِّصالاتنا العديدة بشيوخ تلك الجهة! في حين تردد ذكر ذهابه في التقارير الخاصة بزاوية عبد الرَّحمن اليلولي في هذا العام، ومن خلال تلك التقارير عرفنا أن الذي تولى التدريس لطلبة عبد الرَّحمن اليلولي أثناء غياب الشَّرْفاوي عنها هو الشَّيخ محمد القاضي الصَّدوقي⁴، الذي ابتداءً التدريس بالزاوية في شهر نوفمبر 1938م⁵، وغادرها مع انتهاء

1 - محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 1، دار هومة، الجزائر، د.ت، ص 73.

2 - محمد الصَّالح الصَّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

3 - عرفنا هذا من خلال عبارة كتبها مترجمنا بخط يده في آخر الجزء الأوَّل من كتاب (روح المعاني) الذي كان يدرِّس به، وهي: « ختمت تدريس هذا الجزء لطلبة سيدي موسى الوغليسي ليلة الأحد الخامس عشر من ربيع الثاني سنة 1358هـ. كاتبه محمد الرزقي الشَّرْفاوي الأزهري ». والتاريخ الهجري هنا يوافق: 3 جوان 1939م.

4 - محمد القاضي الصَّدوقي (1889-1965م)، من قرية "تقاعت إميسين"، دوار مسيسنة، بلدية صدوق، وهو من الطلبة القدماء في زاوية عبد الرحمن اليلولي (1912-1918م)، تلميذ الشَّيخ الشَّريف الإفليسي، والشَّخ أحمد أوبلقاسم. درَّس في عدة زوايا، وهي على التوالي: سيدي الحاج احسَّائِن (الصومام)، وسيدي يحيى أوموسى (الصومام)، سيدي موفَّق (صدوق)، سيدي الشَّريف (ميزرانة)، زاوية الشَّيخ أحمد أوبلقاسم في بوجليل (أقبو). عدد تلاميذه في سيدي عبد الرحمن 80 طالب، وأجرته السنوية حُدَّت بستة آلاف فرنك (6000 فرنك. ف). معلومات مستقاة من التقارير الفرنسية حول الشَّيخ وسير التعليم في زاوية سيدي عبد الرَّحمن اليلولي أثناء تواجده بها سنتي: 39/38م. أنظر: الأرشيف الوطني لما وراء البحار، تقرير قايد عرش إيلولة (العربي) إلى حاكم بلدية سيباو الأعلى، بتاريخ: 1938/11/10م، وآخر بتاريخ: 1939/01/06م. أيضاً: تقرير حاكم بلدية سيباو الأعلى إلى الحاكم العام بتاريخ: 1938/12/31م. (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

5 - تقرير القايد العربي بتاريخ: 1939/01/06م، سبق ذكره. (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

السنة الدراسية، ليعود إليها الشرفاوي مع بداية السنة الدراسية الموالية، حيث لازم التدريس فيها بقية حياته.

وجدير بالذكر أنّ الشرفاوي قد عاد إلى زاوية الشيخ عبد الرحمن اللؤلؤي بعد سنة دراسية واحدة فقط، وبعد إباح طلبتها عليه¹، وهذا يدل على بقاء رغبة الطلبة فيه، وتعطشهم إلى ما له من علم وكفاءة في التدريس، كما يدل أيضا على أنّ سبب ذهابه بسيط لا وزن له، إذ لو كان الأمر مهما لما رجع بسهولة.

ب- الكتابة والتأليف

كان الشيخ كلما انفلت من الدرس اتّجه إلى حجرته يخلو فيها إلى كتبه وأوراقه. وإذا كان جلّ النهار يقضيه في التدريس، فإنّ معظم الليالي يقضيها في البحث والتأليف، وأما يوم الجمعة فلا يرى إلاّ أوقات الصلاة، لانهماكه في البحث والكتابة²! هذا حين يكون في الزاوية، أما حين يكون في بيته - أثناء العطل - فكان يتفرغ للكتابة والتأليف، ويطيل السهر مع الكتب، حتى إذا أشفق عليه بعض خاصته وقال له: إنّ هذا كثير عليك، وإنّ لنفسك عليك حقاً، أجاب: « إنّ أشخاصنا ترحل من هذه الدنيا، لكن تبقى أعمالنا وما تخطّه أيدينا للأجيال القادمة »³.

كانت ثمرة هذا المجهود في الكتابة أن ألف كتباً عديدة في اللغة والأدب والتاريخ، ومقالات في التربية والإصلاح نشرها في "الثبات"، و"الأمة"، و"البصائر"، وإذا كانت هذه الأخيرة، أي المقالات، موجودة ومحفوظة في هذه الصحف، فإنّ أكثر كتب الشيخ مفقودة، وسيأتي تفصيل هذا في الفصل الأخير حين نتكلم عن آثار الشيخ العلمية.

ج- الإرشاد والإصلاح

¹ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/03/21م. يحيى بوعزيز، أعلام، ج 1، مرجع سابق، ص 314. أيضا: الأرشيف الوطني لما وراء البحار، تقرير حاكم بلدية سيباو الأعلى إلى حاكم عمالة الجزائر، مؤرّخ ب: 1940/07/08م.

² - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 54. أيضا شهادة شفوية بتاريخ: 2017/04/02م.

³ - السيّدّة زهرة قازو، ابنة الرزقي الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/29، وقد نقلت هذا عن عمّتها يمينة.

بموازاة ممارسته لمهنة التدريس في الزاوية، كان الشيخ الشرفاوي يؤدي دور المرشد والمصلح في المجتمع، فكان يسعى دائما، من خلال مجالسه واحتكاكه بالناس في مختلف المناسبات، إلى تذكير الناس بحقائق الإسلام وفضائله، ودعوتهم إلى ترك العادات البالية المصادمة للشريعة الإسلامية، كالجلوس على القبور، وتقديس أضرحة الأولياء، والشعوذة، وحرمان المرأة من الميراث، وغيرها من البدع والضلالات.

وخلال فترات العطل، كان الشيخ يذهب إلى مدينة عزازقة كل يوم سبت، وهو يوم السوق الأسبوعي، فيجلس في حانوتٍ لشخص يُدعى الحاج مسعود، وكان هذا الرجل يحب العلماء ويعتزّ بالشيخ الشرفاوي، وكان الشرفاوي يحبه ويفضّل أن يجلس في حانوته، فيلتف حول الشيخ أشخاص ممن عرفوا قدره، فيحدّثهم في مواضيع شتى، ويجيب عن أسئلتهم المختلفة¹، وكان أكثر كلامه في مجالسه هذه التشنيع بالجهل والتأخر، والظلم والاستبداد، وتأخر المسلمين مع أنّ دينهم دين الرّقي والتقدم². وكان للشرفاوي - لفصاحته، وسحر بيانه، وقوة حجّته - تأثير كبير في مستمعيه، فلا يكاد ينفصّ السوق حتى تكون كلماته قد فعلت فعلها في النفوس³.

ويُذكر أنّ في مقدمة من لزموا حضور مجلسه هذا صديقيه الشيخين الرّزقي المقنيعاوي وسعيد أوبشير، وقد بلغ حبّ الشيخين للشرفاوي أنّهما كانا يتسوّقان إلى عزازقة ويقطعان مشيا على الأقدام أكثر من اثني عشر ميلا لرؤية الشيخ والجلوس إليه، فتمتد الجلسة إلى المساء بعد انتهاء السوق، فيرجعان إلى بيتهما دون أن يشتريا شيئا مما قصدا شراءه⁴! وكان الشرفاوي يكتب مقالات في الإصلاح وينشرها في الصحف الإصلاحية مثل: البصائر والأمة والثبات، وحين يزور مدينة الجزائر يتقابل مع العلماء أمثال: باعزير بن عمر، وأبي يعلى الزواوي، وابن باديس، والطّيب العقبلي، والبشير الإبراهيمي، للمناقشة في مسائل الدين والعلم والإصلاح ومستقبل الجزائر⁵، ومن الذين كان يتقابل معهم أيضا صديقه الشيخ

¹ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/04/02م. ويقول الرّزوي أنّ الحاج مسعود المذكور له ولد عمره آنذاك حوالي 50 سنة، كان - في عهد الاستقلال - يقيم في مدينة قسنطينة وله مكتبة هناك.

² - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 46.

³ - محمد الصادق وعلي، جهود الشيخ الرّزقي الشرفاوي في الدعوة والإصلاح، مرجع سابق، ص 148.

⁴ - شهادة شفوية عن المرحوم محمد الطّاهر المقنيعاوي، نجل الرّزقي المقنيعاوي، نقلها عنه الأستاذ محمد الصّالح

الصّديق في كتابه: الشيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 46-47.

⁵ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

أحمد بن زكري¹، وتلميذه الشيخ نعماني مكي، وقد تحدث هذا الأخير عن لقاءاته المتكررة مع شيخه بالعاصمة بعد مغادرته للزاوية، ووصف مجالسه بقوله: «.. كان الاجتماع به عبارة عن نادٍ نتحدث فيه عن الدين والأدب والسياسة والأحوال الشخصية، وكل ذلك في إباءٍ وشهامة، ومروءة يُحسد عليها، مع ثقة منقطعة النظير»².

وما يجدر تسجيله هنا هو أنّ الشرفاوي عاش، منذ عودته من الشرق، في منطقة ريفية معزولة، لم يُتَح له فيها أن يخاطب جمهور الناس الواسع لتبليغ رسالته الإصلاحية، مثل ما كان يفعل رواد الإصلاح، كابن باديس والعقبي والإبراهيمي، وهذا لغياب المنابر العلمية مثل نوادي الإصلاح، ولأنّ أكثر شيوخ المنطقة كانوا يجهلون قيمة علمه، ويعادون أفكاره، فلم يرحبوا به في زواياهم مدرّساً، وينسحب هذا الأمر حتى على زاوية "الشرفة بهلول" التي لا تبعد عن بيت الشيخ إلاّ بضعة عشرات الأمتار.

د - إصلاح ذات البين

كان الناس يقصدون زاوية الشيخ عبد الرحمن اللولوي للاستفتاء والاستشارة وفضّ الخصومات التي تنشب بينهم، فيتولى الأمر كبار الطلبة إذا كانت القضية سهلة، وأما إذا كانت القضية تحتاج إلى فتوى، أو أنّها خصومة كبيرة شائكة لا يقدر الطلبة على علاجها، فتُحال على الشيخ الذي يتولى حلها بسهولة، لما يتمتع به من قوة الشخصية، وسعة العلم³. وكان الشيخ - رغم كثرة دروسه، وتزاحم أعماله الفكرية - يستقبل المتخاصمين برحابة صدره، ويُصلح ذات بينهم، والخصومات تُعرض عليه بالقبائلية، ويكلّمهم هو أيضا بالقبائلية حتى يفهم الجميع، ومعروف عن الشيخ أنّه كان يتحدث القبائلية بطلاقة، ودون أن تبدو عليه أية عثرة أو لكنة، رغم طول مكثه في مصر⁴.

والشيخ الشرفاوي يُسعدده أن يرى الناس في تفاهم وتآلف، لأنّ ذلك يمكّنهم من بناء الحياة، وصنع التاريخ، ويجعلهم كتلةً قوية، قادرة على المواجهة والمجابهة، أما إذا شتتتهم الخصومات والنزاعات، فإنّهم لا يقدرّون على تنازع البقاء، ولا على الوقوف في وجه الظالم

1 - نفسه.

2 - مكي النعماني، أوراق كتبها بيده مؤرّخة في 19 جويلية 1986م.

3 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/16م.

4 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/07/13م.

المستبد، أو الطامع المعتدي، لذلك كان إذا فرغ من حلّ خصومة ما، انبسطت نفسه، وانشرح صدره، وقال: « الحمد لله، فقد هزمتنا الشيطان »¹.

ويذكر عن الشرفاوي أيضا، أنه خلال العام الذي تولى فيه التدريس في زاوية سيدي موسى الوغليسي، بنواحي آقبو، كان يجلس في حانوتٍ ويأتيه الناس للاستفتاء والاستشارة وإصلاح ذات البين².

ويجدر التنكير أنّ مهمة إصلاح ذات البين التي نهض بها علماء مخلصون، وشيوخ محترمون، في منطقة القبائل وغيرها من جهات الوطن، كانت تكتسي أهمية بالغة في ذلك الوقت، لأنها كانت تتم وفق قيم الأخوة والتسامح التي دعا إليها الإسلام، ولأنّها أيضا تتم بعيدا عن القضاء الاستعماري ومحاكمه الظالمة التي كثيرا ما كانت تغذي الشقاق والفرقة بين المتخاصمين، فضلا عما تكلفهم من أموال، وما تضيّع لهم من أوقات.

هـ- نشاطه السياسي

لم يقتصر عمل الشيخ الشرفاوي على الجانب الديني والتربوي، بل تجاوز ذلك إلى الجانب السياسي والتفكير في تحرير الجزائر، ومما يؤكّد هذا التوجّه الوطني التحرري لدى الشيخ تلك العلاقة التي كانت بينه وبين بعض الشباب المنخرطين في خلايا حزب الشعب الجزائري التي تكوّنت في المنطقة آنذاك، والتي دلّت عليها - على الأقل - شهادتان، هما:

- الشهادة الأولى للمرحوم حسين آيت أحمد³، أوردها في مذكراته، والتي قال فيها: «.. وبدعوة من سي رزقي (الشرفاوي)، خريج جامع الأزهر، قضينا: أنا، وبنائي¹،

¹ - محمد الصالح الصديق، في شريط الذكريات، ج 2، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 584.

² - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/16م.

³ - حسين آيت أحمد، من مواليد 1926م بعين الحمام، ولاية تيزي وزو. تعلم بالكتاب، ثم تابع تعليمه بالمدرسة الفرنسية وحصل على شهادة البكالوريا سنة 1946م. انخرط في حزب الشعب وهو طالب بثانوية بن عكنون وعمره 16 سنة رفقة عدد من الطلبة منهم: علي العيمش. كان من المنادين بفكرة الكفاح المسلح بعد مجازر ماي 1945م. ساهم في تشكيل المنظمة الخاصة، وتولى قيادتها بعد وفاة محمد بلوزداد. لجأ إلى القاهرة سنة 1951م بعد اكتشاف المنظمة الخاصة. في نوفمبر 1954م كان ضمن الوفد الخارجي المكلف بتمثيل الثورة في الخارج. أُلقي عليه القبض في حادث اختطاف الطائرة في 22 أكتوبر 1956م، وأطلق سراحه في 1962م. بعد الاستقلال عارض السلطة القائمة آنذاك، وأنشأ حزب جبهة القوى = الاشتراكية. وإثر أحداث منطقة القبائل لجأ إلى الخارج، وظلّ في المعارضة إلى أن توفي في 23 ديسمبر 2015م. وأثناء إقامته بالخارج أكمل دراسته وحاز على دكتوراه دولة في العلوم السياسية من جامعة "نانسي" بفرنسا.

والعَيْمَش²، ثلاثة أيام في زاوية سيدي عبد الرحمن، قدمنا خلالها محاضرات حول الحركة الوطنية، وتاريخ المقاومة الجزائرية، وخاصة حول دور طلبة سيدي عبد الرحمن في انتفاضة 1871م، وقد أبدى الطلبة استعدادهم لخدمة الحركة...»³.

وحسب حسين آيت أحمد، فإنّ خلايا الحزب القليلة التي كانت تنشط في منطقة القبائل الصغرى قد تضرّرت بسبب عمليات القمع إثر مجازر ماي 1945م التي وقعت قريبا من هذه الجهة، لكن يقول: «.. بدى لنا أنّه من السهل التوغّل سياسيا في منطقة القبائل الصغرى، وأنّ هناك إمكانيات قويّة لتحقيق هذا بعد زيارتنا لزاوية سيدي عبد الرحمن..»⁴، ولا شك أنّ من الإمكانيات المقصودة هنا، استعداد طلبة الزاوية الذين ينتمون إلى تلك الجهة للانخراط في الحزب وتكوين خلايا له في جهتهم.

والملاحظ هنا، هو أنّ شهادة آيت أحمد جاءت مقتضبة، فهو لم يذكر مثلا تاريخ وقوع هذه الحادثة، لكن سياق الكلام في مذكراته يدل على أنّها وقعت في حدود سنة 1943م أو سنة 1944م، أي في أواخر الحرب العالمية الثانية. وإذا كنا لا نعلم إذا ما تكرر مثل هذا اللقاء أم أنّه وقع مرّة واحدة فقط⁵، فإنّ دعوة الشيخ لهؤلاء المناضلين إلى الزاوية، وقيامهم بالنشاط المذكور وسط الطلبة، يجعلنا نرجّح احتمال أنّ يكون الشرفاوي على علاقة بهؤلاء المناضلين

¹ - بنّاي وأعلي، من مواليد 1917 بقرية جمعة نصهاريج بلدية مقلع حاليا، ولاية تيزي وزو. انخرط في حزب الشعب الجزائري في بداية الأربعينات، وهو واحد من خلية الطلبة بين عكنون. أصبح أحد أبرز مسؤولي الحزب بمنطقة القبائل، وعضو في اللجنة المركزية للحزب. قُتل أثناء الثورة في فيفري 1957م!

(http://fr.wikipedia.org/wiki/Ouali_Benna)

² - علي العَيْمَش، من مواليد 1925م بقرية "إشريعون" ببلدية تيزي راشد، انخرط في حزب الشعب وهو طالب بتانوية بن عكنون. وبالموازاة مع نشاطه السياسي أسس فرعين للكشافة الإسلامية في كل من تيزي راشد والأربعاء ناث إيراثن. وصفه صديقه حسين آيت أحمد بأنّه: "إطار سياسي من الطراز الأوّل"، وأنّه "كان يلتهم الكتب بكل أنواعها مستعينا بحافظته القوية، مما أكسبه ثقافة واسعة في سنوات قليلة". رحل مبكرا سنة 1946م في سن الـ 21 إثر إصابته بنوع حاد من التيفويد أثناء اعتصامه بالجبال بعد أن صار محل بحث من طرف السلطة الفرنسية. حضر جنازته حوالي 50 ألف شخص حسب مصادر الإدارة الاستعمارية. أنظر: مذكرات مكافح لحسين آيت أحمد، مصدر سابق، في صفحات عديدة.

³ - Hocine Ait Ahmed, *Mémoire d'un combattant*, op.cit, p.73.

⁴ - *Ibid*, p.69-70.

⁵ - للحصول على معلومات أكثر في الموضوع حاولت الاتصال بالمرحوم آيت أحمد الذي كان يقيم بسويسرا، وبعد بحث طويل اهديت إلى من يوصل له استجوابا مكتوبا أعدته له، وفعلاً وصلت الرسالة وتسلمها ابنه في أواخر = = 2014م، وانتظرت الجواب، لكن توفي الرجل في ديسمبر 2016م دون أن أصل إلى المبتغى، ويبدو أنّ تدهور صحة الرجل آنذاك قد حال دون ذلك.

قبل ذلك، فهذه الدعوة لا يمكن أن تقع لو لم تكن هناك سابق معرفة وعلاقة بين الشيخ وهؤلاء المناضلين، ولو لم تكن بين الطرفين ثقة متبادلة.

- الشهادة الثانية وصلتنا من زوجة الشيخ الرزقي الشرفاوي، ومفادها أن الشيخ كان خلال العطل يستقبل في بيته بقرية الشرفة بهلول - من وقت إلى آخر - أناسًا غرباء، في تكتم شديد، فيمكنون معه جُلَّ الليل، حيث لا يعلم أحدٌ ما يدور بينهم من حديث، ولا يخرجون إلا قُبيل الفجر، وحين سألته زوجته: من هؤلاء؟ ولماذا يأتون؟ قال لها: إنهم رجال معنيون بمصير الجزائر، وحذرًا من إفشاء أمرهم إلى أيِّ أحد، ولو كان أقرب أقربائها. وذكرت زوجته أيضًا أن الشيخ يُعطي الأهمية لذلك اليوم، فيقضي كل حوائجه أثناء النهار ليتفرغ لهم، ويأمر زوجته أن تبيت تلك الليلة في بيت آخر قريب¹. فلا يبعد إذن أن يكون هؤلاء من المناضلين الشباب الذين هم في الحركة الوطنية، الذين كانوا ينشطون في حقل النضال السياسي من أجل توعية الشعب وإعداده للثورة التحريرية. ومما يؤكد هذا ما أجاب به الشيخ الشرفاوي زوجته في إحدى المرات، لما أرادت أن تعرف من هم هؤلاء الضيوف السريون، إذ قال لها: « إنهم أسود الغابة »².

وهنا يجدر التنويه بأمرين اثنين: الأول وهو روح التضحية التي كان يتحلى بها الشرفاوي، لأنَّ عواقب مثل هذه اللقاءات لو علمت بها فرنسا - لا شك - ستكون وخيمة جدا على الشيخ. والأمر الثاني قدرة الشيخ على إخفاء هذه اللقاءات، رغم كثرة المخبرين والجواسيس الذين كلفتهم الإدارة الاستعمارية بتتبع حركات الشيخ، ورغم ما كان يتحلى به هؤلاء الأعوان من دهاء ومكر.

يبقى الآن لماذا كان هؤلاء المناضلون يأتون إلى بيت الشيخ في الليل، ويمكنون معه ساعات وهم يتحدثون؟ والجواب في رأبي هو هذه العوامل:

- لأنَّ الشيخ وطني، صادق الوطنية، وهو يؤمن بضرورة إعداد العدة لتحرير الجزائر، الأمر الذي لا يمكن أن يكون إلا بثورة وطنية تأتي على الأخضر واليابس من الاستعمار، وهذا معروف جدًا عن الشيخ³.

- لأنَّ الشيخ عالمٌ، والعالم العارف هو أشد الناس عداوة للاستعمار، لأنَّه يعرف أن الاستعمار وباء فتاك يجب محاربه والقضاء عليه، وجرثومة خطيرة خبيثة يجب

¹ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

² - محمد عبد الرحمن قازو، نجل الشيخ الرزقي الشرفاوي، عن أمه. شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26م.

³ - أنظر: محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص78، وص 81.

استئصالها. ثم إنَّ الشَّيخَ فهم القرآن الكريم والسَّنة النبوية فهما جيِّداً، وأدرك بعمق أنَّ الحياة بلا حرية خير منها الموت والدفن في التراب¹.

- أنَّ هؤلاء الوطنيين عرفوا أنَّ الشَّرْفَاوِي تغرَّب سنين طويلة وله تجارب، فأرادوا الاستفادة من خبرته وتجاربه.

وعلى كلِّ، فإنَّ من كان في مستوى الشَّيخ الشَّرْفَاوِي علماً، ووطنيةً، وتطلُّعاً إلى استقلال الجزائر، لا نستغرب منه أن يكون على اتِّصال بمناضلي الحركة الوطنية، لأنَّ الغاية التي يعمل من أجلها الجميع واحدة، وهي تحرير الوطن.

و- الكشافة الإسلامية

حسب شهادة السيِّد أمير رامي²، فإنَّ الشَّيخ الرِّزْقِي الشَّرْفَاوِي هو الذي أشرف على تأسيس فوج الكشافة الإسلامية بمدينة عزازقة وأعطاه اسم "فوج الشَّرْفِيَّة"، وكان ذلك في مارس 1943م³. ورغم غياب الوثائق التي تؤكد دور الشَّيخ في هذا الموضوع، فإنَّني لا أستبعد أن يكون الشَّيخ فعلاً من وراء فكرة تأسيس هذا الفوج الكشفي، لما للكشافة الإسلامية من دور في بث قيم التربية الدينية ومعاني التضحية والوطنية وإعداد النشء للمستقبل الموعود، مع العلم أنَّ الكشافة الإسلامية، سواء في منطقة القبائل أو على مستوى القطر الجزائري، قد نشأت وترعرعت في أحضان الحركة الإصلاحية، وتولى تأطير معظم أفواجها أفراد ينتسبون لهذه الحركة⁴.

وأورد السيِّد رامي أسماء الأعضاء المسيرين لهذا الفوج الكشفي، وطبعاً ليس بينهم اسم الشَّرْفَاوِي⁵، وحسبه أيضاً فإنَّ الشَّيخ كان يضع لهم الأناشيد⁶. وذكر السيِّد عشير محند

¹ - محمد الصَّالح الصَّديق، "جوانب من شخصية العلامة الشَّيخ محمد الرِّزْقِي الشَّرْفَاوِي"، الحلقة الثَّانية، البصائر، العدد 299، 31 جويلية - 7 أوت 2006. أيضاً شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

² - أمير رامي، من مواليد 1930م بقرية آيت بوعدة ببلدية عزازقة، وهو من قداماء الكشافة الإسلامية الجزائرية بمدينة عزازقة، هو الآن متقاعد، ويشغل ككاتب عمومي في مدينة عزازقة. وقد سلَّم لي أوراقاً مرقونة باللُّغة الفرنسية سجَّل فيها شهادته عن الشَّيخ الشَّرْفَاوِي الذي عرفه وهو في سن الـ 12، وكذا شهادته عن تأسيس الفوج الكشفي بمدينة عزازقة.

³ - أمير رامي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/22م.

⁴ - أنظر في هذا: محمد الصَّالح رمضان، "تاريخ وتطوُّر الحركة الكشفية بالجزائر"، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 70، 1982، ص 62.

⁵ - أمير رامي، شهادته في الأوراق التي سلَّمها لي.

⁶ - أمير رامي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/22م.

أرزقي¹ أنّ من بين الذين كانوا يترددون على بيت الشيخ سرّاً لحضور دروسه الليلية: عيمان الطاهر، محلال حند، بوكاسري علي، قاسي شاوش محند، وهؤلاء كلّهم كانوا من الأعضاء المسيرين للفوج الكشفي لمدينة عزازقة². ولا نستبعد أن هؤلاء كانوا يتلقون من الشيخ النصائح والتوجيهات التي تفيدهم في تأطير الفوج الكشفي. ومما يجدر ذكره أيضاً أنّ الكثير من عناصر هذا الفوج الكشفي قد التحقوا بصفوف الثورة التحريرية، فكان منهم شهداء سقطوا في ميدان الشرف فداءً للوطن، منهم الأخوين عيمان أرزقي وعيمان الطاهر، والأخوين رومان لونس ورومان قادر وغيرهم³، رحمة الله عليهم جميعاً.

ثانياً - موقف فرنسا والطّرقين من أفكاره ونشاطه

1 - موقف الإدارة الفرنسية

أ- تشديد الرّقابة عليه

حسب ما سجله أحد أعوان الإدارة الاستعمارية، فإنّ الشيخ الشرفاوي، عند وصوله إلى الجزائر، استقبل من طرف السيّد "ميرانت" مدير الشؤون الأهلية في الولاية العامة آنذاك،

¹ - من مواليد سنة 1926م بقرية الشرفة، وهو من جيران الشيخ الشرفاوي وأقاربه.

² - عشير محند أرزقي، شهادة شفوية بتاريخ: 2018/06/09م.

³ - سلّم لي السيّد أعمار رامي قائمة تضم 18 اسماً لأعضاء الفوج الكشفي المذكور الذين استشهدوا خلال ثورة التحرير.

وأنّ ميرانت قد سأله عن أحوال الشّرق العربي¹، وربما استفسره أيضا عن أسباب عودته إلى الجزائر بعد غيابه الطّويل عنها! ومما لا شكّ فيه أيضا أنّ عودة الشّيخ من الخارج وأزهريته قد لفتت إليه أنظار السّلطة الفرنسية، فعرضت عليه في بداية عودته وظيفاً لاحتوائه واستمالته إلى صفّها، لكنّه رفض هذا العرض²، ليحافظ على حرّيته الفكرية، ولأنّ قبوله الوظيف في ظل إدارة الاحتلال يفرض عليه قيوداً لا يستطيع معها أن يؤدي رسالته التربوية والوطنية التي عاد من أجلها.

ولئن فشلت فرنسا في هذا المسعى، فقد راحت تراقب الشّيخ عن كثب، فكثرت بشأنه المراسلات والتقارير الإدارية التي تبادلتها مصالحها الإدارية، والتي اشترك فيها خاصة والي الجزائر، ونائب الوالي بتيزي وزو، وحاكم بلدية سيباو الأعلى المختلطة، وقايد دوار إيلولة! والجدير بالذكر أنّ عودة الشّيخ الشرفاوي إلى الجزائر في سنة 1933م قد تزامنت مع صدور قرار "ميشال"³ الذي شدّد على الحركة الإصلاحية بإغلاق المدارس القرآنية، ورفض منح رخص فتح مدارس حرّة جديدة، ومنع شيوخ الإصلاح من التدريس في المساجد الرّسمية، وتوقيف العديد من صحف جمعية العلماء. وإذا كانت هذه الإجراءات التعسفية تخص بالدرجة الأولى المدن، حيث ينشط رجال جمعية العلماء، فإنّ المناطق الرّيفية التّائية كانت - هي الأخرى - عرضة لتعسّف الإدارة الاستعمارية وأعاونها حتى قبل هذا التاريخ، لذلك ما أن استقر الشّيخ بزواوية عبد الرّحمن اليلولي مُدرّساً حتى سارع حاكم بلدية سيباو الأعلى إلى إرسال تقرير سرّي إلى والي الجزائر يخبره فيه بتولي الشّيخ قازو أرزقي⁴ التدريس بهذه الزواوية الواقعة في بلديته، ويزوّده بمعلومات عن حياة الشّيخ وسفره إلى مصر ودراسته بالجامع الأزهر. ومما جاء في التقرير عن الشّيخ: «.. إنّه من الصّعب التعرّف على ميوله السّياسية، لأنّه لم يتوان منذ عودته عن إظهار الانضباط، لكن من المناسب التذكير بالموقف العدائي الصّريح الذي أبداه جامع الأزهر تجاه فرنسا، خاصة قبل وأثناء الحرب الكبرى، والمناشير الكثيرة التي تحمل أفكاراً مضادة لفرنسا التي أصدرها

¹ - A.N.O.M ,Aix-en-Provence, 91505/52, garde champêtre (Khodja), Rapport à l'administrateur de la commune mixte du Haut sibaou à Azazga : 23/03/1936.

² - من أوراق المرحوم أحمد قادي، وهو من طلبة الشّيخ الشرفاوي في زاوية عبد الرّحمن اليلولي.

³ - ميشال: الكاتب العام للولاية العامة، أصدر القرار الذي حمل اسمه بتاريخ: 16/02/1933م.

⁴ - التسمية الحقيقية للشّيخ الشرفاوي، وهي التي تستعمل في وثائق الفرنسيين.

هذا الجامع حول ممتلكاتنا في شمال إفريقيا»¹. ولأنّ صاحب التقرير قد ربط بين الشيخ، وبين مواقف جامع الأزهر الذي درس به، فقد أكدّ أنّه لم يتوقف عن إخضاعه للرقابة المطلوبة منذ وصوله إلى المنطقة، وأنّه لن يتردد في المستقبل عن إخبار مسؤوليه بكل ما يصدر عنه من أعمال تتنافى مع "سياستنا الأهلية"².

ومن الوثائق التي عثرنا عليها في الأرشيف الفرنسي، رسالة بخط الشيخ الشرفاوي تضمّنت الخطوط العريضة لحياته وسفره إلى مصر، ودراسته في الأزهر، كتبها الشيخ إجابة لطلب حاكم سيباو الأعلى³، بهدف الاستعلام ومعرفة تفاصيل حياة الشيخ.

وتوالى بعد ذلك المراسلات والتقارير بين رجال الإدارة الاستعمارية وأعاونها حول الشيخ، واهتموا بالخصوص بأفكاره وتوجهاته الدينية والسياسية، فأشاروا في بعض تقاريرهم إلى أنّ الشيخ يسعى لضرب سمعة شيوخ المنطقة، ويدعو إلى تعاليم الإسلام كما جاءت في القرآن، وأنّ أفكاره شبيهة بأفكار الشيخ الطيّب العقبي⁴، إشارة إلى اتجاهه الإصلاحية المخالف للاتجاه الطرقي المتعاون مع السياسة الفرنسية! واهتمت تقاريرهم أيضا بالصحف التي كان يقرؤها الشرفاوي في هذه الفترة، فأوردت منها جريدة "الأمة" للشيخ أبي اليقظان، وجريدة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء آنذاك، وذكرت كثير من التقارير أنّ هذه الصحف وغيرها من الصحف الإصلاحية كانت متداولة أيضا بين طلبة زاوية عبد الرحمن اللولي.

ليس بإمكاننا استعراض كل ما بحوزتنا من وثائق بهذا الشأن⁵، لكن من المفيد جدا أن نشير إلى أنّ هذه الوثائق تعبّر في معظمها عن تخوّف سلطات الاحتلال من نفوذ هذا الشيخ وتأثيره الديني والتعليمي، وتؤكد على أنّه محل مراقبة سرّية مستمرة من طرف السلطات

¹ - A.N.O.M , Aix-en-Provence, 91505/52, Rapport de l'administrateur de la commune mixte du Haut sibaou à Azazga à Monsieur le prefet d'Alger, 21/03/1934, N 1266.

² - نفسه.

³ - الوثيقة مؤرّخة في: 15/10/1934م. وقد عثرت على نصّها المترجم إلى اللّغة الفرنسية. الأرشيف الوطني لما وراء البحار، العلبه رقم: A.N.O.M , 91505/52

⁴ - مراسلة لحاكم سيباو الأعلى إلى والي الجزائر بتاريخ: 15/05/1936م. الأرشيف الوطني لما وراء البحار، العلبه رقم: A.N.O.M , 91505/52

⁵ - صورنا الكثير من هذه الوثائق من الأرشيف الوطني لما وراء البحار بـ "أكس - آن - بروفانس". أنظر الملاحق: 8، 9، 10، ص 37-301.

المحلية منذ عودته إلى المنطقة¹! ولا غرابة في ذلك، لأنّ رجلا في مثل الشرفاوي علما، وكونه درس بالأزهر، لا يمكن أن ينجو من المراقبة الفرنسية المشددة²، ذلك أنّ الإدارة الاستعمارية كانت ترتاب من رجال الدين الأحرار الذين تعلموا في المعاهد الإسلامية خارج الجزائر، وتعتبرهم أعداءً للسيادة الفرنسية في الجزائر، وتخشى انتشار أفكارهم التي هي أفكار الإصلاح والتجديد الإسلامي، لأنّها توقظ العقول، وتفتح الأبصار، وتهدد الاستعمار، لذا تتخوّف منهم الإدارة الاستعمارية وتقرأ لهم ألف حساب.

وبالطّبع فإنّ هناك أعوانا كثيرين جنّدتهم الإدارة ضد الشرفاوي ليتابعوا نشاطه ويبلّغوها أخباره أوّلا بأوّل، وكان (قايد)³ دوار إيلولة يتابع أخبار الزاوية باهتمام زائد، ويزور الشّيخ من حين إلى آخر، فيسأله عن الدراسة والطلبة، فيطمئنّه الشّيخ بأنّ الدراسة لا تخرج عن دائرة الدين، وبأنّ الطلبة لا يفكرون إلّا في هذا النحو، بعيدا عن كل ما يشغلهم عن ذلك من سياسة أو حزب أو غير ذلك⁴! ودراسة الدين المقصودة هنا لا تتجاوز تعليم الوضوء والغسل والصّلاة! ويذكر الأستاذ محمد الصّالح الصّديق أنّ

¹ - أنظر مثلا تقرير لحاكم سيباو الأعلى إلى والي الجزائر بتاريخ: 1941/01/31م، الأرشيف الوطني لما وراء البحار، العلبة رقم: *A.N.O.M*, 91505/52

² - جاء في التقرير المذكور أنّفا: «.. هذا الأستاذ العالم، خريج الأزهر بمصر - لهذا السّبب - هو محل مراقبة سرّية ومستمرة!».

³ - القايد العرّبي، من مواليد سنة 1893م بدوار آث زيكي، بلدية سيباو الأعلى. اسمه رابية العربي بن أودية، تطوّع في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، وسرّح برتبة رقيب بعد خمس سنوات من الخدمة قضاها بين أوروبا والجزائر، وقد جرح أثناءها. عُين في وظيفة قايد دوار إيلولة أو مالو سنة 1923م فاستقر بقرية تابودة، وقد ظلّ في وظيفته هذه مدة 32 سنة، أي إلى أن تخلّصت منه الثورة التحريرية بتاريخ 1955/07/02م. وجدير بالذكر أنّ عائلته معروفة بتولي أفرادها لمناصب في الإدارة الفرنسية، إذ كان أخوه الأكبر قايد دوار بني غبري، وأخوه الآخر كان حارس الغابة (*Garde champêtre*) في دوار آث زيكي. (معلومات مأخوذة من ملف القايد العربي، الأرشيف الوطني لما وراء البحار، العلبة رقم: *A.N.O.M*, 91505). ويقول عنه الأستاذ محمد الصّالح الصّديق: « وللتاريخ نسجل أنّ قايد دوار إيلولة، وإن كان عميلا للاستعمار ترتعد فرائصه منه، ومستهترا لا يستحي، وصديقا لا يخون، فإنّه يحافظ على الشّيخ، ويستتر عليه وعلى الزاوية، وكلّما زار الشّيخ في الزاوية بصّره بمكائد الاستعمار، وكاشفه بأنّه ماكر خادع، لا يؤمن جانبه، ولا ينبغي أن يغفل عن طبيعته الدنيئة الماكرة.. »! أنظر كتابه: رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 182.

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 181. كان قايد دوار إيلولة يحزّر بصفة دورية تقارير حول الزوايا الواقعة في دواره وشيوخها، منها زاوية عبد الرّحمن اللولوي وشيخها الرّزقي الشرفاوي، ومن هذه التقارير وغيرها يحزّر حاكم سيباو الأعلى تقاريره الدورية التي يرسلها لنائب والي بتيزي وزو، ووالي الجزائر.

الرجل الوحيد الذي كان يدافع عن الشرفاوي لدى الإدارة الفرنسية، ويرد عنه كيد الوُشاة وأذئاب الاستعمار الذين باعوا دينهم ووطنهم بأبخس الأثمان، صديقه الأستاذ أحمد بن زكري، فما أن يبلغ مسامعه أنّ هناك من يريد بالشيخ شراً حتى يسارع ليحول بينه وبين الشيخ، وذلك لما له من المكانة عند السّطات الفرنسية، نظراً للمنصب المرموق الذي كان يتولاه¹.

هذا وقد امتدت رقابة الاستعمار إلى بعض أصدقاء الشيخ وملازميه، أمثال الرّزقي المقنيعاوي، وسعيد أوبشير، فكثيرا ما دعاها قايّد الدوار أو محافظ عزازقة ليسألها عن عملها، وأحيانا يسألها عن الشيخ الشرفاوي: ما يقول؟ وفيما يُفكّر؟ ومن يحب ومن يكره؟ ولماذا رجع من مصر؟ وغيرها من الأسئلة التي لا تمتّ بصلة إليهما².

ب- إخضاعه للبحث والمساءلة من وقت إلى آخر

رغم أنّ العديد من التقارير الفرنسية تشير إلى أنّ الشيخ الشرفاوي لا يظهر أنّه يحمل مشاعر معادية للسيادة الفرنسية، كما لا يظهر أنّه حافظ على علاقات، من أيّ نوع، مع الأشخاص الذين عرفهم أثناء إقامته الطويلة بمصر³، لكن مع ذلك فإنّ الإدارة الاستعمارية لم ترتح لنشاطه الديني والتربوي، فجعلته تحت المراقبة الدائمة، كما ذكرنا، ثم ألزمته في السنوات الأخيرة من حياته بأن يحضر إلى مقر الولاية بمدينة الجزائر من وقت إلى آخر للبحث والمساءلة عن أنشطته، وليوقّع ويثبت أنّه بعيد عن السياسة⁴! ومن المرجح أن يكون هذا الإجراء الجديد قد فُرض على الشرفاوي في إطار سياسة التضييق التي انتهجتها فرنسا - مع اقتراب اندلاع الحرب العالمية الثانية - ضد علماء الإصلاح بسبب رفض

¹ - نفسه، ص 35-36. كان أحمد بن زكري أستاذاً بالمدرسة الثعالبية الرّسمية ثم مديراً لها ابتداءً من سنة 1942م.

² - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 46.

³ - أنظر مثلاً: تقرير حاكم سيباو الأعلى عن سير التعليم في زوايا بلديته رفعه إلى والي الجزائر ونائب والي بتيزي وزو بتاريخ: 1935/07/31م. وتقرير آخر لحاكم سيباو الأعلى بالنيابة إلى والي الجزائر بتاريخ: 1936/02/17م.

الأرشيف الوطني لما وراء البحار، العلبة رقم: A.N.O.M, 91505/52

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 181. أيضا شهادة شفوية بتاريخ:

2017/07/12م. وينكر الأستاذ أيضا أنّ زوجة الشيخ - حين يذهب للشيخ للمساءلة - تتأثر، وتتأبها حالة من

الحزن والقلق الشّديد، فلا يطيب لها الأكل ولا النوم حتى يعود. شهادة شفوية بتاريخ: 2018/02/13م.

الإمام ابن باديس ورفاقه في جمعية العلماء¹ إصدار أيّ فتوى أو نداء يدعو الجزائريين إلى الوقوف إلى جانب فرنسا في حربها المحتملة مع ألمانيا.

ومجمل القول، هو أنّ استقرار الشّيخ الشرفاوي بمنطقة القبائل، وتوليّه التدريس بأهم زواياها، كان مصدر قلق للسلطات الاستعمارية، ما جعلها تراقب الشّيخ والزواوية عن كثب، وتجند لهذا الغرض أعوانا وعيونا يتابعونه في كل مكان. وإذا كانت هذه الظروف الاستعمارية الصعبة قد فرضت على الشّيخ انتهاج أسلوب الحيطة والحذر في عمله ومواقفه، وفي التعبير عن أفكاره الوطنية والثورية، حتى لا يعرض نفسه لعقوبات السلطة الاستعمارية الحاكمة، فإنّها لم تمنعه من بثّ التربية والتوجيه الصّالح في دروسه ومجالسه المختلفة.

2- معارضة الطّرقين لنشاطه الإصلاحية

أ- من هم الطّرقين الذين حاربوا الشرفاوي؟ ولماذا؟

تجدد الإشارة في البداية إلى أنّ الطّرقين في منطقة القبائل التي استقر بها الشرفاوي وباشروا بها عمله التربوي والإصلاحية، كانوا على نوعين: فهناك الطّرقين المتفتحون الذين يدورون في فك الشريعة الإسلامية الصحيحة، وهم أقلية، وهناك الطّرقين الذين يُمثلون البدع والخرافات، ويعملون في ركاب الاستعمار الفرنسي، وهم الأكثرية، وهؤلاء هم الذين حاربوا الشّيخ وعارضوا أفكاره الإصلاحية، وألبوا عليه العامة، وهم من نقصدهم هنا.

ولأنّ هؤلاء الطّرقين كان لهم - في المنطقة - تأثير كبير على عامة الناس، فإنّ موقفهم سيكون - بلا شك - عاملا مهما في نجاح أو فشل العمل الإصلاحية الذي باشروا الشرفاوي في المنطقة، ذلك أنّ الزوايا، رغم ما كانت عليه من جمود وانحراف عن حقيقة الدين، فقد كان لها - آنذاك - وزنها في المجتمع القبائلي، إذ كان الناس يقدرّون شيوخها ويجلّونهم، وينقادون لتوجيهاتهم، لحبهم للدين، واعتقادهم أنّ ما عليه هؤلاء الشيوخ هو الدين الحق، لغلبة الجهل عليهم.

ومن المؤسف جدا أن نقول: عدا فئة قليلة متتورة ومؤيدة لحركة الإصلاح، فإنّ أكثر الطّرقين - وهم شيوخ زوايا - قد وقفوا منذ البداية ضد الشّيخ الشرفاوي، وضد ما كان

¹ - كان من رأي الشّيخ الطيب العقبي أن تبادر جمعية العلماء إلى إرسال برقية تأييد للسلطة الفرنسية انقاء لشرفها، وحفاظا على مؤسسات الجمعية، لكن الإمام ابن باديس وأغلب رجال الجمعية رفضوا ذلك. وظاهر أنّ الشّيخ العقبي كان في موقفه متأثرا بما أصابه من ظلم الاستعمار إثر اتهامه في حادثة اغتيال المفتي كحول.

يدعو إليه من أفكار إصلاحية، فبدل أن يرحّب هؤلاء الشيوخ بهذا العالم الذي أفنى زهرة عمره في تحصيل العلم، ويفسحوا له بينهم، فيستفيدوا من علمه، ويستترشدوا بتجاربه في التعليم والإصلاح، نظروا إليه بعين السخط، ورأوا أن يحاربوه ويقاوموا أفكاره! وهذا الموقف المشين من شيوخ يُفترض فيهم حب أهل العلم والدين، والحفاوة بهم، يعود في رأبي إلى ثلاثة أسباب هي:

الأول - حادثة وقعت للشيخ الشرفاوي في بداية عودته من مصر قيل إنَّها كانت سببا مباشرا لاندلاع الصراع بينه وبين شيوخ الزوايا، وهي أنّ الشيخ - بعد أيام قليلة قضاها في بيته يستقبل فيها الزوار - ظهر له أن يزور ضريح مؤسس الزاوية "سيدي بهلول" في القبة التي أقيمت له أسفل الزاوية، فخرج بلباسه الأزهري، وفي طريقه وجد جماعة من الناس جالسين على القبور يتجادبون أطراف الحديث، وعندما وصل إليهم خفوا للتسليم عليه، فاستغل الشيخ هذه الفرصة فحدّثهم عن الجلوس على المقابر والمشي عليها، ونهاهم عن هذا المنكر، وساق لهم الأحاديث في الموضوع، وضرب لهم مثلا من أنفسهم، فقال لهم: أيرضى أحدكم أن يمر على سقف بيته أو يجلس عليه أحد؟ فكما أنكم لا ترضون بذلك، فكذلك أهل هذه القبور لا يرضون! وما أن شاع خبر هذه الحادثة وذاع في مختلف الأوساط حتى هبّ شيوخ الزوايا لانتقاده، والطعن في علمه، وأشاعوا أنّ المنكر هو ما عليه هذا الشيخ، وكيف لا وقد مرّ بالزاوية خلال قرون مضت (علماء) ومشايخ فما أنكر الجلوس على القبور أو المشي عليها واحد منهم¹.

وما يمكن استخلاصه من هذه الحادثة البسيطة، هو أنّ مهمة الشيخ الشرفاوي لن تكون سهلة في هذا الوسط الذي سيطر فيه الطرقيون، فقد علّموا مريديهم أمورا، وعاشوا على هذه الأمور مسلّمة، ما يجعل مهمة المصلح صعبة جدا مهما علا كعبه في العلم، ومهما تحلى بالحكمة والمرونة في دعوته للناس، فهذا العداة مرده - في رأبي - ليس إلى أسلوب الصراحة وعدم المجاملة الذي انتهجه الشرفاوي في محاربته للبدع والمنكرات، وإنّما مرده بالدرجة الأولى إلى جوهر العمل الإصلاحي نفسه، لأنّه يتعلق بإنكار أمورٍ شبّ عليها الناس وشابوا، وتحريم أشياء هي عند الناس حلال، وهنا مكن الصعوبة التي تواجه المصلحين في كل زمان ومكان.

¹ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 90، أيضا في شهادته بتاريخ: 2013/08/26م.

والواقع أنّ الشّيخ الشّرفاوي لم يُرَق له ما وجد عليه شيوخ الزوايا من جمود وتخلّف، وبدع وخرافات، وخَوْرٍ في العزيمة، واستكانة لحياة كلّها خرافات وأباطيل تعوق عن التقدم والرقي، فأخذ - منذ أن استقر في منطقة القبائل - يقاوم هذه الأمور المخالفة لحقيقة الدين، ويتناولها بالنقد في مجالسه، ودروسه، ومقالاته التي كان ينشرها في الصّحف، كالنّبات والأمة والبصائر، ويدعو النّاس إلى الإيمان الصّحيح، ويهيب بهم أن يستنبروا بنور العلم، ويهتدوا بهدي محمد صلى الله عليه وسلّم، ويهجروا كل ما ألصق بالدين من عادات ليست منه في شيء، وهذا ما لم يتقبله شيوخ الزوايا.

الثّاني - أنّ الفترة التي عاد فيها الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي من الشّرق هي الفترة التي اشتدّ فيها الصّراع بين أنصار الطّرقية المنحرفة، وبين أنصار الإصلاح والتجديد، لذا فإنّ محاربة أصحاب الزوايا المنحرفين للشّرفاوي هو جزء من محاربتهم لرجال الإصلاح وأنصار جمعية العلماء.

الثّالث - أنّ أصحاب الزوايا الجامدين المنحرفين عن جادة الدين رأوا أنّ انتشار الأفكار الإصلاحية التي يدعو إليها الشّرفاوي سيعصف - لا محالة - بامتيازاتهم المادية، وبمكانتهم في قلوب النّاس، وعرفوا أنّ نجمهم سيأخذ في الأفول أمام هذا الشّيخ الأزهري المشهود له بالتفوّق العلمي في مختلف المجالات، بعد أن يفتضح جهلهم بالدين أمام النّاس، وهم الذين يزعمون بأنهم علماء، ويتصدون للفتوى والتعليم، فالمسألة إذن - بالنسبة إليهم - مسألة وجود وصراع من أجل البقاء، ومن هنا قرّروا أن يعارضوا الشّرفاوي، ويستमितوا في محاربتة.

ولأنّ بضاعة هؤلاء الشيوخ في العلم قليلة، لا تكاد تظهر أمام هذا العالم الأزهري، فقد تسلّحوا في حربهم ضده بسلاح الإشاعة والدعاية الكاذبة لتشويه سمعته، وصرف النّاس عنه، فأشاعوا أنّه كافر زنديق، تعلّم في مصر علم الأبالسة والشياطين، وجاء إلى منطقة القبائل ليهدم الدين، ويقضي على الزوايا، وينشر الفوضى والبلبلة، وهو ضال مضل، والدليل على ذلك أنّه ينكر على النّاس ما لم ينكره عليهم أحدٌ من (علماء) المنطقة فيما مضى من الزمان!¹

¹ - محمد الصّالح الصّديق، في مواضع كثيرة من كتاباته، وشهاداته الشّفوية.

وهنا ينبغي أن نسجل أن لهذه الدعاية فعاليتها القوية، وأثرها البالغ في الأوساط العامة، لأنّ الدين الصحيح في نظر عامة الناس هو ما عليه شيوخ الزوايا بالمنطقة، لا ما يدعو إليه الشّيخ الشرفاوي.

والشّيخ أمام هذه الدعاية المسمومة ضده، كان يحاور خصومه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويواجههم بالحجة والبرهان، وأحياناً ينحي عليهم باللائمة، ويكشف ضلالهم وابتعادهم عن شريعة الإسلام فيقول - مثلاً - : « كثر الأذعياء فأنكروا علينا كثيراً من الأحكام هي صريح كتاب الله تعالى أو صريح السنّة الصحيحة، أو هي عمل الصحابة والتابعين، جاهرنا بها ولم نخش في ذلك لومة لائم، فلم ينكروها وينتقدوها علينا بدليل من الأدلة المعتبرة، وإنما يقولون مضى فلان وفلان لم يفعلها ولم يحصل منه ذلك، هذا منتهى دليلهم، أو يقولون لم تجر العادة بها في بلدنا. فقل لي بربك أيها القارئ هل يُنتَقَت إلى استدلالهم بذلك؟ وهل كلفنا الله باتباع الرجال فيما خالفوا فيه صريح الأدلة الشرعية؟ وهل يصحّ أن نترك حكماً بدليل من تلك الأدلة لعادة جارية؟ كلا، بل هذا عين الضلال، وإنما كلفنا لنعمل بكتابه وسنّة رسوله، وما أنتجته القياس الصحيح، وليس للمؤمنين الحقيقيين من عادة إلا ما عودهم عليه الدين.. »¹.

ب- الشّيخ أحمد داوي يقود الحملة ضد الشرفاوي

الشّيخ أحمد داوي بن محند السعيد، يُعرف أيضاً بالشّيخ أحمد ناث يوسف الجنادي، من مواليد سنة 1861م². شخصية دينية مرموقة في منطقة القبائل خلال النصف الأوّل من القرن العشرين، وهو من قرية "تميزار" بعرض آث جناد، دائرة أرفون. تلقى تعليمه الأوّل بزواوية أجداده "سيدي منصور"³ ثم أكمل دراسته بزواوية الشّيخ عبد الرحمن اليلولي،

¹ - محمد الرزقي الشرفاوي، "وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة"، البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م.

² - حسب شهادة ميلاده فقد سُجّل في سجل المواليد في سنة 1891م، وعمره آنذاك 30 سنة. نسخة من سجل المواليد مستخرجة من بلدية تميزار بتاريخ: 1997/5/6م، رقم 2092.

³ - زاوية سيدي منصور: أنشأها الولي الصالح والفقير الورع سيدي منصور الجنادي خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، بقرية تميزار التابعة لعرش آث جناد، حوالي 50 كلم شرق مدينة تيزي وزو، (حاليا تميزار بلدية تتبع إدرايا لدائرة واقتون). وفضلا عن دورها التربوي والاجتماعي حملت الزاوية غداة تأسيسها لواء المعارضة ضد سلطان كوكو الذي كان يتقل كاهل الناس بالضرائب. توفي سيدي منصور سنة 1644م، دون أن يعقب ذكرا فتولّت إدارة الزاوية أسرة (داوي). في عهد الاحتلال الفرنسي كان للزاوية نفوذ اجتماعي ومكانة هامة في قلوب الناس، لكن مستوى التعليم فيها تراجع، وكاد يقتصر على تحفيظ القرآن الكريم. للمزيد أنظر: أحمد ساحي، أعلام من زاوية، مرجع سابق، ص 43 وما بعدها. وثيقة أحمد داوي عن سيدي منصور وقانون الزاوية في آخر كتاب أمر بوليفة، جرجة عبر التاريخ (بالفرنسية).

وكان من شيوخه فيها الشيخ بلقاسم البوجليلي صاحب "التبصرة" في القراءات. بعد وفاة والده تولى تسيير شؤون الزاوية، وظل في هذه الوظيفة مدة تقارب أربعة عقود، من سنة 1904م إلى وفاته سنة 1942م¹. وإلى جانب تسييره للزاوية كان يقوم بالتدريس، واشتهر بالخصوص بتضلّعه في الفقه المالكي، كما اشتهر بإصلاح ذات البين، فما من خلاف عائلي أو قبلي أو أسري ينشب في المنطقة إلاّ وعمل ما بوسعه لمعالجته، غير عابئ بما يواجه في سبيل ذلك من متاعب ومشاق².

لكن إلى جانب هذا الدور الإيجابي الذي أكسبه مكانة مرموقة في قلوب أهالي المنطقة، عُرف الشيخ أحمد بولائه لفرنسا، إذ كان لا يدعُ مناسبة إلاّ ويُعبّر عن ولاءه لها، واستعداده لوضع كل ما له من نفوذ في دواره والدواوير المجاورة في خدمتها³.

وإذا اعتبرنا مواقفه هذه مع فرنسا أسلوباً من أساليب "التقية" انتهجه الشيخ مع فرنسا قصد اتقاء شرورها⁴، فماذا نقول عن عدائه الشديد للفكر الإصلاحية، ومحاربتة لرجال الإصلاح في المنطقة خاصة الشيخ الرزقي الشرفاوي؟ فقد عُرف الشيخ أحمد بعدائه الشديد للشرفاوي منذ عودته من مصر، وكان يُحدّر الناس منه ويُشيع عنه أنّه عالم في

¹ - خلفه على رأس الزاوية أخوه الشيخ داوي محند الشريف الذي استمر في وظيفته إلى وفاته سنة 1968م.

² - محمد الصالح الصديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 29-33.

³ - أنظر مثلا تصريحاته أمام الحاكم العام "كارد" (Carde) حين زار "بور قيدون" (أزفون) في إطار جولته إلى منطقة القبائل سنة 1933م، والتي نقلتها الجرائد الفرنسية بتاريخ: 1933/10/07م مثل: (*La Dépêche - L'Echo d'Alger*) و *La Presse Libre - Algérienne* - *La Kabylie Française* الصادرة يوم: 1933/10/18م). أنظر أيضاً: تقرير حاكم بلدية سيباو الأعلى المختلطة إلى حاكم عمالة الجزائر (البريفي)، بتاريخ: 1938/10/12م. (الأرشيف الوطني لما وراء البحار: *A.N.O.M* , 91505/52). بل إننا نجد الشيخ أحمد في رسالة كتبها لنائب العمالة بتيزي وزو (سوبريفي) سنة 1939م يشيد بدور فرنسا في تحرير الجزائريين من الهمجية، وينكر بفخر واعتزاز أنّه صديق لفرنسا، وينكر بخدماته لها منها تدخله لإقناع الأهالي بقبول التجنيد في الجيش الفرنسي في بداية الحرب الكبرى سنة 1915م! (الرسالة باللّغة الفرنسية وتحمل تاريخ: 1939/03/24م، مصلحة الأرشيف لولاية تيزي وزو). وتذكر وثيقة فرنسية أخرى كتبها حاكم بلدية أزفون المختلطة إلى نائب العمالة بتيزي وزو أنّ تظاهرة أقيمت في زاوية سيدي منصور يوم الجمعة 1940/06/07م، وفيها خطب الشيخ أحمد مشيدا بأعمال فرنسا المفيدة في هذا البلد، وعبر عن تضامن أهالي = المنطقة (منطقة القبائل) مع فرنسا، ودعا للحلفاء بالتصر في الحرب التي كانوا يخوضونها آنذاك ضد ألمانيا! (الوثيقة عثرنا عليها في الأرشيف الوطني لما وراء البحار: *A.N.O.M* , 91505/52).

⁴ - قال بهذا التأويل الأستاذ أرزقي فراد في كتابه: بلاد زواوة من خلال نصوص الحركة الإصلاحية، مرجع سابق، هامش (1)، ص 58.

كل شيء إلا في الدين فإنه قليل البضاعة فيه¹! وكان لهذه الدعاية وقعها وتأثيرها على عقول الناس، لأنّ للشيخ أحمد أنصار في كل قرية من قرى المنطقة، وهم شيوخ الزوايا، وأكثرهم من تلاميذه، وكان هؤلاء يرون في الشيخ الشرفاوي ما يرى الشيخ داوي، ويقولون فيه ما يقول، ويتهمونه بما يثير في نفوس أتباعهم الغيرة على الدين، ويجتهدهم لمحاربتة أو لكرهيته على الأقل².

وساهم في هذه الحملة - بفعالية - بعض رجال الدين الرسميين، مثل الشيخ الصديق الأمسوني، المفتي بمدينة تيزي وزو آنذاك، فقد حمل لواء الخصومة ضد الشرفاوي إلى جانب الشيخ أحمد داوي، وآل على نفسه أن يصل معه حتى النصر المبين، فكان المفتي يكتب مقالات - حسب طاقته الفكرية - كلها في ذمّ الشرفاوي والتشجيع بالإصلاح ويزوعها على شيوخ الزوايا والطرقين، فتظافت جهوده مع جهود الشيخ داوي الذي كان يعمل العمل نفسه، لكن بلسانه، في مجالسه وأمام زواره في الزاوية، مستغلا مهارته الخطابية في استصراخ رجاله لمناهضة الشرفاوي ومحاربتة³.

ووظّف خصوم الشرفاوي الشعر القبائلي في محاربة الشيخ والحطّ من قيمة رجال الإصلاح، وللشعر القبائلي بيانه وسحره على عقول الناس في المنطقة، فقد ذكر الأستاذ محمد الصالح الصديق أنّ أحد الطريقين زار والده يوما، وكان من قرية بعيدة يتعدّر عليه الرجوع إلى بيته في يومه، وقبيل المغرب ذهب مع والده إلى مسجد القرية لأداء الفريضة، وكانت له محفظة كبيرة تركها في الحجرة التي نزل فيها، فرأى بدافع من الفضول - وهو صغير - أن يفتحها ليرى ما فيها، فكان أن وجد كراسا مليئا بقصائد شعرية بالقبائلية، منها قصيدة في التشجيع باثنين من رجال الإصلاح، هما الإمام ابن باديس والشيخ الرزقي الشرفاوي، وخلاصة محتوى القصيدة كما أورده الأستاذ في مذكراته: كان البلد في نعمة من الدين والأخلاق حتى جاء ابن باديس والشرفاوي فاضطربت الحياة، وذلّ الحق، فليس لنا إلا الأمل في الله أن يعجل بموتهما، أو يُنزل بهما المرض ما يجعلهما عبرة لأولي الأبصار⁴!

1 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 48 - 49.

2 - نفسه، ص 47.

3 - نفسه، ص 50، أيضا: محمد الصالح الصديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 60 - 61.

4 - محمد الصالح الصديق، رحلتي مع الزمان، ج 2، مرجع سابق، ص 13.

ج- فتوى "الرببية" واشتداد الحملة على الشرفاوي

ومما زاد في تصعيد الحملة على الشيخ، فتواه في مسألة الزواج بالرببية، تلك الفتوى التي أحدثت ضجة كبيرة في منطقة زاوية، وألّبت عليه شيوخ الزوايا وطلبتهم ومريديهم، وكادت تعرّض حياته للمخاطر والمهالك، وجعلته شُغل الألسن بقية حياته. فما حقيقة قصة هذه الفتوى؟

يُنكر أنّه كان ممن أحبوا الشيخ الشرفاوي ولازموه منذ عودته من مصر إلى أن توفي شيخان منتوران، هما الشيخ الرزقي المقيعاوي، والشيخ سعيد أوبشير، وقد سألاه يوماً عن قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾¹، فأجاب الشيخ بما قرّره أهل التفسير، وأهل الأصول في الآية الكريمة، فذكر أنّ الآية مثار نزاع كبير بين العلماء، وأنهم بسطوا فيها القول وأفاضوا مما لو جُمع لكان كتاباً مستقلاً، ومحور الخلاف بينهم قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾²، و(اللّائِي) مع صلتها صفة للربائب، وبناء على هذا اختلفت آراؤهم، فمنهم من قال بتحقيق مفهوم الصفة في الآية، ومنهم من قال بعدم تحقّقه، وعليه فالرببية التي في حجر الزوج وتربيته محرّمة بالإجماع، والرببية البعيدة عن حجر الزوج وتربيته فيها خلاف، فمن قال بتحقيق مفهوم الصفة في الآية قال: لا تحرّم لأنّ الآية أفادت بمنطوقها تحريم الرببية التي في حجر الزوج، وأفادت بمفهومها تحليل الرببية البعيدة عن حجر الزوج، وهذا مذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولما طلب منه الشّيخان أن يحرّر لهما الجواب بخط يده حرّره في كلمة وجيزة³ هذا نصّها:

« مسألة الرببية البعيدة عن حجر الزوج وما روي فيها عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقد أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم بسند صحيح عن مالك بن أوس، قال: كانت عندي امرأة فتوفيت وقد ولدت لي، فوجدتُ عليها، فلقيني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال لي: ما لك؟ فقلت: توفيت امرأتي، فقال: ألها بنت؟ - يعني من غيره - قلت: نعم وهي في الطائف. قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا، قال: انكحها، قلت: فأين قوله تعالى:

¹ - سورة النساء، الآية 23.

² - الربائب: جمع ربيب وربيبة، والرببية هي ابنة المرأة من زوج آخر، سميت كذلك لأنها يرببها الزوج الثاني كما يربي ابنته في غالب الأحوال. والحجور جمع حجر، وهو في اللغة حضن الإنسان، يقال: فلان في حجر فلان، أي في كنفه ومنعته، وهو المراد في الآية.

³ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 47.

﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قال: إنّها لم تكن في حجرك، إنّما ذلك إذا كانت في حجرك. وإلى هذا ذهب الظاهرية. انتهى. من الألويسي، هذه فتوى علي بن أبي طالب بسندها الصحيح، ومثلها في فتح الباري على البخاري..¹

وهنا ثلاث ملاحظات هامة جديرة بالذكر:

الملاحظة الأولى - أنّ الشّيخ الشّرفاوي اختار القول بتحقيق مفهوم الصّفة في الآية، فأفتى بجواز الرّواج بالرّبيبة التي ليست في الحجر، لدلالة ظاهر الآية على ذلك²، واستدل بما رواه مالك بن أوس عن علي بن أبي طالب في المسألة، وهو ما يتوافق مع مذهب الظاهرية. ويتضح من هذا أنّ الشّيخ لم يلتزم بقول الجمهور من أنّهم المذاهب لمجرد أنّه القول المشهور، ولم يتأثر حتى بأقوال المفسرين التي أجمعت على تفسير واحد للآية باستثناء الشّيخ محمد الطاهر بن عاشور³، وإنما وازن بين الأدلة، وأعمل نظره في النصوص فظهر له قوة مذهب أهل الظاهر فأفتى به كما لو كان مجتهدا أو مرجّحا⁴.

والملاحظة الثانية - أنّ فتوى الشّيخ في مسألة الرّبيبة لم تكن من باب التفييق والجدال العقيم، ذلك أنّ السؤال لم يُطرح عليه لمجرد الرغبة في معرفة تفسير الآية، وإنّما هناك حادثة وقعت تحتاج إلى مثل هذه الفتوى الشّرعية. فقد روي أنّ رجلاً في قرية "آيت إسعد"⁵ تزوّج امرأة مطلّقة وكان لها ابنة من زوجها الأوّل تعيش في بيت أهلها، وشاء الله أن تُصاب المرأة بمرض أقعدها الفراش، ولما أحسّت بدُنُوّ أجلها خافت على ابنتها من الضّياح بعد موتها، إذ لا أحد يتكفّل بها، ولكي تطمئن على مستقبل ابنتها طلبت من زوجها أن يُعاهدها على الرّواج بابنتها إن وافاها الأجل، وهنا وقع الرّواج المسكين في حيرة، فمحبته

¹ - ورقة مخطوطة بقلم الشّيخ الشّرفاوي.

² - قال بعض العلماء: إنّ بلاغة القرآن تقتضي أنّ ذكر الوصف (في حُجُورِكُمْ) يستدعي فائدة، إذ لا يجوز أن يكون في كتاب الله تعالى ما لا معنى له، إذ لو أراد تحريم الرّبيبة مطلقاً لقال: (وَرَبَائِبُكُمُ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ)، فهو أخصر وأفيد وأنزه للقرآن من الحشو.

³ - أنظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّوير، ج 4، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ص 298 - 299.

⁴ - محمد مايمون، زاوية سيدي عبد الرّحمن اليلولي ودورها التعليمي وتراثها الفقهي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص 220.

⁵ - "آيت إسعد": قرية تقع في بلدية إفيغة بدائرة عزازقة، ولاية تيزي وزو.

ووفاءه لزوجته يدفعه إلى تلبية طلبها، وخوفه من ارتكاب المعصية بالتزوّج من ربيته التي يعتبرها بمثابة ابنته يجعله متردداً، ثم هناك الفضيحة التي تجعله حديث الناس في غدوهم ورواحهم. وأمام هذا الموقف الصّعب أخذ الرّجل يستفتي أهل العلم من الفقهاء والأئمة، لعلّ أحداً ينفذه من المأزق الذي هو فيه، ولكن الجميع متفقون على التحريم القاطع للزواج بالرّبيبة، وسدّت الأبواب في وجه الرّجل. ولما علم الشّيخ أرزقي المقتنعواوي بالقضية أسرع إلى صديقه الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي وعرض عليه القضية وسأله رأيه¹، فأجابته شفويًا ثم حرّر الجواب بخطّ يده بناء على طلب السّائل وصديقه الشّيخ سعيد أوبشير².

الملاحظة الثالثة - أنّ مسألة الزّواج بالرّبيبة البعيدة هي - كما رأينا - محل خلاف بين العلماء، وأنّ القول بجوازها، وإن خالف قول الجمهور، لا يعتبر قولاً شاذاً، أو أنّه يفتقر إلى دليل، بل على العكس، دليله ظاهر في القرآن والسّنة، وهو من القوّة ما جعل الحافظ ابن حجر، وهو من كبار علماء الحديث، يقول: « ولولا الإجماع الحادث في المسألة وندرة المخالف لكان الأخذ به أولى، لأنّ التحريم جاء مشروطاً بأمرين: أن تكون في الحجر، وأن يكون الذي يريد التزويج قد دخل بالأُم، فلا تحرم بوجود أحد الشّروطين »³! لذلك لا غرابة أن نجد من أنصار الشّرفاوي في مسألة الرّبيبة علماء الجزائر المصلحين لأنّهم - طبعا - على علم بما قرّره في المسألة أعلام الأمة من مفسّرين وفقهاء، ومن مؤيّديه في زاوية العلامة الشّيخ السّعيد الجري⁴، والشّيخ أحمد بن زكري، والشّيخ بشير الصّديق، والشّيخ طاهر آيت عيسى⁵. في حين عارضه أكثر فقهاء زاوية وأئمّتها وشيوخ الرّوايا فيها.

¹ - محمد الصّادق وعلي، جهود الشّيخ أرزقي الشّرفاوي في الدعوة والإصلاح، مرجع سابق، ص 149-150. قال الكاتب أنّ هذه القصة رواها له الكثير ممن عاصروها، وذكر منهم الشّيخ عبد الرّحمن نجل الشّيخ أرزقي المقتنعواوي.
² - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، حياة وآثار، مرجع سابق، ص 47.
³ - محمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح الإمام البخاري، ج 9، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، 1348هـ، ص 130.

⁴ - حسب الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، فإنّ الشّيخ السّعيد الجري كان في مسألة الرّبيبة مع الشّرفاوي في المجالس الصّيقة الخاصة، لكنه لم يعلن ذلك في جريدة أو خطاب عام، ربما لأنّه لا يريد أن يصطدم بحساسيات واتجاهات هو في غنى عنها، أو أنّ ما ينجر من وراء ذلك من الضّرر أكثر من النفع، ولذا التزم الصّمت. أنظر كتابه: أعلام من المغرب العربي، ج 2، موفم للنشر، الجزائر، ط 2، 2008، ص 27.

⁵ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 49-50.

والواقع أنّ فتوى الشرفاوي في الرّبيبة، وإن كانت تعبر عن تحرّره واجتهاده، إلاّ أنّها لم تكن لتشفع له أمام خصومه في بيئة مغلقة لا تعرف مرجعية أخرى خارج الفقه المالكي¹، فضلا عن كونها جاءت مصادمة لعادات النّاس في المنطقة، إذ لم يحدث أن تزوّج أحد من ربيّته، لذلك وجد خصوم الشّيخ في هذه الظروف فرصة لخفض صوته والقضاء على سمعته، فكانت ردة فعلهم عنيفة جدا، إذ راحوا يُشيعون في مختلف الأوساط أنّ الشّيخ الأزهري أفتى بجواز التزوّج بالرّبيبة، هكذا مطلقا، وأنّه بذلك يعتدي على النّصوص القرآنية، ويُجاهر بمحاربة الشّريعة الإسلامية، ما جعل الشّيخ حديث النّاس في الأسواق والمقاهي وحتى في مجالس العجائز والنّسوة داخل البيوت، وصار الناس فريقين: أنصار الشرفاوي وهم قلة، وأتباع مشايخ الزوايا وهم الأكثرية².

وهكذا واجه الشرفاوي من خصومة حملة مسعورة، ولم يكن له في مواجهة تلك الحملة إلاّ الصّبر، واستعمال لسانه وقلمه لإقناع خصومه وإفحامهم. وبخصوص ما أثير حول موضوع الرّبيبة كتب الشّيخ مقالا³ أعاب فيه على خصومه جهلهم بالإسلام الصّحيح، وانحرافهم عنه من حيث يعتقدون أنّهم على جادته، ومما قاله فيه - موجّها كلامه بالأخص للشّيخ أحمد داوي دون أن يذكر اسمه -: «.. فهذا ما أجبت به وقرّرت في الآية، ولم أقل فيها إلاّ ما قاله العلماء، فقامت قيامة من يزعم بما لم يفهم له معنى، ولم يعرف له تأويلا، ولم يأت بما يصحّ دليلا، لا عقلا ولا نقلا، فادّعى الإجماع في محل الخلاف، والجزم في محل الأخذ والرّد بين العلماء.. ومن أشدّ ما يُتعبّ منه أن يشن الغارة على من يذكر أنظار العلماء في محل يصحّ فيه النّظر والوجوه التي ذكرناها فيه، وينسى فتواه بحلّ الرّبا المُجمع على تحريمه، وفتواه ببيع الطّعام قبل قبضه، وفتواه بتعدّد الجمعة في قرية واحدة بلا عذر، مع أنّ أهل المذهب منعوا ذلك، فأين الغيرة الدّينية التي أظهرها في محل الخلاف، ولماذا لم يكن غيورا على الدين في منع النّاس ميراث الإناث الذي أوجبه الله بنصّ كتابه، مع أنّه منفوذ الكلمة عند أتباعه على الأقل، ولماذا لم يأمرهم بتأدية واجب

¹ - محمد مایمون، زاویة سیّدی عبد الرّحمن اللیولی، مرجع سابق، ص 221.

² - محمد الصّالح الصّدیق، رحلتی مع الزّمان، ج 1، مرجع سابق، ص 59. أيضا: شهادة شفویة بتاريخ:

2014/02/16م.

³ - المقال بعنوان (جهل وغرور)، والظاهر أنّه لم يُنشر في وقته، إنّما كان یوزّعه طلبة الشّيخ بطریق النّسخ. أنظره بكامله في: محمد الصّالح الصّدیق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 115 - 123.

الميراث فيقتدي بهم غيرهم.. ألم يكن الأجدد به أن يُظهر تلك الغيرة الدينية عندما أفتى بتلك المخازي التي ذكرناها؟ وهل يظن أنّ الدين الإسلامي كلّهُ هو وضع السّبعة سوارا في اليد، أو قلادة في العنق، وما عدا ذلك من الحدود والأحكام يفعل فيها ما يشاء؟ كلاً وربك إنّ هذا إلاّ ضلال مبين، وإنّما الدين الوقوف عند حدود الله، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم، والتخلّق بأخلاقه بأن تصدع بالحقّ لك أم عليك..»¹.

وتحسر الشّيح وحزن لحال عامة الناس الذين ينقادون لأولئك الجهلة، ضنا منهم أنهم علماء، وما هم كذلك، فكان يكتب من حين إلى آخر أشعارا بالقبائلية قصد تفريرهم وتأنيبهم، من ذلك ما نقلته عنه زوجته: « إنكم أيها القوم مغلوبون على أمركم، فالجهل يفعل بالإنسان ما لا يفعله فيه العدو القاهر، إنكم ستستيقظون يوماً تحت وهج شمس الحقّ، فتدركون أنّكم مخطؤون، وأنكم تسيرون وراء الضّالين. لقد تعاونت عليكم ذئاب جائعة جشعة، من ورائها الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي يريد أن تبقوا في الظلام إلى الأبد، ولكن الصّبح لا بد أن يتنفس، ويرى كل واحد مكانه الحقيقي في هذا الوجود!»²!

د - الشّيح أحمد المقنيعاوي يرسل الأزهر في مسألة "الرّبيبة"

لم يقتصر صدق فتوى الرّبيبة على القطر الجزائري، بل وصل صداها إلى المشرق العربي، إذ نشرت مجلة "الإسلام" المصرية بأحد أعدادها موضوعاً بعنوان: (التزوّج بالرّبيبة)، أجاب فيه أحد علماء الأزهر، وهو الأستاذ محمود فتح الله، على سؤال وصل إلى هيئة العلماء بالأزهر الشّريف من الجزائر، يطلب بيان القول الفصل في مسألة التزوّج بالرّبيبة³، وبما أنّ الشّيح الشّرفاوي كان مشتركاً في هذه المجلة وتصله بانتظام، فقد جاءه العدد الذي نُشر فيه الموضوع، ولّم كانت دهشته عظيمة حين وقف عليه،

¹ - نفسه، ص 116 - 117.

² - ترجم المعنى الأستاذ محمد الصّالح الصّديق. أنظر كتابه: رحلتي مع الزمان، ج 2، مرجع سابق، ص 39.

³ - مجلة "الإسلام"، العدد 24، أوت 1938م. أعيد نشر الموضوع في جريدة "الرشاد" الجزائرية، العدد 15، 1938/09/15م، وعن هذه الأخيرة نقله الأستاذ محمد الصّالح الصّديق في كتابه: الشّيح الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 128 - 129.

وقرأ في مطلعها: « أفتى رجل عندنا بأنّ التزوُّج بالرَّبِيبة التي ليست في حجر زوج أمِّها حلال، وادعى أنّ علماء الأزهر الشَّريف صرَّحوا بذلك أمامه، وبناء على هذه الفتوى تزوُّج رجل "رَبِيبته"، فهل هذا صحيح؟ نرجو بيان القول الفصل في هذه الحادثة فلكم الفضل. الإِمضاء: طلبة العلم بمعهد سيدي عبد الرَّحمن اليلولي بالقطر الجزائري »¹.

انتابت الشَّيخ فورة من الغضب، لأنَّ السَّؤال منسوب إلى طلبة سيدي عبد الرَّحمن اليلولي، ذلك أنّ الشَّيخ كان يعتبرهم أبناءه الرُّوحيين الذين لا يَدَّخِر جهداً في تربيتهم وتوجيههم والإخلاص لهم، ويجد راحته أكثر حين يكون بينهم، وهم أيضاً يُجلُّونه ويحترمونه ويتقون في علمه، فلم يكن يتصوَّر أبداً صدور ذلك منهم، لذلك دعا الشَّيخ المجلس الاستشاري الذي يدير شؤون الزاوية وأطلعهم على المقال، ولما أنبهم على ما فعلوا أكَّدوا له براءتهم مما نُسب لهم، وبعد تحرُّرٍ وبحثٍ قصير تبينَّ لهم أنّ الشَّيخ أحمد المقنيعاوي² هو صاحب الإِمضاء، وقد اعترف لهم بذلك، فما كان من الشَّيخ الشَّرفاوي إلَّا أن دعاه وعاتبه، ثم عفا عنه بعد أن اعترف أمامه واعتذر عما بدر منه³.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشَّيخ أحمد المقنيعاوي الذي كان مدرِّساً رسمياً لعلم التجويد في الزاوية، وزميراً للشَّيخ الشَّرفاوي فيها، قد خالف هذا الأخير في مسألة الرَّبِيبة، إذ أفتى بحرمتها مطلقاً⁴، وأيد الذين خالفوا الشَّيخ وهم كُثُر، فرأى يوماً أن يرسل هيئة الفتوى بالأزهر في مسألة الرَّبِيبة، وهذا يعتبر أمراً عادياً لولا ما تضمنه السَّؤال من المغالطة التي بلغت حدَّ الكذب، إذ أسند السَّؤال إلى الطَّلبة⁵! فإذا جاز له أن يُخفي هويته لسبب أو

1 - مجلة الإسلام، العدد 24، أوت 1938م.

2 - أحمد المقنيعاوي (1881-1944م)، هو أحمد بن عمر بن سعيد المقنيعاوي، من قرية "مقنيعة" الواقعة بعرض بني غيري، بدائرة عزازقة. تولى التدريس والإمامة في عدة قرى وزوايا المنطقة، منها زاوية الشَّيخ عبد الرَّحمن اليلولي التي تولى فيها تدريس علم القراءات (التجويد)، وقد زامل فيها الشَّيخين: المولود الحافظي والرَّزقي الشَّرفاوي. عنه أنظر: عبد العزيز وعلي، أحداث ووقائع، مرجع سابق، ص 399. أيضاً: نبذة عنه بخط حفيده محمد الصادق وعلي.

3 - محمد الصَّالح الصَّديق، الشَّيخ الرَّزقي الشَّرفاوي، ص 51-52، أيضاً: رحلتي مع الزمان، ج 1، ص 60-61.

4 - كتب المقنيعاوي مقالة من أربع صفحات، ناقش فيها الشَّيخ الشَّرفاوي في فتواه عن الرَّبِيبة، وبين فيها رأيه في المسألة، وقد بدأه بعد البسملة بقوله: « فتوى الفقير أحمد بن عمر المقنيعاوي مع فتوى الإمام الأشهر الشَّيخ أرزقي الشَّرفاوي الأزهري، الأولى في تحريم الرَّبِيبة مطلقاً، والثَّانية في حلالها بالفرق .. ». مخطوط زودني بنسخة منه مشكوراً حفيده الأستاذ محمد الصادق وَعَلِي.

5 - لا بأس أنّ نُدكِّر هنا بأنَّ حيثيات الحدث كلّها تؤكد اختفاء المقنيعاوي وراء اسم الطَّلبة، فالسَّؤال جاء في مجلة الإسلام بإمضاء الطَّلبة، والشَّرفاوي في مقاله التوضيحي الذي نشره في المجلة نفسها استهلَّه بقوله: « قرأت في مجلة

لآخر، فلا يجوز له أن ينتحل اسم الطلبة، لأنّ ذلك - حتماً - سيوهم الشّيح والرأي العام أنّ الطلبة ليسوا معه بل مع معارضيه.

ويرى الأستاذ محمد الصّالح الصّديق - وكان طالباً في الزاوية آنذاك - أنّ أحمد المقنعاوي حين راسل الأزهر بشأن الرّبيبة، كان يريد خدمة خصوم الشّرفاوي، إذ كان ينتظر أن يُفتي الأزهر بغير ما أفتى به الشّيح، فيفتضح أمره، ويتأكد عند النّاس أنّ بضاعته في الدين قليلة كما يزعم خصومه¹، وقد استدل الأستاذ على رأيه هذا بسلوك الشّيح المقنعاوي مع زميله الشّيح الشّرفاوي، إذ كان - حسبه - « يتظاهر للشّيح بالولاء، وبأنّه من المعجبين به والمدافعين عنه، ولكنّه في واقع أمره ينتصر لخصومه، ويعمل في ركبهم، وما إن يجتمع بهم حتى يطلق لسانه قادحاً فيه، مندداً به، ناعياً عليه أفكاره ومواقفه²! أما الأستاذ محمد الصّديق وعليّ فيرى أنّ الشّيح المقنعاوي - وهو جدّه من أمه - حين راسل الأزهر كان غرضه هو حسم الخلاف الذي وقع بين الشّرفاوي وشيوخ المنطقة بشأن مسألة الرّبيبة، والذي كاد يتحوّل إلى فتنة آنذاك³.

والذي أراه في الموضوع، هو أنّ الشّيح المقنعاوي كان في أفكاره أقرب إلى شيوخ الزوايا الذين كانوا يحاربون الشّيح الشّرفاوي، لأنّه نشأ في كنفهم، وتعلّم علمهم، فشبّ وشاب بعيداً عن محيط الإصلاح والإسلام الصّحيح، لذلك كان يتأرجح في ولائه وسلوكه بين الشّيح الشّرفاوي بحكم الزمالة، وشيوخ الزوايا بحكم التكوين والعلاقة القديمة، فلما اشتد الخلاف حول مسألة الرّبيبة، رغب في استصدار فتوى من الأزهر الشّريف، وهو أعلى هيئة دينية علمية في العالم الإسلامي آنذاك، ولفتاوى الأزهر آنذاك قيمتها ووزنها في الجزائر، فضلاً عن كونه المؤسّسة التي درس بها الشّيح الشّرفاوي. ومن خلال ما كتبه المقنعاوي

الإسلام.. سؤالاً منسوباً لطلبة معهد سيدي عبد الرّحمن اليلولي بالقطر الجزائري، فهذا السّؤال كذب وافتراء على الطلبة المذكورين.. «! ثم هناك اعتراف المقنعاوي نفسه، والاعتراف - كما يُقال - سيّد الأدلة. وعليه فإنّ قول الأستاذ محمد الصّديق وعليّ أنّ الشّيح المقنعاوي قد أمضى السّؤال باسمه وليس باسم الطّلبة غير صحيح، وقد استند في ذلك إلى مقالة مخطوطة كتبها الشّيح المقنعاوي في مسألة الرّبيبة، وهي التي ذكرناها آنفاً، والمقالة ليس فيها أيّ إشارة تدل على أنّها رسالة أو سؤال موجّه إلى الأزهر أو إلى أيّ جهة أخرى، لذلك يغلب الظنّ على أنّ المقالة هي شيء آخر غير السّؤال الذي أرسله المقنعاوي لهيئة الفتوى بالأزهر.

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيح الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 51.

² - نفسه.

³ - محمد الصّديق وعليّ، جهود الشّيح أرزقي الشّرفاوي في الدعوة والإصلاح، مرجع سابق، ص 150.

في موضوع الرّبيبة، فيبدو أنّه كان واثقا من أنّ علماء الأزهر لن يُفتوا إلاّ بما أفتى به هو في المسألة، لكونه أفتى برأي الجمهور، الذي هو - حسبه - عين الصواب في المسألة! أما الذي دعا المقنعيّين إلى الاختفاء وراء اسم الطلبة في سؤاله فقد يكون تقديره للشيخ الشرفاوي، وحرصه على عدم الظهور أمامه بمظهر المناهض له، مراعاة لعلاقة الزمالة التي تربط الرجلين في الزاوية.

وأيا ما كان الأمر، فقد جاء ردّ الأزهر جامعا للمذاهب والأقوال التي اعتمدها الشيخ الشرفاوي في فتواه، منها قول علي رضي الله عنه الذي أفتى بجواز التزوّج بالرّبيبة التي لم تعش في جبر الزوج، مع ترجيح القول بتحريمها لكونه قول الجمهور¹، ما جعل الشيخ الشرفاوي يكتب إثر ذلك مقالا قيّما بعنوان: (اختلط الخائر بالزّباد)²، نشره بمجلة "الإسلام"، بيّن فيه رأيه، ولفت أنظار علماء الأزهر إلى اللّغظ الذي أحدثته فتوى "الرّبيبة"، بسبب النّوايا السيئة، والتأويلات المغرضة، ودسائس أدعياء العلم وتأويلاتهم، وبيّن أنّ هؤلاء قامت قيامتهم، لا غيرة على الدين، وإنّما ذلك لإنكاره عليهم ما هم عليه من المفساد، ودعوته النّاس إلى التمسك بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم³.

هـ - خطة لإيقاع الشرفاوي يخرج منها منتصرا

ظلّ الشيخ الشرفاوي سنوات يصدع بالحقّ، ويحارب البدع والمنكرات، ويواجه خصومه بالكلمة القوية الصادقة، وكان كلما اشتدوا في أذاه، وبالغوا في النّيل منه، ازداد صبرا وثباتا، بل إنّه يجد في نفسه سعادة تدفعه إلى المزيد من المقاومة كلّما اعترض سبيله مغرض، أو وجّه إليه خصومه نقداً جائراً، وقد سجلّ ذلك فقال: «.. لذلك أرى نفسي جذلا كلّما سمعت بانتقادٍ جائر ينزل عليّ أو على أحدٍ من إخواني أو الطلاب.. وكلّما كان الانتقاد أشدّ جورا، كان الفرح أتمّ، والبُشرى بالحياة السعيدة أوفر..»⁴.

وأما خصومه الذين استماتوا في محاربتهم فقد رأوا أنّ ترك الشيخ على حرّيته سيّجعله - حسب زعمهم - يتمادى في تجاوز حدود الشريعة، ويستمر في سلوك

¹ - مجلة الإسلام، العدد 24، أوت 1938م، أيضا: جريدة الرّشاد، مرجع سابق.

² - مثل يُضرب لاختلاط الجيد بالرديء، والخير بالشرّ، والحقّ بالباطل، ومثله قولهم (اختلط الحابل بالنابل).

³ - مجلة الإسلام، العدد 34، أكتوبر 1938م. أيضا: محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، ص 127.

⁴ - محمد الرّزقي الشرفاوي، "وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة"، البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م.

طريق الضلال والغواية، لذا وجب رده ووقفه عند حدّه! وهكذا، وبعد تفكير وتدبير، توافق الشيخ أحمد داوي ومريدوه على خطة حسبها كفيّلة بتحقيق مرادهم، فكانت هذه الحادثة التي سمعها الأستاذ محمد الصالح الصديق عن شيخه الرزقي الشرفاوي، وسجلها في بعض كتبه بأسلوبه الأدبي المعهود، ونحن ننقلها عنه - مع قليل من التصرف - لأنّه الشاهد الوحيد على الحادثة¹.

يقول الأستاذ: « أمام هذا الوضع رأى الشيخ أحمد داوي أن يبرهن للرأي العام في منطقة القبائل بأنّ الأستاذ الشرفاوي مخطئ في فتواه (أي فتوى الرّبيبة)، وأن يحمله على الاعتراف بهذا الخطأ أمام ملاّ من الناس، فأرسل إلى مشاهير طلبته، وفي مقدمتهم شيوخ بعض الزوايا بالمنطقة، ولما اجتمعوا بزواية "سيدي منصور" كشف لهم عن خطة رسمها لوضع الأستاذ الشرفاوي عند حدّه، ولاحظ لهم أنّ تركه على حريته وانطلاقه، سيجعله يلجّ في غوايته، ويزداد عُتُوًا، وقد يُفتي يوما بجواز التزوج بالأخت!

كانت الخطة.. أن يجتمعوا في مسجد عزازقة، ويبعثوا إلى الأستاذ الشرفاوي رجلا من أهل قريته، يدعى "مُوغلي" يثق فيه الشيخ ولا يتنقل إلا معه في سيارته، وأوصوه أن يقول له: إنّ في المسجد جماعة من الناس يريدون أن يتحاكموا إليك في قضية شرعية وهم لا يريدون إزعاجك وإحراجك في البيت، فجاء الشيخ الشرفاوي على هذه النية وعلى هذا الأساس، ولكنه فاجأه أن وجد فناء المسجد قد تعبأ بالنعال، ولما دخل وجد خصمه اللدود الشيخ أحمد ومعه زهاء أربعين طالبا وشيخ زاوية، فذهل الشيخ من هذه الخطة السخيفة، وتعجب أن يركن شيخ تجاوز الثمانين من العمر إلى هذه الأساليب الصّببانية.

رحّب الشيخ أحمد بالأستاذ الشرفاوي، وعانقه طويلا في فورة من الحرارة المصطنعة، ثم فسحوا له في المجلس، ثم انطلق الشيخ أحمد يقول ما مؤداه: نريد أن يكون مجلسنا علميا محضا بعيدا عن نوازع الأثرة، ودواعي الغلبة، ولذا لم أحضر سوى طلبتي الذين هم بمثابة أبنائي، وغايتنا من هذا اللقاء المبارك أن تعلن تراجعك عن فتوى الرّبيبة، ونعلن ذلك في زاويتنا يوم الجمعة، ثم في مساجد المنطقة ثم في سوق الإثنين، وبذلك نطوي صفحة معتمّة كلها همز ولمز، وننشر صفحة جديدة مملأها المحبّة والإخاء والتفاهم والانسجام.

¹ - لقد وجدت خبر وقوع الحادثة عند غيره من كبار المنطقة، لكن الأستاذ ينفرد بمعرفة تفاصيلها.

وهنا انبرى الأستاذ الشرفاوي وانطلق باللّغة العربية الفصيحة، والأسلوب الخطابي المتميّز، يقذفه بقذائف الحقّ، ويرشقه بنبال العقل، ويخرس الألسن، ويقلم الأظافر، ويهشم الأنياب، ثم قال ما مؤداه: كُبر مقتا عند الله ما أسمعه من أراجيف القول، وأباطيل البهتان، التبس عليكم الحقّ بالباطل فلم تعودوا تفرّقون بين الفضيلة والرذيلة، وبين الضار والنافع، وبين الداء والدواء، في عقولكم قصور، وفي تقديركم خطأ، وفي حكمكم هوى، وفي ميزانكم انحراف، فعوّض أن تعتذروا عما صدر منكم طوال سنوات مضت، بدافع من الجهل، والأنانية وحب الظهور، تريدون أن أعتذر لكم عن حقّ نصرته، وشرع أقمته، وطريق واضح سلكته! ومن خطأ الرأى، وخطأ العقل، وهوس المنطق، أن تطلب مني أيها الشيخ أن أراجع عن فتوى واضحة المعالم، ظاهرة ظهور الشمس، ولكن الإسلام العظيم الذي له منبعان من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم يتدفقان بالماء الصافي الطاهر، ولكنكم من سوء حظكم، وضعف إيمانكم، لا تتفعون به ولا تتفعون، لأنكم مشغولون دأباً بتلوّث مجاريه! ثم التفت الشرفاوي إلى الشيخ أحمد وقال له في لهجة قوية حاسمة: أما وضع الحد للماضي فسنقره الساعة، وذلك بدرسٍ يُلقى في موضوع الرّبيبة أمام طلبتك، تلقّيه أنت أو ألقّيه أنا!

رُزل الشيخ مما سمع، وحُيّل إليه من هول الموقف أنّ المسجد على سعته، قد ضاق به حتى لم يعد يسعه، وخاصة وكل طلبته يعتقدون فيه الكمال المطلق، ويرونه أبا حنيفة في الفقه! التفت الشيخ أحمد إلى طالبٍ على يمينه، كان له دور فعّال في الحملة ضد الشيخ الشرفاوي وقال له: ائتنا بكتبتنا من السّيارة، فهمم بالتهوض، ولكن الشيخ الشرفاوي قال له: الزم مكانك، فالعلم في الرأس وليس في الكراس، يُلقى الشيخ درسا في المسألة بدون اعتماد على كتاب أو ورقة، وإذا عجز عن ذلك فُمت بالأمر، فما رأي الشيخ؟ سكت الشيخ واجما لا ينطق، وتبادل طلبته نظرات العُجب، أيُعقل هذا؟ شيخنا الذي إليه ينتهي فخر المفتخرين في المنطقة، يعجز عن إلقاء الدرس من رأسه في قضية واضحة وضوح الشمس؟ بعد صمت رهيب ساد المسجد ردحا من الوقت، التفت الأستاذ الشرفاوي إلى اليمين واليسار، وقال: وحيث إنّ شيخكم عاجز عن الدرس التلقائي الذي لا يُعوّل فيه إلا على الغزارة العلمية والفصاحة والبيان، فهاكم الدرس في الرّبيبة، وارهفوا آذانكم واستمعوا:

انطلق الشَّيْخُ الشَّرْفَاوِي فِي دَرَسِهِ فِي حُدُودِ الْعَاشِرَةِ صَبَاحًا، وَلَمْ يَنْتَه مِنْهُ إِلَّا عِنْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، حَلَّقَ مَا شَاءَ أَنْ يُحَلِّقَ فِي فِضَاءَاتِ لَمْ تَخْطُرْ عَلَى بَالِ الشَّيْخِ وَبَالِ طَلْبَتِهِ، جَالَ وَصَالَ فِي مَجَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَالْبَلَاغَةِ، وَالْمَنْطِقِ، وَالْأُصُولِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالحَدِيثِ، أَمَّا الحَاضِرُونَ فَقَدْ اسْتَحُوذَ عَلَى مَشَاعِرِهِمْ ذَهُولٌ، وَلَمْ يَدْرُوا أَهْمَ فِي يَقْظَةِ أُمِّ فِي مَنَامٍ!

انتهى الشَّيْخُ مِنْ دَرَسِهِ فِي جَوْ يَشْبَهُ جَوْ المَأْتَمِ، وَلَمْ يَنْبَسِ الشَّيْخُ أَحْمَدَ بِكَلِمَةِ شُكْرٍ، بَلْ قَامَ وَتَبِعَهُ طَلْبَتُهُ يَجْرُونَ أَذْيَالَ الخِيْبَةِ! وَكَانَ اسْتِيَاءَ الشَّيْخِ أَحْمَدَ مِنْ هَذِهِ الوَاقِعَةِ عميقًا لِلغَايَةِ لَمْ يَكُنْ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَحْتَمِلَهُ وَيَطِيقَهُ، فَقَدْ كَانَ انْتِصَارَ الشَّرْفَاوِي عَلَيْهِ مَصِيبَةً كَبْرَى، وَانْتِصَارَهُ عَلَيْهِ أَمَامَ طَلْبَتِهِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ لِمَشَاهِدَةِ العُرْسِ، وَالتَّمَلِّي بِبَرْدِ السَّرُورِ وَنَشْوَةِ الغَلْبَةِ وَالنَّصْرِ مَصِيبَةً ثَانِيَةً، وَانْتِصَارَ الشَّيْخِ الشَّرْفَاوِي عَلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ الَّذِي وَضَعَ خَطَّةَ الغَلْبَةِ، وَحَبَكَهَا وَرَسَمَ خَطُوطَهَا بِعَقْلِ (حَكِيمٍ)، وَنَظَرَ (ثَاقِبٍ) مَصِيبَةً ثَالِثَةً!

خَرَجَ الشَّيْخُ مِنَ المَسْجِدِ وَوَرَاءَهُ طَلْبَتُهُ، وَعَلَى وَجُوهِهِمْ سُهُومٌ الحِزْنِ، وَفِي قُلُوبِهِمْ لَهَيْبِ الحَسْرَةِ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ مِنْ هَوْلِ المَوْقِفِ، وَأَحْسَ طَلْبَتُهُ بِوَقْعِ المَصِيبَةِ عَلَى شَيْخِهِمْ وَأَنَّ عَوَاقِبَهَا لَا شَكَّ أَلِيمَةٌ، وَأَخَذُوا يَخْفَفُونَ عَنْهُ.. وَبَدَأَ الشَّيْخُ مَرَضُ المَوْتِ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ إِلَى دَارِهِ: صُدَاعٌ، وَإِسْهَالٌ، وَأَلْمٌ فِي الرَّأْسِ حَادٍ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ قَرَابَةُ أُسْبُوعٍ، ثُمَّ تَوَفَّى وَذَلِكَ سَنَةَ 1942م.. «¹.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الحَادِثَةَ أَحْدَثَتْ جِرْحًا غَائِرًا فِي كِبْرِيَاءِ الشَّيْخِ دَاوِي، كَيْفَ لَا وَهُوَ الَّذِي كَانَ - وَلَعَقُودٍ مِنَ الزَّمَنِ - أَمِيرًا فِي المَنْطِقَةِ بِلَا إِمَارَةٍ، وَمَلِكًا بِلَا تَاجٍ، وَرئيسًا بِلَا دَوْلَةٍ وَلَا حُكُومَةٍ، فَالمَحْبُوبُ مِنْ أَحْبَبِهِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ وَرَضِيَ عَنْهُ، وَالشَّقِي مِنْ كَرِهِهِ وَسَخَطَ عَلَيْهِ، وَكُلُّ النَّاسِ يَحَاوِلُونَ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ.. وَيَخْفِضُونَ لَهُ الجَنَاحَ، وَيَخْدُمُونَ زَاوِيَتَهُ وَأَرَاذِيَهُ وَلَا يَبْتَغُونَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ سِوَى بَرَكَتِهِ وَرِضَاهِ²! فَهَلْ مَاتَ الشَّيْخُ دَاوِي جِرَاءَ الإِحْبَابِ الَّذِي أَصَابَهُ إِثْرُ هَذِهِ الهِزِيمَةِ الَّتِي مُنِيَ بِهَا أَمَامَ الشَّيْخِ الشَّرْفَاوِي؟ طَبْعًا هَذَا أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ لَنَا - كَبِشْرٍ - أَنْ نَجْزِمَ فِيهِ، لَكِنِ المَوْكَدُ هُوَ أَنَّ بَعْدَ هَذِهِ الحَادِثَةِ سَكَنَتِ العَاصِفَةُ، وَهَدَأَ الخِصُومَ، وَلَمْ يَبْقَ نَكَرٌ لِصَاحِبِ فَتَوَى الرِّبِّيَّةِ إِلَّا فِي مَجَالِسِهِمِ الخَاصَّةِ، يَذْكُرُونَهُ

¹ - مُحَمَّدُ الصَّالِحِ الصَّدِيقِ، رِحْلَتِي مَعَ الزَّمَانِ، ج 1، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص 61-66. أَيْضًا: أَعْلَامٌ مِنْ مَنَاطِقِ القِبَايِلِ، ج 1، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص 112-118.

² - مُحَمَّدُ الصَّالِحِ الصَّدِيقِ، الشَّيْخُ الرَّزْقِيُّ الشَّرْفَاوِيُّ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص 48.

فيضعون عليه ما شاء هواهم من نعوت الدّم، كأثّم بذلك يروّحون عن أنفسهم، ويضمّدون جراحهم¹.

3- عداء أهل القرية للشرفاوي

حين عاد الشّيخ الشرفاوي إلى الوطن اختار الاستقرار في مسقط رأسه، ومباشرة عمله الإصلاحية في منطقة القبائل. كان الشّيخ يحب الخير لإخوانه، وكان يعتقد أنّه أتى لهم بالعلم، لكن للأسف، بدل أن يُجلوه ويُنزله المنزلة اللائقة به، فيستفيدوا من علمه، ويستتيروا بأفكاره وإرشاده، وجد نفسه غريباً بينهم، محارباً من أكثرهم كما رأينا، فعاش الشّيخ في المنطقة إحدى عشر سنة في غبن ومحنة وتعب!

ومما زاد في محنة الشّيخ وتعبه ما لقيه من أهالي قريته "الشرفة بهلول" من عنت وإرهاق، فقد انقسم هؤلاء أيضاً فصاروا فريقين: فريق معه، وفريق مع الطّرفيين المناوئين له، وكان على رأس الفريق الأخير بعض أعيان القرية، الذين حاربوه بكل الطرق، من ذلك أنّهم ادعوا أنّ الشّيخ وعائلته أردوا الاستيلاء على زاوية القرية وأملاكها الوقفية²، مستغلين في ذلك الخطأ الذي ارتكبه مصلحة الضرائب حين سجّلت الوصل الضريبي الخاص بالزاوية باسم أهالي "أشلام"³، وقد قدم شيخ الزاوية وهو سيراغ سي بلقاسم⁴ شكوى بشأن هذا الخطأ إلى إدارة الضرائب⁵. ومعروف عن الشّيخ سيراغ أنّه كان يُعادي الفكر الإصلاحية، فقد أوردت العديد من التقارير الفرنسية أنّه كتب إلى الإمام ابن باديس يطلب منه أن يتوقف عن إرسال مجلة "الشهاب" إليه، إذ كان ابن باديس يرسلها له من قسنطينة مجاناً وبصفة منتظمة، مع أنّه لم يكن مشتركاً فيها. ويشير تقرير آخر إلى أنّ الشّيخ سيراغ كان يعادي الشرفاوي ويحاربه لأنّ بساطة مستواه العلمي يقلل - في نظره - من مكانته في أعين أعيان الدوار مقارنة بهذا العالم

¹ - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 61-62.

² - بالتحريري بدأت هذه الأزمة في حوالي سنة 1936م، واستمرت لعدة سنوات.

³ - "أشلام": من قرى بني غبري، وهي مجاورة لقرية الشرفاء، وإليها تعود أصول عائلة القاضي التي تنحدر منها أسرة الشرفاوي.

⁴ - سيراغ سي بلقاسم بن سي الحاج السعيد (1890-1942م)، من الأربعاء ناث إبراهيم، تولى مشيخة زاوية شرفة بهلول من سنة 1928 إلى 1939م، وهو تلميذ الشّيخ أحمد داوي بزواوية سيدي منصور. (تقرير قايد دوار بني غبري بتاريخ: 1932/06/24م. تقرير حاكم بلدية سيباو الأعلى إلى نائب الوالي بتيزي وزو بتاريخ: 1940/01/18م).

⁵ - A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52, Rapport de l'administrateur de la commune mixte du Haut sibaou à Monsieur le sous-préfet de tizi- ousou, Zaouïa de sidi bahloul, incident, 18/01/1940.

الأزهري صاحب المعارف العلمية العالية!¹ وبناءً على هذه المعطيات، فإننا لا نستبعد أن تكون الإدارة الفرنسية التي كانت على دراية بهذا الخلاف قد تعمّدت الخطأ ثم استغلته لإثارة الفتنة والشقاق بين أبناء القرية.

وحين توقف الشرفاوي عن التدريس في زاوية عبد الرحمن اليلولي ادعى بعض أعيان القرية أنّ الشيخ فتح في القرية مدرسة قرآنية بدون رخصة، وأنّه يمارس دعاية لمنع الناس عن الصلاة في مسجد الزاوية²! وكل هذا في الواقع لا أساس له من الصحة. وعلى ذكر الزاوية، يجدر التذكير بأنّ الشيخ الشرفاوي قد مُنع من التدريس في زاوية قريته رغم أنّها لا تبعد عن بيته إلاّ عشرات الأمتار، وهذا لسوء العلاقة بينه وبين شيخ الزاوية، الذي كان يُشايخ شيخه أحمد داوي في حملته على الشرفاوي.

وإضافة إلى هذه الوشائيات الكاذبة، لقي الشرفاوي من مناوئيه في القرية مضايقة شديدة، وحسبنا مثالا على ذلك ما ذكره الأستاذ محمد الصالح الصديق من أنّ طائفة من أهل قريته أصبحوا لا يكلمونه إذا التقوه، وربّما جمعوا أطفالهم، ولقنوهم كلاما في التنديد به، والتحذير منه، وأمروهم أن يقولوه بلسان واحد أمام بيته، أو عندما يرونه خارجا منه، وفي بعض المواسم الدينية يجتمعون وراء بيت الشيخ يرددون هذا الكلام حتى يملّوا فينصرفوا³! وفي السياق ذاته يروي الأستاذ أيضاً فيقول: « ما أزال أنكر أنني كنت مع الشيخ في بيته يوماً، وكان يوم عاشوراء وأنا صغير، كنت أقرأ له في صحيفة "الأهرام" المصرية، وكان آنذاك مصابا بمرض في عينيه لا يستطيع معه القراءة والكتابة، فسمعنا أطفالا بالقرب من البيت ينشدون نشيدا بالأمازيغية وُضع خصيصا في شتم الشيخ والتنديد به.. فأرهب أذنيه وأخذ يستمع وهم يقولون ما معناه: كان الناس أمة واحدة، فلما دخلها الزنديق الذي لا يخجل، والفيل الذي لا يفهم، والمنحرف عن طريق الله الذي لا يستقيم، تفرّقوا واختلفوا، وأصبح بعضهم عدوّا لبعض، وهل ننتظر له إلاّ ساعة

¹ - أنظر مثلاً: تقرير قايد دوار بني غبري بتاريخ: 1935/07/25م، وتقرير حاكم سيباو الأعلى بتاريخ: 1935/07/31م. أيضاً:

- *Le Maraboutisme en Kabylie et ses rapports avec le mouvement des oulema (rédigée par S.L.N.A, Avril 1941).*

² - أورد هذا عون الشرطة في عزازقة "عمران هلال" في تقريره الذي رفعه إلى حاكم بلدية سيباو الأعلى بتاريخ: 1938/12/08م، وقد أورد أسماء الذين رفعوا إليه هذه الوشاية الكاذبة، ومنهم أمين القرية آنذاك!

(A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

³ - محمد الصالح الصديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 58، أيضاً: ج 2، ص 38. ذكر لي مثل هذا أيضاً الشيخ صالح صالح، وهو من قرية الشرفة وعاصر هذه الفترة.

يُنزلها الله عليه فيرتاح منه العباد والبلاد؟ يقول الزاوي: وقد اقشعرّ بدني مما سمعت، أما الشيخ فإنه صعد زفرة طويلة من الأعماق، ولم يزد عن هذه الكلمة: مساكين¹.

ولم يتوقف أذى هؤلاء الجهلة المتعصبين ضد الشيخ عند هذا الحدّ، بل سلطوا عليه أطفالاً يرمونه بالحجارة في الطريق، وقيل إنّ الشيخ، حين كان الأطفال يرمونه بالحجارة، كان هو يرميهم بالحلوى²!

ولعل القارئ يتساءل عن سبب هذا العداء الذي قُوبل به الشيخ في قريته وغيرها من قرى المنطقة؟ والجواب في رأيي يعود بالدرجة الأولى إلى الدعاية الباطلة التي شنتها عليه الطرقيون وأتباعهم في المنطقة، إذ رموه بالزندقة والكفر والابتداع في الدين، فكان لهذه الدعاية أثرها في عامة الناس، فانحاز أكثرهم لصف الطرقيين، لاعتقادهم أنّ الدين الصحيح هو ما عليه هؤلاء الطرقيين، لا ما يدعو إليه الشيخ! ثم إنّ الشرفاوي في المنطقة هو بين قومه وعشيرته، ومن طبيعة الناس أن يزهّدوا في العالم إذا كان منهم، وفي الأثر: «أزهدُ النَّاسِ في العالِمِ أهله وجيرانه»! دون أن ننسى يد الاستعمار التي تسعى في الخفاء - وبكل الوسائل - لإثارة الفتن، وبثّ الشقاق في المجتمع، ووضع العراقيل أمام علماء الجزائر العاملين، ومصلحيها المخلصين.

¹ - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 2، ص 38.

² - روى لي هذا العديد من شيوخ المنطقة، منهم: محمد الصّالح الصّديق، صالح صالح، وعلي بلخامسة، الوناس تيهار.

الفصل الرابع

الشرفاوي مدرّساً بزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي

أولاً- جهود الشرفاوي التربوية بزاوية عبد الرحمن اليلولي

1- التعريف بزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي

أ- نبذة عن الزاوية ومؤسّسها

ب- موقع الزاوية

ج- نظام الزاوية وخصائصها

د- مرافق الزاوية

هـ- الزاوية قبل تولي الشرفاوي التدريس بها

2- التعليم بالزاوية في عهد الشرفاوي

أ- العلوم المقررة

ب- البرنامج اليومي للدروس

ج- اهتمام الشرفاوي بطلبته

د- ملاحظات على نظام التدريس

هـ- الاحتفال بختم "مختصر خليل" بالزاوية 1938م

ثانياً- طلبة الشرفاوي في الزاوية

1- تعداد الطلبة

2- أعمار الطلبة وجهاتهم

3- ترجمة لأبرز الطلبة

4- دور الشرفاوي في إعداد طلبته لخدمة الدين والوطن

زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي مؤسّسة رائدة في التعليم، رابط فيها الشرفاوي مدة تقارب عشر سنوات، نهض خلالها برسالة التعليم، فعمل على تطوير البرامج التعليمية بالزاوية، وبذل في هذا المجال جهوداً كبيرة، إذ كانت دروسه تستمر لمدة تزيد عن عشر ساعات في اليوم.

تحوّلت الزاوية - بفضل وجود الشرفاوي بها - إلى معهد علمي زاهر يُقبل عليه الطلبة من مختلف جهات الوطن، فتتلمذ على يده في هذه المدة مئات الطلبة، انتفعوا بعلمه، وتزوّدوا من نُصحه وتوجيهه، فكان ذلك خير عونٍ لهم في خوض غمار الحياة وتحمل أعبائها في المستقبل.

فهذه الجهود التربوية المصنّية وثمرتها، هي التي جعلتنا نُفرد لها فصلاً خاصاً، بعد أن تناولنا نشاط الشيخ مجملاً في الفصل السابق.

أولاً- جهود الشرفاوي التربوية بزواوية

عبد الرحمن اليلولي

1- التعريف بزواوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي

أ- نبذة عن الزاوية ومؤسسها

تأسست الزاوية سنة 1635م على يد العالم القرآني الشيخ عبد الرحمن اليلولي¹، وهو أبو زيد عبد الرحمن بن يسعد المصباحي الخردوشي اليلولي الزواوي، ولد حوالي سنة 1601م، بقرية "إخردوشن" الواقعة بجبل "إيلولة أومالو"² بمنطقة القبائل. تلقى تعليمه الأولي على يد والده، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ أحمد بن إدريس، ومنها إلى زاوية "ميزرانة" بالقرب من شاطئ تيفزرت، أين درس على الشيخ محمد السعدي البهلولي³، فأخذ عنه علم القراءات ونبغ فيه حتى قيل عنه: «.. وحيد زمانه، وفريد عصره في حفظ القرآن وروايته بالقراءات السبع والعشر»⁴.

توفي الشيخ سنة 1105هـ/1694م ودفن بجوار زاويته، ولم يُعقب ذرية، فترك النظر في أحوال زاويته الداخلية والخارجية للطلبة الساكنين فيها⁵.

اختصت هذه الزاوية بتدريس القراءات وحدها حتى سنة 1263 هـ/ 1847م، حيث أُدخلت فيها علوم أخرى⁶، ورغم الظروف الصعبة المفروضة على الزوايا خلال عهد الاحتلال الفرنسي، فقد حافظت هذه الزاوية على مكانتها، ولا أدل على ذلك من أسماء

¹ - أبرز من ترجم له: أبو القاسم البوجليلي المتوفى سنة 1898م في كتابه (التبصرة في قراءة العشر)، ومحمد السعيد بن زكري المتوفى سنة 1914م، في كتابه (أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل)، وعن هذين المصدرين أخذ من جاء بعدهما.

² - في فترة الاحتلال الفرنسي "إيلولة أومالو" كان عرشا تابعا لبلدية سيباو الأعلى (عزازقة)، أما بمقتضى التقسيم الإداري الحالي فإن بلدية "إيلولة" تقع بدائرة بوزقان، ولاية تيزي وزو.

³ - كل ما نعلمه عن هذا الشيخ هو أنه درس في فاس المغربية حيث تلقى هناك علم القراءات على أساتذة كبار. أنظر: حسن عليلي الجبري، أعلام بلادي، ج 1، مرجع سابق، ص 81.

⁴ - محمد السعيد بن زكري، أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، تحقيق وتعليق محمد عبد الحليم بيشي، البصائر الجديدة، الجزائر، ص 105. أحمد ساهي، أعلام من الزاوية، مرجع سابق، 2015، ص 85.

⁵ - محمد السعيد بن زكري، أوضح الدلائل، ص 108-109.

⁶ - نفسه، ص 115-116.

هؤلاء العلماء الذين تخرّجوا فيها في ذلك العهد: محمد بن مالك النّقابي (ت 1855م)، أبو القاسم البوجليلي (ت 1898م)، الشّريف الإفليسي (ت 1917م)، محمد السّعيد بن زكري (ت 1914م)، السّعيد اليجري (ت 1951م)، علي أولخيار (ت 1932م)، أبو يعلى الزواوي (ت 1952)، وغيرهم كثير. هذا وقد ظلت هذه الزاوية منارة للعلم، تُخرّج العلماء والأبطال الذين خدموا الدين والوطن، إلى أن دمرها الجيش الفرنسي الاستعماري سنة 1957م، لما اكتشف أنّها تحوّلت إلى قلعة للتعبئة والإمداد للمجاهدين، وحسب شاهد عيان فإنّ النّار قد ظلّت أياما وهي تلتهم محتويات مكتبتها العامرة¹! وإحياءً لذكرى الزاوية، واعترافا لها بماضيها العريق في المقاومة ونشر العلم، أُعيد بناؤها بعد الاستقلال، لتكون معهدا وطنيا لتكوين الأئمة وإطارات السّلك الديني، وسُمي المعهد باسم الشّيخ عبد الرّحمن اليلولي، وافتتح سنة 1984م.

ب- موقع الزاوية

تقع زاوية عبد الرّحمن اليلولي بجبل "إيلولة"، على مقربة من قرية "آيت علي أومخند"، وغير بعيد عن زاوية "سيدي أحمد بن إدريس البجائي". يصف أحد طلبتها موقع الزاوية وخصائصها الطبيعية فيقول: «.. وهي تحتل مكانا ممتازا على ربوة صخرية تُطل على سهل وادي سيباو، وترتفع على القرى المتناثرة على سفوح جبال جرجرة حيث تبدو كالمنازة للقادمين إليها من عزازقة وعين الحمام وأقبو. وللزاوية منظر طبيعي ساحر، فهي تحيط بها أشجار الصّفصاف والجوز والكرز وحقول التّين، وفي منحدرها وادي بوبهير المتكوّن من الشّلالات المنحدرة من جبل جرجرة.. وفي مدخل الزاوية ينبوع فوار يسقي بساتين الخضر. وفي الشّتاء يشتدّ تهاطل الثلوج ولا يكاد يُفارقها طول هذا الفصل، فيخيّم السّكون على المنطقة ويبدو كلّ شيء ساكنا، أما فصل الربيع فهو أجمل فصول السنة في هذه الزاوية، حيث السّماء صافية، والشّمس دافئة، والجو لطيف معتدل، والطّبيعة ترتدي أجمل حُلّها وتبدو فاتنة ساحرة»².

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 44.

² - محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، مرجع سابق، ص 119 - 120.

إنّ المتأمل في موقع هذه الزاوية يعرف حكمة مؤسسها، ونظره البعيد في اختيار هذا المكان البعيد عن القرى والعمران، فهذا مما يُوقّر السكينة والهدوء، ويعين على العلم والعبادة والتأمل¹.

ج- نظام الزاوية وخصائصها

إذا كانت الزوايا هي ملكيات خاصة، تملكها عادة أسر مرابطة، فإنّ زاوية الشيخ عبد الرحمن اللولوي تمثل استثناءً بهذا الشأن، فهي مستقلة لا يملك أمرها شيخ أو أسرة، بل هي (جمهورية الطلبة) كما وصفها البعض²، إذ يديرها مجلس استشاري يتألف من إثني عشر طالبا يُختارون وفق معايير هي: الكفاءة، والأخلاق، والسلوك الحسن، وهم الذين يسيرون التعليم، ويراقبون الطلبة، ويقومون بشؤون التموين، وتعتبر بذلك زاوية فريدة من نوعها في القطر الجزائري³.

وتسير الزاوية وفق قانون محدّد هو في غاية الدقة والشمول والإحكام، لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما يُحتاج إليه في تسيير أمور الدراسة، والتموين، والأعمال، ومعاقبة المذنبين، وغير ذلك، إلّا وتكلم عنه⁴، وهو يُطبّق بصرامة، ومن بنود هذا القانون ما اشترطه مؤسس الزاوية: أن تكون زاويته مفتوحة لكل طالب علمٍ من مختلف الجهات، إلّا طلبة عرشه وأقاربه⁵، ويرمي هذا الشرط إلى إبعاد أيّ شكل من أشكال التوريث أو التسلّط على الزاوية من الأقارب وأبناء العشيرة، وهذا شرط عجيب، إذ يحرم أقاربه من الدراسة في زاويته في

1 - يُروى عن الإمام عبد الحميد بن باديس أنّه أثناء الليلة التي قضاه في هذه الزاوية - حين زارها سنة 1931م - خرج من الحُجرة التي نام فيها قبل الفجر بنحو ساعة، وكان الفصل ربيعًا، واللّيل مقمرًا، وجلس تحت شجرة يتأمل السماء بنجومها اللامعة السّاحرة، وقد أبهره جمال الموقع، وروعة الطّبيعة، ولم يجد للتعبير عن إعجابه وافتتانه إلّا التّهليل والتكبير! من شهادة تلميذ الإمام ومرافقه الشيخ باعزيز بن عمر، نقلًا عن: محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 43.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 3، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص 189. ووصفها الشيخ أبو يعلى الزواوي في بعض كتاباته بأنّها (جمهورية شورية).

3 - محمد الصّالح الصّديق، ماذا تعرف عن زاوية الشيخ عبد الرحمن اللولوي؟ جريدة العصر، العدد 13، 9 جويلية 1981.

4 - للمزيد عن نظام الزاوية، أنظر: أوضح الدلائل، وأيضا: زوايا العلم والقرآن.

5 - يذكر ابن زكري أنّ مؤسس الزاوية دعا على إخوته وأعمامه وأقاربه أنّ من دخل زاويته وسكن فيها ولو للقراءة، أو أراد أن يتصرّف فيها بوجه من الوجوه، يموت إن شاء الله كلاله، أي من غير ولد من صلبه يرثه. أوضح الدلائل، ص 109.

سبيل المصلحة العامة! والعجيب أيضا أنّ هذا الشرط الذي وضعه المؤسس منذ قرون بقي محترما، فلم ينتظم في سلك طلبة الزاوية إلاّ الأباعد¹.

هذا وقد عبّر الضابط الفرنسي "هانوتو" وزميله "لوتورنو" عن إعجابهما بالنظام الذي تسير عليه هذه الزاوية، بقولهما: «.. مات مؤسس الزاوية دون أن يترك عقبا ولا وارثا، فبقيت زاويته ملكا للطلبة يسيرونها جيلا بعد جيل، كما كانت في أيام مؤسسها، مقدّمين بذلك نموذجا لاستمرار الأفكار، واحترام تام للتقاليد إلى درجة تثير الدهشة، خاصة إذا علمنا أنّ الأمر يتعلّق باتحاد شباب..»². ويضيف المؤلفان: « إنّ هذه الزاوية إذن جمهورية حقيقية، أو إذا شئنا مجمع طلاب، يعيّنون أساتذتهم ومسؤوليهم، ويسيّرون زاويتهم، ويحكمون أنفسهم بحرية تامة، وبدون رقيب.. لقد كانت تضم يوم زرتها سنة 1862م، من 70 إلى 80 طالبا..»³.

د - مرافق الزاوية⁴

عند مدخل الزاوية يوجد ميزاب من الماء ينحدر من الجبل، مياهه صافية عذبة، باردة جدا في الصيف، ومعتدلة في الشتاء. وفي مقابل هذا الميزاب توجد بناية طويلة من طابقين، سفلي وعلوي، في كل طابق حوالي سبع غرف كبيرة لنوم الطلبة، وبجانب البناية مسجد للدراسة وتلاوة القرآن يقال له "جامع العرب"⁵، وبالقرب منه جامع يسمى "البيت الكبير"، فيه يتناول الطلبة الطّعام، وفيه يجتمعون لأغراض مختلفة، لا تُقام فيه الصلاة رغم أنّه يحمل اسم المسجد! والغريب أنّ هذا المسجد لا يدخله إلاّ من كان طالبا بالزاوية. يُذكر - في هذا السياق

¹ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/08/10م. وذكر لي الأستاذ أيضا أنّ ضابطا فرنسيا أعجب بقانون الزاوية عند زيارته لها أثناء الاحتلال، فأمر بترجمته، ثم أخذه وجعله نظاما لإحدى الثكنات العسكرية بنواحي الحراش! سألته عن مصدر هذه المعلومة فأكد لي أنّه لم يقرأ هذه المعلومة في مصدر مكتوب، لكن تواترت عن كثير من شيوخ المنطقة.

²-A. Hanoteau, A. Letournou, *la Kabylie et les coutumes kabyles*, T2, Paris, s.d, p.125.

³-Ibid, p. 126.

⁴ - لا أعلم أنّ أحدا كتب وصفا لمرافق وهياكل الزاوية حسب ما كانت عليه قبل تدميرها سنة 1957م، وما أذكره هنا أكثره مما أفادني به شفويا: الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، والشّيخ يحيى التّومي المشدالي.

⁵ - لم نجد إجابة محددة لمصدر هذه التسمية ولا سبب إطلاقها، غير أنّ الأستاذ محمد الصّالح الصّديق يذهب في تحليله إلى أنّ صاحب التسمية قد يكون مؤسس الزاوية نفسه، وكأنّه يريد أن يُشعر الطلبة الآتين من خارج منطقة القبائل بأنّهم في موطنهم، وأنّهم ليسوا غرباء، وهذا ليس ببعيد عن هذا العالم الذي حرّم أقاربه وأهل عرشه من الدراسة في الزاوية من أجل أن يحافظ على سيرها وخدمتها للعلم!

- أن الشيخ أحمد بن زكري حين زار الزاوية سنة 1938م، ورغب في التعرف على بناياتها المختلفة، اصطحبه بعض الطلبة في جولته هذه، وطاف كل المرافق، ولما وصل إلى هذا الجامع لم يُسمح له بدخوله حتى قَبِل جميع رؤوس الطلبة الذين اجتمعوا لهذا الغرض في هذا الجامع، ودُعي له وصار من الطلبة¹.

وبالقرب من البيت الكبير توجد بيوت لتخزين المؤن، من حبوب وزيت وتين، وكانت الزاوية في مجال التموين تعتمد أساسا على أملاكها الوقفية التي تتمثل في أراضي وحقول التين والزيتون ومزارع الحبوب في القبائل الصغرى خاصة بنواحي آقبو وبرج بوعريريج وبني حالة²، يضاف إليها ما يأتيها من صدقات وهبات المحسنين³. وبأسفل كل هذه البنايات توجد قبة بها قبر مؤسس الزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي، وبجانبه قبر الشيخ محمد أوعنتر الحرزوني⁴، وقبر الشيخ الصادق بن زكري⁵، وهما ممن درّسوا مدة طويلة بهذه الزاوية.

ومن مرافق الزاوية أيضا إقامة خاصة تتكوّن من مطبخ وحجرة واحدة تتصل بجامع العرب، فيها ينام الشيخ ويتناول طعامه، ويقوم على خدمته طالب يُنتدب لذلك يدعى

¹ - يذكر الأستاذ محمد الصالح الصديق الذي حضر هذا الموقف أن الشيخ ابن زكري لما شرح له الطالب أن من يريد أن يصبح واحدا من طلبة هذه الزاوية عليه أولا أن يدفع مبلغا رمزيا من المال، وهذا أمر بسيط، ثم عليه - وهو ما رآه الطالب صعبا قد لا يحتمله الشيخ - أن يُقبِل كل رؤوس الطلبة، قال الشيخ ابن زكري مبتسما: لست أرى فيما تنكروه من نشوز في العملية، أو عدم ملاءمة لمكانتي أو شهرتي.. بل إنني أرى في هذا شرفا وأي شرف، أليس هؤلاء طلبة القرآن الكريم؟ أليست هذه الرؤوس التي أُقبلها خزائن لوعي الله تعالى؟ محمد الصالح الصديق، في شريط النكريات، ج 1، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 38-39. إن هذه الحادثة تدل، من جهة على صرامة تطبيق قوانين الزاوية، ومن جهة أخرى ما يتميز به الشيخ ابن زكري من حب الأطلاع، والتواضع، والتكبر للنفس الأمانة بالترفع والاستعلاء!

² - حسن عليلي الجيري، "أملاك زاوية سيدي عبد الرحمن الوقفية"، جريدة الشعب (يومية جزائرية)، العدد 11016، 1996/06/03م.

³ - في هذه الفترة كانت مداخيل الزاوية تتراوح ما بين 15 إلى 20 ألف فرنك فرنسي. وهذا حسب ما أورده حاكم بلدية سيباو الأعلى في تقريره المؤرخ ب: 1933/01/23م. (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

⁴ - من عرش آث بترون ببلاد زاوية، عرف ببراعته في الخط، وقيل أنه نسخ بخطّ يده من مصاحف القرآن تسعة وتسعين تامة كاملة، وخلف تمام المائة ناقصا. ابن زكري، أوضح الدلائل، ص 108.

⁵ - من قرية إيسكرين، بلدية أغريب (ولاية تيزي وزو)، درّس في عدة زوايا ومساجد في منطقة زاوية منها زاوية عبد الرحمن اليلولي التي مكث بها أكثر من عشر سنوات، ثم عُين مفتيا بمدينة تيزي وزو، وظل في هذه الوظيفة قرابة 35 عاما. توفي في حدود 1926م، أوصى بدفنه بجوار قبر الشيخ عبد الرحمن اليلولي فنفّدت وصيته. حسن عليلي الجيري، أعلام بلادي، ج 1، مرجع سابق، ص 12.

(أَقْدَاش)¹، وبيت خاص للضيوف يدعى الحجرة الجديدة، وساحة توجد بها السّاعة الشّمسية التي أنشأها الشّيخ المولود الحافظي في الأربعينات من القرن الماضي، ودُمرت مع تدمير الزاوية أثناء الثّورة التحريرية، وما زالت آثار السّاعة باقية تدل على براعة الشّيخ، وعمقه العلمي في الفلك.

وللزاوية "اسطبل" لربط الخيول التي تستعمل للتنقل وحمل الغلات، ولها بمزرعتها الكبيرة بآقبو بناية هي معبر الطّلبة الذين يتجهون من الزاوية نحو ديارهم في وادي الصّومام، كما أنّ فيها مخازن للزيت والحبوب.

هـ- الزاوية قبل تولي الشّرفاوي التدريس بها

مما عُرفت به زاوية الشّيخ عبد الرّحمن اليلولي، حرص طلبتها على ألاّ يتولى التدريس بها إلاّ من ذاع صيته، وعُرفت كفاءته من العلماء، فكان من أساتذتها القدامى: الشّيخ أبو القاسم البوجليلي صاحب كتاب "التبصرة" في القراءات العشر، والشّيخ الشّريف الإفليسي (ت حوالي 1917م²)، والشّيخ الصّادق بن زكري دفين الزاوية. أما في الفترة التي سبقت التحاق الشّيخ الشّرفاوي بها فقد تولى التدريس بها كل من:

- الشّيخ السّعيد الجري، من بني يجر، وهو خريج هذه الزاوية، ومن طلبة الشّيخ الشّريف الإفليسي بها، تولى التدريس في الزاوية في الفترة بين: 1918 - 1925م³.

- الشّيخ الطّيب شنتير (ت 1945م)⁴، من قرية بوجليل، بلدة آقبو، تولى التدريس بها في الفترة بين: 1925 - 1929م، وغادر الزاوية لأسباب صحية⁵.

1 - (أقداش) مفرد، وجمعه (إقداشن، أو القداديش)، تسمية تطلق على صغار الطلبة الذين يقومون بخدمة ضيوف الزاوية ومشايخها، وبالأعمال الخفيفة كعلف البغال وسرجها. محمد نسيب، زوايا العلم، مرجع سابق، ص 133.

2 - عنه أنظر: محمد الصّالح الصّديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 19-28. أيضا لنفس الكاتب: الشّيخ محمد الطّاهر حفيد الشّيخ الشّريف الإفليسي، دار الأمل، تيزي وزو (الجزائر)، ط 1، 2017، ص 57 وما بعدها.

3 - محمد الصّالح الصّديق، أعلام من المغرب العربي، ج 2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2008، ص 15. أيضا: محمد حسن علي، وعبد الرّحمن علي، الشّيخ السّعيد الجري، نصف قرن عن رحيله، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، د-ت، ص 24-25.

4 - عنه أنظر: محمد الصّالح الصّديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 1، مرجع سابق، ص 42-49.

5- تقرير قايد دوار إيلولة أومالو إلى حاكم بلدية سيبوا الأعلى، بتاريخ: 20 سبتمبر 1925م، الأرشيف الوطني لما وراء

- العالم الفلكي الشيخ المولود الحافظي الأزهري¹ الذي تولى التدريس بالزاوية لفترتين، الأولى من أواخر سنة 1929م إلى آخر جوان من سنة 1933م²، إذ أمضى بها ما يقارب أربعة أعوام، عمل خلالها على تطوير التعليم في الزاوية، وإدخال علوم حديثة في برامج التدريس، منها علم الفلك الذي كان متضلعاً فيه³، وكان عدد الطلبة في هذه المدة يتراوح بين 95 إلى 105 طالب في كل موسم دراسي⁴، أما الفترة الثانية فكانت بعد الحرب العالمية الثانية، إذ عاد الحافظي للتدريس بالزاوية في سنة 1946م⁵.

ومما يسترعي الانتباه هنا، هو أنّ زاوية الشيخ عبد الرحمن اللولوي كانت في هذه المدة، أي قبل التحاق الشيخ الرزقي الشرفاوي بها، تحظى باهتمام علماء الإصلاح، وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد بن باديس الذي زارها في سياق جولته التي قادته إلى العديد من جهات منطقة القبائل سنة 1931م، وحسب ما نقله عنه الشيخ باعيز بن عمر، الذي رافق الإمام في جولته، فإنّ الإمام قد أُعجب بموقع الزاوية ونظامها المحكم، وأنّه قضى بها ليلة تركت في نفسه أثراً عميقاً⁶.

ودأب الأستاذ باعيز بن عمر، في كتاباته العديدة، على التنويه بمكانة هذه الزاوية، ومآثرها العلمية، من ذلك مقاله الذي نُشر في مجلة الشهاب سنة 1931م بعنوان:

¹ - سبق التعريف به.

² - هذا ما أفادتني به العديد من التقارير الفرنسية التي عثرت عليها في الأرشيف الوطني لما وراء البحار المتعلقة بسير التعليم بهذه الزاوية، وهو الصحيح في رأيي. ومما يؤكد هذا قول الشيخ باعيز بن عمر في إحدى مقالاته: «... حتى اهدتوا في الأخير (يقصد طلبة الزاوية) إلى الشيخ المولود الحافظي.. وفازوا به مدرّساً، وها هم الآن يغرفون من بحر علومه الغزيرة، وأدبه العالي.. الخ». فسياق الكلام هنا - وهو منشور في الشهاب، (عدد نوفمبر 1931م) - يُفيد أنّ الحافظي كان بالزاوية قبل هذا التاريخ. أما ما ورد في رسالة الحافظي لأحد طلبته يخبره فيها بوصوله إلى زاوية سيدي عبد الرحمن اللولوي يوم: الأربعاء 27 محرم 1351م، غرة جوان 1932م، وشروعه في الدراسة، فيبدو أنّ الأمر هنا لا يتعلق بالتحاقه الأوّل بالزاوية. (الرسالة وردت في كتاب: منهج الشيخ المولود الحافظي في التربية والتعليم من خلال مراسلاته لتلميذه الشيخ علي بوبكر الرموري، تحقيق وتعليق عبد الحليم بوبكر وعبد السميع بوبكر، دار الأمة، الجزائر، ط 1، 2000).

³ - محمد الصغير بلعالم، علماء من بني ورتيلان، الشيخ المولود الحافظي نموذجاً، رسالة المسجد، (مجلة تصدرها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر)، العدد 05، ماي 2008، ص 79.

⁴ - هذه الاحصائيات مستقاة من تقارير أرشيفية حول الزاوية: (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

⁵ - A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52.

⁶ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 43.

(الزوايا بالزواوة وما هي الأرقى منها؟)¹، ومما جاء فيه قوله: « إنَّ أرقى تلك الزوايا، قديماً وحديثاً، مادياً ومعنوياً، هي زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي المشهورة في تلك النواحي باستقلال طلبتها في شؤونها داخلاً وخارجاً، بحيث لا يدَّ لغيرهم من ذوي الأطماع على أدنى شيء منها.. ومما تمتاز به عن سائر الزوايا اتحاد طلبتها وتضامنهم في كل ما يعرض لهم من شؤونهم الداخلية والخارجية، وحرصهم على التعارف بينهم.. »². وحسب الكاتب: «.. فإنَّ هذه الزاوية في استعداد تام لهضم أفكار العصر الحاضر، ولقبول كل ما ينشده المفكِّرون الأحرار من الإصلاحات اللازِّمة لهذا القطر العزيز.. »³، إذ كان لطلبته «.. نزوح وطموح قويَّان إلى ما ذاع أخيراً على صفحات الجرائد الجزائرية من فكرة إصلاح التعليم بمنطقة الزواوة.. »⁴.

وفي موضع آخر أكد الأستاذ ابن عمر أنَّ طلبة هذه الزاوية قد أبدوا استعدادهم لنصرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في مطلع شهر ماي 1931م⁵. واعتباراً لهذه الخصائص، فقد رأى الكاتب أنَّه على إصلاح هذه الزاوية يتوقف إصلاح أخواتها من زوايا بلاد زواوة⁶.

ومن حسن حظ طلبة هذه الزاوية أن مغادرة الشَّيخ الحافظي لزاويتهم - في أواخر شهر جوان من سنة 1933م - قد تزامنت مع ذبوع خبر عودة الشَّيخ الرزقي الشرفاوي من مصر، فاجتهدوا في استقدامه إلى زاويتهم مدرِّساً، ففازوا به، بعد وساطةٍ قام بها لهم الشَّيخ الطَّيِّب وعَمارة، كما ذكرنا آنفاً.

2- التعليم بالزواوة في عهد الشرفاوي

أدرك الشَّيخ الشرفاوي - كغيره من رجال الإصلاح - أنَّ الطريق إلى الإصلاح الديني والنهضة الفكرية يتوقَّف على إحداث إصلاح تربوي في مؤسسات التعليم، وهي بالنسبة لمنطقة القبائل هذه الزوايا التي اعتراها الجمود والرَّكود، فاجتهد منذ انتصابه مدرِّساً بزواوة

1 - وقَّع مقاله باسم (الفتى الزواوي).

2 - الفتى الزواوي، "الزوايا بالزواوة، وما هي الأرقى منها؟"، الشَّهاب، ج 11، م 7، نوفمبر 1931م.

3 - نفسه.

4 - نفسه.

5 - باعيز بن عمر، "شعور طلبة الزوايا بالزواوة نحو جمعية العلماء"، الشَّهاب، ج 8، م 7، أوت 1931م.

6 - الفتى الزواوي، "الزوايا بالزواوة"، الشَّهاب، ج 1، م 9، جانفي 1933م.

الشيخ عبد الرحمن اليلولي في إصلاح التعليم بالزاوية وتحسين أساليبه، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أ- العلوم المقررة

منذ البداية وضع الشرفاوي برنامجا للدروس، وحدد كتابا أو كتباً لكل فن من فنون العلم، فكانت دروسه في الزاوية تشتمل في الغالب على المواد الآتية:

- **الفقه** بدراسة مصنفات الفقه المالكي: متن ابن عاشر¹، الرسالة لابن أبي زيد القيرواني²، مختصر خليل بشرح الخرشي³.

- **تفسير القرآن الكريم** وكان يعتمد على تفسير (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للإمام محمود الألوسي البغدادي⁴، وكانت طريقته في درس التفسير حسب ما أورده أحد طلبته كالآتي: كان الشيخ يتلو الآية، ثم يقدم قاموسها اللغوي، ثم يُعرب ما يتوقف فهم معناه على إعرابه، ثم يذكر سبب نزول الآية ومكانها في النسق، ثم يستعرض مختلف الآراء والمذاهب، ويرجح أقواها وأوقفها بالتدليل والتعليل والموازنة، ثم يأخذ في عرض معاني الآية ويتدرج من الظاهر إلى الباطن، ومن السهل إلى الصعب، ومن القريب إلى البعيد، ويغوص على أسرار الآية ودقائقها حتى لا يكون معه في هذا الغوص إلا القليل ممن أتقنوا أسرار العربية، وتمرسوا على معاني القرآن وتفاعلوا معها، إذ لا يترك بُعداً من أبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية إلا وفتح

¹ - منظومة في الفقه المالكي، وتسمى (المرشد المعين على الضروري من علوم الدين)، تأليف محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري الأندلسي الفاسي، (ت 1040هـ).

² - رسالة في الفقه المالكي لعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي زيد القيرواني الذي لقب بمالك الصغير، (ت 996هـ/996م).

³ - مختصر خليل: من أهم مصادر الفقه المالكي بالمغرب الإسلامي، من تأليف العلامة خليل بن إسحاق المصري المالكي (ت 776هـ/1374م)، فيه فروع كثيرة جدا مع الإيجاز البليغ. شروحه كثيرة منها (شرح الخرشي) للفقير محمد بن عبد الله الخرشي من أهل مصر، (ت 1101هـ/1690م).

⁴ - العلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، لقب بـ "الألوسي الكبير" تمييزاً له عن باقي العلماء الألوسيين الذين انحدروا من هذه الأسرة التي اشتهر أهلها بالعلم، (ت 1270هـ). وكتابه (روح المعاني) موسوعة ضخمة من ثلاثين جزءاً في خمسة عشرة مجلداً، وهو تفسير جامع لخلاصة ما سبقه من التفسير، والنسخة التي درس بها الشيخ الشرفاوي ما تزال موجودة في مكتبة نجله المرحوم محمد عبد الرحمن قازو، وقد أتاح لي ابنه خالد شريف تصفحها، فوجدت بها بعض التعليقات بقلم الشرفاوي، خاصة في الأجزاء الأولى التي أنهى تدريسها في الزاوية. والنسخة مطبوعة بمصر بتاريخ 1345هـ/1926م. لم نجد فيها إشارة إلى تاريخ اقتنائه لهذه النسخة، لكن المرجح أنها من الكتب التي حملها الشرفاوي معه حين عاد إلى الجزائر سنة 1933م.

الباب إليه، وأضاء جوانبه. وإذا كان في الآية ما يدعو إلى نقد عمل أو سلوك أو خُلق، فإنّه يستطرد له بالنقد، ويُسهب في طُرق علاجه..¹.

- الحديث النبوي الشريف، وكان يُدرّسه من كتاب (سُبل السّلام، شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام) للإمام الصنعاني².

- العقيدة بكتاب (جوهرة التوحيد) للإمام اللقاني³.

- علوم العربية، من نحو وصرف وبلاغة وبيان، بدراسة: ألفية ابن مالك⁴، الأجرومية⁵، القطر⁶، الجواهر المكنون⁷، السمرقندية⁸. ودروس في الأدب العربي في مختلف عصوره يحضّرها الأستاذ بنفسه، وكذا مادة (الإنشاء) التي استحدثها الشرفاوي في الزاوية بطلب من طلبته، وقد ألّف كتابا في الموضوع أسماه: (الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزاوية).

- المنطق بكتاب السُّلم⁹، وكتاب إيساغوجي¹⁰.

- الحساب، درسٌ واحد في الأسبوع، وهي المادة الوحيدة التي يستعمل فيها الشيخ السبورة¹¹.

1 - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 187، وص 251.

2 - الإمام الصنعاني هو محمد بن إسماعيل الكحلاني الصنعاني المشهور بالأمير الصنعاني (ت 1183هـ)، وكتابه (سُبل السّلام) شرح لكتاب (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) للفقيه الشافعي ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، يقع في أربعة أجزاء، وقد ختم الشرفاوي تدريسه في الزاوية.

3 - الإمام اللقاني، هو إبراهيم اللقاني الشهير بمحمد بن هارون اللقاني المالكي، المصري. (ت 1041هـ/1632م).

4 - الألفية: منظومة من ألف بيت في النحو والصرف للعلامة محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (ت 672هـ/1273م).

5 - الأجرومية: متن مشهور في النحو لأبي عبد الله محمد بن داود الصنهاجي الفاسي المشهور بابن أجرّوم، أي الفقير الصوفي، (ت 723هـ/1327م).

6 - قَطْرُ الندى وبلّ الصّدى: متن في النحو لأبي عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري من مصر، (ت 761هـ/1359م).

7 - الجواهر المكنون: متن في البلاغة، لعبد الرّحمن الأخضرري الجزائري، ألفه وهو في سن الثلاثين، (ت 953هـ/1544م).

8 - السمرقندية: متن في البيان والاستعارات، لأبي القاسم السمرقندي نسبة إلى سمرقند.

9 - السُّلم المرونق: منظومة في علم المنطق لعبد الرّحمن الأخضرري الجزائري، ألفها وهو في سن الواحد والعشرين.

10 - إيساغوجي: لفظة يونانية بمعنى المدخل والمقدمة، وهي عنوان متن مشهور في علم المنطق، تأليف أثير الدين الأبهري السمرقندي، (ت 663هـ/1264م).

11 - ذكر لي الأستاذ محمد الصّالح الصّديق أنّ هذه السبورة أحضرها له شخص من بلدة صدّوق (بولاية بجاية) اسمه عبد الرّحمن بن الشّيبخ، وقد استعملها الشرفاوي سنوات في تدريس الحساب.

- التاريخ، دروس مختارة من السيرة النبوية وسيرة الصحابة، وهي ليست مرتبة، فهو يختار الشخصيات والمواقف التي فيها بطولة أو عبر.

ومن هذه المواد يتضح أنّ نوع التعليم الذي كان الشيخ الشرفاوي يعطيه لطلبته في الزاوية لا يخرج في مجمله عن كونه تعليماً دينياً ولغوياً، مع قليل من العلوم العقلية.

ب- البرنامج اليومي للدروس

كان الشرفاوي يقدم خمسة دروس في اليوم، وكل درس يستغرق ساعتين إلى ساعتين ونصف، وأحياناً أكثر من ذلك¹، وهذا يعني أنّه كان يقضي في تدريس طلبته أكثر من عشر ساعات في اليوم الواحد، طبعاً عدا مساء الخميس ويوم الجمعة، فهو راحة لا دروس فيها.

تبدأ دروس الشيخ بالزاوية بعد صلاة الصبح، وتستمر إلى ما قبل صلاة العشاء، بلا توقف إلا لأداء الصلاة وتناول الطعام والشاي، إذ ليس له في اليوم إلا راحتان، بعد الغداء، وقبيل المغرب، وحتى هذه الأخيرة لا يرتاح فيها إلا قليلاً جداً، لأنّه أحياناً يستغرق في درسه إلى أن يحين وقت صلاة المغرب، أو يستقبل فيها السائلين من الطلبة فلا ينتهي من إجابتهم إلا مع انطلاق آذان المغرب².

وحتى نعطي صورة حية للجهد الذي كان يبذله الشيخ الشرفاوي من أجل أداء رسالته التربوية بزاوية عبد الرحمن اللولي، نورد فيما يلي نموذجاً لبرنامج اليومي حسب ما حدثنا به تلميذه الأستاذ محمد الصالح الصديق:

بعد أن يصلي بالطلبة صلاة الصبح، يدخل الشيخ إلى حجرته لتناول فطور الصباح، وبعدها يخرج إلى المسجد ليشرح في درس الحديث بكتاب (سبل السلام) الذي يستمر لساعتين أو أكثر، يحضره قليل من الطلبة (حوالي 15 طالب)، لأنّها دروس عالية المستوى، ولا يمكن لجميع الطلبة متابعتها.

وبعد نحو نصف ساعة من الراحة، أي في حدود الساعة العاشرة، يشرح في درس الفقه (بمختصر خليل)، أو (الرسالة) لابن أبي زيد القيرواني، ويستمر الدرس إلى منتصف النهار، وهنا يفترق الجميع للغداء وأخذ بعض الراحة إلى حوالي الثانية بعد الزوال.

¹ - أفادني بهذا بعض طلبته: الشيخ يحيى التومي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/18م. الحاج محند السعيد أمقران، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26م. والشيخ محمد الصالح الصديق في كتاباته وشهاداته.

² - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 34. وأيضاً من بعض شهاداته.

وبعد أداء صلاة الظهر جماعةً، يبدأ درس النحو بـ(ألفية ابن مالك)، يحضره حوالي عشرون طالباً، ويستمر الدرس إلى أن يحين وقت العصر، فيصلي بالطلبة الفريضة.
وبعد فاصل قصير من الراحة، يشرع الشرفاوي في درس النحو بكتاب (الأجرومية)، وهي أقل مستوى من الألفية لذلك يحضرها الكثير من الطلبة (حوالي 100 طالب)، ويستمر الدرس إلى قبيل المغرب.

وبعد صلاة المغرب يعطي درسا في الفقه بـ (منظومة ابن عاشر)، أصبح بعد ذلك يقدم درسا في التفسير بكتاب (روح المعاني) للإمام الألويسي البغدادي، يحضره حوالي ثمانية فقط من طلبته النابهين.

وبعد صلاة العشاء يتفرغ الطلبة لقراءة القرآن ومراجعة المتون، وينصرف هو إلى المطالعة والكتابة والعبادة.

هذا هو الغالب على أيام الشيخ، وفي سائر السنوات التي قضاها في الزاوية، مع بعض التغيير في برنامج الدروس، كتدريس فن آخر من فنون العلم بعد الفراغ من تدريس متن من المتون وهكذا¹.

وإضافة إلى هذه الدروس التي يقدمها الشيخ بنفسه، كانت هناك دروس أخرى يقدمها بعض طلبته الأكثر تقدماً في دراستهم لزملائهم المبتدئين في أوقات الفراغ، في الفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق وغيرها من المواد، ومن هؤلاء الطلبة الشيوخ: نعماني مكي، العربي بن عيسى، عبد الحميد بن حالة، لكحل الأفريحاوي، أحمد حسين، أحمد الورجي، محمد الصالح الصديق، وقد رأى المجلس الإداري للزاوية أن يُعفي هؤلاء من جميع الأعمال التي يقوم بها الطلبة، وهذا إكراماً وتقديراً لهم، ولفناً لأنظار الطلبة إلى مكانتهم العلمية حتى يتنافسوا في الوصول إليها².

ويوجد بالزاوية أيضاً مدرس رسمي خاص بعلم القراءات (التجويد) يتولى الإشراف على هذه المادة³، وهو في زمن الشيخ الشرفاوي الشيخ أحمد المقنيعاوي⁴.

1 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/11م.

2 - محمد الصالح الصديق، في شريط الذكريات، ج 2، مرجع سابق، ص 439.

3 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/11م.

4 - سبق التعريف به في مكان آخر.

ج- اهتمام الشرفاوي بطلبته

كان الشيخ الشرفاوي يعتبر طلبته أولاده، فكان يُعاملهم معاملة الرأفة والرّحمة، فيحرص على إفادتهم وتربيتهم وتشجيعهم على العلم، ويُعلّمهم كيف يستثمرون الوقت وكيف يعتبرونه جزءاً من حياتهم. ومن حرصه على التحصيل الجيد لطلبته كان يؤلّف لهم كتباً¹، ويعيّرهم مخطوطاته لينسخوها ويستفيدوا منها².

وكان الشيخ أثناء الدرس إذا استحسّن كلمة أو عبارة في بيت شعري بالغ في استحسانها، وإظهار التأثر والإعجاب بها، وأعادها مرات، وكان الطلبة المجدون يحرصون على الفائدة، فإذا انتهى الدرس بقوا مع الشيخ واستملّوه ما أعجبهم من شعرٍ أو حكمةٍ أو حديثٍ³.

وكان كثيراً ما يذكر لهم في حلقات دروسه نشاط طلبته بالأزهر وحرصهم على تحصيل العلم، ولعل ذلك ليقتدي بهم طلبته في الجزائر ويترسّموا خطاهم⁴. ويذكر لهم أيضاً أساتذته في الأزهر وكبار العلماء أمثال الشيخ الطاهر الجزائري، والطاهر بن عاشور من تونس، والشيخ عبد الحي الكتاني من المغرب، والشيخ الخضر حسين، ومحب الدين الخطيب ومجلته "الفتح"، كان يذكر هؤلاء ويثني عليهم، ليستثير الطلبة ويرفع همّهم⁵، ويتكلّم كثيراً عن الشيخ عبد الرحمن اليلولي وعن زاويته، وكان يقول: « إن هذه الزاوية لا مثيل لها في الشرق ولا في الغرب »⁶.

وكان الشيخ يحفظ أسماء الطلبة، خاصة الذين يبرزون، ويحفظ الجهات التي ينتمون إليها، وأسماء عائلاتهم، إذ كانت له ذاكرة عجيبة في هذا الأمر. وكان يهتم بهم ويسأل عن أحوالهم، وإذا رأى طالباً بثيابٍ رثّة تأثر لحاله، ودعاه إلى حجرته ليعينه بما يستطيع،

1 - مما يدل على هذا عناوين مؤلفاته مثل: (بغية الطلاب في علم الآداب)، (إرشاد الطلاب إلى ما في الآيات من الإعراب)، (الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزاوية).

2 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/11/03م.

3 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 84.

4 - نفسه، ص 85.

5 - يقول الأستاذ محمد الصالح الصديق عن نفسه: « كنت على صغري أسمع أسماء هؤلاء وأتمنى أن أكون مثلهم ». شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/10م.

6 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/11/03م.

أو يزوّده بكلمات تواسيه وترفع من معنوياته. والطلّبة من جهتهم كانوا يحترمون الشّيخ ويُجلّونه ويعرفون قدره¹.

د - ملاحظات على نظام التدريس

كان الشّيخ الشّرفاوي يحب أن يستقبل القبلة في دروسه، إلّا إذا لم يكن ذلك ممكناً. ومن نظام الدروس أن يحضر الطّلبة قبل حضور الشّيخ، إذ لا طالب يدخل بعده. وأثناء الدرس يجلس الطّلبة على الحصائر، إذ لا كراسي ولا طاولات، أما الشّيخ فله مقعد خاص يجلس فيه ليتمكن من إسماع طلبته، وله وسادة يتكىّ عليها².

والملاحظ على برنامج الدروس هو أنّ الشّرفاوي قد أدخل مواداً جديدة لم تكن موجودة من قبل، كالتفسير وشرح الحديث وأصول الفقه، وطوّر تدريس المواد التقليدية المعروفة كالفقه والنحو والصّرف والتوحيد والتاريخ، واهتم كثيراً بدراسة الأدب العربي من شعر ونثر، وأدخل مادة الإنشاء لرفع مستوى الطلبة في اللّغة، لأنّها السّبيل لفهم بقية العلوم، واختار لكل علم من العلوم كتاباً أو كُتبا يتدرج الطلبة في دراستها، وألّف كتاباً في الإنشاء خصيصاً لطلّبه، بعد أن رأى أنّ الحاجة ماسة إلى ذلك، لأنّه - كما قال - لم يجد من بين الكتب المتداولة ما يُناسب مستوى الطّلبة³.

ودروس الشّرفاوي مفتوحة لكل طلبة الزاوية الذين أكملوا حفظ القرآن الكريم، ومع أنّه لم يورّع الطّلبة على مستويات أو طبقات، حسب مصطلح ذلك الوقت، فإنّ الملاحظ هو أنّ الشّيخ كان يُلقي نوعين من الدروس، دروساً في المستوى العالي على الطّلبة المتفوّقين، تتمثل في التفسير والحديث والأصول والمنطق، ودروساً في الفقه والنحو والتربية الإسلامية للطلّبة المبتدئين حتى لا يُحرّم أحدٌ من دروسه⁴. فدروس التفسير مثلاً يحضرها عدد قليل من الطلبة، لأنّها تتطلب من الطالب إماماً بعلم القرآن الأساسية، ومعرفة لدقائق اللّغة العربية، من نحو وصرف وبلاغة وبيان، خاصة وأنّ (روح المعاني) الذي اختاره الشّرفاوي مرجعاً لدروسه في التفسير كتاب كبير الحجم، غزير المادة، مما يجعل الفائدة منه لا تتيسر إلّا للطلّبة المتفوّقين، وفي مقدمتهم الشّيخ

1 - محمد الصّالح الصّديق، "جوانب من شخصية العلامة الشّيخ محمد الرزقي الشّرفاوي"، البصائر، الحلقة الثانية، العدد 299، 31 جويلية - 7 أوت 2006. أيضاً شهادته الشّفوية بتاريخ: 2014/04/10م.

2 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/09/03م.

3 - ذكر ذلك في مقدمة كتابه "الدروس الإنشائية لطلّبة الزوايا الزاوية".

4 - محمد الصّالح الصّديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 1، مرجع سابق، ص 210.

العربي بن عيسى، والشيخ عبد الحميد بن حالة، والشيخ نعماني مكي¹. ومثل ذلك يُقال عن دروس الحديث.

والملاحظ أيضا أنّ دروس الفقه موزعة على مستويين، فهناك دروس لطلبة المستوى المتوسط من رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ثم دروس لطلبة المستوى العالي من متن الشيخ خليل، بشرح الخرشي. وكذلك بالنسبة لعلوم اللغة العربية. بل إنّ دروس النحو وقواعد اللغة هي على ثلاثة مستويات، فهناك درس "الأجرومية" يحضره كل الطلبة، ثم درس "قَطْر الندى" للمستوى المتوسط يحضره عدد أقل، ثم درس "الألفية"، وهو أعلى مستوى، ويحضره عدد أقل من الطلبة².

أما بخصوص طريقة التدريس فهي الطريقة القديمة، طريقة الأزهريين والزيتونيين، فالأستاذ يُملّي ويشرح درسه، والطالب يُنصت ويُسجّل، ولكن الشرفاوي كان ينوع الأمثلة، ويستفيض في الشرح ويُدقّق، ويسأل الطلبة من حين إلى آخر ليختبر فهمهم، وهو لا يتوانى عن إعادة شرح المسائل الصعبة على من تُقلّ فهمه منهم³. وكان الشيخ - رغم جديته - يحاول دائما أن يضفي على دروسه جواً من المرح الذي يجعل طلبته مقبلين عليها برغبة وشوق، فكان « كلما أحسّ بفتور يغزو أو يُهدّد حلقة الدرس استأنس بنادرة من نوادر الظرفاء، أو طرفة من طرائف النبلاء، فتنبسط العقول، وتنتعش النفوس، فتعود إلى مواكبة الدرس بعزيمة وعناية.. »⁴.

ومن الملاحظات التي تُسجل على نظام التعليم في الزاوية، سواءً في عهد الشرفاوي أو قبله، هي أنّ الطالب كان موكولا إلى نفسه، ليس عليه رقيب في الحضور والغياب، وكان لا يخضع لامتحان عقب انتهاء السنة الدراسية⁵، مع أنّ الامتحان من الوسائل الضرورية لمعرفة تقدم الطالب أو تأخره في الدراسة. وهذه الصيغة التربوية اللينة لم تكن - دون شك - الأنجع من الوجهة التربوية الصرفة، غير أنّ الانضباط الذي يغلب على سلوك الطلبة

¹ - محمد الصالح الصديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 187.

² - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/11م.

³ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/10م. ويذكر الأستاذ أنّ الشيخ كان يتلقى أسئلة طلبته بصدر رحب، لكن إذا أحسّ وكأنّ الطالب يريد بسؤاله أن يُعجزه، ينفعل ويتحوّل إلى شخصٍ آخر!

⁴ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 77.

⁵ - من شهادات بعض طلبته.

آنذاك، وحبهم للعلم، واحترامهم لأستاذهم، إضافة إلى نظام الزاوية الذي يتابع تـمدرس الطلبة، كل ذلك كان يعوّض - إلى حدٍ بعيد - غياب المتابعة من قبل الأستاذ. ومن الأمور التي تعيق الطالب عن التحصيل الجيد في الزاوية، الأعمال الكثيرة التي يُكَلّف بها الطالب داخل الزاوية وخارجها، والتي تعوقه عن الوصول إلى غايته في المدة اللازمة لذلك، وتطيل بقاءه في الزاوية، وأيضاً قلة الوسائل، فالكتب المقررة مثلاً، لا يملكها إلاّ القليل من الطلبة، بسبب ظروف الفقر آنذاك.

ومهما يكن، فإنّ ما ذكرناه عن برنامج التدريس يعبر عن المستوى العالي للتعليم الذي كان سائداً في زاوية الشيخ عبد الرحمن اللولي على عهد الشيخ الرزقي الشرفاوي، وهو ما جعل من طلبتها الأوائل دائماً إذا ما قورنوا بطلبة الزوايا الأخرى، لكن هذا لا يمنعنا من القول بأنّ الشيخ الشرفاوي، وإن كان بحراً في علمه، وبحراً في شرحه لدروسه، فإنّ أكثر الطلبة لم يكونوا يحسنون السباحة في بحره، وهذا باعتراف طلبته الذين استجوبناهم¹! فحسب الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، فإنّ ممثّل الشيخ الشرفاوي كمثّل الشجرة المليئة بالثمار، لكن تلك الثمار لا يمكن قطفها أو الوصول إليها، فقد كان يبذل جهداً كبيراً لكن الثمرة كانت محدودة²! وحسبته أيضاً، فإنّه بالرغم من مستوى الطلبة العلمي الذي قد لا يبعث على الجِدِّ والنشاط، فإنّ مستواهم الأخلاقي والروحي هو الذي كان يُلهب نشاط الشيخ ويدفعه إلى العمل المتواصل بإخلاص ونزاهة وارتياح³.

أما الشيخ العربي بن عيسى الذي يعترف لشيخه بالكفاءة وسعة العلم، فقد كان يقول عنه: « إنّ هذا الشيخ مثل مصباح كبير وُضع في غير مكانه »⁴! والشيخ عبد الحميد بن حاله، وهو من طلبة الشيخ النجباء، كان يقول عن شيخه: « إنّهُ شمسٌ مضيئة، ومع الأسف مضيئة في فلاة! »⁵.

هـ - الاحتفال بختم "مختصر خليل" بالزاوية 1938م

¹ - الأستاذ محمد الصّالح الصّديق في كتاباته وشهاداته. الشيخ المولود إيمون، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/29م.
الشيخ يحيى التّومي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/18م.
² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/16م.
³ - محمد الصّالح الصّديق، أعلام من المغرب العربي، ج 1، مرجع سابق، ص 196.
⁴ - محمد الصّالح الصّديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 2، مرجع سابق، ص 108.
⁵ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/04/02م.

من مصنفات الفقه المالكي التي كانت تُدرس بالزوايا العلمية في منطقة زاوية وعامة القطر الجزائري، "مختصر خليل" المشهور في الجزائر باسم "سيدي خليل"، وكان الشيخ الشرفاوي قد باشر - منذ مجيئه من مصر - تدريس هذا المتن بشرح الخرخشي لطلبة زاوية عبد الرحمن اليلولي، وظل يوالي تدريسه مدة خمس سنوات، ولما ختمه اقترح عليه مجلس الطلبة أن يقيموا حفلا بالمناسبة، وهذا على غرار ما كان يقوم به شيوخ زوايا المنطقة آنذاك، إذ كانوا إذا ختموا (خليلاً) بالتدريس أقاموا حفلا يحضره العامة والخاصة من مختلف القرى القريبة والبعيدة، تبرّكا، وتقديرا للعلم، وتكريما للشيخ الذي ختمه بالتدريس.

احتضنت زاوية عبد الرحمن اليلولي هذا الحفل الذي أقيم يوم الأحد 12 جوان 1938م¹، كان الحفل كبيرا في مستوى شهرة الزاوية، حضره من العلماء: الفلكي الشيخ المولود الحافظي الأزهري، والعلامة النحوي الشيخ السعيد الجري، واللغوي الشيخ علي الصداوي²، والشيخ الطيب وعمارة شيخ زاوية سيدي أحمد بن إدريس، والشيخ محمد القاضي الصدوقي³، والشيخ أحمد بن زكري أستاذ بمدرسة الثعالبية، والشيخ البشير آيت صديق، الإمام بقرية أبيضار، وصهر الشرفاوي⁴، والشيخ الطيب أوشنتير وهو من طلبة الزاوية⁵ وأستاذ سابق فيها⁶، وحضر الحفل الكثير من الطلبة والأئمة وعامة الناس، وحسب تقرير فرنسي فإن عدد الذين حضروا إلى المكان بهذه المناسبة قُدّر بنحو ثلاثة آلاف (3000) شخص⁷، جاؤوا من مختلف الجهات

¹ - عثرنا على نموذج لدعوة محرّرة باللغتين العربية والفرنسية، وفيما يلي النصّ العربي: « حضرة الفاضل عليكم جزيل السلام، أما بعد فإننا ندعو حضرتكم لحضور احتفال طلبة سيدي عبد الرحمن اليلولي بختم سيدي خليل بزوايتهم يوم الأحد 13 ربيع الثاني سنة 1357هـ، ونرجوكم أن لا تتأخروا فيكمل بكم السرور والسلام. الطلبة ». (دعوة موجّهة إلى الشيخ محند عمر لونيس، شيخ زاوية سيدي سحنون آنذاك، عثرنا عليها ضمن أرشيف الزاوية السحنونية بجمعة سهريج، بلدية مقلع، وقد أطلعنا عليه مشكورا نجله لونيس محند الصالح).

² - من قرية "ثافونسفت"، بآث واسيف، ولاية تيزي وزو، توفي رحمه الله في 17 أفريل 1977م، بعد حياة دامت 117 عام، هذا ما كُتب على قبره.

³ - وهو الذي سيحلّ شيخا في زاوية عبد الرحمن اليلولي في آخر هذا العام، وسيأتي التعريف به.

⁴ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 20/09/2013.

⁵ - يحيى التومي المشدالي، شهادة شفوية بتاريخ: 18/06/2014م.

⁶ - الأرشيف الوطني لما وراء البحار، تقرير قايد إيلولة إلى حاكم بلدية سيباو الأعلى مؤرخ بـ: 10/09/1925م.

(A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

⁷ - الأرشيف الوطني لما وراء البحار، تقرير حاكم بلدية سيباو الأعلى مؤرخ بـ: 29/07/1938. أنظر الملحق رقم: 11،

ص 311. (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

القريبة والبعيدة، كما حضره من الفرنسيين حاكم بلدية سيباو الأعلى (عزازقة) وموظفيه الرئيسيين¹.

خلال الحفل ألقى الشيخ الشرفاوي، الأستاذ بالزاوية، محاضرة مطوّلة تناول فيها أسباب رقي الأمم وانحطاطها، وتحدث بإفاضة وإسهاب عن العلم والدين والأخلاق الفاضلة، ومما جاء في محاضرتة قوله: « تعلموا العلم فإنّ الجهل أشدّ فتكا بالإنسان من الوحش الضاري! »². وتطرق في خطابه الذي استمر زهاء ساعتين، إلى موضوع التعليم في الزوايا، ولفت الأنظار إلى العلماء المشاهير الذين أنجبتهم منطقة زاووة، وكانت لهم مساهمة فعّالة في بناء الحضارة الإنسانية³، وقد نشرت جريدة البصائر تقريرا عن هذا الحفل نوّه فيه كاتبه بجهود الشيخ الشرفاوي، ومما جاء فيه: «.. في يوم الأحد 14 ربيع الثاني على الساعة العاشرة صباحا اكتظت رحاب زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي بالطلبة والعلماء، فلما استقر بهم المجلس وساد السكون تكلم الأستاذ الشيخ الرزقي الشرفاوي، ونوّه بختم دروسه العلمية الفقهية، ومما سرّني من كلامه العذب إرشاده للطلبة وغيرهم على ترك البدعة، وإحياء السنّة، ونبذ الخلافات في أمر الدين، والتمسك بما أمر الله به أن يوصل، كأعطاء حق النساء من الميراث والطلاق، وأكد على العلماء بتنفيذ هذا الحكم، وبين للسامعين ما عليه الرسول صلى الله عليه وسلّم من آداب وأخلاق فاضلة تناساها مجتمعنا الإسلامي.. »⁴.

1 - نفسه.

2 - محمد الصّالح الصّديق، في شريط الذكريات، ج 1، مرجع سابق، ص 37.

3 - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 40-41. وذكر لي الكاتب، وهو من الذين حضروا الحفل، أنّ خطاب الشرفاوي ذو أهمية كبيرة، وقد كتبه في حوالي 200 صفحة، وكان الأستاذ أحمد بن زكري قد أخذها واعتزم طبعه ولكنه لم يُطبع، وهو لا يعرف سبب ذلك ولا مصير الخطاب. (محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/06/16م).

4 - الصّغير محمد، احتفال علمي، البصائر، العدد 121، 08 جويلية 1938م. وهنا يجدر التنبيه إلى الخطأ الذي ورد في تقرير البصائر عن الاحتفال، وهو أنّ الكاتب ظن أنّ الشيخ الطيّب وعمارة هو رئيس زاوية عبد الرحمن اليلولي، والواقع أنّ شيخها هو الرزقي الشرفاوي، أما الطيّب وعمارة فهو شيخ زاوية أحمد بن إدريس البجائي القريبة من الزاوية الأولى.

وبعدها ألقى الأستاذ أحمد بن زكري كلمة قصيرة ركّز فيها على أهمية الزوايا بالزواوة، ودعا الناس إلى تقديم المساعدة لها حتى تستطيع تغطية نفقاتها الكثيرة، والقيام بدورها¹، وحسب شاهد عيان، فإنّ خطاب ابن زكري لم يستغرق سوى بضع دقائق على الأكثر، لكنّه هزّ القلوب بفصاحته، ومما خاطب به سامعيه، بعد وصفه لمحاسن الطّبيعة في جبال جرجرة، قوله: « ما أعلى هذه الجبال الشّامخة التي أنجبت ابن معطي، وأحمد بن إدريس أستاذ ابن خلدون، وكم أتمنى أن تكون لطلبة اليوم قلوبٌ تجذبهم إلى العلو حتى يكونوا كهذه الجبال العالية الرّاسخة »²! لكن الغريب أنّ الشّيخ ابن زكري لم يتكلم شيئاً عن صديقه الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، ولا عن ختمه لمختصر خليل³ وهما موضوعا الحفل!

في الأخير نشير إلى أنّ الصّورة المخلّدة لهذا الاحتفال التاريخي⁴، تُظهر كثافة الجمهور الذي حضر هذا الحدث العلمي في تلك الجبال النائية، وهذا يدلّ دلالة قاطعة على القيمة التي كان يعطيها الناس للعلم والعلماء، ولمثل هذه التظاهرات العلمية في ذلك الزمان.

¹ - الأرشيف الوطني لما وراء البحار، تقرير قايد عرش إبلولة "العربي" المؤرّخ في: 19 جوان 1938م. وقد وصف ابن زكري بـ (الصديق الأكبر لفرنسا؟!).

² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/22م.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - أنظر الملحق رقم: 17، ص 318.

ثانياً - طلبة الشرفاوي في الزاوية

1- تعداد الطلبة

لقد أتاحت لي الكثير من التقارير التي عثرت عليها في الأرشيف الفرنسي التعرف على تعداد طلبة زاوية عبد الرحمن اليلولي خلال سنوات تولي الشيخ الشرفاوي التدريس بها، والملاحظ هو أنّ عددهم كان لا يقل، في الغالب، عن مائة طالب في كل موسم دراسي¹، وكثيرا ما كان عددهم أكثر من ذلك. فعلى سبيل المثال، في سنة 1935م كان عددهم 127، وفي سنة 1940م 120، وفي سنة 1942م 139، وفي سنة 1944م، وهي السنة التي توفي فيها الشرفاوي كان بالزاوية 130 طالباً². وما دام الشيخ قد أمضى في هذه الزاوية مدرساً أكثر من عشر سنوات، فلنا أن نقدر أنّ تلاميذه قد بلغوا المئات. ويُستخلص من هذه الأرقام أنّ الزاوية قد ظلّت عامرة حتى في سنوات الحرب العالمية الثانية، بل إنّ العديد من طلبة الإمام ابن باديس أمثال الشيخ العربي بن عيسى والشيخ عبد الحميد بن حالي، قد اختاروا - بعد وفاة أستاذهم في بداية الحرب - هذه الزاوية لمواصلة دراستهم لوجود الشيخ الشرفاوي فيها³. والذي لا شك فيه، هو أنّ الزاوية في زمن الشيخ الشرفاوي قد أصبحت معهداً علمياً له شهرته، يقصده الطلاب من مختلف جهات الوطن، حتى أنّ التقارير الفرنسية كثيرا ما أشارت إليها كأكثر الزوايا ازدهارا في منطقة القبائل، وأكثرها جذبا للطلبة⁴.

2- أعمار الطلبة وجهاتهم

¹ - الأرشيف الوطني لما وراء البحار، العلية الخاصة بزوايا بلدية سيباو الأعلى المختلطة:

(A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

² - شمل التجنيد الاجباري أثناء الحرب العديد من طلبة الزاوية منهم مثلا: الطيب صديقي الذي أصبح رائدا خلال الثورة التحريرية، والحاج محند السعيد أمقران الذي ما يزال على قيد الحياة (ستأتي ترجمتهما لاحقا).

³ - محمد الصالح الصديق في شهادته وكتاباته.

⁴ - الأرشيف الوطني لما وراء البحار، العلية الخاصة بزوايا بلدية سيباو الأعلى.

(A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

حسب تقرير يعود إلى سنة 1935م، فإنّ أعمار الطّلبة الذين كانوا في زاوية عبد الرّحمن اليلولي تتراوح بين 12 و30 سنة، جاؤوا من مناطق مختلفة، وهي: عزازقة، أزفون، تيقزيرت، دلس، عبو، برج منايل، ذراع الميزان، ميرابو (ذراع بن خدة)، فورناسيونال (الأربعاء ناث إيراثن)، مايو (مشدالة)، أقبو، مَجّانة، سطيف، برج بوعريريج، لافاييت (بوقاعة)، سيدي عيش، البيان¹.

والملاحظ هنا، هو أنّ طلبة الزاوية ينتمون - بتعبير ذلك الوقت - إلى عمالتي الجزائر وقسنطينة، وخاصة منطقة القبائل الصّغرى والكبرى، وتفسير ذلك أنّ الزاوية تحتل مكانا وسطا بين جهتي منطقة القبائل، ما جعلها تستقبل الطّلاب من هنا وهناك.

3- ترجمة لأبرز الطلبة

إنّ طريقي هنا هي كالاتي: أُعطي نبذة موجزة عن حياة الطّالب، ثم أذكر ما تعلق بدراسته عن الشّيخ من حيث المدة الزمنية والعلوم التي درسها عنه، ومدى تأثره بشيخه. وكل هذا في حدود ما توافر لدي من معلومات، جمعتها من مصادر مختلفة ومن شهادات شفوية. وبخصوص بعض الطلبة اكتفيت بذكر أسمائهم والجهات التي ينتمون إليها لغياب المعطيات التاريخية عنهم.

- الأستاذ محمد الصّالح الصّديق: من مواليد سنة 1925م بقرية "أبزار"، بولاية تيزي وزو. حفظ القرآن الكريم قبل أن يُتم التاسعة من عمره على يد والده الشّيخ البشير آيت صديق الذي كان إماما بمسجد القرية، وحفظ تحت إشراف والده أيضا الكثير من المتون والقصائد الشّعريّة، وهو ما يشهد له بالنبوغ والذكاء وقوة الحافظة. وباقتراح من زوج أخته الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي ألحقه والده بزاوية سيدي عبد الرّحمن اليلولي، حيث لازم دروس الشّيخ لمدة تربو عن ستة أعوام²، فكان للأستاذ - رغم صغر سنّه - من شيخه محصول فكري وافر.

يروى الأستاذ بنفسه كيف التحق بدروس الشّيخ الشّرفاوي، فيقول: « بعد أن أنهيت حفظ القرآن الكريم، وحفظتُ كمّا هائلا من الشّعر، ومجموعة كبيرة من المتون في البيت تحت إشراف

¹ - تقرير قايد دوار إبلولة إلى حاكم بلدية سيباو الأعلى، بتاريخ: 1935/07/29م:

(A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

² - التحق بالزاوية في أواخر سنة 1937م، وبقي بها إلى وفاة الشّيخ الشّرفاوي في آخر سنة 1944م، غير أنّ إحدى هذه الأعوام كان الشّيخ الشّرفاوي غائبا عن هذه الزاوية.

والدي، وكان ذلك قد أرهقني، وصرت لا أنام ولا أكل إلا قليلا، ووَهَنَ جسمي حتى صرت نحيفا ضعيفا هزيلا، واعترتني حالة من الملل والكلل وكراهية القراءة والحفظ.. في هذه الفترة زارنا صهرنا الشيخ الرزقي الشرفاوي، فحدّثه والدي عن حالتي الصّحية، وعما أحفظه من القرآن والقصائد والمتون، فناداني الشيخ وأجلسني بجانبه الأيمن، وأخذ يختبر حفظي، فكان التوفيق حليفي، وهنا ركّز الشيخ بصره في برهة، ثم قال لوالدي: كثير عليه هذا، فالواجب أن يتفرّغ الآن لدراسة العلم واللّغة، وبعد كلام في الموضوع اتفقا على أن يأخذني معه في السنّة المقبلة إلى زاوية عبد الرحمن اليلولي التي يُدرّس فيها، وقال له: إنّ هذا سيخرجه مما هو فيه من وهن، وكراهية للقراءة..¹»

ويذكر الأستاذ أنّه بعد أن انتظم في سلك الطّلبة، وأصبح واحدا منهم، دعاه الشيخ إلى حجرته، فزوّد بتوجيهات بقيت تعمل عملها في نفسه، وعن ذلك يقول: «.. وجّهني توجيهات فاعلة لا أنساها مدى حياتي، أذكر منها أنّه وصف لي الوقت بأنّه هو عمر الإنسان فمن ضيّعه ضيّع عمره. ثم قال: حاول ما استطعت أن تستغلّه وتبني به الحياة الفضلى علميا وأديبا وخلقا وسلوكيا. وأضاف قائلاً: أنت الآن حفظت القرآن، وحفظت كل ما ينبغي حفظه من متون العلماء، وشعر الشعراء، وبقي عليك الفهم، وفهم ما حفظت يكون بمواصلة الدراسة. ثم قال لي: بداية من الغد تحضر جميع الدروس التي ألقياها، فبعضها تحضره للفهم وبعضها ليتدرب عقلك وأذنك على اللّغة و(للتبرّك) به أيضا..²»

استجاب الطّالب لشيخه، فكان يحضر كل دروسه التي تستمر من شروق الشّمس إلى ما قبل صلاة العشاء، وظل على هذه الطريقة شهورا، وعندما نُقلت عليه الدروس لكثرتها، وللبعد الشّاسع بينيه وبين بعضها، تشجّع الطّالب، وطلب من الشيخ أن يُعفيه من الدروس التي يدرسها للتبرّك والتمرّن فوافقه، فاكتفى بدروس النحو والصّرف والبلاغة والمنطق التي كان يحبها ويدرسها دراسة واعية³، أما دروس التفسير فلم يحضرها إلا مرتين⁴.

1 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/05/18م.

2 - المصدر نفسه.

3 - المصدر نفسه.

4 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

ويذكر الأستاذ محمد الصّالح أنّه أعفي من كل الأعمال التي كان يتداول القيام بها طلبه الزاوية¹، فكان بذلك محظوظاً، حيث تفرّغ للدراسة، وتوفّر له الوقت أكثر من غيره، لذلك لم يمضِ إلاّ وقت قصير على تاريخ انتسابه لهذه الزاوية حتى أصبح - مع صغره - من الطلبة المساعدين للشيخ في التدريس، إذ كلفه بإعطاء دروس للطلبة في النحو والبلاغة والصّرف².

وعن تجربته هذه في التعليم يقول في مذكراته: « قمت بهذه المهمة قرابة أربعة أعوام، وعمري لا يتجاوز الخامسة عشرة سنة، وأصغر الطلبة الذين يحضرون درسي لا يقل عن عشرين سنة، وربما تسأل الشيخ الرّزقي من حجرته إلى مكان درسي للوقوف على طريقتي في الدرس، ومدى فهمي للموضوع الذي أعالجه.. وقد أنهيت بهذه المنهجية وهذه الطريقة، ألفية ابن مالك مراراً، ولامية الأفعال، وجوهرة التوحيد، والسّمرقندية وغيرها³.

ويبدو أنّ الأستاذ قد انتفع بالشيخ الشّرفاوي انتفاعاً كبيراً، في الأدب والنحو واللّغة، وهذا لذكائه الخارق، وحافظته القوية التي كانت تحتزن الكثير من المتون والشّعر وغيرها، وأسرته التي وفّرت له جواً علمياً مساعداً، ولأنّ الشيخ كان دائماً وراءه بالنّصح والتّوجيه، والحثّ على القراءة والاجتهاد، إذ كان الشيخ يتوقع له مستقبلاً علمياً زاهراً، وقد لقّبه بـ "سببويه القرن العشرين"⁴، لتمكّنه في قواعد اللّغة العربية، وكان يعتزّ به، ويشيد به أمام الطلبة ويقول - محفّزاً لهم ومشجعاً - : « كونوا مثل هذا (الصّدّيق) »⁵!

ولأنّ الشيخ الشّرفاوي قد زرع فيه حبّ العلم⁶، وكان له - كما قال - : « ضوءاً هادياً، ونموذجاً متميّزاً للاقتداء »⁷، فقد قرّر بعد وفاة شيخه مواصلة دراسته، فسافر إلى تونس

¹ - كان قانون الزاوية يُعفي أبناء الشيخ أو من يقوم مقامهم - كطالب يأتي به من أقاربه أو أصدقائه أو معارفه - من كل عمل سواء داخل الزاوية أو خارجها، ولما لم يكن للشّرفاوي ابن قام هو مقام ابنه فأعفي من كل عمل. محمد الصّالح الصّدّيق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 135-136.

² - محمد الصّالح الصّدّيق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/11/07م.

³ - محمد الصّالح الصّدّيق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 163.

⁴ - نكر لي هذا الأستاذ محمد الصّالح الصّدّيق نفسه، وأيضاً: الشيخ يحيى التّومي المشدالي، وهو من طلبه الشّرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/18م.

⁵ - محمد الصّالح الصّدّيق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/11/07م.

⁶ - محمد الصّالح الصّدّيق، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/05/18م.

⁷ - محمد الصّالح الصّدّيق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 197.

رفقة محمد نسيب، رفيق العمر كما يسميه، والتحقا معاً بجامع الزيتونة، وكان سفرهما إلى تونس مغامرة لا تقل خطورة عن تلك التي خاضها من قبل شيخُهما حين التحق بالأزهر الشريف¹، في زمن كان الاستعمار يهيمن على البلاد، ويُحصي أنفاس العباد! وفي جامع الزيتونة بدأ الشيخ محمد الصالح دراسته مباشرة من السنة الثالثة، وقد اندهش أعضاء لجنة الامتحان من مستواه في البلاغة والنحو واللغة، ويعترف الأستاذ أنّ دروس شيخه في الزاوية كان لها أثرها البالغ في تكوينه وإعداده خير إعداد للدراسة بجامع الزيتونة²، وقد أنهى دراسته بتفوق، وتوجّها بشهادة التحصيل سنة 1950م، وعاد إلى الجزائر وانتصب مدرساً بزاوية عبد الرحمن اليلولي.

التحق بالثورة التحريرية منذ اندلاعها، حيث كُلف بجمع الأموال والأسلحة، فاستمر يعمل لصالح الثورة سراً حتى انكشف أمره، فقررت قيادة الثورة إرساله إلى الشرق عن طريق فرنسا، وكان ذلك في ربيع سنة 1956م، وظل يخدم الثورة في ميدان الإعلام والسياسة والدبلوماسية إلى غاية تحقيق النصر في 1962م، فعاد إلى الجزائر ليستأنف جهاده في ميدان التربية والتعليم، والعطاء الفكري الذي ما يزال مستمرا، وليحقق أمنية طالما راودته، وهي أن يصير كاتباً كبيراً، وأن لا يموت حتى يكتب عشرات الكتب، وقد بلغت مؤلفاته - عند كتابة هذه السطور - الأربعين كتاباً بعد المائة³، في مجالات مختلفة، في الأدب العربي، وفي القرآن والحديث والسيرة النبوية، وفي العقيدة والأخلاق، وفي التاريخ والشخصيات الفكرية والعلمية⁴. وهو يعترف - بعد هذا المجد العلمي الذي بناه عبر سنين طويلة من الجهد المتواصل - بفضل تلك السنين التي قضاه في حلقات أستاذه الرزقي الشرفاوي الأزهري بزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي، فيقول: «.. في هذه الزاوية بنيت أرضيتي لمستقبلي العلمي، بدراستي على هذا العالم دراسة منهجية منظمة، قوامها التوجيه

¹ - عن هذا السفر وما اكتتفه من مخاطر وظروف، أنظر كتابه: رحلتي مع الزمان، ج 1، ص 197 وما بعدها.

² - رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 163.

³ - أول كتاب ألفه هو (أدباء التحصيل)، صدر له وهو ما يزال طالبا في جامع الزيتونة، وآخر كتبه المطبوعة: (في شريط الذكريات)، أربعة أجزاء في مجلدين ضخمين، أصدرتها دار هومة في سنة 2016م، وله تحت الطبع: (مدارس، لولاها ما كنت)، وهو الآن بصدد تأليف كتاب عن الشهيد الشيخ الطاهر آيت عيسى.

⁴ - حياة الأستاذ خصبة وثرية، ومساره النضالي حافل بالإنجازات، ولمن أراد المزيد عنه فليراجع كتبه، خاصة مذكراته، (رحلتي مع الزمان) نُشرت في مجلدين سنة 2010م، وكتابه (في شريط الذكريات)، نُشر في أربعة أجزاء سنة 2016م.

الصَّحيح، والنُّصح الدائم..¹ وفي موضع آخر يعترف أيضا بتأثير شيخه فيه فيقول: « إنَّ ما كنتُ أسمعُه عن الشَّيخ الشَّرْفَاوِي كان من أقوى العوامل في توثيق صلتِي بالعلم وبالكتب، ومن أقوى الحوافز التي دفعتني إلى الجهاد في سبيل العلم والمعرفة، والجهاد بالفكر والقلم بلا كسل أو انقطاع»².

وبعد أن عرفنا فضل الأستاذ الشَّرْفَاوِي على طالبه محمد الصَّالِح الصَّدِيق، بقي أن نشير إلى أنَّ لهذا الأخير أيضا فضلا على أستاذه، ذلك أنَّ الطَّالِب الذي أصبح بدوره أستاذا، كان له الفضل الأكبر في التعريف بسيرة شيخه وآثاره وجهاده الفكري، فلولا كتاباته في هذا المجال ل بقي هذا العالم مجهولا مغمورا، مع العلم أنَّه أكثر الناس أهلية للكتابة عنه، بحكم علاقة المصاهرة التي بينهما، فضلا عن ملازمته له في الزاوية كطالب لعدة سنوات كما ذكرنا. وقد سألته في إحدى جلساتي معه عن فكرة الكتابة عن شيخه فقال: « إنَّ الداعي لكتابة مقالي حول الشَّيخ الرَّزْقِي في مجلة (الثَّقافة)³، هو أنَّ للشَّيخ مقاما وقيمة، ولكنه مع الأسف الشَّدِيد كان مجهولا عند جَلِّ المثقَّفين. وحين افْتُحِ مسجد في مدينة تيزي وزو⁴، وسُمي باسم الشَّيخ الرَّزْقِي الشَّرْفَاوِي، أصبح النَّاس يسألون عنه، لذلك رأيت أن أتحدَّث عن هذا الرَّجُل لأرفع عنه السَّتار في هذه المجلة التي كانت إذ ذاك ذائعة الصَّيت، ثم رأيت أن لهذا المقال أثرا واسعا وعميقا في مختلف الأوساط، فحدَّثتني نفسي بإعداد كتاب عنه، فكان الكتاب⁵ الذي خصَّصته لحياة وآثار الشَّيخ الشَّرْفَاوِي..»⁶.

والواقع أنَّ هذا الفضل المتبادل بين هذين الرجلين العالمين، هو الذي جعلني أضع الأستاذ محمد الصَّالِح الصَّدِيق، أطل الله عمره، في طليعة طلبة العلامة الشَّيخ الرَّزْقِي الشَّرْفَاوِي الأزهري رحمة الله عليه.

1 - محمد الصَّالِح الصَّدِيق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 15.

2 - محمد الصَّالِح الصَّدِيق، في شريط الذِّكريات، ج 2، مرجع سابق، ص 440.

3 - المقال بعنوان: "الأستاذ محمد الرَّزْقِي الشَّرْفَاوِي"، العدد 22، أوت- سبتمبر 1974م، ص 9- 22.

4 - تم تدشينه يوم الجمعة 13 جمادى الثانية 1393هـ، الموافق 13 جويلية 1973م، أثناء انعقاد الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي بمدينة تيزي وزو.

5 - صدر الكتاب في الجزائر سنة 1998م، وتولت درا الأمة طبعه.

6 - محمد الصَّالِح الصَّدِيق، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/05/18م.

- الشيخ مكي النعماني: (1918- 1999م)، من بلدية عين بسام، ولاية البويرة. حفظ القرآن الكريم على يد والده الذي كان معلماً، ثم درس مبادئ العربية والفقهاء على يد عمه عبد القادر الذي كان يدير زاوية سيدي موسى في منطقة "المعائقة" بالقبائل الكبرى، ثم تغرب في سبيل العلم، فأمضى ما يقرب من عشر سنوات في طلب العلم ما بين قسنطينة وتونس، حيث نال شهادة التحصيل من جامع الزيتونة في جويلية 1939م¹. وفي حدود سنة 1940م التحق بزاوية عبد الرحمن اليلولي أين حضر دروس الشيخ الرزقي الشرفاوي، مدة سنتين². وبعدها اشتغل معلماً في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وزاول نشر الدعوة إلى الإصلاح الديني بالعاصمة وضواحيها من سنة 1942م حتى سنة 1954م، ثم اندمج في صفوف ثورة التحرير بالولاية الرابعة حتى 1957م، ثم بالحدود المغربية بالولاية الخامسة حتى وقف إطلاق النار. بعد الاستقلال اشتغل مستشاراً تربوياً ثم أستاذاً للتاريخ والجغرافيا في ثانوية بالعاصمة إلى سنة 1985م، حيث تقاعد وتفرغ للكتابة³، فرحل تاركاً آثاراً علمية تشهد له بالكفاءة في مجال العلم والكتابة، وهي:

- (السيرة النبوية) في جزأين.

- (الخلافة بين الأصالة والحداثة)، في جزأين أيضاً.

يحدثنا الشيخ النعماني عن التحاقه بدروس الشيخ الشرفاوي فيقول: « عُدْتُ إلى مسقط الرأس بعد ملء الوفاض من العلم النَّافع، والخُلُق القويم، لكن وجدت القرآن قد بدأ ينفلت مني فعزمت على مراجعته، فقصدت معهد الشيخ عبد الرحمن اليلولي، أشهر زوايا زاوية على الإطلاق في القرن الأخير، فاستقبلني طلبته - أكرمهم الله - بالترحاب، وأعفوني من كل واجبات العمل المعروفة عندهم، ووجدت يومئذٍ أستاذ المعهد شيخنا الجليل العلامة الشيخ الرزقي الشرفاوي، خريج الأزهر. إنَّها بالنسبة لي فرصة لا تعوّض، فكنت أسرد القرآن مراجعة، وأعطي درسا لبعض الطلبة في العربية والفقهاء والمنطق، وكان منهم صديقنا المجاهد الكريم محمد الصالح الصديق، صهر الأستاذ الشرفاوي.. وكنا نجتمع مع أستاذنا الفاضل، وكان فيّاضاً يهب من فيضه كلاً حسب حاله، ووفق استعداده.. وتفضّل علينا بدراسة القرآن

¹ - نسخة من الشهادة عثرنا عليها ضمن أوراق الشيخ مكي النعماني، أطلعني عليها مشكورا ابنه الدكتور محمد نعماني.

² - أوراق كتبها الشيخ مكي النعماني بيده مؤرخة في 19 جويلية 1986م، أمدني بها مشكورا ابنه الدكتور محمد نعماني، والظاهر أنّ الشيخ مكي أعدّها للأستاذ الباحث نصر الدين عليّة بطلب من هذا الأخير.

³ - معلومات عن حياته وردت على ظهر كتابه: الخلافة بين الأصالة والحداثة، ج 2، منشورات دحلبي، الجزائر، د.ت.

الكريم بتفسير الألوسي، وكانت لي معه جولات حيث كنت أناقشه في تلك المذاهب التي ما أنزل الله بها من سلطان، وفي مفهوم بعض الآيات المحتملة لعدد من التأويلات والمفاهيم، وكانت المناقشة تشتد أحيانا، وكان رحمه الله يتحمل مني كل ذلك بصدر رحب مما زادني فيه حبا وله احتراما، وفي ختام كل جولة متعبة كنت أسترضيه فيرضى عني، ويشجعني على استخدام حرية العقل ما دمت محصنا بالكتاب والسنة مما أثر في نفسي أشد الأثر..¹

لقد أعجب الشيخ النعماني بالشيخ الشرفاوي ودروسه في التفسير، وكان يرى فيه « ناديا متقلبا، فيه ما تشتهي الأذواق والعقول »²، و« كتلة متحركة من الإخلاص والعمل والتفاني في النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين »³. فاستفاد من علمه، كما تأثر بأخلاقه، وبقي على صلة وطيدة به حتى بعد مغادرته للزاوية. وتدل رسالة وجهها إلى أحد أصدقائه على تأثره البالغ لوفاة شيخه، إذ جاء في رسالته: « أما مصائبى الحمراء، فانتقال أستاذي الجهد السيد محمد الرزقي الشرفاوي من هذه الدار إلى دار البقاء، في وقت تحتاج إليه الجزائر أشد الاحتياج، ورحلة ذلك المؤرخ العبقرى الأستاذ مبارك الميلي إلى رحمة الله.. فأنا لأجلهما كدت أفقد رشدي »⁴.

ويذكر الأستاذ محمد الصالح الصديق أنّ الشيخ النعماني، لما سمع بوفاة الشيخ الشرفاوي، كتب إليه رسالة التعزية ومعها خطاب بليغ في رثاء الشيخ، يعدد فيه مآثر الشيخ ومناقبه، ويُشيد بعلمه الواسع وجهاده الفكري الطويل، ويذكر جهل الطرقيين ومحاربتهم له في منطقة القبائل، وطلب منه في هذه الرسالة أن يُبلِّغ تعازيه إلى المجلس الإداري في الزاوية، وأن يطلب - باسمه - منه أن يجمع الطلبة كلهم، وأن يتولى قراءة الخطاب عليهم، فكان الأمر كذلك⁵. ويضيف الأستاذ محمد الصالح أنّ من معاني الخطاب التي رسخت في ذاكرته، وقد ضاعت منه الرسالة، ما مؤداه: إنّ شيخكم قد رحل عنكم بعد أن أدّى رسالته على أحسن وجه وأكمله، ولكنه سيظل في قبره يتابع مسيرتكم العلمية، فسيريح من جاهد منكم في سبيل العلم، فلتواصلوا جهادكم على النهج الذي ترككم عليه، وليحاول

1 - من أوراق الشيخ مكي النعماني، مصدر سابق.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

4 - رسالة مخطوطة من الشيخ مكي النعماني إلى صديقه الحاج عيسى، مؤرخة في 14 ربيع الآخر 1364هـ.

5 - محمد الصالح الصديق، في شريط الذكريات، ج 2، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 445.

كل واحدٍ منكم أن يكون الشَّيخ الرَّاحِل في علوِّ همَّته، وسعة علمه، وحبِّه لوطنه، وضموده وتضحيته¹.

نشير في الأخير إلى أنَّ الأستاذ محمد الصَّالح الصَّديق، ما كتب عن طلبة الشَّيخ الشَّرفاوي أو تكلم عنهم، إلَّا وأورد في مقدمتهم الشَّيخ مكي النعماني، لأنَّ هذا الشَّيخ - حسبه - هو: « أبرز الطلبة إذ ذاك فهما وإدراكا واستيعابا، وقدرة على مواكبة الشَّيخ (الشَّرفاوي) في تحلُّقه في فضاءات العلم، وغوصه في أعماق القرآن الكريم بتفسير الإمام الألوسي.. »². كما لا يفتأ يذكر أنَّه قد انتظم في حلقة الشَّيخ النعماني بالزاوية وانتفع بدروسه في اللُّغة³.

- الشَّيخ العربي بن عيسى: (1912-1953م)، من قرية آيت داود، بلدية إعطافن، ولاية تيزي وزو. بدأ دراسته في زاوية سيدي علي أوطالب، ثم انتقل إلى قسنطينة ودرس على يد الإمام ابن باديس الذي أطلق عليه لقب "القمقوم" لتضلُّعه في اللُّغة العربية وآدابها، كما درس فترة وجيزة بجامع الزيتونة بتونس، وفي حدود سنة 39 أو 1940م التحق بزاوية سيدي عبد الرَّحمن اليلولي لحضور دروس الشَّيخ الرزقي الشَّرفاوي. اشتغل بالتعليم في العديد من المدارس الحرَّة التابعة لجمعية العلماء، في منطقة القبائل وخارجها⁴، كما درَّس بزاوية شرفة بهلول وسيدي أحمد بن إدريس. وإلى جانب اللُّغة العربية التي كان ضليعا فيها ويحبها، كان يتقن اللُّغة الفرنسية ويعرف اللُّغة الإيطالية التي تابع دروسا ليلية فيها بأحد المعاهد الإيطالية بتونس. قال عنه المرحوم الشَّيخ أحمد حماني: كان الفقيد طيِّب السَّريرة، حميد السَّيرة، يتقن العربية والفرنسية، ويعرف الإيطالية، مجتهدا في عمله، محبا لدينه ولغته ووطنه⁵.

1 - نفسه.

2 - محمد الصَّالح الصَّديق، الشَّيخ الرزقي الشَّرفاوي، مرجع سابق، ص 85.

3 - محمد الصَّالح الصَّديق، رحلتي مع الزمان، ج 2، ص 279. وفي بعض شهاداته.

4 - في قسنطينة وباتنة وأقبو وبمسقط رأسه، وبوهران والبلدية، لذلك يصعب تحديد فترة وجوده في كل مدرسة. وحسب ابنه السيِّد العربي بن عيسى، وهو أستاذ بجامعة هواري بومدين بالجزائر العاصمة، فإنَّ والده كان كثير التنقل من مدرسة إلى أخرى بسبب مضايقة فرنسا له! (ملاحظة: وُلد الأستاذ المذكور بعد وفاة والده بـ 40 يوما فسُمي باسم أبيه).

5 - أحمد حماني (رئيس المجلس الإسلامي الأعلى)، شهادة بالأقدمية في التعليم العربي الحرّ، محررة وموقَّعة بالجزائر بتاريخ: 1984/12/15م.

يصف الأستاذ محمد الصّالح الصّديق التحاق الشّيخ العربي بزواوية عبد الرّحمن الليولي فيقول: «.. في إحدى الأمسيات شاع في أوساط الطّلبة أنّ طالبا التحق بالزواوية في هذا المساء يُدعى الشّيخ العربي، ولقّبه الشّيخ الإمام ابن باديس بـ "القمقوم" لتضلّعه في العلوم العربيّة، وأخذ الطلبة يتحدّثون عن هذا الطّالب الذي حاز هذه المكانة عند ابن باديس.. استقبله الشّيخ الرّزقي ورحّب به كثيرا، وتحدثا طويلا عن جهاد الإمام ابن باديس العلمي والإصلاحي.. حسبما نكر للطلبة إثر خروجه من حجرته. وتحدث الشّيخ العربي في ملاٍ من الطلبة الكبار عن إعجابه بالشّيخ الرّزقي، وسعة أفقه العلمي، ورهافة حسّه، وشدّة يقظته لما يُنصب للإسلام والمسلمين من مكائد، وما يُراد له من عواقب وخيمة!..»¹.

ونظرا لمكانة الشّيخ العربي العلمية، فقد عامله الطلبة معاملة الشّيخ، فأعفوه من جميع الأعمال التي يقوم بها الطلبة، وأسندوا إليه بعض الدروس، فكان خلال فترة وجوده في الزواوية يحضر دروس الشّيخ الشّرفاوي، وفي الوقت ذاته يُعيّنه بتقديم بعض الدروس في الأدب العربي. ويذكر الأستاذ محمد الصّالح، زميله في الزواوية وتلميذه في حلقة الأدب، أنّ الشّيخ العربي كان معجبا بالشّيخ الشّرفاوي، وكان يقول للطلبة: « إنّ هذا الشّيخ مثل مصباح كبير وُضع في غير مكانه »²! ويذكر أيضا أنّ الشّيخ العربي التزم حضور ثلاثة دروس على الشّيخ الشّرفاوي هي: التفسير، والحديث، والفقه، وكان يهتم بهذه الدروس اهتماما كبيرا، ويستعدّ لها بالتهيئة الكاملة، إذ كان مثالا يُحتذى به في حبّ العلم، والسّلوك القويم، والمحافظة على الوقت واستغلاله³. ورغم قصر المدة التي أقامها في الزواوية، فإنّه كان يشيد بفضلها عليه، ويقول: « إنّها من أخصب فترات العمر »⁴، للفائدة التي جناها من دروس شّيخه.

لما توفي الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي في 27 ديسمبر 1944م، أبّنه الشّيخ العربي بخطاب مؤثّر، وأمّ الصّلاة عليه، وكان إذ ذاك مدرّسا بزواوية شرفة بهلول، وهي الوظيفة التي عُيّن فيها قبل ذلك بنحو عام⁵.

1 - محمد الصّالح الصّديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 106 - 107.

2 - نفسه، ص 108.

3 - نفسه، ص 108 - 109.

4 - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 87.

5 - يفيد تقرير فرنسي مؤرّخ بـ: 1944/02/22م، بأنّ الشّيخ العربي تولى التدريس بالشّرفة منذ منتصف ديسمبر

1943م. الأرشيف الوطني لما وراء البحار: (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

- الشيخ عبد الحميد بن حاليه: وهو من بني حالة، ببني ورتيلان. درس سنوات بزواية سيدي أحمد بن يحيى، وعن ذلك يقول: « ذهب إلىها وأنا حافظ للقرآن الكريم، ومكثت بها سبع سنين.. قرأت خمس ختمات في مصنف خليل، وخمس ختمات في مصنف الأجرومية.. وجوّدت العاشر كما يسمونه تجويدًا، بهتانًا وزورًا، لا أكنم القارئ بأنّي لا أفهم من الفقه ولا من النحو إلا اسميهما، وأما التجويد فإنّي أصيح كما يصيح (الطاووس)..! «¹. التحق بعد ذلك بالجامع الأخضر بقسنطينة، أين درس عن الإمام ابن باديس سنوات، وعندما توفي الإمام، وسمع بوجود الشيخ الشرفاوي الأزهري بزواية عبد الرحمن اليلولي التحق بهذه الزواية ليتم دراسته، فكان يحضر دروس الشيخ الشرفاوي، وفي الوقت ذاته يُعينه بتقديم دروس في البلاغة لبعض الطلبة². أما عن حياته بعد ذلك، فلا نعرف منها إلا كونه عاش الثورة والاستقلال، وتوفي في آخر القرن الماضي.

وصفه الأستاذ محمد الصالح الصديق الذي حضر عليه دروسا في البلاغة فقال: «.. خافت الصوت، يُحب الإمام ابن باديس ويتشيع له، وعندما درس على الشيخ الشرفاوي أصبح يتشيع له أيضا، لأنه عرف قيمته.. «³. وقال عنه في شهادة أخرى: « هو من الطلبة النجباء، يحترم الشيخ الشرفاوي احتراما لا نظير له، لأنه تخرّج عن الشيخ ابن باديس، فهو يعرف قيمة العلماء، وكان يقول لنا بلهجة صادقة: ليت الطلبة يعرفون قيمة هذا الشيخ - يقصد الشرفاوي- فينتفعون به، ويغتنمون فرصة وجودهم معه.. «⁴.

وقال عنه في أحد كتبه: «.. كان واسع العلم، وخاصة في اللغة وقواعدها، وكان عميق التفكير، هادئ الطبع، عالي الأخلاق، يميل إلى التصوّف، ويحلو له أن يعتزل الناس للتفكير في آيات الكون، لاسيما والوسط الجغرافي الذي فيه الزاوية يُعين على ذلك «⁵.

وكثيرا ما ذكر لي الأستاذ محمد الصالح أنّ هؤلاء الشيوخ الثلاثة: الشيخ بن حاليه، والشيخ العربي بن عيسى، والشيخ مكي النعماني، كانوا مصابيح بين طلبة الشيخ

¹ - عبد الحميد بن حاليه، "التعليم بالزوايا"، البصائر، عدد 145، 23 ديسمبر 1938م.

² - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/11/07م.

³ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2016/08/01م.

⁴ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/04/02م.

⁵ - محمد الصالح الصديق، في شريط الذكريات، ج 2، مرجع سابق، ص 439.

الشرفاوي، وكانوا كلهم يعيدون للطّلبة، وأنّ الشّيخ الشرفاوي كان يُظهر اهتمامه بالدرس لوجود هؤلاء الوعاة الذين يفهمون عنه أكثر مما يفهم الآخرون¹.

- الشّيخ العربي سعدوني²: (1923 - 1992م)، من "سيدي إبراهيم"، دائرة البيان، ولاية برج بوعريّيج حاليا. حفظ القرآن الكريم على يد والده الشّيخ السعيد سعدوني الذي عاجلته المنية، فصار الولد يعاني اليتيم والبؤس. في سنة 1939م التحق بزواوية عبد الرّحمن اليلولي لمراجعة القرآن وتجوّيده، وهناك عكف، ولمدة ثلاث سنوات، على دروس الشّيخ الرزقي الشرفاوي، ودروس طلبته المعيّدين. التحق بعد ذلك بزواوية الشّيخ الحمالوي بقسنطينة لمدة عامين، ثم بطلبة الإمام ابن باديس الذين نُقلوا إلى تبسة بعد وفاة الإمام، لبعض الوقت، ثم التحق بجامعة الزيتونة أين حاز على (شهادة التحصيل) سنة 1951م. وبعد عودته من تونس تولى التعليم في مدارس جمعية العلماء وأدار بعضها، ولما اندلعت الثورة التحريرية انخرط في خلاياها المدنية، وفي سنة 1957م التحق بالجبل، وبعد شهرين قضاها وسط جيش التحرير التحق بتونس، وأسندت له مهام سياسية وإعلامية، منها تحرير كلمة الجزائر التي كانت تُذاع يوميا عبر الأثير وكان يلقبها المرحوم عيسى مسعودي. لقد كان الشّيخ العربي سعدوني مثالا في الصّبر والاجتهاد والجِدّ والنشاط³، وكان الشّيخ الشرفاوي يرقّ له ويعطف عليه نظرا لفقره، وذكر زميل له في الدراسة أنّه كشف لشيخه يوما حاله، فقال له ما معناه: إنّ الفقر ليس بعار، وإنّما العار الفقر من الأداب والأخلاق⁴! ومما حفظه العربي عن شيخه وقد كتبه عنه، هذه الأبيات التي كان يتمثل بها، وهي للإمام الشافعي رحمه الله⁵:

عليّ ثيابٌ لو يُباع جميعُها * بفلسٍ كان الفلسُ منهنّ أكثرا
وفيهنّ نفسٌ لو يُقاس ببعضها * نفوس الورى كانت أعزّ وأكبرا
وما ضرّ نصلَ السيفِ إخلاقَ غمده * إذا كان عَضْبًا حيث وجّهته فَرًا

¹ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/16م، وفي مواضع عدة من كتبه.

² - عنه أنظر: محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2000، ص 153-159.

³ - أحمد قادري، ترجمة كتبها عن العربي سعدوني مؤرّخة في أبريل 1992م. (ضمن أوراق المرحوم أحمد قادري).

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 87.

⁵ - نفسه، ص 87.

ويُذكر عن الشَّيخ العربي أيضا أنَّه كان ذا أمل فسيح، وطموح لا حدَّ له، ورغبة في الحياة جامعة، ورغم ما كان فيه من فقر وضعف ذات اليد، وما كانت تعانيه البلاد من قهر الاستعمار وهيمنته، فقد كان يُكثر من مداعبة زملائه بقوله: « إنني سأكون مخترعا، أو مكتشفا، أو زعيما، وسيرى ذلك من لم يتعجّل الرّحيل منكم »¹! وبالفعل حقّق ما كان يحلم به في صغره، فتولى مناصب مرموقة في الجزائر المستقلة منها منصب وزير الأوقاف فيما بين: 1965-1970م².

- الشَّيخ محمد نسيب: (1924-2003م)، من قرية بني كوفي، ناحية بوغني ولاية تيزي وزو. عاش يتيم الأب، وتحدى حياة الفقر بمعونة أمه التي شجّعته على الدراسة تنفيذا لوصية والده الذي كان إماما ومعلما للقرآن، فالتحق بزاوية عبد الرّحمن اليلولي وهو في السادسة عشر من عمره، وهناك واصل حفظ القرآن، ثم أخذ يتابع دروس الشَّيخ الشرفاوي، غير أنّ هذه الفترة لم تطل بسبب وفاة الشَّيخ في آخر سنة 1944م³.

من الأحداث التي بقيت راسخة في ذهن الأستاذ نسيب، وظلّ يذكرها طوال حياته، مقابلته الأولى مع الشَّيخ الشرفاوي حين التحق بالزاوية، فقد كانت العادة الجارية أن يدخل الطالب الجديد إلى الشَّيخ في اليوم الثاني من وصوله للتعرف والتبرّك، ولينطلق الطالب في دراسته على ضوء توجيهات الشَّيخ وإرشاداته، فقد ذكر الطالب أنّ الشَّيخ سأله - حين وقف بين يديه - : عن مسقط رأسه ونشأته، وعما يحفظه من القرآن، وما حضر من الدروس في ماضيه، ولما ذكر له فقره وما تعانيه الأسرة من مشاق في سبيل الحياة، سأله الشَّيخ عن أمله في المستقبل، وعما يريد من وراء دراسته للعلم، ولما أجابه: أريد ألاّ أعيش كما عاش أبواي، ابتسم الشَّيخ وقال له: ولتخدم وطنك أيضا، ولتكن مُنّى الشَّاعر الذي قال:

مُنَايَ من الدنيا علومٌ أبْنُها * وأنشُرُها في كلِّ بادٍ وحاضرٍ
دُعَاءٌ إلى الكتابِ والسُّنة التي * تناسى رجالٌ ذكروها في المحاضرِ

¹ - محمد الصّالح الصّديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 2، مرجع سابق، ص 153.

² - من الوظائف التي اشتغل فيها أيضا: التعليم، المحاماة، سفير في سوريا (1970-1974م)، وعضو في المجلس الشَّعبي الوطني (1983-1987م).

³ - للمزيد عن حياته أنظر: محمد الصّالح الصّديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 1، مرجع سابق، ص 189 وما بعدها.

ولما وقف الشَّيخ على وضع الطالب المادي والنَّفسي وما عاناه من مشاق في طفولته، أوصاه هذه الوصية التي ظلت عالقة بذهنه: « إنَّ أكثر الذين فجَّروا طاقات الحياة، وصنعوا التاريخ، ودفعوا بعجلته إلى الأمام، كانوا إما فقراء، أو مرضى، أو تُعساء في حياتهم، إنَّما العزيمة القوية - يا بُني - هي التي تجعل البعيد قريباً، والحلم حقيقة، والعسير يسيراً، والمحال ممكناً¹».

هذا وقد واصل الطَّالِب - بعد وفاة الشَّيخ الشَّرْفاوي - تعليمه في جامع الزيتونة، ثم في جامعة الجزائر بعد الاستقلال، وتحصل على شهادة اللِّيسانس في الفلسفة، وقضى مساره المهني في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، وظل يخدم وطنه ودينه بقلمه إلى أن وافاه الأجل رحمه الله، مخلفاً آثاراً تخلد ذكره منها: مقالات في الصَّحف والمجلات، كُتبت عديدة أهمها: (زوايا العلم والقرآن في الجزائر)، (صرخات الحق المظلوم)، (الإسلام في منطقة القبائل)².

- الأستاذ المجاهد أحمد قادري: (1920 - 2010م)، من قرية سيدي إبراهيم، بولاية برج بوعرييج، بدأ تعليمه بمسقط رأسه ثم التحق بزواوية عبد الرَّحمن اليلولي في حوالي سنة 1936م، أين تتلمذ على الشَّيخ الشَّرْفاوي مدة لا تقل عن ستة أعوام³، درَّس بعد ذلك في العديد من مدارس جمعية العلماء، كما انخرط في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، والتحق بالثورة التحريرية في بدايتها، وفي 1958م عُيِّن عضواً في مجلس الولاية الثالثة، مكلفاً بالأوقاف على مستوى الولاية.

يُنكَّر المترجم له في بعض أوراقه أنَّه لُقِّب في أوساط الطُّلبة بـ "البصائر"، لاشتراكه في جريدة البصائر التي كانت تُصدرها جمعية العلماء⁴، وهو يعترف بفضل شيخه عليه وعلى الكثير من الطُّلبة الذين تتلمذوا عليه في زاوية عبد الرَّحمن اليلولي⁵.

¹ - نقل عنه هذه الوصية صديقه الأستاذ محمد الصَّالح الصَّدِّيق في كتابه: أعلام من منطقة القبائل، ج 1، مرجع سابق، ص 209 - 210.

² - الكتاب الأخير غير مطبوع، وقد حدَّثني عنه الأستاذ محمد الصَّالح الصَّدِّيق أكثر من مرَّة، وذكر لي أنَّ المؤلِّف توفي قبل أن ينهيه، وأنَّ المخطوط ما يزال بحوزة أحد الأساتذة الذي تولى إتمامه وإعداده للطَّبع، لكن مضت سنوات دون أن يرى النور!

³ - من أوراق المرحوم أحمد قادري مكتوبة بخطِّ يده.

⁴ - المصدر نفسه.

⁵ - المصدر نفسه.

يذكره زميله في الكفاح، المجاهد عبد العزيز وعلي في بعض كتاباته بـ (الأستاذ)، وبـ (الشيخ)، وكتب عنه مشيدا: « والأستاذ قادري رجل ذكي وموهوب، وعلى قدر كبير من رهافة الحسّ، بالإضافة إلى كونه موسوعي المعارف، وجاحظي التنكيت..»¹. وقال عنه أيضا: « هو رجل مثقف، متمكن في اللّغة العربية والفقّه، كان العقيد عميروش يثق فيه، لذلك اختاره عضوا في "محكمة أكفادو" المكلفة بمحاكمة جماعة الزُّرق »².

- **الشيخ أحمد الورجي:** (1917-2005م)، من قرية ورجة، عين الحمام، ولاية تيزي وزو. حضر دروس الشيخ الشرفاوي في الفنون المختلفة، ولما تقدم في الدراسة صار يعطي دروسا في النحو والصرف، انتفع بها الطلبة كثيرا، منهم الأستاذ محمد الصّالح الصّديق. ويذكر هذا الأخير أنّه عندما عاد من جامع الزيتونة سنة 1951م، وانتصب مدرّسا في زاوية عبد الرّحمن اليلولي، عاد الشيخ أحمد إلى هذه الزاوية رغم تقدم سنه، وأعباء أسرته، فدرس عنه المنطق والبلاغة والنحو والأصول والأدب. علّق الأستاذ محمد الصّالح على ذلك فقال: « وهكذا يكون التواضع والرغبة في العلم، واغتنام العمر في الصّالح المفيد، فبعد أن كان أستاذا لي، أصبحت أستاذاً له، وبعد أن كان يُعطي الدروس صار يتعاطاها، وليس في ذلك عنده وعند العقلاء أمثاله أي حرج وبأس.. »³. أثناء الثورة التحريرية اضطهد الشيخ أحمد وسُجن، وبعد الاستقلال اشتغل في التعليم والإمامة إلى أن أقعده العجز والمرض⁴.

- **الشيخ أحمد حسين:** (1911-1987م)، من قرية "قرويسة" بسيدي داود بالقرب من دلس، كان يدرس بجامع الزيتونة، فكان يقضي بداية عطل الصيف الزيتونية في زاوية عبد الرّحمن اليلولي ويحضر دروس الشيخ الشرفاوي قبل بداية عطلته. ورغم قصر الوقت الذي قضاه في الزاوية، فقد انتفع بدروس الشيخ انتقاعا كبيرا، لأنّ مستواه العلمي هيئه

¹ - عبد العزيز وعلي، أحداث ووقائع في تاريخ ثورة التحرير بالولاية الثالثة، دار الجزائر للكتب، الجزائر، 2011، ص 154.

² - عبد العزيز وعلي، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/01/19م.

³ - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 2، ص 155.

⁴ - زوّدي نجله سي الجيلالي، مشكورا، نبذة عن حياة والده، كما كتب عنه الأستاذ محمد الصّالح الصّديق في كتابه: أعلام من منطقة القبائل، ج 2، ص 47-51.

لذلك. وكان الشيخ أحمد لا يذكر أستاذه الشرفاوي إلا بالإعجاب والإكبار سواء حينما كان أستاذا بمعهد ابن باديس، أو مديرا للشؤون الدينية، أو عضوا بالمجلس الإسلامي الأعلى. وكان يقول: عرفت الشرفاوي، وعرفت أستاذه الزيتونة المشاهير، فهو لا يقل عنهم، ويفوق بعضهم¹.

- **الشهيد محمد سعيد عدنان:** (1923-1959م)، من قرية شرفة بهلول، حفظ القرآن الكريم في زاوية القرية ثم انتقل إلى زاوية عبد الرحمن الليولي ودرس على الشيخ الشرفاوي لمدة أربع أو خمس سنوات، وفي سنة 1948م ذهب إلى تونس ودرس بجامع الزيتونة مدة عامين، اشتغل معلما بالعديد من مدارس جمعية العلماء، قبل ذهابه إلى تونس وبعد عودته منها². التحق بالجبال في سنة 1956م وجاهد مع إخوانه إلى أن سقط شهيدا سنة 1959م، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وكان مسؤولاً في جهاز الأوقاف برتبة ملازم³. إثر معركة غير متكافئة اضطر لخوضها هو وأربعة من رفاقه بعد أن تفاجأوا بمحاصرة قوات العدو لمكان تواجدهم بجبل "الدريعات - ولاية المسيلة حاليا"، فاستشهد منهم ثلاثة، ووقع اثنان منهم في الأسر، وقد أخذ العدو جثث الشهداء إلى الثكنات القريبة، ولا يعرف أحد قبرهم إلى الآن، كما لم يُعرف مصير الأسيرين⁴.

يقول عنه المجاهد عبد العزيز وعلي: « عرفت محمد سعيد عدنان حين عُيّن كقائد ومساعد لي على مستوى المنطقة الثانية في سنة 1958م، وكنت إذ ذاك مسؤول جهاز الأوقاف على مستوى المنطقة، أسندتُ إليه مهام سياسية وشرعية فكان في المستوى، وهو ذو ثقافة لغوية وفقهية وسياسية وحتى عسكرية.. »⁵.

- **المجاهد الطيب صديقي:** (1919-1999م)، من بلدية إككورن، دائرة عزازقة، ولاية تيزي وزو. حفظ القرآن الكريم في زاوية شرفة بهلول ثم انتقل إلى زاوية عبد الرحمن الليولي

1 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 86-87.

2 - محند أمقران عدنان، شقيق الشهيد، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/09م.

3 - أعمال الملتقى الوطني: الشيخ الرزقي الشرفاوي، زاوية الشرفة بهلول، 28/27 جوان 2012م، مرجع سابق، ص 199-200.

4 - روى لي هذا المجاهد عبد العزيز وعلي الذي كان حاضرا مع هذه الجماعة من المجاهدين، وقد كتبت له النجاة بعد أن فرّ وذاب في غابة "القلالة". شهادة شفوية بتاريخ: 2015/01/19م. أنظر أيضا كتابه: أحداث ووقائع مرجع سابق، ص 179-181.

5 - عبد العزيز وعلي، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/01/19م.

فتابع بها الدراسة على الشيخ الشرفاوي حتى سنة 1940م حين جُنِّد إجباريا في الخدمة العسكرية. اغتم فرصة الخدمة العسكرية لاكتساب الخبرة في استعمال السلاح ليوظفها حين يحين الوقت الذي يحارب فيه لتحرير وطنه. ناضل بعد ذلك في صفوف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بفرنسا، ولما اندلعت الثورة التحريرية انخرط فيها وخرج منها برتبة رائد¹. يقول عنه المجاهد عبد العزيز وعلي، الذي عرفه في الجبال وفي وزارة المجاهدين بعد الاستقلال: « له مستوى لا بأس به في اللّغة والفقه، وحتى في الفرنسية، عُيِّن في مارس أو أبريل سنة 1959م مسؤولا على جهاز الأوقاف بالمنطقة الثانية خلفا لي، إذ تم نقلي إلى المنطقة الثالثة.. »².

- **محمد الصّديق آيت صديق**، (1927- 2004م)، من قرية أبيضار، وهو شقيق الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، درس بزواوية عبد الرحمن اللولوي، على الشيخ الشرفاوي نحو ثلاث سنوات، وسنة واحدة على الشيخ المولود الحافظي، ثم واصل دراسته بجامعة الزيتونة أين حاز على شهادة التحصيل 1952م، تولى بعد ذلك التدريس في مدارس جمعية العلماء، وبعد الاستقلال اشتغل في التعليم، ثم إماما بتيغزيرت حتى وفاته³.

- **الشيخ بن مومن أرزقي** (1922- 1995م)، من بني كوفي- بوغني، درس عن الشرفاوي في بداية الأربعينات، بين سنتي 1941- 1943م، واشتغل بعد تخرجه بالإمامة، وبعد الاستقلال امتهن التعليم في مدرسة ابتدائية بمشطراس إلى أن تقاعد⁴.

- **بلقاسم بلعقون**، ذكره ابن قرينه وزميله في الدراسة، أحمد قادري، وقال أنّه حين توفي والده - الذي كان يتولى (الخواجة) في جهتهم - خلفه في هذا المنصب، لكنه لم يستطع الاستمرار في هذه الوظيفة، لاختلافه مع رئيسه (القايد) البشير ابن باشاغا البيبان، لأفكار تشبّع بها من نصائح شيخه محمد الرزقي الشرفاوي⁵.

- **الشيخ نور الدين أمقران**، (ت 1999م)، من "أغبان" بوادي الصومام، قال عنه الأستاذ محمد الصّالح الصّديق أنّه كان يُعين الشيخ الطّيب وعمارة في إدارة زاوية أحمد

¹ - علي العياشي، الرائد الطّيب صديقي، مجلة أوّل نوفمبر، العددان 108- 109، 1989، ص 25- 30.

² - عبد العزيز وعلي، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/01/19م.

³ - عنه أنظر: محمد الصّالح الصّديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 1، مرجع سابق، ص 169- 182.

⁴ - نبذة عن حياته أمدني بها مشكورا الأستاذ عبد الرّحمن مصطفى، رئيس تنسيقية الزوايا لولاية تيزي وزو.

⁵ - من أوراق المرحوم أحمد قادري.

إدريس، وفي الوقت ذاته يتابع دروس الشيخ الشرفاوي في زاوية عبد الرحمن اللولوي، في حوالي الفترة ما بين 1939-1944م¹.

وهذه طائفة أخرى من طلبة الشيخ الشرفاوي، نذكر أسماءهم والمناطق التي ينتمون إليها:

- محمد الصالح بن الشيخ، (ت 1995م)، من صدوق - آقبو.
 - إسماعيل زكري، (ت 2011م)، من آث زكري - عزازقة².
 - الشيخ لكحل الأفريحاوي من فريحة، جهة سطيف.
 - الشيخ عيسى قدور، من تقرايت، ولاية بجاية.
 - الشيخ الطاهر أخريب من لمروج، بني ورتيلان.
 - جماعة من قرية سيدي إبراهيم، ولاية برج بوعرييج حاليا: محمد الشريف بن ميرة، طشطاش سالم، ديلمي محمد، أحمد وعلي بوبكر³.
- وفي الأخير أورد تراجم موجزة لطائفة أخرى من طلبة الشرفاوي كانوا أحياء أثناء إنجازي للبحث، وقد تقابلت معهم، وأفادوني في الموضوع، كل حسب حاله، وذاكرته، وهم:

- **الشيخ المولود إيمون:** من مواليد 1926م بقرية آث بويحيى، بلدية بني دواله، ولاية تيزي وزو. حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه ثم التحق بزاوية سيدي عبد الرحمن اللولوي سنة 1942م، أين حضر دروس الشيخ الشرفاوي في الفقه والنحو والصرف والبلاغة، وبعض دروس الحديث والتفسير، كما تولى خدمة شيخه مدة عام في بداية التحاقه بالزاوية⁴.

بعد وفاة الشرفاوي حاول الالتحاق بجامع الزيتونة، لكن ظروفًا حالت دون ذلك، وعاد إلى الزاوية لما حلّ بها الشيخ المولود الحافظي سنة 1946م، لكن وفاة والده أجبرته على ترك الدراسة والعودة إلى القرية ليدخل ميدان العمل، فاشتغل إمامًا في قريته، واستمر على ذلك بعد اندلاع الثورة بطلب من قيادتها، وبعد الاستقلال أُدمج في قطاع التعليم كمعلم في مدرسة القرية إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1988م. وبالتوازي مع عمله في التعليم كان منذ سنة 1976م

1 - للمريد عنه أنظر: كتابه: في شريط الذكريات، ج 2، مرجع سابق، ص 715 وما بعدها.

2 - بحوزتي نبذة عن حياته كتبها بنفسه للأستاذ أرزقي فراد الذي زوّدي مشكورا بنسخة منها.

3 - نكرهم المرحوم أحمد قادري في أوراق مكتوبة بخطّ يده.

4 - الشيخ مولود إيمون، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/29م.

يؤم الناس في الصلاة، ويُلقى دروس الوعظ والإرشاد في مسجد القرية، متطوعاً، ثم مكلفاً من قبل مديرية الشؤون الدينية منذ تقاعده.

يذكر الشيخ المولود أنّ أجيالاً من التلاميذ تتلمذوا على يديه، واجتاز أغلبهم امتحاناتهم بنجاح، وأنّ ما تعلمه عن الشيخ الشرفاوي رحمه الله، هو السلاح الذي وظّفه في المدرسة الجزائرية بعد الاستقلال، إذ لم يدرس العلم عن غيره تقريباً¹.

- **الشيخ يحيى التّومي المشدالي**: من مواليد 1921م بمشدالة، ولاية البويرة، التحق بزاوية عبد الرحمن اليلولي وهو في التاسعة من عمره، وهناك أكمل حفظ القرآن الكريم، ثم درس على الشيخ الشرفاوي حوالي سبع سنوات، إذ حضر دروسه في الفقه والنحو والبلاغة. ويذكر أنّ الشيخ كثيراً ما كان يشجعه على الدراسة ويقول له: « كُن في اجتهادك مثل عمك ». ويقصد عمه الشيخ محمد الصّغير المشدالي الزواوي²، الذي كان معه في رواق المغاربة بالأزهر، وقد مات في مصر ودُفن هناك. انقطع الشيخ يحيى عن الزاوية مدة ثم عاد إليها، وأقام بها إلى سنة 1943م، واشتغل بعد ذلك إماماً، إذ أدن له الشيخ الشرفاوي بذلك بعد أن طلبته إحدى القرى. بعد الاستقلال واصل عمله إماماً في أماكن عدة بجهته إلى أن تقاعد سنة 1988م. حين زرته كان عمره قد تجاوز التسعين، ومع ذلك كان في كامل قواه العقلية، مع صفاء في الذهن، وعافية في البدن، أدام الله عليه كل ذلك. وقد أشاد بشيخه قائلاً: « إنّه من كبار علمائنا »³.

- **الشيخ الحاج محمد السعيد أمقران**: من مواليد 1917م، بقرية تفريث ناث الحاج بمنطقة القبائل، حفظ القرآن الكريم في زاوية قريتهم، والتحق بزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، (لا يذكر في أيّ سنة، وبالتحري ربما في 1938م). حضر عن الشيخ الشرفاوي دروساً في الفقه والنحو والبلاغة، وجُنّد أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد تأسف لانقطاعه عن الدراسة، كما تألم لوفاة شيخه وعدم حضوره لجنزاته. يقول عن شيخه: « إنّه مثال في الصّبر، همّة العلم وتكوين الرّجال، ولا يهمله أمر آخر من أمور الدنيا.. ». بعد الاستقلال

¹ - الشيخ المولود إيمون، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/01/29م.

² - ورد اسمه في تقرير أرسله الحاكم العام الفرنسي بالجزائر إلى وزير الشؤون الخارجية بباريس، مؤرخ في: 1912/02/19م ويتضمن معلومات عن 31 طالب جزائري كانوا آنذاك بالأزهر. أرشيف وزارة الخارجية

الفرنسية: A.M.A.E.F, Carton 13, Dossier 2, N° 353PO/2/72

³ - يحيى التّومي المشدالي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/18م.

استقر بالجزائر العاصمة واشتغل بوزارة الشباب والرياضة إلى أن تقاعد سنة 1989م، فكان سائقاً لكل الذين مرّوا على رأس هذه الوزارة خلال هذه المدة، وأولهم الرئيس الحالي عبد العزيز بوتفليقة حين كان وزيراً للشباب والرياضة في بداية الاستقلال¹.

- **الشيخ حسين عكريش:** من مواليد 1922م بقرية "أقرو"، بلدية مقلع، ولاية تيزي وزو. بدأ حفظ القرآن الكريم على أبيه، ثم في الزاوية السحنونية، ثم التحق بزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي سنة 1938م، أين مكث حوالي ثلاث سنوات، فأكمل حفظ القرآن، وحضر بعض دروس الشيخ الشرفاوي في علوم اللغة (الأجرومية، قطر الندى)، ولسوء حظه فإن حالة الفقر التي كانت تعاني منها أسرته منعتة من مواصلة الدراسة. عمره عندما قابلته تجاوز التسعين، ومع ذلك كان يتذكر أشعاراً وحكمًا وكلماتٍ حفظها عن شيخه في الزاوية²، منها هذه الأبيات للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمَثَالِ أَكْفَاءُ * أَبُوهُمُ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ شَرَفٌ * يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنُ وَالْمَاءُ

وقوله:

واخذر من المظلوم سهماً صائباً * واعلم بأنّ دعاءه لا يُحجَبُ
وهذين البيتين لأبي العتاهية:

الصَّمْتُ زَيْنٌ وَالسُّكُوتُ سَلَامَةٌ * فَإِذَا نَطَقْتَ فَلَا تَكُنْ مِثَاراً
فَإِذَا نَدِمْتَ عَلَى سَكُوتِكَ مَرَّةً * فَلَتَنْدَمَنَّ عَلَى الْكَلَامِ مِرَاراً

- **الشيخ محمد بن عيسى:** شقيق العربي بن عيسى الذي سبق التعريف به، من مواليد 1923م، يقيم حالياً بمدينة غليزان، التحق بالزاوية قبل وفاة الشيخ الشرفاوي بحوالي سنة، حضر بعض دروس الشيخ في النحو والأدب. ما يزال يحفظ فقرات من نصوص كان قد درسها عن الشيخ في مادة الإنشاء، وهو معجب جداً بأخلاق شيخه، وتواضعه³.

4- دور الشرفاوي في إعداد طلبته لخدمة الدين والوطن

¹ - الحاج محند السعيد أمقران، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26م. توفي رحمه الله في شهر أوت 2017م.

² - حسين عكريش، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/30م. بلغني أنه توفي رحمه الله قبل حلول شهر رمضان من سنة 2019م.

³ - الشيخ محمد بن عيسى، مكالمة هاتفية معه بتاريخ: 2014/04/07م.

مما سبق يتّضح أنّ طلبة الشّيخ الشّرفاوي في زاوية عبد الرّحمن اللّيلوي هم على عدة أصناف، ففيهم من بدأ دراسته على الشّيخ ثم أتمها في أماكن أخرى كالزيتونة، وفيهم من درس على غيره ثم واصل الدراسة عليه، وفيهم من اكتفى بدروس الشّيخ في هذه الزاوية، ولم يزد عليها. وخلال السّنوات العشر التي قضاها الشّيخ مُدرّسا بهذه الزاوية انتفع به طلابٌ كثيرون كما ذكرنا، كان يبني عقولهم بمعارفه الواسعة، ويشحن نفوسهم بحبّ الوطن، ويُعدّهم - بتوجيهاته البناءة، وتجاربه الكثيرة - للعمل في سبيل نهضة الوطن وتحريره.

والواقع أنّ جهود الشّيخ لم تذهب هباءً، فقد تصدى كثير من طلبته للتدريس ومحاربة الجهل، ونشر الوعي والفهم الصّحيح للدين الإسلامي بين المواطنين، واضطلع الكثير منهم بأدوار إيجابية في مجالات مختلفة، سواء في مرحلة النضال والتّحرير، أو خلال مرحلة البناء بعد الاستقلال. فقد وجدنا من طلبته خلال ثورة التحرير مجاهدين وضباط وإطارات، منهم من سقط شهيدا في معركة التحرير، ومنهم من امتد بهم العمر فخدموا الجزائر المستقلة في ميادين التعليم والإمامة والوعظ والإرشاد وفي التّأليف، وتولى بعضهم مناصب عليا في الدولة، نذكر منهم على سبيل المثال: المرحوم العربي سعدوني وزير الأوقاف في أواخر الستينات، والأديب الكبير والكاتب المكثر، الأستاذ محمد الصّالح الصّديق الذي تجاوزت مؤلفاته الأربعين كتابا بعد المائة، في مجالات مختلفة، وهو إلى الآن، لا يدع مناسبة إلا ويعترف - بلسانه وقلمه - بفضل أستاذه الشّرفاوي فيما حقّقه من إنجازات في مجال العلم والكتابة.

وغني عن الذكر أنّ ما من أحد من هؤلاء الطلبة إلّا وقد استفاد من علم أستاذه وأخلاقه، وتأثّر بأفكاره في الإصلاح والوطنية، وطريقته في التربية والتعليم، منتهجا نهجه في ذلك.

الفصل الخامس

الشرفاوي: شخصيته، آثاره وآراؤه

أولاً- شخصيته وجوانب من حياته

1- شخصيته

أ- هيئته ومظهره

ب- ثقافته

ج- تدينه

د- خصاله النفسية

هـ- صفاته الخلقية

و- مكانته العلمية

2- جوانب من حياته الخاصة

أ- زواجه

ب- أولاده

ج- سكنه وأجرته بالزاوية

د- بعض عاداته

هـ- مرض عينيه

و- وفاته

ثانياً- آثاره وآراؤه

1- آثاره

أ- مؤلفاته

ب- مقالاته في الصحف

ج- خطبه وفتاواه

2- آراؤه

أ- الشرفاوي والحركة الإصلاحية

ب- آراؤه في الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي

ج- رأيه في طريق الخلاص من الاستعمار

لا شك أنّ الكثير من جوانب شخصية الشَّيخ الشَّرْفَاوِي وأفكاره قد تحدّدت واتّضحت فيما استعرضناه من سيرة الشَّيخ حتى الآن، لكن هذه الجوانب ستبرز أكثر وتتضح في هذا الفصل حين نستعرض - بشيء من التفصيل - خصال الشَّيخ وصفاته، وجوانب دقيقة من حياته الخاصّة، وكذا آثاره المختلفة، وآراءه التي اجتهدنا في دراستها من خلال ما وصلنا من كتاباته وأخباره.

أولاً - شخصيته وجوانب من حياته

1 - شخصيته

من خصال الشَّرْفَاوِي البارزة في حياته: الشَّغف بالعلم، قوّة الإرادة، الاعتماد على النَّفس، روح المغامرة لبلوغ معالي الأمور، صدق الإيمان والتوكّل على الله، حبّ الوطن، التضحية في سبيل المبدأ، التسامح وسعة الصّدر، التواضع، الكرم، العاطفة الإنسانيّة وحبّ الخير للنّاس.. إلخ. وفي المقابل يكره الظلم، ويمقت الاستعمار ويحاربه، يعشق الحرية، ويكره الشّعوزة والتدبّين الكاذب. تلك هي أهم ما يميّز شخصية الشَّيخ.

في الجزء الأول من هذا الفصل نتناول - وبالأمثلة الملموسة - شخصية الشَّيخ في جوانبها المختلفة: الخلقية والنفسية والخلقية والعلمية، وكذا جوانب من حياته الخاصة.

أ - هيئته ومظهره

إنّ الشَّيخ الشَّرْفَاوِي متوسط القامة، قويّ البنية، أسمر اللون¹. ويبدو مما وصلنا من صورته أنّه جميل الهمد، أنيق الملبس، مهيب الطلعة، مُعمّم الرأس دائماً، خفيف اللحية، أبيضها. ولا بأس - ونحن نتكلّم عن المظهر والملبس - أن نورد هذه الحادثة لأنّها في السّياق: يقول الأستاذ محمد الصّالح الصّديق: سمعت الشَّيخ يوماً يتحدّث عن المعركة بين الجديد والقديم في الأدب، ويذكر من أدباء العصر الرّافعي وطه حسين والعقاد، فسألته في سداجة الطفولة: هل يلبس طه حسين العمامة أو الطّربوش؟ وكنت لا أفهم العالم إلاّ مُعمّماً - أي لابسا للعمامة - فقال في ابتسامة وهو يحدّثني بنظرة عميقة: لقد كان يلبس العمامة، ثم

¹ - محمد الصّالح الصّديق، من كتاب مخطوط كان يُعدّه للطّبع.

يلبس الطربوش، وأخيراً تحرّر منهما. فكأنّه أحسّ بتساؤل يعتلج في نفسي عن السبب الذي جعله لا يتحرّر هو الآخر من العمامة؟ فقال: العبرة بالرأس يا بُني لا بالعمامة أو الطربوش، فكنّ ذا رأسٍ عظيمٍ، فهذا هو المهم!¹
فالمهم عند الشّرخ مخبر الإنسان وجوهه، لا مظهره.

ب- ثقافته

إنّ أهم ما يميّز شخصية الشّرخ الرّزقي الشّرفاوي في هذا الجانب هو حبّه للعلم، وتقانيه في طلبه ونشره، فهذه شيمة غريزية لم تفارقه طيلة حياته. لقد كان زاهداً في الأمور المادية، لكنه في العلم كان نهماً لا يشبع، لذلك لم يقنع بما أخذه من علوم الفقه واللّغة في بلاده، فسلك طريق الهجرة - رغم صعوبته آنذاك - في سبيل تحقيق مبتغاه، فالتحق بمصر، وهناك وجد ما تشتهيئه نفسه من العلوم والمعارف في رحاب الأزهر الشّريف، وفي مكاتب مصر، وأنديتها وصحفها وعلمائها.

انكب الشّرفاوي طيلة السنوات التي قضاها في مصر على القراءة، فقرأ الكثير من كتب التفسير والفقه والتاريخ والاجتماع والأخلاق والآداب، ودواوين الشّعْر قديمها وحديثها، ما جعل الشّرفاوي ذا اطلاع واسع على التراث العربي الإسلامي، وكان يقرأ أيضاً ما يُترجم إلى العربية من كتب علماء وفلاسفة الغرب أمثال: نيتشه، وشوبنهاور، وتولستوي، وسيديو، وجوستاف لوبون وغيرهم، وكذا ما يُكتب عنهم².

وبعد عودته إلى الجزائر استمر الشّرفاوي على طريق العلم والقراءة³، فكان كثير السّهر في المطالعة والكتابة، ولشدة شغفه بالقراءة، فقد كان - حين فقد بصره وتعذّر عليه أن يقرأ

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشّرخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 79. وذكر الأستاذ أيضاً أنّه سأل يوماً أستاذه الشّرفاوي عن طه حسين، إذا كان يعرفه وتقابل معه؟ فأجابته: نعم أعرفه وتقابلنا عدة مرات. ثم قال عنه: « هو صاحب قلم وفكر قويّ، لكنه أحياناً يتجرأ في أفكاره على الإسلام! ». محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/11/03م.

² - كتاباته التي يستشهد فيها بكلام أمثال هؤلاء، أيضاً: محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/11/03م.

³ - كانت للشّرخ خزانة صغيرة بها بعض أمهات الكتب التي يستعين بها في التدريس هي: (روح المعاني)، وهو تفسير للقرآن من 30 جزءاً، (سُبل السّلام) كتاب في الحديث، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، (قطر الندى) في النحو، كتاب (الأمثال) للميداني. وبعض هذه الكتب جاء بها من مصر.

بنفسه - يدعو ويقول: « اللهم لا تقطعنا عن العلم »¹، وكان يطلب من بعض مقرّبيه أن يقرأ عليه².

وغني عن الذكر أنّ الشرفاوي قد حصلت له من ذلك كلّ ثروة ثقافية ضخمة في شتى المجالات، وخاصة في علوم الشريعة الإسلامية، وعلوم اللغة العربية وآدابها، وقد ساعده على التحصيل ما حباه الله به من صفاء الذهن، وقوة الحافظة، وصبر متميّز، وتفرّغ للتحصيل.

يصف الأستاذ محمد الصّالح الصّديق ثقافة أستاذه فيقول: « كانت ثقافة الأستاذ الشرفاوي عميقة واسعة متنوّعة، أرسى قواعدها الدينية على العقل البصير، وأقام ركنها الأدبي على النظر الحصيف، والذوق الرّفيح، والقريحة الوقادة.. »³.

ج- تديّنه

الشيخ الشرفاوي قويّ الإيمان، صادق التوكّل على الله تعالى، ومما يدل على ذلك أنّه حين كان في الأزهر وضّقت به السُّبل، عزم أن يعود إلى الجزائر، ولكنّه رجع إلى الإيمان، فصلى ركعتين في محراب الأزهر ودعا، ثم عاهد الله تعالى أن يبقى حتى يأخذ الشّهادة العليا، وألاً يقرأ رسالة تأتيه من الأهل حتى يُنهي دراسته، وفعل كل ذلك وحقّق مبتغاه⁴.

ويتجلّى إيمانه أيضاً في الدروس التي يُلقّيها، فإذا شرح آية تدعو إلى التّأثّر فإنّه يتأثّر، وتبكي عيناه⁵. ويذكر من عاش قريباً منه أنّه كان يواظب على تلاوة القرآن الكريم بقلبٍ خاشع، ونفسٍ متدلّية، وعقلٍ بصير، وتدمع عيناه إذا مرّت به آية في عظمة الله تعالى أو رحمته وعذابه حتى تُخضّل الدموعُ ثوبه، وكان في شهر رمضان يُعنى بالقرآن عناية خاصة، ويحرص على تدبّر معانيه، واستنتاج أسرارهِ، والغوص على جواهرهِ⁶.

1 - الشيخ يحيى التّومي المشدالي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/18م.

2 - منهم تلميذه وصهره الأستاذ محمد الصّالح الصّديق الذي روى لنا هذا.

3 - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 54.

4 - سبق الكلام عن هذا بالتفصيل حين تناولنا حياته في مصر في الفصل الثّاني.

5 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

6 - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 78.

وكان الشيخ يكره أشد الكراهية المشعوذين والدجالين الذين يدعون علم الغيب، ويقول إنهم جنود إبليس، لأنهم ينحرفون بعقيدة الناس ويميلون بهم إلى الشرك الذي لا يقبل الله معه عمل الإنسان، فكان عندما يُذكر له مشعوذٌ، أو تُذكر له صورة من صور الشعوذة ترى على وجهه تأثراً كأنه شرب مرّاً¹! ويُذكر في هذا السياق أنّ له بنتاً مرضت شهوراً، ولم ينفع معها علاج الطبيب، ولا ما وُصف لها من الأدوية الشعبية، ولما علمت زوجته أنّ في إحدى القرى المجاورة (طالباً)² يكتب للمرضى، وأنّه ما من مريض يكتب له إلاّ ويشفى من مرضه، استشارت زوجها في ذلك بعد تردّد طويل لأنّها تعرف موقفه من هذا الأمر، وما إن سمع الشيخ قول زوجته حتى انتفض في وجهها وقال لها: ما تطلبين جرماً غير مقبول، وعمل لا يقبل به إلاّ من طمس الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة، وأنا والله الحمد على بصيرة من أمري³.

ولكن الأم لما آلمها وضع ابنتها، ضَعُفت ولم تستطع البقاء مكتوفة الأيدي، فبعثت عجوزاً إلى (الطالب) وأوصتها بكتمان السر، وكتب لها الطالب تميمة! وما أن تسرّب النبا إلى الشيخ حتى زلزلت به الأرض وبلغ به الغضب أقصى الحدود حتى عزم على تطليقها وفي إصرار، ولكن أهل الخير تدخلوا وعالجوا الموقف، وكان مما قاله لهم: موت ابنتي أهون عليّ مما فعلته امرأتي⁴! وهجر زوجته أياماً، ولما هدأ غضبه ورجعت المياه إلى مجاريها، قال لزوجته في رفق وحنان: « لو كُنْتُ أعلم أنّ الكتابة تنفعها لكتبتُ لها، فأنا أعلم من هذا الطالب، ولكن القرآن لا يُعلّق على الأعناق⁵».

والشيخ الشرفاوي - رحمة الله عليه - مؤمن عملي، يخاف الله ويراقبه⁶، يحب الخير للناس، يكره الشر والنفاق والتدين الكاذب⁷، وهو لا يفتر إذا انفرد يذكر ربّه في الحرّ والقرّ، يؤدي

1 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

2 - "الطالب": تسمية يطلقها العامة آنذاك على أشخاص يكتبون التائم والحُجب، وهذا صورة من صور الشعوذة والدجل.

3 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 80.

4 - محمد الصالح الصديق، في شريط الذكريات، ج 2، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 284.

5 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 80.

6 - من الصفات التي يجب أن تتوفر في المؤمن - حسب الشيخ - يقظة الضمير، ورقابة الخالق، لأنهما أساس الدين والتعبّد. محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار، ص 83.

7 - من أقوال الشيخ: « لو خُيرت بين كافرٍ، ومتستّرٍ وراء تدينٍ كاذبٍ لاخترت الأول بلا تردد ». أورد القول محمد الصالح الصديق في كتابه: الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار، ص 82.

فرائض الدين على النهج السلفي الصحيح، يصوم التطوع ويتهدد، وحين يكون في الزاوية يؤم الطلبة في جميع الصلوات، يستيقظ دائماً من غير موقظ رغم قلة الإمكانيات آنذاك. مالكي في مذهبه لكنه لا يتعصب، وكان يُصلي بالقبض¹.

د - خصاله النفسية

- عاطفته الإنسانية، كان الشرفاوي ذا عاطفة إنسانية نبيلة حيّة، فقد عاش شبابه يعاني الحرمان، ويتكبّد مشاق الحياة وشدائدّها، فكان بعد أن ابتسمت له الحياة يدرك بعمق الإحساس ما يقاسيه البؤساء والفقراء والمنكوبون، فكان يتأثر بالغ التأثر لمناظر البؤس والشقاء، فيتألم لمريض ينخر الداء جسمه ولا يجد ثمن الدواء، وأعمى يتسوّل، وأرملة مقطوعة لا تجد من تلوذ بحماه، فإذا استطاع أن يعين أعان، وإلا ذرف دمعة، أو تألم من أعماقه²!

وكان في الزاوية إذا رأى طالبا بثيابٍ رثّة دعاه إلى حجرته وأعانه، وقد ذكر أحد هؤلاء أن الشّيخ أعطاه ذات يوم نصيباً من المال وشجّعته على المضي في سبيل العلم وقال له بالخصوص: « من المهود المظلمة يشرق النور، وإذا قرأت سيرة العظماء، راعك ما لاقوه في بداية حياتهم من متاعب ومحن³ ». وذكر له أنّ امرأة طلقها زوجها وهي في حالة يرثى لها، فتأثر وقال: وهل هذا ينتسب إلى الإسلام؟ وحين يذكر شخصاً ظلم شخصاً آخر، يذكره في مرارة وتألّم، ويقول: كيف يفرّ هذا من عقاب الله تعالى⁴؟

فعاطفة الشّيخ حيّة، ودموعه قريبة، فكثيراً ما يكون في الدرس، فيمر به بيت شعري يثير العاطفة، فيقف عنده في تأثرٍ بالغ، ثم يبكي دون أن يعلم أحدٌ ممن حوله سرّ تأثره

¹ - محمد الصالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/09/03م. أيضاً: الشّيخ مكي التعماني، أوراق بخطّ يده، مصدر سابق. بخصوص القبض في الصّلاة ذكر الشّرفاوي أنّ أحد "المتعلّمين" أنكر عليه ذلك، فنذكر أنّ القبض سنة بدليل الأحاديث الواردة في ذلك وهي تبلغ العشرين حديثاً عن ثمانية عشر صحابياً، وكل واحد من أصحاب الصّاح روى ذلك، وقال أنّ مالكا رضي الله عنه روى حديث القبض في الموطأ وعمل به، إذ لم يؤلّف ذلك الكتاب إلا للعمل بما فيه، وأنّ أبا عمر بن عبد البر قال: "لم يزل مالك يقبض حتى لقي الله تعالى". أنظر: جريدة "الثّبات"، العدد 47، 26 جويلية 1935م.

² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

³ - محمد الصّالح الصّديق، "جوانب من شخصية العلامة الشّيخ محمد الرّزقي الشّرفاوي"، البصائر، الحلقة الثّانية، العدد 299، 31 جويلية - 7 أوت 2006. أيضاً شهادته بتاريخ: 2017/07/12م.

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

وبكائه! وبكاؤه ليس للأبيات، ولكن لما خطر على باله من صور الماضي ونكريات الغربة¹، وربما لحاله في المنطقة آنذاك.

فحين اشتدّ أذى الناس عليه قرأ أبيات لابن زيدون، وعندما وصل إلى قوله:

يُفَتُّ الْمِسْكُ فِي التُّرِّ * بِ فَيُوطَى وَيَدَّاسُ

عندما وصل إلى هذا البيت بكى، وبكى لبكائه بعض الطلبة²، وهذا ربما إشارة إلى حاله، كيف كان في الأزهر معزّزاً ومكرمًا، مسموع الكلمة، وكيف أصبح بين قومه!

- **حب الوطن**، إنَّ أكبر دليل على حبِّ الشرفاوي لوطنه أنه تغرّب من أجل العلم، وتحمل في سبيله المتاعب والمشاق، ثم عاد مسلحًا به إلى وطنه ليعلمه بعلمه، ويتجنّد في صفوف المناضلين في سبيل نهضته وتحريره بالفكر والقلم، وكان في إمكانه - بعد أن نال شهادة العالمية، وتوظّف مُدرّسًا في مصر - أن يعيش هناك بقية حياته في سعادة وهناء، لاسيما وقد تزوّج امرأة مصرية واعتاد على الحياة في مصر بعد سنوات طويلة قضاها هناك. ولكن حبُّه لوطنه، ورغبته في خدمته جعله يُؤثر العودة، ويترك القاهرة، أكبر الحواضر العربية، والأزهر الشريف، أكبر المعاهد الإسلامية آنذاك، ليقم في منطقة ريفية ببلده، ويعمل في زاوية في قمة جبل "إبلولة" بجرجرة، لأنَّ المهم عنده هو أن ينفع وطنه، ويغرس في أبنائه العلم الذي عانى كثيرًا في سبيل تحصيله، وتلك تضحية، وأيّ تضحية في سبيل الوطن!

ثم إنَّ في أعمال الشيخ، وأقواله، ومواقفه، الكثير مما يدل على وطنيته، منها هذه الحادثة التي وقعت في أواخر الثلاثينات: فحين أرادت زاوية عبد الرحمن اللولوي أن تقيم حفلًا في سنة 1938م بمناسبة ختم الشرفاوي لمختصر خليل بالتدريس، وقبل الحفل بأيام، وبغرض تحضير الحفل، اتفق أعضاء مجلس الطلبة المسير للزاوية والشيخ على استدعاء رجل من ناحية مشدالة³ يدعى "محمد أمزيان المشدالي"⁴، وهو من طلبة الزاوية القدامى

1 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/22م

2 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/09/03م.

3 - مشدالة، تسمى في العهد الاستعماري "مايو"، وهي تتبع حاليًا لولاية البويرة.

4 - محمد أمزيان المشدالي: من بلدة "مشدالة" سبق له أن درس في الزاوية ثم أصبح "قائد" عند فرنسا، اشتهر بفصاحة اللسان، وقوة الحجة، والشجاعة الأدبية. ذات يوم تغاضب مع محافظ "مايو"، فما كان منه إلا أن ضربه بكرسي في ملا من الناس وخلق برونوس القيادة ورمى به المحافظ، فانتزعت منه القيادة، ولكنه منذ ذلك اليوم أصبح موضع التقدير والهيبة حتى عند الفرنسيين. كان الشيخ الشرفاوي يقدره ويحترمه لما ذكرنا من صفاته المميّزة، ولهذه الضربة التي أعطاها لرمز من رموز الاستعمار، والآخر يجب الشيخ لأنه عالم، ولأنه وطني ويكره فرنسا. محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م.

الذين يستشيرهم مجلس الزاوية، لما عُرف به من حسن التدبير، وبالفعل جاء الرجل، وبعد مشاورات تم الاتفاق على ترتيبات الحفل، وتحديد أسماء الذين يُدعون لحضوره من العلماء والشيوخ، وبعد ذلك عقد الشيخ الشرفاي مع السيد المشدالي جلسة عمل على انفراد، وفيها اقترح الأخير دعوة حاكم بلدية سيباو الأعلى (عزازقة)، لتقادي عواقب سيئة محتملة في حال عدم دعوته، وطلب من الشيخ أن يُعدّ خطبة للمناسبة، وهنا تأمله الشيخ في صمت، ثم قال له: ماذا تريد أن أقول في هذه الخطبة؟

قال الرجل: ترحّب بالحاكم ومن معه.

وفي لهجة قويّة صارمة أجابه الشيخ: أمثلي يقوم خطيباً ليرحّب بفرنسا التي سرقت أرضنا، وأهانت ديننا، وحوّلت مساجدنا إلى كنائس؟ فقال الرجل: إنّ الذوق والأدب يفرضان ما أقترحه عليك، فالذوق لا يقبل حضورهم بدون كلمة ترحيبية، ثم إنّ في ذلك فائدة ظاهرة هي اتقاء شرّ فرنسا، وضمان قضاء حوائج الزاوية عندها في المستقبل.

وهنا أجابه الشيخ في حزم وإصرار: إنّ عقيدتي ومبادئ يرفضان ذلك!

خرج الرجل غاضبا، لكن بعد قليل أرسل الشيخ من يعيده إلى القاعة، وقال له: بالأمس ضربت أحد محافظيهم بالكرسي، ورميت عليه بزنوس القيادة، واليوم تطلب مني أن أرحب بهم؟

فقال الرجل: إنّك تفعل ذلك بلسانك وقلمك، لا بقلبك يا شيخ.

وبعد ساعة من الخلاف والمشادة، قبل الشيخ أن يلقي كلمة ولكن شرط أن تكون مرتجلة لا مكتوبة، حتى لا يبقى أثرها للغد. وبالفعل لما وصل الوفد الفرنسي في صبيحة يوم الاحتفال، كان في استقباله بساحة الجامع الشيخ الشرفاي وجماعة من الطلبة، وتقدم الشيخ وألقى كلمة ارتجالية رحّب فيها بالحاكم ورفقائه، واغتتم الفرصة فتحدث عن عظمة الإسلام، وعن الحضارة الإسلامية، وذكر بالخصوص أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي علّم الإنسان الحرية والعدل والمساواة، وقد أعجب الحاكم الفرنسي بكلمة الشيخ¹ بعد أن

¹ - ننبّه هنا إلى أنّ هذه الكلمة غير الخطاب الطويل الذي ألقاه الشيخ أمام جمع غفير من العلماء والجمهور الذي جاء لحضور الحفل، وقد تكلمنا بالتفصيل عن هذا الخطاب وعن الحفل في الفصل السابق.

ترجمها السيّد المشدالي وهو ماهر في الفرنسية، وقادر على الترجمة الفورية، وتمنى لو كانت مكتوبة ليحتفظ بها عنده ضمن وثائقه النفيسة على حد تعبير المترجم¹.

وهكذا تمّ للشيخ ما أراد من الترحيب - المفروض عليه - بالضيوف المستعمرين بكلمة ارتجالية لا أثر لها إلا حين إلقائها، وفوّت عليهم ما قد يستغلونه لصالحهم، وانتهز الفرصة للإشادة بقوة الإسلام وعظّمته.

- **الاعتماد على النفس**، فقد كان الشرفاوي عصامياً منذ طفولته، فهو يتّخذ قرارات يراها مناسبة ومفيدة، ثم ينزل إلى الميدان لتنفيذها دون أن يتّكل على أحد. وقد رأينا ذلك في إصراره - وهو طفل - على متابعة تعليمه رغم الظروف المعاكسة له، وفي ذهابه إلى الأزهر رغم كثرة العقبات، وفي اتخاذه لقرار العودة إلى الوطن الذي لم يكن أمراً هيناً، وغيرها من أحداث حياته التي تدلّ كلّها على أنّ الشرفاوي تخلّق بأخلاق الرجال قبل سن الرّجولة، ولما أصبح رجلاً كانت روح المواجهة واقتحام صعوبات الحياة جزءاً من حياته، وصفة متأصلة في ذاته.

- **عزّة النفس**، كان الشرفاوي سمحاً طيباً لكنّه إذا استغضب غضب²، وإذا أهين ثار وانتفض وكان شديد العارضة، وما أن يزول غضبه حتى ينسى كل ما وقع من أسباب الغضب، إلا أن يكون ذلك من لئيم يريد النيل من كرامته فإنّه لا يتسامح أبداً.

ومما يُذكر في هذا السياق حادثة رواها الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، إذ يقول: في إحدى المرات كان الشيخ في ضيافة أحد أعيان مدينة "أقبو"³ رفقة اثنين من الطلبة، إذ أقام

¹ - القصة سمعتها شفويّاً عن الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، في جلستي معه بتاريخ: 2013/09/02م، وسجلها الأستاذ في كتبه، أنظر: رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 183-187. وكتابه: الشيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 36-38. وأشير هنا إلى أنّ التقارير الفرنسية لذلك الوقت تحدثت عن حضور حاكم سيباو الأعلى "عزازقة"، لا حاكم تيزي وزو كما سجّل الأستاذ محمد الصّالح الذي قال أنّ هذا رسخ في ذاكرته منذ ذلك الوقت، إذ حضر الحفل وعمره آنذاك 13 سنة.

² - من أقواله في هذا الصّدد: « إنّ من لا يغضب عند المَغضبات، واستوت حالته قبل الإغضاب وبعده، فليس بإنسان ». وكثيراً ما كان يردّد هذين البيتين في سياق الحديث عن الشّجاعة والأثقة والحمية والغيرة:

فلي فرسٍ للحلم بالحلم مُلجَمٌ * ولي فرسٍ للجهل بالجهل مسرَجُ

فمن رام تقويمه فإبني مقومٌ * ومن رام تعويجه فإنّ معوجُ

محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 83.

³ - وقعت هذه الحادثة حين ذهب الشيخ الشرفاوي لعلاج عينيه عند طبيب في مدينة أقبو، وهو الدكتور الحسن الهادي "الحسن أولهادي"، وهو طبيب عام لكنه يجيد طب العيون، وقد صاحب الشيخ في رحلته هذه اثنين = = من

مأدبة على شرفه في منزله حضرها أعيان المدينة. وفي جلسة كان الشَّيخ واسطة العقد فيها، أخذ الضيوف في طرح أسئلتهم على الشَّيخ بكل أدبٍ وتواضع، ثم سأل صاحبُ المنزل الشَّيخ: هل تجيد اللُّغة الفرنسية؟ فأجاب الشَّيخ بأنَّه يجهل هذه اللُّغة التي أصبحت ضرورية في هذه البلاد، ولو أمكن اليوم أن يتعلَّمها لتعلَّمها، فقال الرجل في لهجة الواثق: إنَّ من يجهل هذه اللُّغة حمار، بل الحمار خير منه! ولم يدر الرجل ضخامة جُرمه حتى قام الشَّيخ منتفضًا وهو يقول: حتى الذي يقبل دعوتك حمار يا حاج. فهمَّ بمغادرة المنزل، ولكن الرجل أدرك خطأه الفاحش، فأخذ يُقبل الشَّيخ ويستعطفه، ويقسم أيمانًا مغلَّظة بأنَّه غير قاصدٍ لِمَا تَلَفَّظ به، فعفى عنه الشَّيخ وعدل عن مغادرته البيت، وعاد الجوّ إلى حاله، والشَّيخ إلى حديثه، ولكن الشَّيخ تأثر بالحادثة تأثرًا عميقًا، وكان يحكيها من حين إلى آخر في تأثُّرٍ واضح¹.

وكان الشَّيخ يؤمن بأنَّ العالم أعطاه الله ما لم يُعطِ غيره، لذا ينبغي عليه أن يعتزَّ بذلك مهما كانت ظروفه المادية، ومهما أنكر الناس فضله أو جحدوا قيمته! ومما يجري في هذا السِّياق هذه الحادثة التي رواها أيضًا الأستاذ محمد الصَّالح الصَّديق عن والده، وخلاصتها: أنَّ والده² زار الشَّيخ الشَّرفاوي في أواخر الثلاثينات، وكان آنذاك بزواوية سيدي موسى "تَبْدَار" بناحية سيدي عيش بالقرب من "أقبو"، قضى عنده ليلة، وفي الصَّباح ترافقا إلى سيدي عيش، فبينما كانا في دكان تاجر عُرف بحب العلم والعلماء، ورجال الإصلاح، ويحرص على الاستفادة منهم، إذ دخل الشَّيخ السَّعيد الجبري، وبعد تبادل عبارات الترحيب سأله الشَّيخ الشَّرفاوي عن حاله، فاندفع يشنع بحال العلماء في الجزائر، ويؤكد أنَّ الجاهل خير من العالم، وأنَّ كل شيء في الجزائر أغلى وأعزَّ من العالم، وهنا دخل رجل وفي يده طاقة ثوم، فواصل الشَّيخ الجبري كلامه وهو يشير إلى الطاقة قائلاً: هذه أغلى وأثمن من رجل العلم وطالبه في بلادنا. فاغتاظ الشَّيخ الشَّرفاوي من هذا الكلام وانتفض وأخذ يقول ما مؤداه: هل هناك خير منك، جعلك الله وعاءً لكتابه، ومجمعا لشريعته، وهداية لعباده،

الطلبة أحدهم الأستاذ محمد الصَّالح الصَّديق الذي روى القصة، وأمَّا الرجل الذي دعا الشَّيخ فهو الحاج آيت قاسي، الذي يتصل نسبه بعائلة آيت قاسي المشهورة في المنطقة.

¹ - محمد الصَّالح الصَّديق، في شريط الذِّكريات، ج 3، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 51. أيضا: شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

² - الشَّيخ البشير آيت صديق وهو صهر الشَّيخ الشَّرفاوي.

ومضياً لطريقه، ولسانا من السنة الحق تكشف الشبهات، وتزيح المفتريات، وتفتح المغلقات، فمن من الناس يضاھيك؟ وحاول الشيخ الجري أن يقاطعه ولكنه واصل كلامه في حدة وحرارة، وقال: على أهل العلم أن يفرضوا وجودهم، وذلك قبل كل شيء بالشعور الذاتي، فإذا ضعف هذا الشعور كان ذلك سببا في عدم احترام الناس لهم، فالعالم شخصية متميزة في المجتمع بالعلم والمعرفة، فحقه أن يعرف مكانته المتميزة ويحترمها ويعتز بها، وحسب العالم أنه من ورثة الأنبياء، وأنه يصنع للمجتمع رجالا متميزين هم بناته وحماته وهُدأته¹.

أما الشيخ الجري فقد رأى أن الشرفاوي على حق، لذلك لم يحاول الدفاع عن رأيه ولا شرح مقصده، بل صافحه في حرارة، وقدم له شكره العميق، وأشد أبياتاً شعرية تليق بالمقام².

- نكران الذات، فالشرفاوي إذا عرف أنه أخطأ في حق شخص فإنه لا يستنكف عن الاعتراف بخطئه، مهما كانت الظروف، وهنا نسوق حادثة وقعت له مع طالب في زاوية عبد الرحمن اللولي. فقد كان في الزاوية طالب اسمه محمد الإفليسي يتميز عن سائر الطلبة بكبر سنه، وتعلقه بالشيخ السعيد الجري تعلقاً يقرب من التقديس، وكان قد درس عليه في هذه الزاوية، ولما جاء الشيخ الشرفاوي وأصبح هذا الطالب من تلاميذه ظل يتابع دروسه، ولكنه كان يقلقه، حيث لا يُفتي الشيخ الشرفاوي فتوى، أو يرى رأياً، أو يقول قولاً، إلا قال له الإفليسي - معرّضاً -: ولكن الشيخ السعيد لم يقل هكذا، فيغضب الشيخ وقد يزجره، ولكن الطالب لا يرعوي، بل إنه يرى في مخالفة الشيخ خدمة لشيخه ووفاء له، وعرف الطالب بين زملائه بالنتكر للشيخ ومخالفته له.

وذات ليلة ممطرة، وكان الشيخ يُلقي درساً في الجامع، ولشدة المطر وغزارته سحّت منه قطرات على فراش الشيخ لأول مرة، وحينما أنهى الشيخ درسه ودخل إلى حجرته كان المطر قد توقّف تماماً، ولما حان وقت النوم، صعد الشيخ إلى فراشه فوجده مبلولاً، وأيقن أنّ ذلك من فعل فاعل، وتبادر إلى ذهنه أنّ الإفليسي هو من فعل ذلك نكاية فيه، لأنّه كثيراً ما يخالفه ويتشيع لرأي شيخه القديم. تأثر الشيخ لهذا العمل الدنيء بالغ التأثير، وما

¹ - محمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي، ج 2، موفم للنشر، الجزائر، ط 2، 2008، 42- 43.

² - نفسه.

كان منه إلا أن نادى بمجلس الإدارة، وقام هذا بجمع الطلبة للنظر في هذا الذي سؤلت له نفسه أن يفعل هذه الفعلة الشنعاء، وكانت أصابع الاتهام متجهة كلها إلى الطالب المذكور لحاله مع الشيخ في دروسه. وأخذ الطلبة يقسمون على المصحف بلا تردد أو خوف، ولما جاء دور الطالب المتهم تقدم إلى المصحف ولكن في شيء من الهيبة والارتباك، وأقسم كغيره من الطلبة، وهذه الحال من الهيبة والارتباك ظنّها الطلبة دليلاً على صحّة التّهمة، وهي في الواقع إنّما نتجت عن شعوره بتهمة زملائه له.

عاش الشيخ أياما في قلق ماحق من هذه الفعلة الخسيصة، وعاش الطالب أيضا موضع احتقار وازدراء بين الطلبة، وكان لا يتخلف عن الدرس، ولكنّه لا يسأل ولا يشارك في حركة الدرس، وإنّما التزم الدرس لكيلا يُقوي التّهمة على نفسه، أما الشيخ فإنّه كان يتحاشى النظر إليه ولا يُكلّمه أبداً. وبعد أسبوع من صفو الطّبيعة، عاد المطر بقوّة، وكان الشيخ هذه المرّة في حجرته مستغرقا في القراءة والكتابة، فسمع نقرات على الفراش، ولما رفع رأسه رأى قطرات تتساقط من السّقف، وعندئذ عرف الحقيقة، وأدرك أنّه ظلم الطالب، وأخذته حالة من الندم الشديد، ولم يكن من الشيخ إلا أن نادى مجلس الطلبة، وأعلمه بالحقيقة، وطلب منه أن يجمع الطلبة كما جمعهم بالأمس، ويكشف لهم الحقيقة، واستدعى الطالب المتّهم، وكاشفه بالأمر واعتذر له عن سوء ظنّه رغم أنّه لم يواجهه بالتّهمة، وإنّما حاله معه يدل على ذلك، فكان هذا الموقف من الشيخ سبب تحوّل الطالب من معارض للشيخ إلى متشيّع له ومحبّذ لأفكاره وآرائه الإصلاحية¹.

هـ - صفاته الخلقية

- **عُلُوّ الهمة وقوّة الإرادة والصّبر على المحن والشّدائد**، فلو لا هذه الخصال المتأصلة فيه ما استطاع أن يذهب إلى مصر وهو لا يملك مالا، لا قليلاً ولا كثيراً، وما استطاع أن يواجه الحياة القاسية وهو يدرس بالأزهر الشريف سنوات طويلة حتى حقق مبتغاه. وحتى بعد عودته من مصر إلى الجزائر واستقراره في مسقط رأسه بين أهله وعشيرته لم يدق طعم الحياة، أو طعم الرّاحة النفسية، إذ كان أعداء العلم والإصلاح يكذبون عليه صفو الحياة، إذ قابلوه - كما رأينا - بالجحود والإعراض والهجران، وبالمكائد

¹ - القصة رواها الأستاذ محمد الصالح الصّديق في العديد من كتبه، وأيضا سمعتها منه شفويا في لقائي معه بتاريخ:

والدسائس، ومع ذلك لم يهن عزمه، ولم يضعف يوماً أو يتخلَّ عن نضاله الفكري والإصلاحي.

- التواضع وسعة الصدر، فقد كان بسيطاً متواضعاً، يخفض جناحه لكل من يريد الاستفادة منه. ويظهر تواضعه وسعة صدره في حياته مع الطلبة¹، قال عنه أحد طلبته: «إنَّه عالم متواضع، أخلاقه عالية، حين يكلمك تشعر أنَّه ينزل إلى مستواك..»². ومما كان يقوله لطلبته: «مهما أخذت من العلم فما أنت إلا كعصفورٍ نقر نقرات من البحر!»³.

ويظهر تواضعه أيضاً مع الزوار الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، ومع العلماء الذين يجتمع معهم، وكذلك في البيت مع زوجته ومع أعمامه⁴، وحتى مع الأطفال. يروي الأستاذ محمد الصالح الصديق أنَّ الشيخ الشرفاوي حين أتى بأخته في أول زيارة إلى بيتهم، وجدته - وهو طفل - يلعب مع أترابه، فسألهم الشيخ: ماذا تلعبون؟ ولما شرحوا له الأمر، استأذن الشيخ في اللعب معهم، وظلَّ حوالي نصف ساعة يؤدي الأدوار التي يعطونها له، حتَّى أنَّ صهره الشيخ البشير استغرب من الشيخ الأزهري كيف يفعل هذا؟⁵ وفي السياق ذاته ذكر الأستاذ أنَّه - وهو طفلٌ أيضاً - كان حين يزور أخته في قرية الشرفة يقضي ساعات في اللعب مع طفل في سنه يجده هناك⁶، يقول: كان الشيخ في أغلب الأوقات يكتب ويقرأ، ولكنَّه مع ذلك لم يكن يُقلِّقه لعبنا، بل هو أحياناً يعلِّق على بعض أدوارنا في اللعب بانتقاد أو تشجيع، وكان مع ذلك يدعونا إلى القراءة إذا أخذنا قسطاً من اللعب⁷.

هكذا كان الشرفاوي رحمه الله يلعب مع الأطفال بلعبهم، ويخالط سائر الناس من غير تكبر أو ترفع، ولا غرو في ذلك، فالعالم الحق كالشجرة المملأى بالثمار تتدلى أغصانها إلى الأرض لينال منها طويل القامة وقصيرها، وأما الشجرة الفارغة فأغصانها تتعالى في الفضاء لخفتها! وقديماً قال الشاعر:

مَلَأَى السَّنَابِلَ تَنَحْنِي تَوَاضِعًا * وَالْفَارِغَاتُ رُؤُوسُهُنَّ شَوَامِحُ

1 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

2 - الشيخ محمد بن عيسى، مكالمة هاتفية معه بتاريخ: 2014/04/07م.

3 - محمد الصالح الصديق، مدارس لولاها ما كُنْتُ، دار النعمان، الجزائر، 2017، ص 154.

4 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

5 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/11/03م.

6 - وهو ابن شقيق الرزقي الشرفاوي المعروف خلال الثورة التحريرية باسم "بشير القاضي".

7 - محمد الصالح الصديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 2، مرجع سابق، ص 208.

- الكرم، كان الشيخ الشرفاوي كريما جوادا بالرغم من المال القليل الذي يتقاضاه في الزاوية، فقد كان يُكرم ضيوفه كرما يجعلك تظنّ أنه من الأغنياء¹. وكان يجلس كل يوم السبت - في فترات العطل - في دكان أحد المعجبين به في مدينة عزازقة، فيجلس إليه رواد العلم والمعرفة الذين يأتون من القرى القريبة والبعيدة، فيتناولون مختلف المشروبات، ورغم أجرة الشيخ المحدودة - كما ذكرنا - فإنه يأبى إلا أن تكون على حسابه².

وروت عنه زوجته أنها كانت إذا أرادت أن تُعدّ طعاما متميزًا أمرها بالإكثار منه، وتوزيع بعضه على فقراء مدقعين بالقرب من البيت، ويقول لها باللهجة القبائلية ما معناه: « إن ربيع الحرّ أن يُدخِل على قلب المحزون مسرة³! وإذا بعث إليه أحد الناس بهدية مما يُؤكل أوصى زوجته أن لا تنسى الجيران، وكثيرا ما يقول لها ما معناه: « إذا أنتِ أسديتِ جميلاً إلى أحد فانسيه ولا تذكريه، وإن أسدى إليك أحد جميلاً فاذكره ولا تنسيه⁴».

- الصراحة وحرية الفكر، فقد كان الشيخ صريحا في آرائه وأقواله، فلا يقول إلا ما يعتقد، ويتجلى ذلك في دروسه ومجالسه العلمية ومقالاته الصحفية. ويُذكر أنّ أحد الطلبة وهو محمد الإفليسي، كان كثير الاعتراض على الشيخ، فكلما أفتى فتوى، أو نكر مسألة في الدرس قال الإفليسي: ولكن الشيخ السعيد الجري - شيخه السابق - لم يقل هذا، وقد تكرر منه ذلك كثيرا! وذات يوم سأل هذا الطالب عن مسألة، فلما أجابه الشرفاوي قال له: ولكن ما هكذا كان قول الشيخ السعيد! فغضب عليه الشيخ ونهره، وقال له: « أنت عبد غيرك، تفكر بفكره، وتتحدث بلسانه، وتحب من يُحب، وتكره من يكره، فمن الخطأ أن تعدّ نفسك مستقل الوجود، لأنّ وجودك مُلقق بوجود غيرك»، ولكن ما لبث الشيخ أن لان وعطف على الطالب، وأخذ يقول له في أسلوب رقيق رقيق ما معناه: « إنّ الله تعالى خلَقك حرّاً، فلا تكن لغيرك عبداً، فحاول أن تتخلص من هذه القيود، وأن تُعتق فكرك من هذا الجمود⁵».

1 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

2 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 78.

3 - محمد الصالح الصديق، "جوانب من شخصية العلامة الشيخ محمد الرزقي الشرفاوي"، البصائر، الحلقة الثانية، العدد 299، 31 جويلية- 7 أوت 2006.

4 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 79.

5 - البصائر، العدد 299، 31 جويلية- 7 أوت 2006.

ويذكر الشيخ مكي النعماني أنه كان خلال درس التفسير يناقش الشيخ، وخاصة حول مفهوم بعض الآيات المحتملة لعدد من التأويلات والمفاهيم، يقول: «.. وكانت المناقشة تشتد أحياناً، وكان رحمه الله يتحمل مني كل ذلك بصدور رحب مما زادني فيه حُباً، وله احتراماً، وفي ختام كل جولة متعبة كنت أسترضيه فيرضى عني، ويشجعني على استخدام العقل ما دمتُ محصناً بالكتاب والسنة، مما أثر في نفسي أشد الأثر»¹.

- **العفو والتسامح**، فكم آذاه أهل قريته لتفتحه العلمي، ومحاربتة للبدع والعادات المألوفة عندهم، وكم حاربه الطرقيون لأنهم يرون فيه عدواً لدوداً، ومنحرفاً عن الجادة، ومع ذلك كان لا يحقد عليهم، ولا يُظهر لهم البغضاء، بل يعفو ويُسامح. وهنا يمكن أن نذكر بموقف الشيخ مع زميله مدرس القرآن في الزاوية الشيخ أحمد المقنيعاوي الذي راسل الأزهر باسم الطلبة في مسألة الرّبيبة، ولما انكشفت الحقيقة جمع المقنيعاوي أغراضه وهم بمغادرة الزاوية بأمر من مجلس الطلبة، لكن الشيخ الشرفاوي دعاه وعفى عنه، فظلّ الشيطان على صداقتهما كأن شيئاً لم يقع².

ثم إن الشرفاوي رغم الحملات المغرضة التي سُنت ضده في فتوى الرّبيبة وغيرها، لم ينزل أبداً عن المستوى الخُلقي الذي يتّصف به العلماء، إذ لم أعثر في كتاباته على ما يمسّ الذوق أو يخدش كرامة أحد، فقد كان في كتاباته ومناقشاته العلمية لا يجرح أحداً، فإذا ما لاحظ تهافتاً في الفكر لمَح إلى ذلك تلميحاً، دون أن يذكر اسم أحد، فضلاً عن أن يمسّ بشخصه! وكان يرثي لحال خصومه فيقول ما معناه: « لو كان هؤلاء علماء حقاً لتعاونوا معي على البرِّ والتقوى، لأنّ العلم يملأ القلوب نوراً، ويهدي إلى الطريق المستقيم»³.

- **الوفاء**، فقد كان الشرفاوي وفياً لشيخه وأصدقائه وكل من اتّصل به، كان يذكر في دروسه شيوخته، وإذا ذكر شيخاً ذكره بالإجلال والتقدير، فيؤوّه به، ويثني عليه خيراً، ويذكر محاسنه، ويدعو له بالرحمة إذا كان ميتاً، وبالصحة إذا كان حياً، وغرض الشيخ

¹ - من أوراق الشيخ مكي النعماني بخطّ يده، مصدر سابق.

² - محمد الصالح الصديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 2، مرجع سابق، ص 83. أيضاً: شهادة شفوية بتاريخ: 2014/09/03م.

³ - محمد الصالح الصديق، رحلتي مع الزّمان، ج 1، مرجع سابق ص 220.

من ذكر شيخه أن يقتدي طلبته بأخلاق وفضائل ذلك الشيخ¹. وقد ذكرنا في موضع سابق أبرز الشيوخ الذين تأثر بهم الشرفاوي والذين كان يُكثر من ذكرهم في حلقات دروسه.

وهو إذا ركن إلى شخصٍ لاطمئنان قلبه إليه، كان له مخلصًا، وحاول أن يكون له معينًا، وخلاً أمينًا. وقد زامله بعض الطلبة الجزائريين في الأزهر، وقال أنه زامله في ظروف مختلفة فلم يُجرب عليه لومًا في زمالة، ولا غشًا في صداقة، ولا سوءًا في معاملة، ولا تراخيًا عند الحاجة².

- **حُسن استغلال الوقت**، كان الشيخ الشرفاوي منضبطًا كل الانضباط، وحريصًا كل الحرص على وقت الدروس، ويذكر الأستاذ محمد الصالح الصديق أن الشيخ كثيرًا ما يزوره شخص ذو قيمة علمية، أو مركز اجتماعي، فيظن الطلبة أنها فرصة للراحة، ويستبشرون خيرا، ولكن سرعان ما يرون الشيخ يستعد للدرس، أو يدخل قاعة الدروس وقد خَلَفَ للزائر من يؤنسه³. من ذلك أن الشيخ المهدي البوعبدلي⁴ - مفتي بجاية آنذاك - جاء يزور الشيخ الشرفاوي مع أحد القضاة، وكان وقت الدرس قد حان، فظنَّ طلبة هذا الدرس أن الشيخ لن يترك صَيْفِيَه ولم يقضيا معه إلا لحظات، ولكن ما إن رَحَّبَ بهما حتى اعتذر وأقبل على الدرس تاركًا معهما أحد الطلبة الكبار! وكان القايد العربي - قايد عرش إيلولة - يزور الشيخ في وقت الرَّاحَة لأنه يعرف حرصه على الدروس⁵.

لقد أدرك الشرفاوي قيمة الوقت، وعرف أن كل لحظة تمر من عمر الإنسان دون استثمار تعدّ خسارة، لذلك كان يحافظ على الوقت أشدَّ المحافظة، فكان يقسم أوقاته في

1 - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

2 - محمد الصالح الصديق، من كتاب مخطوط كان يُعده للطبع.

3 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 35.

4 - المهدي البوعبدلي (1907-1992م)، من بلدة بطيوة "أرزيو" بالغرب الجزائري، خريج جامع الزيتونة بتونس 1938م. تولى الإفتاء في بجاية ثم في مدينة الأصنام "الشلف" قبل الاستقلال. وبعد الاستقلال عين عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى، وانكب على البحث والدراسة والكتابة، وكان شغوفًا بجمع الوثائق والمخطوطات، وقد حقق بعضها وأفاد الباحثين بما عنده منها، ومكتبته الآن بزواوية جدّه بـ "بطيوة" تزخر بما جمعه من مخطوطات. وقد تولى جمع أعماله الكاملة وإعدادها للطبع الأستاذ عبد الرحمن دويب، وتولت طبعها ونشرها دار عالم المعرفة بالجزائر سنة 2013م، وهي في ثمانية أجزاء. للمزيد عن حياته أنظر: القسم الأول من الجزء الأول من هذه الأعمال.

5 - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 35.

ليه ونهاره: يُدرّس للطلبة، ويقرأ ويكتب الأبحاث ويتهدّد، وكان يقول: « إنني لأتعب ممن أمكن لهم أن يستغلوا وقتهم ولكنهم يُضيّعونه! »¹.

و - مكانته العلمية

لقد عرفنا فيما سبق أنّ الشيخ الشرفاوي قد حاز على شهادة العالمية التي لا ينالها إلا من درس مختلف العلوم والفنون التي تدرس بالأزهر الشريف، وبعد أن يُمتحن في كل تلك العلوم من طرف لجنة من كبار العلماء. ثم إنّ اشتغال الشيخ المتواصل بالقراءة والتدريس والكتابة قد زاد تكوينه متانة، وعلمه غزارة، وقد لمس فيه ذلك طلبته النجباء، فكان أمثال الشيخ العربي بن عيسى، والشيخ مكي النعماني يتحدثان في إعجاب عن كفاءته العلمية، وكان هذا الأخير يرى في أستاذه « نادياً متنقلاً، فيه ما تشتهيهِ كل الأذواق والعقول.. »²! وفي نبذة كتبها عن أستاذه يقول النعماني أيضاً: «.. إنّه - أي الشرفاوي - ضرب المثل الشّروء في التجديد والإصلاح، بلغ بهما إلى درجة الاجتهاد، وإثقا من نفسه وثوقاً منقطع النظير، مستقلاً في اجتهاده بحيث كان إذا بلغ به الأمر في قضية ما أن اقتنع بها بعد بحثٍ واستقراءٍ فبهيات هيات أن تُثبته عن ذلك غوغاء، أو تُؤثّر عليه قوة ما مهما كانت، إذا كانت خارجة عن البرهان الصحيح، فالحقّ عنده ما أثبته الدليل، وأيّده البرهان، لا ما أيده الناس وكثرة الأعداد.. »³.

أما تلميذه المتميّز، الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، الذي طالت صحبته للشيخ، واهتم بعد ذلك بكتابة حياته وجمع آثاره، فقد عرف قيمة أستاذه حقّ المعرفة، خاصة بعد أن تغرّب وقابل الكثير من العلماء، فقد قال عن شيخه في شهادة شفوية سجّلتها عنه: « الشيخ الرّزقي الشرفاوي عالمٌ، عرّف قيمة علمه ووزنه عندما تغرّبت إلى الشّرق في أيام النّورة التحريرية وبعدها، فقد قارنت بينه وبين علماء الأزهر الآخرين الذين التقيتهم في مصر وسوريا وتونس، فتجلّت لي حقيقة الشيخ الرّزقي أنّه في مستوى العالم. فأينما وضعت يدك فيه سالّ نبغ علمٍ من العلوم، خاصة في ثلاثة علوم هي: التفسير والفقه والأصول »⁴.

1 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/10م.

2 - من أوراق الشيخ مكي النعماني بخطّ يده، مصدر سابق.

3 - نفسه.

4 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

وفي الأخير هذه بعض صفات الشرفاوي التي أشارت إليها التقارير الفرنسية¹:
يتجنب الاحتكاك برجال الاستعمار، وينفر من كل ما هو فرنسي، ليس له علاقات مع
الأشخاص الأوربيين. لا ينتمي إلى أيّ طريقة، وليس له قائد روحي، يتصرف باستقلالية.
هادئ الطبع، ذكي، تكوينه جيّد في اللّغة العربية والثّقافة الإسلامية، ويجهل تمامًا اللّغة
الفرنسية².

والخلاصة أنّ الشيخ الشرفاوي عُرف بسعة ثقافته العربية الإسلامية، فهو: فقيه
وأصولي ولغوي، ومربي ومصلح اجتماعي، وقد استطاع بعلمه، وفتحه، وأخلاقه العالية،
وجهاده في ميدان التربية والتعليم والإصلاح، أن يحجز مكاناً بين كبار شخصيات عصره،
وإن لم ينل - إلى الآن - حظّه من الدراسة والإبراز.

2- جوانب من حياته الخاصة

أ- زواجه

لقد تزوج الشيخ الشرفاوي امرأتين في حياته، الأولى مصرية تزوجها حين كان بمصر، وقد
طلّقها عند عودته إلى الجزائر سنة 1933م، لعدم موافقة أهلها لها على مرافقته، وقد ذكرنا هذا
من قبل، أما الثانية وهي جزائرية فقد تزوّجها بعد عودته إلى الوطن.

فبعد بضعة أشهر من عودته، وانتصابه مدرّسا بزواوية الشيخ عبد الرحمن اللولوي، اعتزم
الشيخ على الزواج، فدلّه بعض معارفه على أسرة الشيخ البشير آيت صديق³، وهي أسرة
معروفة بالعلم والجهاد والوطنية. فزوجة الشيخ البشير هي ابنة الشيخ الشريف الإفليسي⁴، وهذا

¹ - من تقارير عديدة، الأرشيف الوطني لما وراء البحار، آكس - آن - بروفانس، العلبة رقم:

A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52

² - ذكر لي الأستاذ محمد الصالح الصديق أنّه سمع شيخة في إحدى المرات يحمد الله على أن عوّج لسانه عن
الفرنسية! وهذا ربما في فورة غضب، وباعتبار اللّغة الفرنسية رمزاً من رموز الاستعمار وإحدى أدوات فرنسا للهيمنة
على عقول الجزائريين، وإلّا فلا نظن أنّ عالماً في مستوى الشرفاوي يمقت لغة من اللّغات مهما كانت.

³ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م.

⁴ - الشيخ الشريف الإفليسي (1832-1917)، من قرية "تمليلين" الواقعة بالقرب من تغزيرت بولاية تيزي وزو، درس بزواوية
سيدي منصور ثم بزواوية سيدي عبد الرحمن اللولوي أين تتلمذ على الشيخ القاضي الصدوقي، والشيخ أبي القاسم البوجليلي.
أذن له شيوخه بالتدريس في حدود 1850م وعمره لا يتجاوز 18 سنة، فدرّس في العديد من الزوايا، آخرها زاوية عبد الرحمن
اللولوي التي قضى بها 16 سنة. للمزيد عنه أنظر: محمد الصالح الصديق، أعلام من منطقة القبائل، = ج 2، دار هومة،
الجزائر، ط 1، 2013، ص 19-28. أيضا لنفس الكاتب: الشهيد الشيخ محمد الطاهر حفيد الشيخ الشريف الإفليسي، دار
الأمل، تيزي وزو - الجزائر، ط 1، 2017، ص 57 وما بعدها.

الأخير عالم وفقهه، قضى عمره في التدريس بزوايا المنطقة، وهو معروف بعدائه للاستعمار وأعدائه. وشقيقه الشيخ الطيب كان من قادة المعارك في ثورة المقراني والحداد (1871م)، وسقط جريحا، فأخذته فرنسا وعالجته ثم زجت به في سجن الحراش وتوفي فيه¹. أما الشيخ محمد البشير²، فكان إماما بقرية "أبيزار"، وهو من أتباع الطريقة الرحمانية، لكنه مصلح، يحارب البدع والخرافات، ويحب الإمام ابن باديس، ويقرأ جرائد الإصلاح، وهذا الذي استمال قلب الشيخ الشرفاوي أكثر فأرسل إليه من يخبره بنيته في زيارته لطلب يد ابنته، وحدد له يوم الزيارة.

هيا الشيخ البشير الجو المناسب للقاء هذا العالم الأزهرى الذي عاد إلى أرض الوطن حديثا، فاستقدم صهره الشيخ محمد الطاهر³، وأحضر من القرية طائفة من أعيانها المحبين للعلم والعلماء، فكان كل هؤلاء في استقبال الشيخ الشرفاوي ومرافقيه حين حلوا بالقرية، ونزلوا ضيوفا على بيت الشيخ البشير. ويذكر الأستاذ محمد الصالح الصديق أن الشرفاوي جاء بهندامه الأزهرى: العمامة والقفطان، ما أثار فضول أهل القرية وجعل طائفة منهم يتطلعون إليه عند وصوله، ويرمقونه بعيونهم! لكن الغريب في الأمر أن فارق السن بين الشرفاوي والبنات التي جاء

¹ - الشيخ الطيب الإفليسي (1825-1882م)، درس بزواية سيدي منصور ثم بزواية الشيخ عبد الرحمن البلولي، كما درس على يد الشيخ محمد أمزيان بن الحداد في زاوية صدوق. عُيّن مقدا للطريقة الرحمانية، وتولى الإمامة في قريته "تمليلين". شارك في ثورة 1871م، وسقط جريحا في معركة، وألقي عليه القبض يوم 29 جويلية 1871م، وحُكِمَ عليه بالإعدام ثم حُفِّفَ بالمؤبد، مات بعد إحدى عشرة سنة قضاها في سجن الحراش، ودفن لوحده في المكان الذي أصبح مقبرة ما تزال تحمل اسمه "مقبرة الشيخ الطيب" أو "سيدي الطيب" بشرق الحراش. للمزيد عنه أنظر: محمد الصالح الصديق، الشهيد الشيخ محمد الطاهر حفيد الشيخ الشريف الإفليسي، مرجع سابق، ص 25 وما بعدها.

² - محمد البشير آيت صديق (1889-1968م)، أصله من قرية "إيسكرين"، تعلم بكتاب القرية ثم بزواية سيدي منصور بأث جناد. سافر إلى تونس للدراسة بجامع الزيتونة، لكن فقره حال دون تحقيق رغبته، فعاد إلى مسقط رأسه. انتقل إماما إلى قرية "أبيزار" في سنة 1916م. اشتهر في الأربعينات بتربية أبناء المنطقة على الوطنية، وإعدادهم روحيا ونفسيا لثورة التحرير، منهم المناضل محمد إعزورن المدعو "بربروش"، بطل عملية العصفور الأزرق، والذي أصبح عقيدا في جيش التحرير الوطني. للمزيد أنظر: محمد الصالح الصديق، أعلام من منطقة القبائل، ج 1، مرجع سابق، ص 77 وبعدها.

³ - الشيخ محمد الطاهر آيت عيسى (1892-1956م)، من قرية "تمليلين"، درس بزواية سيدي منصور ثم انتقل إلى زاوية عبد الرحمن البلولي أين درس على جده الشيخ الشريف الإفليسي، ثم الشيخ السعيد الجري. عاد إلى قريته وتولى فيها الإمامة والإرشاد وإصلاح ذات البين، وأنشأ زاوية لتحفيظ القرآن افتتحها سنة 1936م. أعدمه الفرنسيون في أكتوبر 1956م لما اكتشفوا علاقته بالثورة حيث كانت زاويته محطة ينزل بها المجاهدون. للمزيد عنه أنظر: محمد الصالح الصديق، الشهيد الشيخ محمد الطاهر حفيد الشيخ الشريف الإفليسي، مرجع سابق، ص 91 وما بعدها.

يطلبها للزواج كان كبيراً، إذ هي بالنسبة للشيخ بمثابة الحفيدة له، فقد كان عمره خمساً وخمسين سنة، في حين أنّ عمرها خمسة عشر سنة!

يصف الأستاذ محمد الصّالح الصّديق ما حدث في تلك اللّيلة فيقول: ما أن انتهوا - أي الضيوف - من تناول العشاء، حتى حلّق الجميع حول الشّيوخ الشرفاوي، وأخذوا يطرحون عليه أسئلة مختلفة المستوى، فكان الشّيوخ في الجواب يرتفع أحياناً ويحلّق في أجواءٍ طليقة، وفي أحيان أخرى ينزل مع العقول المحدودة الأفق، حتى تشعر كأنّه في مستواها علماً وفكراً! ولما افترق الجمع في منتصف اللّيل، وخلا الجوّ للشّيوخ الشرفاوي، عرض رغبته على الشّيوخ البشير، وهنا اكتفى الأخير بقوله للشرفاوي: مثلك يُؤثّر إذا خطب، فتم الآن، والخير ما يختاره الله¹..

ذهب الجميع للنوم، أما الشّيوخان، محمد البشير وصهره محمد الطّاهر، فقد عقدا جلسة تواصلت حتى قبيل الفجر، حاول كل منهما إقناع الآخر بكل ما يملك من حجة وبيان. فالبشير يرى أنّ الشرفاوي عالم جليل، جدير بكل تقدير واحترام، ومن تقديره أن لا يُرفض طلبه، وأن يُؤثّر على كل خاطب، إضافة إلى أنّ في مصاهرته تقوية لصفّه، وتعزيزاً للتّيار الإصلاحية أو الوطني الذي يناهض الطّرقين، ومحمد الطّاهر يرفض هذا الزواج ويراه إجحافاً بحق البنات، وظلماً لها، لفارق السنّ الكبير بينهما²! وكان هذا هو موقف الأم أيضاً، فقد بكت وتأثّرت، وقالت لزوجها: إنك مسؤول أمام الله، وستحاسب إن أمضيت هذا الأمر³، وأبدت رأيها في قوّة وشجاعة، واستعانت على زوجها بابن أخيها الشّيوخ الطّاهر، ولم تكترث بمخالفته وغضبه، ولأوّل مرة يقع منها ذلك، إذ من عاداتها أنّها تسامر زوجها وتوافقه في كل ما يقترح، ولا تخالف له أمراً⁴، كما هو حال أكثر النساء الجزائريات في ذلك الزمان.

1 - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، ص 55.

2 - نفسه، ص 55-56. أيضاً: شهادة شفوية بتاريخ: 2013/08/26م.

3 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/03/29م.

4 - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، ص 79.

لم يكثر الشيخ البشير باعتراض زوجته وصهره، فأمضى رأيه كما يشاء، وتم الزواج، وكان ذلك في صيف سنة 1934م¹.

لقد كان هذا الزواج تدعيماً للجانب الإصلاحي الذي يمثله الشيخ البشير، كما كان تدعيماً لجانب الشيخ الشرفاوي الذي نزل بالمنطقة غرباً لا سند له ولا قوة، بعد أن غاب عنها في مصر ستة وعشرين عاماً، وعاد إليها ليناصر حركة الإصلاح وجمعية العلماء على الطرفين، لكن ماذا عن البنت الصغيرة المسكينة التي لم تُستشر في أمر زواجها وهي المعنية بالدرجة الأولى²؟ وهنا نقول: إذا كانت الحياة الزوجية هي - قبل كل شيء - توافُق الأمزجة، وانسجام الأرواح، فإنّ هذا يندر أن يكون بين فتاة دون العشرين وشيخ يقارب الستين! لكن رغم ذلك فقد عاشت الفتاة - حسب ما أفادنا به أخوها الأستاذ محمد الصالح - في وئام تام مع زوجها حتى وفاته، ولم تشتك أبداً، ذلك أنّ الشيخ علم أنّه تزوّج امرأة لا تلائمه من حيث السن، فحاول جهده أن يُسعدّها، فكان يعاملها معاملة خاصة، ويبالغ في إراحتها، حتى أنّه وقّر لها خادمة تساعدّها في أعمال البيت³! وأما الشيخ الذي لم يهنأ في حياته في منطقة القبائل منذ عودته من الشرق بسبب محاربة الطرفين له، فقد سعد في بيته مع هذه الزوجة⁴.

ب - أولاده

أثمر هذا الزواج بنتاً وولداً هما:

- زهرة، من مواليد 1938/08/07م، تزوّجت بابن عمّها محند السعيد، وأنجبت معه ثلاث بنات وولدين، ما تزال على قيد الحياة، وقد زرتها مرتين في بيتها العائلي بقرية الشرفة بهلول، فكانت ممن أفادني في موضوع هذا البحث.

- محمد عبد الرحمن، من مواليد 1941/12/17م، بدأ دراسته بزاوية الشرفة بهلول ثم انتقل وهو في العاشرة من عمره إلى زاوية الشيخ عبد الرحمن اللولوي أين أتم حفظ القرآن،

¹ - يشير الدفتر العائلي إلى أنّ عقد الزواج أُبرم بتاريخ: 1934/06/18م، ورقمه: 112. واسم الزوجة فاطمة آيت صديق، مولودة سنة 1917م. ونكر لي الأستاذ محمد الصالح الصديق أنّ سنة ولادتها في الواقع هي 1919م، إذ تم تنزيل سن البنت بستين لأنها لم تبلغ - آنذاك - السن القانوني للزواج!

² - من مظاهر ظلم البنت بستين لأنها لم تبلغ - آنذاك - السن القانوني للزواج، وأيضاً حرمانها من حق الميراث، وأيضاً حرمانها من حق إبداء رأيها فيمن يتقدم لطلب يدها، وهذه حقوق أقرها لها الإسلام منذ قرون!

³ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/11/03م.

⁴ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/03/29م.

وتابع الدراسة على خاله الأستاذ محمد الصّالح الصّديق، ثم الشّيح الصّادق مشواط. في أواخر 1956م حاصرت القوات الفرنسية الزاوية، ونقلت طلبتها إلى "تابودة" ثم إلى المركز العسكري في "بوهير"، ثم أخذ عبد الرّحمن مع اثنين من الطلبة إلى سجن عزازقة، ولما أُطلق سراحه التحق بجيش التحرير. كان ضمن بعثة الطلبة الذين أرسلهم العقيد عميروش في أواخر سنة 1957م للدراسة في الخارج، فتابع دراسته بكلية الآداب بجامعة دمشق إلى أن تخرّج بدرجة ليسانس في الآداب. في سنة 1973م عاد إلى الجزائر، واشتغل إطارا بوزارة الشّؤون الدينية، ثم بوزارة الثقافة والإعلام حيث اشتغل أمينا عاما لتحرير مجلة "الثقافة" إلى أن أُحيل على التقاعد سنة 2001م¹، توفي رحمه الله يوم الخميس 2015/01/29م، وترك من الأبناء ثلاثة: ولد وبنيتين². حين شرعت في إنجاز هذا البحث كان حيا، فزرته في بيته بالجزائر العاصمة، وأمّديني ببعض المعلومات عن والده، وكان اللّقاء عن غير موعد، فتواعدنا على لقاء آخر أو لقاءات، لكن المرض ثم الأجل المحتوم حالا دون ذلك.

ونحن إذا حاولنا تعليل اختيار الاسمَيْن، زهرة وعبد الرّحمن، فلا نجد له إلا هذا التعليل: فقد تأثر الشّيح الشّرفاوي بالأزهر الشّريف لكونه هدفه الذي كان يطمح إليه، وتجسّم المشاق حتى وصل إليه، وفيه بنى مستقبله العلمي، وكان معجبا جدا بشخصية الشّيح عبد الرّحمن اليلولي، مؤسس الزاوية المشهورة التي درّس بها سنوات بعد عودته من مصر، لسيرته وعلمه وثقافته، فلا يبيدُ إذن أن يكون للأزهر وللشّيح عبد الرّحمن اليلولي إحياء في تسمية الشّرفاوي لولديه³.

بقي أن نشير إلى أنّه عندما توفي الشّيح الشّرفاوي قضت الزوجة في بيتها شهرين، ثم أخذها والدها الشّيح البشير آيت صديق إلى بيته لصغر أبنائها، ولم تتزوج بعد ذلك،

1 - محمد عبد الرّحمن قازو، نجل الشّرفاوي، أمّديني بهذه المعلومات عن حياته في اللّقاء الذي جمعتني به في بيته قبل وفاته بنحو عام.

2 - خالد شريف قازو، نجل محمد عبد الرّحمن، مقابلة شخصية معه بتاريخ: 2016/08/01م.

3 - أفادتي بنت الشّيح الشّرفاوي بأن والدها هو الذي سماها "زهرة"، وسمى أباها "محمد عبد الرّحمن". ولما ذكرْتُ للأستاذ محمد الصّالح الصّديق التعليل الذي أوردته، أفادني بدوره بأنّه سمع من أخته، وهي أم الولدين، أنّ اسم عبد الرّحمن مستوحى من الشّيح عبد الرّحمن اليلولي.

وتوفيت سنة 2009م¹، أما الوالدان فكانت نشأتهما بين الأم ببيت والدها، وعمّتهما "يمينة"² بقرية الشرفة بهلول.

ج- سكنه وأجرته بالزاوية

خلال فترة الدراسة كان الشرفاوي يقيم بالزاوية، ويزور بيته للراحة بعد عدة أسابيع مشحونة بالدرس والعمل، أما أيام العطل في الشتاء والربيع والصيف فيقضيهما الشّيخ مع عائلته في قرية الشرفة بهلول، وكان حين يأتي إلى بيته يرافقه عدد من الطلبة، ومثل ذلك في عودته إلى الزاوية³، وهذا تقديرا لمكانته العلمية.

وفي نظير ما يقوم به من التدريس كان الشرفاوي يتقاضى من الزاوية ستة آلاف فرنك في العام⁴، يُضاف إليها في بعض السنوات كميات من المواد الغذائية: (زيت، قمح، شعير)⁵، وهذه الأجرة لم تكن توفر له من العيش إلا الكفاف!

والواقع أنّ الشرفاوي قد رضي بعيشة الفقر في تلك الجبال النائية، وآثرها على العيش في كنف المدينة المعروضة عليه، لأنّه كان زاهدا في متاع الدنيا وزينتها، ولأنّه لم يكن أبدا ينشد الذبوع والشهرة، فقد كان همّه أن ينشر العلم، ويبثّ الإصلاح في هذه الربوع الفقيرة إلى العلم، وشعاره في الحياة هذان البيتان⁶ اللذان كثيرا ما كان يُرددهما:

مُنَايَ مِنَ الدنْيَا عُلُومٌ أَبْنَتْهَا * وَأَنْشَرَهَا فِي كُلِّ بَادٍ وَحَاضِرٍ
دُعَاءٌ إِلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي * تَنَاسَى رِجَالٌ ذَكَرَهَا فِي المَحَاضِرِ

د- بعض عاداته

كان الشّيخ الشرفاوي بعد عودته إلى الوطن يداوم على قراءة الصحف، ومن الصحف التي كانت تصله بانتظام: جريدة "البصائر" ومجلة "الإسلام"، الأولى لأنّها تمثل الجزائر

1 - توفيت يوم الاثنين 02 نوفمبر 2009م، ودُفنت بقرية الشرفة.

2 - توفيت سنة 1964م بعد عمر قارب الثمانين عاما.

3 - من شهادات الأستاذ محمد الصالح الصديق، والشّيخ مولود إيمون.

4 - هذا ما ورد في تقارير عديدة عثرنا عليها في الأرشيف الوطني لما وراء البحار، الملف الخاص بزاوية الشّيخ عبد الرّحمن اليلولي.

5 - تقرير قايد عرش إيلولة إلى حاكم بلدية سيباو الأعلى، بتاريخ: 1942/01/31م.

(A.N.O.M, Aix-en-Provence, 91505/52)

6 - وهما من شعر ابن حزم الأندلسي رحمه الله.

وجمعية العلماء، وكان يمدّها بمقالاته، والثّانية تمثل الشّرق، وهي حين تأتية وكأنّها نفحة من الأزهر أو مصر¹.

ومما يُذكر عنه أيضًا أنّه استمر مدة - بعد عودته من مصر - يرتدي اللّباس الأزهري، كما استمر على عادة شرب "الرنجيلة" أو "الشّيشة"² التي صاحبتة من مصر رغم محاربتة للدخان في حلقات درسه وفي مختلف مجالسه العلمية، والعجيب أنّه يتناولها حين يكون في بيته، وحين يذهب إلى الزاوية لا يأخذها معه أبداً، لذلك فإنّ الطلبة لا علم لهم بتناول شيخهم للشّيشة³! وكان الشّيخ - حسب ما روت عنه زوجته - يحب زيت الزيتون، فكان يداوم على شرب فنجان صغير من الزيت كل يوم، ثم يحرم نفسه من الأكل والشّرب لحوالي ساعة من الزمن⁴.

وكان الشّيخ فصيح اللّسان بالعربية والقبائلية، عربيته ليس فيها أيّ عثرة أو لكنة، وخالية تمامًا من اللّهجة المصرية رغم طول مكثه بمصر، وإذا تحدّث بالقبائلية تحدّث بها طلق اللّسان أيضًا كأنّه لم يتغرّب عن أهلها أمداً طويلاً في المشرق العربي⁵، ومما يؤكد فصاحته هذه تلك الأشعار التي نظّمها بالقبائلية، خاصة أثناء محنته مع أهالي قرية الشّرفة⁶. وكان الشّيخ يعتزّ بالقبائلية ويعتبرها لغة الأجداد، وهو يستخدمها مع العامة حين يأتون إليه للاستفتاء أو فضّ الخصومات⁷.

1 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

2 - الرّنجيلة أو الشّيشة: شبيهة بالتدخين، وهي عادة منتشرة جدا في مصر آنذاك وما تزال إلى الآن!

3 - محمد الصّالح الصّديق، في شريط الذّكريات، ج 4، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 476. أيضا: شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/11م. وللتذكير فإنّ الشّيشة هي مثل التدخين، لم تكن محرمة في فتاوى القمّاء التي تراوحت بين الإباحة والكرهية، أما في عصرنا فقد أفتى العلماء بحرمتها بعد أن اتّقت كلمة الأطباء على تحقّق الضرر منهما.

4 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2018/05/10م.

5 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/07/13م.

6 - هذا ما أفادتنا به بعض الشّهادات الشّفوية، فقد أملت علي السيّد فاطمة الصّديق - أخت زوجة الشّرفاوي - بعض الأبيات في بيت شقيقها الأستاذ محمد الصّالح الصّديق بتاريخ: 2015/03/29م. وسمعت بعضها (أربعة أشعار) من السيّد علي قازو نجل الشّيخ باعزير شقيق الرّزقي الشّرفاوي، وقد سجّلها بدوره عن عجز من قرية الشّرفة توفيت في السّبعينات، وهي زوجة السيّد بولرباس العربي، ذكرت له أنّ هذه الأشعار مما سمعته عن الشّيخ في صغرها حين كانت تذهب مع عجائز القرية لزيارة الشّيخ في بيته، إذ كان أحيانا يُسمعهن من أشعاره. بعض هذه الأشعار قالها الشّيخ في عداة أهالي قريته له، وبعضها في وصف البؤس الذي كان يعيشه الناس آنذاك، ومن المحتمل أنّ للشّيخ أشعارا أخرى لم تصلنا.

7 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/07/13م.

واعتماد الشيخ أن يزور مدينة الجزائر من وقت إلى آخر، فيمكث فيها يومين أو ثلاثة يلتقي خلالها أصدقاءه، ويتقابل مع العلماء ويتحدث معهم، ويحلو له حين يكون في العاصمة، أن يجلس مع صديقه الشيخ أحمد بن زكري في مقهى "تلمسان"، وهو مقهى مريح يقع بالقرب من الجامع الكبير، ويقابل البحر (في ساحة الشهداء حالياً)، كان يرتاده الناس المشهورون منهم المغني الشعبي المرحوم الحاج "محمد العنقي"¹. وذكر لي ابنة الشيخ الشرفاوي أن والدها كان يسافر من وقت إلى آخر، فكانت تسمع من أمها - وهي صغيرة - أنه ذهب لزيارة أصدقائه في بعض الجهات مثل قسنطينة وسطيف، لكنّها لا تذكر أسماء هؤلاء الأصدقاء².

هـ- مرض عينيه

رغم صعوبة الحياة المادية التي عاشها الشيخ الشرفاوي في طفولته، وأثناء وجوده في الأزهر، فقد عاش قويّ البنية، صحيح الجسم، غير أنه أصيب في أواخر حياته بفقد بصره نتيجة انهماكه في الكتابة والمطالعة تحت ضوءٍ خافتٍ غير ملائم³، فقد كان في الزاوية يشتغل على مصباح تقليدي ضعيف (الكانكي)⁴، وقد أُجريت له عملية جراحية فاستعاد بصره لبعض الوقت، لكن المرض عاوده، فظل يعاني حتى أصبح لا يرى إلا قليلاً⁵. وقد شكّل له ضعف بصره نكسة نفسية كبيرة، لكنّه لم يقنط من رَوْحِ الله، ولم يتوقّف عن عمله⁶.

و- وفاته

خلال الحرب العالمية الثانية فقدت الجزائر عدداً من علمائها المخلصين العاملين، فقد توفي الإمام عبد الحميد بن باديس في بداية الحرب، وتوفي في آخر تلك الحرب كلٌّ من:

¹ - ونسجل للتاريخ، أنه في هذا المقهى كان الشيخ أحمد بن زكري يصحّح للحاج "محمد العنقي" كلمات أغانيه ويهدّبها له قبل أن يغنيها حتى لا يكون فيها ما يصطدم بالدين والأخلاق! شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

² - السيّد زهرة قازو، ابنة الرزقي الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/29.

³ - الشيخ مكي التعماني، أوراق بخطّ يده، مصدر سابق. أيضاً: محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/09/03م.

⁴ - بينما كان في بيته يشتغل على مصباح كهربائي، فقد وصلت الإنارة الكهربائية إلى قرية الشرفة في سنة 1933م، أي في نفس السنة التي عاد فيها الشرفاوي من مصر، ويشهد على ذلك التاريخ المسجل على عمود كهربائي ما يزال قائماً بجانب بيت الشيخ!

⁵ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/22م.

⁶ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

الشيخ الرزقي الشرفاوي، والشيخ السعيد فضلاء البهلولي، والشيخ مبارك الملي¹، وتوفي أثناء الحرب أيضًا الشيخ محمد الفضيل اليراتي². لقد مات هؤلاء والجزائر في أشد ما تكون حاجة إلى علمهم وجهادهم رحمة الله عليهم جميعا.

لقد كان الشرفاوي - منذ عودته إلى الوطن - في عمل دائم، فلا تجده في نهاره ومعظم ليله إلا مدرسًا، أو كاتبًا، أو قارئًا، أو مرشدًا للناس، واستمر على ذلك إلى أن وافته المنية - رحمه الله - يوم 27 ديسمبر 1944م³ في بيته بقرية الشرفة، وكانت نهايته مفاجئة وغير متوقعة، وهذه ظروف وفاة الشيخ كما رواها الأستاذ محمد الصالح الصديق: كان الشيخ يقضي عطلة الشتوية في المنزل كعادته في العطل: يقرأ ويكتب ويستقبل زواره.. أصابه برد ألزمه الفراش، ولكنه ظل على حيويته ونشاطه، كأن لم تكن به علة، وفي مساء اليوم الثاني من مرضه دخل عليه أخوه الشيخ باعزيز فوجده مستلقيًا وبين يديه كتاب، فلما علم بوعكته اقترح عليه أن يأتيه بالطبيب، ولكن الشيخ رفض، لأنه يعلم ما يُكنّه له الفرنسيون من الكراهية والحقد، ولكن أخاه ما فتى يلح ويؤكد أنّ حضور الطبيب إن لم ينفعه فإنه لا يضره، ولما كشف له الشيخ عما يختلج في نفسه تجاه الطبيب طمأنه بأن ذلك بعيد الاحتمال بالنسبة إلى الطبيب إذ هو رجل إنساني لا يتسفل إلى مستوى المستعمرين.

سكت الشيخ كأنه اقتنع، ولكنه ما لبث أن عارض الفكرة من جديد وقال له: الفرنسيون ملّة واحدة، لا يُؤمنون على حياتنا، فنحن في نظرهم جرائم يجب أن يتخلّصوا منا!

¹ - ذكر محمد الحسن فضلاء في ص 26 من كتابه: من أعلام الإصلاح في الجزائر، (ج 1، دار هومة، ط 2000)، أنّ هؤلاء الثلاثة ماتوا في شهر واحد، لكن الصحيح هو أنّ الشرفاوي مات في آخر ديسمبر 1944م، أما الشيخان: السعيد فضلاء ومبارك الملي فكانت وفاتهما على التوالي: في 4 فيفري، و9 فيفري 1945م.

² - محمد الفضيل اليراتي (1873-1940م)، من الأربعة ناث بيراثن ولاية تيزي وزو، من الشيوخ المغومرين الذين خدموا الإصلاح في منطقة القبائل. من مآثره في هذا الميدان أنّه ترأس في مطلع العشرينات من القرن الماضي لجنة عرش آث بيراثن التي تولت جمع التبرعات للمساهمة في بناء مسجد باريس، كما أنّه كان ضمن الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء سنة 1931م. قيل إنّه توفي إثر مؤامرة جهنمية حاكتها ضده الإدارة الاستعمارية أدت إلى سجنه ومصادرة جميع أملاكه، ثم نفيه عن مسقط رأسه، حيث قضى بقية عمره بإحدى ضواحي العاصمة. عنه أنظر: محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 3، مرجع سابق، ص 166. حسن عليي الجبري، أعلام بلادي، ج 1، مرجع سابق، ص 20.

³ - هذا التاريخ يوافق: 12 محرم 1364م، وهو التاريخ الصحيح لوفاة الشيخ كما توكّده شهادة الوفاة، وكذا رسالة كتبها قايد دوار ليلولة بتاريخ: 1944/12/28م، يخبر فيها حاكم سيباو الأعلى بوفاة الشيخ قازو أرزقي بالتاريخ الذي ذكرناه.

فعاد أخوه إلى إقناعه، ومع أنّ الشّيخ أكد موقفه، إلّا أنّ أخاه أصرّ على رأيه إشفافاً عليه من معاناته، فخرج ليأتيه بطبيب من عزازقة، وهنا علّق الشّيخ بلهجة الواثق: إنّ هذا الطّبيب سيقتلني!

ولما حضر الطّبيب، رحّب به الشّيخ، ثم أجرى له فحصاً خفيفاً، والتقت على إثره إلى شقيق الشّيخ وقال له: أمر بسيط، لا داعي لانشغال البال، ثم حقنه حقنة وخرج! وما هي إلّا دقائق حتى بدأه الألم، وأخذ لونه يتغيّر بين الحُمرة والزُرقة، وجسمه يتصبّب عرقاً، وظلّ يتململ ويتلوى ويتأوّه طوالّ الليل.. ومما كان يقوله لزوجته: أعلم أنّ هؤلاء لا يأتي منهم خير، لقد قتلني الطّبيب! وقبل وفاته بنحو ساعة أخذ يتقيأ دمًا نقيًا، ويردّد أسماء الأئمة الأربعة وخاصة الإمام الشّافعي.. وظلّ يذكر أسماءهم، ويرحّب ببعضهم، ويذكر بصوت مرتفع أنّه على كامل التأهب للرّحيل، ثم التقت يمينًا ويسارًا وقال للحضور: ها هم قد وصلوا، وما زال يرّد هذه الكلمة حتى ضَعُف صوته، ورفع أصبعه، وقال بصوت مسموع: لبيكم، وكان آخر ما نطق به لسانه: « لا إله إلّا الله محمد رسول الله »¹.

إنّ هذه الظروف التي مات فيها الشّيخ تجعلنا نتساءل: ألا يكون للطّبيب الفرنسي يدٌ في وفاة الشّيخ؟ وإذا كانت الإجابة على هذا السؤال إجابة جازمة ليت بالأمر الهين، فإنّ الغالب على الظنّ هو أنّ الشّيخ قد قُتل بفعل الحقنة، وهذا بالنظر إلى ما كان يُكنّه الفرنسيون للشّيخ من كراهية، وما كانوا يفرضونه عليه من رقابة، هذا ما ذهب إليه الأستاذ محمد الصّالح الصّديق الذي يعرف جيّدًا ظروف وحيثيات وفاة الشّيخ من خلال ما روته له أخته التي هي زوجة الشّيخ².

والذي نستنتجه نحن هو أنّ التغيّرات التي طرأت على جسم الشّيخ - بعد دقائق فقط من تلقيه الحقنة - هي مما يرجّح هذه الفرضية، فالشّيخ كان في السّابعة والسّتين من عمره، لكنه لم يكن يشكو من أيّ مرض إلّا مرض عينيه كما ذكرنا آنفًا، وهذا فضلًا عن وجود بعض القرائن التي تؤكّد أنّ مناضلاً جزائرياً قد راح ضحية هذا الطّبيب الفرنسي، وبنفس الطريقة! فقد روى لي نجل الشّيخ الشرفاوي أنّ مجاهدًا من قرية الشّرفة، وهو بلقاسم

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع السّابق، ص 94-95. أنظر أيضًا كتابه: في شريط الذكريات، ج 3، دار هومة، الجزائر، 2016، ص 55. أيضًا: شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

² - محمد الصّالح الصّديق، من أعلام منطقة القبائل، ج 1، مرجع سابق، ص 211. رحلتي مع الزمان، ج 2، ص 39، أيضًا: شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م.

الطاهر المدعو "شعرا"، قد روى له أنّ مناضلاً في حزب الشعب - نسي اسمه - قد مات مثل والده، أي بعد حقنة مسمومة تلقاها من الطبيب نفسه¹، وهذا قبل الثورة التحريرية، أما خلال الثورة فإنّ الشّهادات تفيد بأنّ العديد من أبناء المجاهدين قد أُصيبوا بالشّلل بعد حقنة تلقوها من طبيب استعماري آخر اسمه "زانزا" المعروف في عزازقة آنذاك².

وفي الحقيقة ليس غريباً - بالنسبة للاستعمار - أن يسلك هذا السلوك مع علماء الجزائر ومناضليها المخلصين، إذ لا يبعد أنّ يكون هذا الطبيب جندياً من جنود الاستعمار، يحمل في حقيقته - إلى جانب الأدوية - سلاحاً فتاكاً يعرف جيّداً متى يستعمله، وهو السمّ الذي يسري في جسم الإنسان فيقتله دون أن يُعرف الجاني، أو - على الأقل - دون أن يُمسك به، خاصة في تلك المرحلة التي هانت فيه أرواح الجزائريين.

وعلى كلّ، تلك هي الظروف التي مات فيها الشّيخ الشرفاوي أو قُتل فيها، وقد شُيّعت جنازته في الغد في حضور أهالي قرية الشّرفة والقرى المجاورة، وكذا شيوخ وطلبة الزوايا وفي مقدمتهم طلبة زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي وسيدي ودريس³. ويقع قبر الشّيخ البسيط أمام بيته، غير بعيد عن الزاوية بقرية الشّرفة بهلول. لقد توفي الشّيخ في عزّ الشتاء، لذلك فقد حالت الثلوج التي تساقطت في المنطقة خلال تلك الأيام دون حضور الكثير من أصدقائه ومحبيه جنازته⁴. ولم يترك الشّيخ لذويه شيئاً من متاع الدنيا كما ذكر لي ابنه⁵، لكنه ترك لهم سيرته العطرة، وصفحات من صبره وجهاده في سبيل العلم، تحصيلاً وبذلاً.

هذا وقد صلى عليه تلميذه وتلميذ ابن باديس الشّيخ العربي بن عيسى، شيخ زاوية الشّرفة آنذاك، وأبّنه بخطاب بليغ مكتوب، تكلم فيه عن خصال الشّيخ واستفادة الطلبة منه،

¹ - عبد الرّحمن قازو، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26م.

² - محند أمقران عدنان، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/29م. أيضاً: السيّدّة زهرة قازو، ابنة الرّزقي الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/29.

³ - الحاج يوسف آيت سعيد، مكالمة هاتفية معه بتاريخ: 2014/03/31م. (والحاج يوسف كان آنذاك من طلبة زاوية سيدي علي والطّالب، حضر جنازة الشّيخ، وكان عند إجراء المكالمة يقيم بمدينة البليدة).

⁴ - ذكر لي هذا العديد من الشيوخ منهم محند واعلي بلخامسة. وذكر محمد الصّالح الصّديق أنّه تم إعلام إدارة جمعية العلماء بالعاصمة بوفاة الشّيخ، لكن الذين تربطهم به عروة المودّة كانوا غائبين عن العاصمة، فلم يحضروا. أنظر كتابه: في شريط الذكريات، ج 3، مرجع سابق، ص 55.

⁵ - عبد الرّحمن قازو، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26م.

وأشاد بإرادة الجزائريين وحبهم للعلم، وكيف كانوا - في ذلك العهد الاستعماري - يتغربون ويغامرون بحياتهم في سبيل طلبه، رغم ما أُحيط بهم في وطنهم من موانع وعراقيل، وضرب لذلك مثلاً قصة الشيخ الشرفاوي الذي ذهب إلى الأزهر ليواصل دراسته، غير مبالٍ بمخاطر السفر، ولا بما تعرّض له بعد ذلك - ولسنين طويلة - من ألم الحرمان، وقساوة الحياة، والبُعد عن الأهل والوطن!¹ وأبّنه أيضاً صديقه الشيخ محمد السعيد بن سعيدان الشرفاوي، الإمام بأحد مساجد العاصمة، بكلمة وجيزة مرتجلة حول حياة الفقيه ومساره الدراسي².

وتجدر الإشارة إلى أنّ جلّ الصّحف الجزائرية كانت - آنذاك - معطّلة بسبب ظروف الحرب، ولو أنّ وفاة الشيخ حدثت في غير تلك الظروف لانطلقت الأقلام في رثائه والتتويه بجهوده، والإشادة بخصاله وعلمه، من أصدقائه العلماء، ومن طلبته النجباء، لكن الظروف التي ذكرناها حالت دون ذلك! وكانت الصحيفة الوحيدة التي نعت الشيخ هي جريدة "البلاغ"، وهذا بعد مرور شهر ونصف تقريباً على وفاته³، وقد ذكرت الجريدة أنّها وصلتها عدة مقالات في رثاء ونعي الشيخ، لكنها اعتذرت لقراءتها عن عدم إمكانية نشرها في الحين، لضيق الوقت، وحجم الجريدة، وكثرة المواد التي اقتضت سبقتها الظروف الحاضرة⁴، لكن الملاحظ أنّ الجريدة لم تُعد إلى الموضوع في أعدادها التالية.

وهكذا انطفاً مصباح زاوية الشيخ عبد الرحمن اللولوي، وخيم على تلك المنطقة حزن عميق، ولم يكد يمضي على غياب الشيخ أسبوع حتى أخذ الطلبة يغادرونها تباغاً، ووقع خلاف حاد بين من بقي فيها حول أمر تسييرها انتهى بهم إلى الانقسام، فالذين ينتمون إلى القبائل الكبرى أخذوا الزاوية، وفرضوا عليها وجودهم، والذين ينتمون إلى القبائل الصغرى استولوا على المزرعة بـ "أقبو"، وفي كلٍ من الزاوية والمزرعة عدّة اقتصادية كاملة مما جعل كل فريقٍ في غنى عن الآخر، وقد استمر هذا الخلاف وهذا الوضع شهوراً انتهى

¹ - هذه المعاني هي مما علق بذاكرة الأستاذ محمد الصّالح الصّديق من خطاب الشيخ العربي بن عيسى. وذكر لي الأستاذ أيضاً أنّ هذه المعاني كان قد نسيها، وفي سنة 1947م مات طالب جزائري في جامع الزيتونة بمرض السل الذي أصابه بسبب البرد وقلة الغذاء، ففجّر فيه هذا الحادث معاني تأبينية الشيخ العربي بن عيسى. من شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/10م.

² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/10م.

³ - البلاغ، "موت عالم ثلثة في الإسلام"، العدد 617، 9 فيفري 1945م.

⁴ - نفسه.

بتسويةٍ من قِبَل طلبة الزاوية القدامى¹، واستعادت الزاوية بعد ذلك قيمتها بعد أن أتوا بشيوخ آخرين، منهم الشَّيخ المولود الحافظي الأزهري للمرة الثانية، والأستاذ محمد الصَّالح الصَّديق خريج جامع الزيتونة².

ثانياً- آثاره وآراؤه

1- آثاره

الشَّيخ الشَّرفاوي عالمٌ يحب أن يصنع لنفسه عمراً ثانياً بعد أن يموت، وعمره الثَّاني هو ما يصوغه فكره وقلمه، لذلك ألَّف كتباً عديدة في مواضيع مختلفة، فضلاً عن مقالاته التي نشرها في الصَّحف العربية: الجزائرية منها والمشرقية.

¹ - محمد الصَّالح الصَّديق، في شريط الذكريات، ج 3، مرجع سابق، ص 55، أيضاً: رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 193. أيضاً: شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/10م.

² - استمر هذا الأخير مدرّساً في الزاوية من سنة 1950 إلى سنة 1956م، وكان من مساعديه في التدريس على التوالي: الشَّيخ علي الحمدي من تونس، والشَّيخ محمد الشَّريف بن الشَّيخ، والشَّيخ الصَّادق مشواط، وهؤلاء الثَّلاثة من خريجي جامع الزيتونة، وكلهم حائزون على شهادة التحصيل منه.

أ- مؤلفاته

أعطى الشيخ الشرفاوي جلّ وقته للتدريس، لكن مع ذلك خطّت يده جملة من المؤلفات في اللّغة والأدب والتاريخ، لكن المثير للحزن والأسى أنّ جلّ تأليفه قد ضاعت، إذ تفرقت بها الأيدي بعد وفاته¹، ولا ندري اليوم مصيرها سوى ثلاثة منها! وهذا عرض لمؤلفاته:

- إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية

هذا الكتاب في الأصل سلسلة من المقالات نشرها الشيخ في جريدة البصائر سنة 1936م بعنوان (إثبات هلال رمضان وتعميم ذلك بالتليفون واختلاف المطالع)، وقد روى لي الأستاذ محمد الصّالح الصّديق قصة هذا الكتاب في طبعته الأولى التي صدرت سنة 1955م، فقال: « قبل وفاة الشيخ الرّزقي الشرفاوي بنحو أربعة أشهر، زرت بيت أختي في قرية الشّرفة، ومكثت عندهم ثلاثة أيام، وكان الشّيح آنذاك قد أصيب بضعف في بصره جعله غير قادر على القراءة، وفي المساء أمرني أن أخرج مجموعة البصائر من خزانته، وأن أبحث له عن الأعداد التي تحوي مقالاته، ثم طلب مني أن أقرأ له تلك المقالات، فكنت أقرأ له وهو يتابع، ولما اطمأنّ أنّها كاملة، ومتابعة الحلقات قال لي: اجمعها، واكتب عنها مقدمة، واحتفظ بها إلى أن يحين الوقت الذي تتولى فيه طبعها.. توفي الشّيح وذهبتُ إلى الزيتونة ومرت سنوات، ولما أنهيت دراستي وانتصبتُ مدرسا في المعهد الليولي، رأيت أن أحقق رغبة الشّيح، فكتبت مقدمة جديدة للكتاب²، وجمعت أعضاء المجلس الاستشاري للزاوية وعرضت عليهم أن نطبع الكتاب بمال الزاوية، فوافقوا، وبالفعل طُبع الكتاب هنا في الجزائر العاصمة، وبيعت نسخه في مدة وجيزة..³»

¹ - يقول ابنه أنّ كل ما استخلصته من مكتبته في آخر المطاف: مجلدات تفسير الأوسى الذي كان يُدرّسه للطلبة، و"فتح الباري" الذي يستعين به في التدريس والكتابة. محمد عبد الرّحمن قازو، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26.

² - ذكر لي الأستاذ أنّه كان قد كتب مقدمة وعرضها على الشرفاوي، وقد فرح بها وشكره كثيرا، وقال له مشجعا: يا بني ينتظرك مستقبل زاهر مع الفكر والقلم. غير أنّه يقول: لما عدت إلى الكتاب وقرأت المقدمة خجلت من نفسي ومن مستوى هذه المقدمة التي لا تصلح حتى أن تكون رسالة إلى صديق! شهادة محمد الصّالح الصّديق بتاريخ: 2014/04/10م.

³ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/04/10م. نشير إلى أنّ الكتاب أعيد طبعه في سنة 2012م، وصدر عن دار طليطلة بالجزائر، في 64 صفحة من الحجم العادي، منها 35 صفحة مخصصة لحياة

هذا عن طبع الكتاب، وأما السبب الذي دفع الشرفاوي للكتابة في هذا الموضوع فهو - حسب ما ذكر في مطلع بحثه - ما كان يحدث بين أهل هذا القطر من اضطراب واختلاف في إثبات هلال رمضان في كل عام، فيفترق أهلها إلى طوائف متعددة، « فيتعدد ابتداء الصيام بتعددتها، حتى كاد أن يكون لكل مدينة ولكل قبيلة وقرية ابتداء مخصوص.. فيترتب على ذلك التنازع والتنازع.. ولذلك حتم علي الواجب الديني والأمانة العلمية أن أكتب شيئاً في الموضوع »¹.

تطرق الشيخ في بحثه هذا إلى ثلاث مسائل تتعلق بهلال رمضان، هي: إثبات رؤية الهلال، تعميمها بالوسائل الحديثة، واعتبار اختلاف المطالع، وقد فصل في إيراد الأقوال والأدلة، وشرح وجوه الخلاف وناقشها، بروح فقهية تحليلية، ونزعة علمية تحليلية موقفة في نظري. ولأهمية مسألة (اختلاف المطالع)² التي ما تزال محل خلاف بين الفقهاء، نورد فيما يلي رأي الشيخ الشرفاوي فيها.

يقول: « لا خلاف لأحد من العلماء في كون المطالع تختلف باختلاف العروض والأطوال.. واختلاف المطالع البلدية عند علماء الميقات والهيئة صار من البديهيات يكاد يلمس باليد، ولا خلاف لأحد من الفقهاء في أنّ اختلاف المطالع معتبر في كثير من الأحكام الشرعية كأحكام المواريث كما إذا مات أحد المتوارثين في المشرق والآخر في المغرب عند الزوال مثلاً قالوا إنّ المغربي يرث المشرقي، ما جاء ذلك إلا من اختلاف المطالع. وكأحكام الصلوات في دخول الأوقات وخروجها، وإنّما الخلاف بينهم في اعتبارها وعدم اعتبارها بالنظر إلى الصيام والإفطار »³.

المؤلف. وللأسف هذه الطبعة بها الكثير من الأخطاء المطبعية التي كان يمكن تفاديها بمجهود بسيط من القائمين على نشر الكتاب!

¹ - محمد الرزقي الشرفاوي، "إثبات هلال رمضان"، البصائر، العدد 40، 23 أكتوبر 1936م.

² - المقصود باختلاف المطالع هو اختلاف مطالع الشمس والقمر باختلاف مواقع الأقطار والبلدان، والفقهاء متفقون على أنّ اختلاف مطالع الشمس معتبراً شرعاً في الأحكام المتعلقة بأوقات الصلاة والإمساك والفطور في رمضان وغيرها، لكنهم مختلفون في اعتبار اختلاف مطالع القمر أو عدم اعتباره بخصوص بدء شهر رمضان وانتهائه.

³ - محمد الرزقي الشرفاوي، إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية، تقديم وتعليق محمد الصالح الصديق، دار طليطلة، الجزائر، طبعة 2012، ص 54.

وبعد أن ساق الخلاف الواقع في هذا الأمر، قال: « والمنقول والمعقول يشهدان لمن قال باعتبار اختلاف المطالع، أما المنقول فهو ما رواه مسلم من حديث "كريب"، وهو أنّ أم الفضل بعثته إلى معاوية بالشّام، قال: فقدمت الشّام فقضيت حاجتها واستهلّ علي رمضان وأنا بالشّام فرأيت الهلال ليلة الجمعة، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر فسألني ابن عباس، ثم ذكر الهلال فقال: متى رأيت الهلال، فقلت رأيناه ليلة الجمعة. فقال: أنت رأيتيه؟ فقلت: نعم، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية. فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى يكمل ثلاثين أو نراه. فقلت: أولاً تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم. وكذا أنّه لم يُنقل عن الخلفاء الراشدين أنّهم كانوا يكتبون إلى الآفاق، فلو كان لازماً لهم لكتبوا إليهم لعنايتهم بأمور الدين، وإنه حصل الإجماع في أوقات الصلوات على أنّ المعتمر عند كل قوم فجرهم وزوالهم وغروبهم ولا يلزمهم حكم غيرهم، فليكن الهلال كذلك قياساً.

وأما المعقول فهو ما عُلم بالضرورة أنّ الشّمس لا تتحرّك حركة إلاّ وهي فجر عند قوم، وشروق عند آخرين، وزوال عند قوم واصفرار عند آخرين، وغروب عند قوم ومغيب شفق عند غيرهم. فإذا رُوي الهلال عند قوم بعد غروب الشّمس فلا يمكن عقلاً أن نكلّف بالصوم من كان عنده ذلك الوقت الذي رُوي فيه الهلال فجرًا أو زوالًا أو شروقًا أو اصفرارًا إلى غير ذلك مما لا تمكن فيه رؤية الهلال، فلا يجب الصّوم برؤية أولئك القوم إلاّ على من اتّحد معهم مطلقًا. ومن المعلوم بالضرورة الآن أنّ الغروب عندنا شروق في أمريكا، فهل يُعقل أن نوجب عليهم الصّوم برؤيتنا؟ وهل يجب عليهم بسبب لم يوجد عندهم؟ لأنّ وجوب الصّوم بسبب الرؤية وهي لم توجد بعد. ولذا فإنّ الحق - كما قال القرافي - مع الفريق القائل باعتبار اختلاف المطالع، ولا وجه لقول من قال بعدم اعتبارها، لأنّ قولهم مخالف للمعقول والمنقول.. «¹.

ثم فصل الشّيخ في الموضوع وناقش مسائل عديدة تتعلّق به، ومن أراد الاستزادة فعليه بالكتاب.

- تقييد على "الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية"

¹ - نفسه، ص 55 - 56.

رسالة مخطوطة أورد فيها الشرفاوي شروحا وتعليق على "الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية"¹ لعالم الفلك والرياضيات بدر الدين المارديني²، وهي رسالة في الرُّبْع المُجَيَّب³. وقد أوضح الشَّيْخ دافعه إلى هذا التأليف في مقدمته حيث قال - بعد الديباجة -: «.. طلبني بعض طلبة رواق المغاربة بالأزهر الشريف أن أقرأ لهم "الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية" للعلامة بدر الدين المارديني في بطالة الصَّيف الأزهرية⁴، فرأينا تلك المدة لا تسع شروحها المطوّلة، ورغبة الطلبة الزيادة على شروحها المختصرة، فاستخرتُ الله على أن أُعلِّق عليها بعض التقايد تكون متوسّطة بين بين، لتسهل على المستفيد.. الخ»⁵.

وبحوزتي نسخة من المخطوط مصوّرة إلكترونيًا⁶، وهي بخط زميله في الزاوية الشَّيْخ أحمد المقنيعاوي، يضم 57 صفحة مكتوبة بخط واضح مقروء، بحبر بنفسجي في الغالب، وبعض الصفحات والأسطر باللون الأحمر⁷، أما المنهج الذي سار عليه الشَّيْخ فهو أنّه جعل الكتاب في مقدمة وعشرين بابا، مثل ما فعل صاحب المتن، فهو يذكر مقدمة المؤلّف ثم يشرحها، ثم يذكر الباب الأوّل ثم يشرحه، وهكذا. وقد دعّم هذه المباحث ببعض الجداول، ويرسم توضيحي لتسهيل الجانب التطبيقي لمن أراد أن يُجسّد المعلومات المقدمة عملياً، في حين إنّ رسالة المارديني خالية تماما من هذه الجداول والرسومات.

- الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزاوية

¹ - "الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية" تتألف من 14 صفحة، وتتضمن مقدمة وعشرين بابا، يتراوح طول هذه الأبواب ما بين بضعة أسطر إلى صفحة كاملة، وتتناول موضوعات مثل: تحديد الاتجاهات والقبلة وذلك باستخدام الرُّبْع المُجَيَّب، أولها بعد الديباجة: «.. فهذه رسالة في العمل بالرُّبْع المُجَيَّب مشتملة على مقدمة وعشرين باباً سمّيتها الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية». أنظر: المارديني، الرسالة الفتحية، الكتبخانة الأزهرية، 1315هـ، ص 1.

² - محمد بن محمد بن أحمد أبو عبد الله بدر الدين دمشقي المعروف ببسبب المارديني (1423-1506م)، أو حفيد المارديني، وُلِد في دمشق ولكنه أمضى الشَّطر الأكبر من حياته في القاهرة، اشتغل مدرّسا، كما عمل مُوقِّتاً بالجامع الأزهر لتضلّعه في علم الفلك، عُرف بغزارة الإنتاج إذ كتب في الكثير من الموضوعات، بما في ذلك الفقه والرياضيات والفلك والنحو.

³ - الربيع المجيب: هو آلة فلكية قديمة أساسها رُبع دائرة، تُستعمل لحساب المواقيت والمسافات وغير ذلك.

⁴ - أي في عطلة الصَّيف الأزهرية، وهذا في بداية اشتغاله مدرّسا بالأزهر أو برواق المغاربة.

⁵ - محمد الرزقي الشرفاوي، الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية، المخطوط، ص 1. أنظر الملحق رقم 13، ص 313.

⁶ - مكّنتني منها الأستاذ فراوس خليل، عضو في لجنة تحضير ملتقى الشَّيْخ الرزقي الشرفاوي بزوايا شرفاء بهلول، جوان 2012م، والنسخة وُجِدَت عند حفيد الشَّيْخ أحمد المقنيعاوي.

⁷ - يشير الناسخ إلى أنه فرغ من نسخ هذه الرسالة مساء يوم الثلاثاء 20 صفر سنة 1355هـ (11 ماي 1936م)، أما فراغ الكاتب - الشرفاوي - من كتابتها فكان يوم الخميس 21 جمادى الأولى سنة 1340م (19 جانفي 1922م).

من آثار الشيخ الشرفاوي العلمية التي قُدِّر لها البقاء هذا الكتاب الذي ألفه خصيصاً لطلبة زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، وكان يُدرّس لهم فيه، وقد أوضح الشيخ ذلك في مقدمته فقال: «.. قد كنت مدرساً بزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي فطلب مني الطلبة أن أدرّس لهم علم الإنشاء، فلبيت طلبهم بعد الإلحاح، ثم فكّرت في اختيار المادة التي تعود عليهم بالنجاح، فلم أجد من بين الكتب المتداولة بغيتهم، وما يناسب أحوالهم، وخصوصاً أنّ هذا العلم أحدث في هذه الزاوية وليداً جديداً ينبغي أن أسلك بهم لأجل ذلك طريقاً مفيداً، لذلك لم أرَ بداً من رجوعي إلى ما كتبتّه من الدروس حين تلقّيت هذا العلم عن مشايخي بالأزهر الشريف، فضمنت إلى تلك الدروس ما رأيته صالحاً لإفادة الطلبة، فألّقت ذلك عليهم دروساً مفزّقة، ثم جمعت رسالة صغيرة، فجاءت بحمد الله تزهر بمحاسنها بين الرّسائل، والله هو المسؤول أن يجعلها في هذا الفن خير الوسائل»¹.

وَصَلْنَا الكتاب في شكل مخطوط منقول على كراسة بخط صديقه الشيخ محمد السعيد بن سعيدان²، يقع في 66 صفحة³، مكتوب بخط واضح وباللونين: الأسود والأحمر، ولعلّه من المفيد أن نقدم - باختصار - محتوى هذا الكتاب:

- مقدمة: تكلم فيها عن تاريخ اللّغة العربية، وحال العرب الأدبية واللّغوية في الجاهلية والإسلام، ومما ذكره هنا قوله: « إنّ العرب قد خصّهم الله من البلاغة والحكم ما لم يخصّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من دراية اللّسان ما لم يُوتَ إنسان، ومن فصل الخطاب ما يُقيّد الأبواب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقاً، وفيهم غريزة وقوّة، يأتون منه على البديهة بالعجب.. ». ولما جاءهم رسول الإسلام « بكتاب أحكمت آياته، وفصّلت كلماته، فراعتهم

¹ - محمد الرزقي الشرفاوي، الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزاوية، مخطوط، ص 1. أنظر الملحق رقم 12، ص 312.

² - الشيخ محمد السعيد بن سعيدان الشرفاوي، من مواليد سنة 1892م بقرية الشرفاء بهلول، نشأ في الجزائر العاصمة وتعلم في بعض زواياها، لأنّ عائلته نزحت إلى العاصمة واستقرت هناك. كان عضواً نشطاً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. في سنة 1938م وجد إقامة بحي حسين داي فاستقر هناك وأنشأ رفقة بعض المصلحين "جمعية مشعل الشّباب"، ومدرسة تابعة لجمعية العلماء. اشتغل مرشداً ثم إماماً بمسجد سيدي رمضان من سنة 1952 إلى سنة 1967م. واصل عمله كإمام ببعض مساجد العاصمة إلى أن وافته المنية وهو بالبقيع المقدسة يؤدي مناسك الحج، وذلك يوم: 1974/01/11م. عنه يُنظر: بن سعيدان، مخطوط علم القراءات، ص 2-3. أعمال الملتقى الوطني عن الشيخ الرزقي الشرفاوي، سنة 2012م، مرجع سابق، ص 191 وبعدها.

³ - يقول الناسخ في آخر المخطوط: « وكان الفراغ من كتابة هذه الرّسالة يوم الأربعاء عشرين من ربيع الثّاني سنة 1356هـ، على يد جامعها ابن القاضي محمد الرزقي الشرفاوي الأزهرى ». والتاريخ المذكور يوافق: 29 جوان 1937م.

فصاحته، وبهرت العقول بلاغته.. وحوث كل البيان جوامعه وبدائعه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، فزادهم ذلك إبداعاً في اللفظ والمعنى، وإحكاماً في النطق، وتهذيباً في الأسلوب، ورقةً في التخاطب، ودقّةً في المعنى المطلوب..¹.

ثم عرّف علم الأدب فقال أنّه يُطلق على فنون العربية الإثني عشر، والتي منها "علم الإنشاء" الذي عرّفه بقوله: « علم يُعرف به كيفية تأليف الكلام البليغ الذي يُطابق به مقتضى الحال على أحسن الأساليب المؤثرة في النفس عند سماعها حيث تكون ألفاظه آخذة بعضها بحجز بعض، كالسلسلة الذهبية الحسنّة السبك، المتناسقة الأجزاء، البديعة الصياغة، الجليلة المنظر والرّواء، فتكون الألفاظ والمعاني كالعقد النفيس في جيد الغادة الحسناء، لا تكون متجافية عن المعاني، ولا متعاصية على الأفهام، ولا وحشية تُنفّر سامعها، ولا مبتذلة يُرغب عنها، فإنّ جزالة الألفاظ وحسن المعاني مما يدعو لسماعها والتأثر بها، بشرط مراعاة حال التخاطب، فإنّه الأساس الذي تتبني عليه الكتابة، فالكاتب الماهر لابد أن يراعي الأغراض الكلامية التي تقتضيها الشّركة الإنسانية في جميع الشّؤون العمومية والخصوصية²».

وعن تفوّق أمة العرب في مجال اللّغة يقول: «.. فإنّ الأمة العربية وإن كانت متأخرة عمّا حولها من الأمم في وحدتها ونظامها الاجتماعي، إلّا أنّها أرقى الأمم في نفسيتها وإرادتها، وغرائزها الفطرية، يُعلم ذلك كلّ من أشعارها ومحافلها الجامعة. فمميزات حياة الأمم النفسية لغاتها، وقد كانت لغة الأمة العربية مثلاً أعلى بين لغات العالم³. ويرد الشّرفاوي على الذين يتهمون اللّغة العربية بالقصور فيقول: « أيّ قصورٍ بالله في لغة العرب وقد دلّت على معقولاتهم ومحسوساتهم وتخيّلاتهم في عالم الأرض والسّماء بأوسع ما دلّت عليه أعظم لغة في العالم، وهل من العيب على لغة إذا لم يكن فيها لفظ يدل على شيء لم يخلقه الله، ولم يتخيّله أهلها، وسيخلقه على يد أمة أخرى عند الحاجة إليه في مستقبل الزمان..⁴».

لقد أوردنا هذه المقاطع من المقدمة على طولها، لأنّها من إنشاء المؤلف، وهي بذلك تعبر عن أسلوبه في الكتابة الأدبية، بينما فصول الكتاب الأخرى ليس له فيها - في

1 - محمد الرّزقي الشّرفاوي، الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزواوية، مخطوط، ص 8-9.

2 - نفسه، ص 10.

3 - نفسه، ص 7.

4 - نفسه، ص 7.

الغالب - إلاّ الجمع والترتيب، وهي تتمثل في الأمثال السائرة، والأشعار الحكيمة، والرّسائل البليغة، والنوادر والآداب العالية، التي يرى فيها مدخلاً كبيراً في تحسين الكتابة، واكتسابها روحاً تجعلها تصل إلى القلوب قبل الأذان، وفي رأيه «.. فإنّ أعذبها في الذّوق، وأخفّها على اللّسان، وأسرعها وصولاً للجان ما اشتمل عليه القرآن الشّريف، ثم الحديث الحنيف، ثم ما نطق به فصحاء العرب نثراً ونظماً، فينبغي لمن أراد أن يكون قلمه سيّالاً، وفكره جوّالاً، أن يحفظ الكثير منها ليودع منه في كتاباته ما يقتضيه حال الصناعة، ويطلبه الموضوع»¹.

وقد رتّب مادة الكتاب كما يلي:

- ما جرى مجرى الأمثال في آيات القرآن الكريم.
 - ما جرى مجرى الأمثال من الأحاديث النبوية.
 - الأمثال العربية النثرية، وهنا أورد ما يقارب أربعمئة مثّل، قال أنّه اختارها من كتاب (مجمع الأمثال) لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت 518هـ / 1124م)، وقال عنها: « وقد اقتطفت من أمثاله ما رقّ لفظه، ودقّ معناه، وكثّر الاحتياج إلى إيراده في كثير من المواضع التي لا غنى للكُتاب عنها.. »². وقد رتّبها على حسب حروف المعجم كما فعل الميداني نفسه.
 - الحِكم والأمثال الشّعريّة، رتّبها أيضاً على حسب حروف المعجم.
 - باب الرّسائل، أورد فيه: رسائل النّبي صلى الله عليه وسلّم، رسائل الدعوة، رسائل النّصيحة، رسائل التهاني، رسائل الشّكوى، رسائل العتاب.. الخ.
 - وفي الأخير أورد مجموعة من الألفاظ المترادفة التي رأى أنّ حفظها يعين الكاتب على إيراد المعنى بمختلف العبارات³.
- وهذا الكتاب - في رأيي - سيكون مفيداً إذا طُبِع ونشر، شرط أن يُدخَلَ عليه بعض التعديل، كترتيب الأمثال على حسب الموضوع لا على حروف المعجم التي هي طريقة القدامى في التبويب وعرض المادة.
- الخلاصة المختارة في فضلاء زاوة

1 - نفسه، ص 23.

2 - نفسه، ص 25.

3 - نفسه، ص 60.

كتاب ترجم فيه المؤلف لعلماء زاوة ومشاهيرها، وقد رتّب التراجم على حروف الهجاء، وأورد فيها أخبارًا ونوادير ومواقف¹. وذكر لي الأستاذ محمد الصّالح الصّديق أنّه رأى الكتاب وهو صغير، فرأى فيه تراجم لجماعة من علماء مشدالة، وبني غبري، وبني منغلات.. وهكذا، وحسبه أيضا فإنّ المؤلف كان يطيل في ترجمة ويوجز في أخرى، على حسب أهمية الشّخصية². ويغلب على الظن أنّ الشّرفاوي قد ترجم في كتابه الصّانع لأعلام زاوة أمثال: أبي العباس أحمد الغبريني، وعبد الرّحمن اليلولي، وأحمد بن إدريس البجائي اليلولي، ويحيى بن معطي الزواوي، وأبي الفضل محمد المشدالي، وأبي القاسم المشدالي، وعيسى بن مسعود المنغلتي، وغيرهم من المشاهير الذين أنجبتهم المنطقة، وكانت لهم مساهمة فعالة في الحياة العلمية.

ولا شك أنّ الكتاب مفيد في بابه، وهذا لمكانة الشّرفاوي العلمية، وصدقه، وذوقه فيما يختار من التراجم، ولذلك فإنّ المكتبة الجزائرية - بالخصوص - قد خسرت بضياعه كتابًا قيمًا لا غنى عنه لكل من يهتم بتاريخ العلماء والفضلاء في هذه المنطقة³.

- إرشاد الطّلاب إلى ما في الآيات من الإعراب

هذا الكتاب جاء من وحي ما علم الشّيخ في دّرس التّفسير، فهو يُدرّس التّفسير بكتاب الألوّسي (روح المعاني)، ثم إذا ظهرت له آية عميقة، وفيها إشكالات لم يهتد إليها القدماء، أو لم يوفّوها حقّها في البحث، يعمد إليها فيحلّها ويعلّق عليها⁴. فهو ليس تفسيرًا للقرآن بالمعنى المعروف، إذ يقتصر على جانب اللّغة والإعراب.

يقول عنه الأستاذ محمد الصّالح الصّديق: « والكتاب كما ترشدنا أوراق منه اطلّعنا عليها عند أحد طلبة الشّيخ.. يُعنى بالقرآن من حيث اللّغة والإعراب، فهو يشرح الكلمة الغامضة، ثم يُعربها أو يُعرب كامل الجملة مع إيراد ما يوافق ذلك من كلام العرب الفصيح، وقد يدير حول الآية سؤالاً ويثير استشكالاً، ثم يُعالج تأويلها وتوجيهها بطريقة الباحث البصير، والناقد الخبير.. والكتاب - حسب هذه الأوراق - ينطق بقوة النظر،

1 - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 55.

2 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/06/16م.

3 - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 55.

4 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/05/17م.

وعمق التفكير، ودقة الاستنتاج، وحسن التصرف، وطول الباع! ¹ «. ويذكر الكاتب أنّ هذا الكتاب يواكب دروس الشّيخ في التفسير، وقد تجاوز فيه سورة البقرة². وللأسف لا ندري مصير الكتاب إلى الآن.

- بغية الطلاب في علم الآداب

وهو كتاب يحوي تراجم الأدباء، ونصوص نثرية وشعرية من أدبهم، ولمحات عن خصائص أسلوبهم³، وعلى حدّ تعبير محمد الصّالح الصّديق فهو: «.. كتاب صغير الحجم كبير الفائدة»⁴، وقد رآه عند الشّيخ في صغره، ثم رأى أوراقاً منه عند بعض الطّلبة، ومما علق بذهنه أنّه يُعرّف الأدب بأنّه ثمرة من ثمار قريحة الإنسان وعقله ونفسه، وأنّه يرتّب على هذه المقدمة نتيجة هي أنّ الأدب على حسب قريحة الإنسان وعقله ونفسه قوّة وصفاءً، وذوقاً، وإمتاعاً، ثم يتحدث عن تأثير البيئة في الإنسان، ويُسجّل أنّ الأدباء يتفاوتون عقلاً وإدراكاً، وطبيعةً، باختلاف بيئاتهم، والأديب الحقّ من كان صورةً صادقةً لبيئته⁵.

ويبدو من عنوان الكتاب أنّ الشّيخ أراد بهذا التّأليف تعريف طلبته بفضائل الأدب العربي في مختلف عصوره، وتقريب فنون الأدب العربي إليهم من خلال نصوص مختارة. للأسف لم يُعثر لحد الآن على نسخة مخطوطة لهذا التّأليف، فهو في عداد تراث الشّيخ المفقود.

- كتاب حول المرأة ونظام الأسرة في الإسلام

حسب الأستاذ محمد الصّالح الصّديق فإنّ هذا الكتاب، الذي لا يذكر عنوانه بالضبط - وقد ضاع - يقع في نحو ثلاثمائة صفحة، تناول فيه الشّيخ - على ما يذكر - موضوع المرأة والقضايا المتّصلة بها، فذكر كيف كانت المرأة مظلومة عند الأمم القديمة وعند العرب في الجاهلية، وكيف أنّ الإسلام أكرمها وأعطاهم حقوقها، ثم كيف ظلمها المسلمون في القرون المتأخّرة، وأفاض الكلام عن وضع المرأة الجزائرية في عهد الاحتلال الفرنسي، وصوّر بالخصوص معاناة المرأة القبائلية وكدحها، وحسب الأستاذ أيضاً فإنّ

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 55 - 56.

² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/05/17م.

³ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/08/28م.

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 58.

⁵ - نفسه، ص 58.

الشيخ كتب هذا الكتاب ليس بقلمه فقط، بل بقلبه الواعي لمشاق المرأة ومتاعبها داخل البيت وخارجه¹.

ومن المواضيع التي تناولها الشيخ في كتابه أيضا: مسألة المهور، والطلاق، وتعدد الزوجات، والإرث.. إلخ. وقد أفاض القول حول الإرث وكيف حُرمت المرأة من نصيبها منه في منطقة زواوة².

ب- مقالاته في الصحف

إضافة إلى ما ذكرنا من الكتب والرسائل، نشر الشيخ الشرفاوي العديد من المقالات، بعضها حين كان في مصر، وبعضها بعد عودته إلى الجزائر³، وفيما يلي رصد لما تيسر لي جمعه من تلك المقالات من الصحف الشرقية والجزائرية، مرتبة حسب تاريخ نشرها، وقد اقتصرنا هنا على ذكر عناوين المقالات، وتاريخ نشرها والصحف التي نُشرت فيها، مع إلماع إلى ما تناولته من موضوعات إن لم يكن العنوان دالاً على ذلك، أما ما ورد فيها من أفكار وآراء فهي موضوع الشطر الثاني من هذا الفصل.

- مقال منشور بصحيفة "الكوكب" المصرية، العدد 17، بتاريخ 9 يناير 1917م، في باب الوثائق التاريخية، جاء بدون إمضاء، وما جعلني أنسبه للشيخ الشرفاوي أمرين اثنين هما:
الأول- ترجمته الفرنسية التي عثرت عليها ضمن الأرشيف الفرنسي مع إشارة إلى أنه من مقالات الشيخ حين كان بمصر⁴.

الثاني- استثناسي برأي الأستاذ محمد الصالح الصديق، وهو العارف بلغة الشيخ وأسلوبه في الكتابة، إذ قال - حين قرأت عليه فقرات من المقال-: «إني أشتم منها رائحة الشيخ»⁵.
فإذا صحَّ هذا، فقد يكون هذا المقال أول ما نُشر من مقالات الشرفاوي في الصحف، وهو في هذا التاريخ كان لا يزال طالباً في الأزهر.

وقد تحدث فيه عن الجرائم الشنيعة التي ارتكبتها الأتراك في حق الأرمن خلال الحرب العالمية الأولى (1915-1916م)، وكانت الحكومة العثمانية آنذاك واقعة تحت سيطرة زعماء

¹ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/04/02م.

² - نفسه.

³ - صور لنماذج من مقالاته، أنظر الملحق رقم: 20، ص 321-323.

⁴ - A.N.O.M , Aix-en-Provence, 91505/52 .

⁵ - شهادة شفوية بتاريخ: 2016/12/27م.

جمعية الاتحاد والترقي المعروفة بنزعتها الطُورانية المعادية للقوميات غير التركية، وتوجَّهها التغريبي المعادي للإسلام الذي صنع أمجاد الدولة العثمانية في القرون الماضية¹.

- مقال مطوّل نشره في جريدة "الصّديق"² بعنوان (أسباب الرّقي وأسباب الانحطاط)³،
والجريدة كان يدير تحريرها زميله في الأزهر أيام الدراسة الشّيخ المولود الزريبي⁴.

- مقالان نشرهما في جريدة "النجاح"⁵ سنة 1923م: الأوّل بعنوان (العلم أساس النّهوض وحياة الشّعوب)⁶، والثّاني بعنوان (على ذكر بجاية، صفحة من تاريخها)⁷.

1 - هذه الأحداث يعتبرها الأرمن "عملية إبادة" استهدفت أسلافهم بشكل ممنهج بالقتل والاعتقال والتّهجير بسبب الشك في دعمهم لروسيا في أثناء الحرب العالمية الأولى، وهم يقترنون عدد قتلاهم بأكثر من مليون أرمني، في حين لا يزال الأتراك ينكرونها ويتصلون من مسؤولية الدولة العثمانية حيالها، رغم عدم إنكارهم للأحداث كليا، فهم يقولون أنّ ضحايا الأرمن ماتوا خلال عمليات قتالية متبادلة (حرب أهلية)، وأنّ عدد الضحايا ما بين 300 و500 ألف، لذلك هم يرفضون استخدام لفظ "إبادة" أو "مذبحة". ويعلم النظام الحاكم في تركيا حاليا أنّ أرشيفهم مفتوح حتى النهاية لكل من يريد معرفة الحقيقة بشأن المسألة الأرمنية. للمزيد في الموضوع أنظر مثلا: نقيه حية منصور، الأرمن والدولة العثمانية، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 2016.

2 - الصّديق: جريدة أسبوعية ذات توجّه إصلاحي وطني، صدر عددها الأوّل في 12 أوت 1920م، تولى تحريرها عمر بن قنور ثم المولود بن محمد الزريبي. تعرضت لمضايقات الاستعمار، وتوقّفت في 22 مارس 1922م، بعد أن صدر منها 54 عددا. محمد ناصر، الصّحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 3، 2007، 82.

3 - صدر المقال في ثلاث حلقات، أنظر: العدد 31، (25 أفريل 1921م) // والعدد 36، (30 ماي 1921م) // والعدد 39، (25 جويلية 1921م).

4 - المولود الزريبي (1875-1925م)، نسبة إلى بلدة زريبة الواد، قرب بسكرة. شاعر وفقهه ومصالح، تعلّم في مسقط رأسه ثم التحق بالجامع الأزهر أين نال شهادة العالمية. اختلف الكتاب في سنة عودته إلى الجزائر، والراجح أنّه عاد في 1910م. اشتغل بالتعليم والإصلاح ببلدته أولا ثم في الأوراس، وأخيرا في العاصمة وبوفاريك. من آثاره: "شموس الأحلام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام". عنه أنظر: محمد الصّالح الصّديق، أعلام من المغرب العربي، ج1، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 2008، ص 69-98. أيضا: دراسة عنه للأستاذ سعد الله، الأديب المصلح محمد المولود الزريبي، منشورة ضمن كتابه: خارج السّرب، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2005، ص 170-186.

5 - النجاح: جريدة أصدرها الشّيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي بقسنطينة سنة 1919م، بدأت أسبوعية، ثم صدرت ثلاث مرات في الأسبوع، ثم تحولت إلى جريدة يومية في سنة 1930م، وهي أطول الجرائد العربية عمرا، والجريدة العربية اليومية الوحيدة التي ظهرت في الجزائر قبل الاستقلال. ساهم في تأسيسها الإمام ابن باديس، ثم انفصل عنها لما انحرفت عن الخط الوطني. محمد ناصر، الصّحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، 82.

6 - النجاح، العدد 127، 28 سبتمبر 1923م.

7 - النجاح، العدد 135، 30 نوفمبر 1923م.

- مقال بعنوان (مبدأ فرنسا العدالة والمساواة، ولكن أين العدالة والمساواة؟)، نشره بجريدة "الأخبار"¹ المصرية، وهو تعليق على مقال نُشر بجريدة النجاح الجزائرية حول حادثة محزنة وقعت في بعض المحاكم الجزائرية.
- مقال بعنوان (شمال إفريقيا وأصول سكانه)، نشره سنة 1925م في صحيفة "الأهرام"² المصرية، علق فيه على مقال كتبه زميله الشيخ محمد الطيب البنزرتي بنفس العنوان³ علق فيه بدوره على بعض ما ورد في كتاب سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي⁴ الذي صدر آنذاك، وقد نقلت صحيفة "النجاح" مقال الشرفاوي وأعدت نشره في أحد أعدادها⁵.
- سلسلة من المقالات في الإصلاح الديني، نشر بعضها في جريدة "الثبات"⁶، ولما احتجبت نشر بقيتها في جريدة "الأمة"⁷، وهي في مجموعها خمس حلقات، الأولى بعنوان (من جبال زاوة)⁸، أما باقي الحلقات فقد جاءت بعنوان (كيف يكون العالم الديني؟)⁹.
- سلسلة من المقالات نشرها في السلسلة الأولى من البصائر في سنة 1936م تحت عنوان (إثبات هلال رمضان وتعميم ذلك بالتليفون واختلاف المطالع)¹⁰، وقد تولى جمعها وطبعها الأستاذ محمد الصالح الصديق.

1 - الأخبار، العدد 1363، 7 أوت 1924م.

2 - أنظر: الأهرام، العدد 14746، 14 أوت 1925م.

3 - نُشر في الأهرام، العدد 14738، 5 أوت 1925م.

4 - من تأليف الكاتب الفلسطيني "رشدي الصالح ملحس"، بعنوان: سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، بطل الزيف ورئيس جمهوريتها، صدر عن المطبعة السلفية، القاهرة، 1343هـ/1924م.

5 - أنظر: النجاح، العدد 229، 8 سبتمبر 1925م.

6 - الثبات: جريدة موالية لتيار الإصلاح، صاحبها محمد عبايسة الأخضرري، صدر منها خمسون عدداً، بين 1933-1935م. وللشرفاوي فيها مقالان: الأول بعنوان (من جبال زاوة)، العدد 47، 26 جويلية 1935م، والثاني (كيف يكون العالم الديني؟)، العدد 49، 23 أوت 1935م.

7 - الأمة: إحدى الصحف التي أصدرها الشيخ إبراهيم بن أبي اليقظان، صدر منها 170 عدداً، بين: 1933-1938م. والشيخ أبو اليقظان (1888-1973م)، من علماء الجنوب الجزائري "القرارة"، تلميذ الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش الملقب بـ (القطب)، وخريج الزيتونة 1915م. شارك في تأسيس جمعية العلماء، وكان عضواً بارزاً فيها. عُرف بجهاده الصحفي الطويل إذ أصدر ثمانين جرائد فيما بين: 1926-1939م، منها "الأمة".

8 - الثبات، العدد 47، 26 جويلية 1935م.

9 - أنظر: الثبات، العدد 49، 23 أوت 1935م. الأمة، العدد 55، 17 ديسمبر 1935م/العدد 57، 13 جانفي 1936م/العدد 59، 21 جانفي 1936م.

10 - نُشرت في خمس حلقات: الأولى في العدد 40 بتاريخ 23 أكتوبر 1936م، والأخيرة في العدد 46، بتاريخ 4 ديسمبر 1936م.

- مقال نُشر في حلقتين في باب المقالات الإصلاحية بجريدة البصائر أيضا سنة 1938م، اختار له هذا العنوان المقتبس من القرآن الكريم: (وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة)¹.

- مقال بعنوان (اختلط الخائر بالزباد)، نشره في أكتوبر 1938م بمجلة "الإسلام الأزهرية"²، بيّن فيه رأيه في مسألة الزواج بالرّبيبة التي ليست في حجر الزّوج.
- مقال بعنوان (جهل وغرور)، كتبه في موضوع الرّبيبة ردّ فيه على خصومه الطّرقيين، لم يُنشر في وقته³.

ج- خطبه وفتاواه

من خطب الشيخ التي نجت من الضّياح:

- خطبة ألقاها على طلبة زاوية عبد الرّحمن اليلولي عند افتتاح السنة الدراسية سنة 1934م بعنوان (نظرة في التعليم الديني وأسباب انحطاطه)⁴.
- خطبة أخرى بعنوان (نعم أجر العاملين) ألقاها بمناسبة ترميم زاوية سيدي بهلول بقرية الشّرفة وتوسيعها⁵.

ومن خطابات الشيخ الهامة، ذلك الذي ألقاه في الاحتفال التاريخي الذي جرى في زاوية عبد الرّحمن اليلولي بمناسبة ختمه لدروس الفقه بمتن "خليل" في جوان 1938م، والذي تطرّق فيه لقضايا اجتماعية ودينية وتاريخية، وقد كان لهذا الخطاب صدها البعيد في مختلف الأوساط، وكان أهل العلم آنذاك يتمنون لو أنّ الشيخ يطبع هذا البحث لنفاسته، لتعم فائدته، لكن الظروف لم تسمح بطبعه، وبقي بين مخطوطاته التي ضاعت بعد وفاته⁶.

أما فتاوى الشيخ فنذكر:

1 - أنظر: البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م، والعدد 111، 29 أبريل 1938م.

2 - الإسلام، العدد 34، أكتوبر 1938م.

3 - أنظره بكامله في: محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 115-123.

4 - نفسه، ص 111-113.

5 - نفسه، ص 130-131. ورد في الخطبة أنّها أُلقيت بمناسبة افتتاح الزاوية، لكن يغلب على الظن أنّ المقصود بافتتاحها تجديدها وتوسيعها كما ذكر الأستاذ محمد الصّالح، لأنّ التعليم قديم فيها لم ينقطع منذ أمد بعيد.

6 - محمد الصّالح الصّديق، في بعض كتبه وشهاداته. وقال أنّ الخطاب لو طُبِع لأخذ حجم كتاب من حوالي مائتي (200) صفحة.

- فتواه في الزواج بالزبيبة التي ليست في حجر الزوج، ومعروف أنّ هذه المسألة قد أثارت خلافاً حاداً بين الشرفاوي وفقهاء منطقة الزاوة، فكتب فيها رسالة في حوالي ثلاثين صفحة¹، فصل فيها القول حول آراء العلماء في المسألة، وقد ضاعت أيضاً، وهي غير المقال المخطوط الذي كان يُداول بين الطلبة.

- فتواه في الزكاة تُعطي لتلامذة المدارس الفقراء، وهي إجابة عن سؤال ورد على علماء الأزهر من بعض فقهاء الجزائر، فأجاب عليه الشيخ الشرفاوي وزميله في الأزهر الشيخ الحسين بن أحمد البوزيدي²، وقد جاء الجواب بالجواز، عملاً بالآية التي حدّدت أصناف مستحقي الزكاة وهم ثمانية، وحسبهما فإنّ الآية قد دلت على ذلك من خلال ما ورد في صدرها: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾، وآخرها: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾³.

في الأخير نسجل رأي الأستاذ محمد الصالح الصديق في أسلوب الكتابة والخطابة عند أستاذه الشرفاوي مقارنة بأسلوب الشيخ المولود الحافظي، إذ يقول: «شاع على السنة الطلبة الذين عرفوا الأستاذ الشرفاوي والأستاذ الحافظي الفلكي أنّ الأوّل أقوى وأفصح قلمًا، والثاني أقوى وأفصح لسانًا، وقد أخذنا هذه المقولة عن كبار الطلبة الذين أدركناهم بلا بحثٍ ولا نظر في صحتها أو خطئها، ولما تهيأنا - بفضل الله وتوفيقه - للنظر والإدراك، وتصدينا للكتابة عن الشيخين، ووقفنا على تراثهما، اتّضح لنا صحّة المقولة بالنسبة إلى أسلوبهما في الكتابة، فأسلوب الحافظي في الكتابة دون أسلوب الشرفاوي، فبينما أسلوب هذا الأخير جزل العبارة، قوي المبنى، نرى الحافظي لا يعنيه كل ذلك، وإنّما يهّمه بالدرجة الأولى إيصال الفكرة إلى القارئ واضحة مجلوة، ولذا فقد يعبر أحيانا تعابير قريبة من اللّغة الدارجة أو هي الدارجة ذاتها! أما أسلوبهما في الخطابة فمرجعنا فيه هو إجماع الطلبة وكل الذين عرفوا الشيخين وشاهدوهما يخطبان، على أنّ الحافظي يفوق الشرفاوي فصاحة لسان، ونصاعة بيان، وطول نفس»⁴.

¹ - محمد الصالح الصديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/06/11م. وذكر لي الشيخ محمد الطاهر آيت علجت أنّ رسالة الزبيبة هذه كانت بحوزته في ذلك الوقت وقرأها، لكنها ضاعت مع كتبه وأوراقه التي أحرقها الاستعمار كلها في أيام الثورة التحريرية. شهادة شفوية بتاريخ: 2018/02/25م.

² - الشيخ الحسين بن أحمد البوزيدي: من نواحي بوسعادة، تشير سجلات الأزهر إلى أنّه أخذ شهادة العالمية للغرباء سنة 1918م وصار من علماء الأزهر، وقد يكون مات في مصر.

³ - النجاح، العدد 219، 30 جويلية 1925م.

⁴ - محمد الصالح الصديق، الشيخ الرزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 76.

ومما يمكن تسجيله في موضوع الخطابة أيضاً، أنّ الشَّيخ الشَّرْفَاوِي لا يرتجل إلّا قليلاً، وذلك عندما تكون المناسبة توديعاً أو استقبالاً، أو حفلاً بسيطاً، أما إذا كان الموضوع الذي يريد أن يتحدّث فيه هاماً يخاطب الأفتدة والقلوب، أو يهدف إلى تقريب الميول والنزعات، أو يُعبئ الأرواح بالقيم والمُثل العليا، فإنّه يكتب ويُوجز وقلماً يُطنب¹.

وفي ختام كلامنا عن كتب الشَّيخ ومقالاته نسجل هذه الملاحظات:

- أنّ مقالات الشَّيخ التي نشرها حين كان في الشَّرق، والتي عثرنا عليها حتى الآن، قليلة في عددها، ولا تتعدى من الناحية الزمنية سنة 1925م، غير أنّ الأسلوب الذي كُتبت به هذه المقالات، وما تحمله من روح علمية، ونزعة قومية، ومشاعر حيّة تجاه الوطن، كل ذلك ينبئ بأنّ مثل هذا القلم لا يمكن أن يتوقف عن العطاء عند هذا الحد، لذلك فإننا نتوقع أن تكون للشَّيخ مقالات أخرى منشورة في صحف مصر والشَّرق فاتنا الوصول إليها، فعسى أن يوفّق الله من الباحثين من يصل إليها وينفض عنها الغبار ويخرجها إلى النُّور.

- كذلك ما كتبه الشَّيخ من كتب ومقالات بعد عودته إلى الجزائر قليل بالنظر إلى كفاءته العلمية، وبلوغه مرحلة العطاء، وهذا ربما يعود إلى الظروف الصَّعبة التي عاشها خلال هذه المرحلة بسبب كثرة الأعداء وما لقيه منهم من إيذاء، وقد صرَّح بذلك يوماً فكتب قائلاً: «.. ها أنا اليوم أعود للكتابة بعد السَّكوت الطَّويل، وبعد عروض كثير من الحوادث تستدعيها.. فمع قيامي بواجب التعليم الديني، قد حرَّرت كثيراً من الموضوعات الأدبية كنت أريد نشرها على النَّاس، لو لا مشاغبات بعض الطَّغام²، وكثير من السَّعيات والوشايات قد قيلت في حقي عاقتني عن ذلك..»³.

- أنّ جل الكتب التي ألفها الشَّيخ كان الغرض منها هو نفع طلبته، فهي شبيهة بما يسمى في وقتنا الحالي بالكتب المدرسية، وهذا ظاهر من خلال عناوين بعض كتبه. وحسب بعض طلبته فإنّ الشَّيخ كان يذكر في دروسه كتبه التي ألفها، وكان الطَّلبة الكبار يستعيرونها منه بغرض نقلها⁴، وهو ما يجعل الأمل قائماً في وجود نسخ من مخطوطات الشَّيخ عند أسر هؤلاء الطلبة، وقد بذلنا جهدنا في الاتِّصال ببعض هذه الأسر، لكننا لم

1 - نفسه، ص 76.

2- الطَّغام: أرذال النَّاس وأوغادهم.

3 - البصائر، العدد 40، 23 أكتوبر 1936م.

4 - محمد الصَّالح الصَّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2015/06/16م.

نظفر بالمراد، والسبب الأكثر وروداً هنا هو أنّ مكتبات هؤلاء الطلبة تعرّضت للحرق والإتلاف في فترة الثورة التحريرية.

2- آراؤه

إنّ آراء وأفكار الأعلام يجدها الباحث مبنوثة في آثارهم، من كتب، ومقالات، ومذكرات، وكذا في مواقفهم وأقوالهم التي حفظها التاريخ بطريقة أو بأخرى. وإذا علمنا أنّ مقالات الشيخ الشرفاوي التي عثرنا عليها حتى الآن قليلة، وأنّ أكثر كتبه المخطوطة قد ضاعت، وأنّ ما كُتب عن حياته قليل جداً، عرفنا صعوبة دراسة أفكار وآراء الشيخ.

ورغم هذه الصعوبة، فلا بد من طرق هذا الجانب الهام من حياة الشيخ، لرصد ما أمكن من آرائه وأفكاره في مجال الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي، وفي مجال الوطنية ومحاربة الاستعمار، وهذا في حدود ما استطعنا الوصول إليه من آثار الشيخ، وما أفادنا به بعض معاصريه من آرائه وأقواله التي علقت بذاكرتهم من دروسه ومجالسه المختلفة.

أ- الشرفاوي والحركة الإصلاحية

- نزعة الإصلاح عند الشرفاوي

عاش الشيخ الشرفاوي في مصر مدة طويلة، احتك خلالها بأفكار الحركة الإصلاحية المشرقية من خلال كتابات المصلحين، وشيوخه في الأزهر، وعاصر نهضة مصر الثقافية وبقظتها السياسية، وواكب الحركة التحريرية في المشرق، وكل هذه العوامل ساهمت في بلورة اتجاهه الفكري، فكان مصلحاً ينزع في إصلاحه إلى تجديد الإسلام. والتجديد المقصود هنا هو الذي عمل من أجله رجال الإصلاح أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وابن باديس وغيرهم. ومهمة المصلحين المجددين - في كل عصر من عصور الإسلام - أنّهم يعملون على تخليص الإسلام مما علق به عبر العصور من بدع وأباطيل، عدّها الناس من الدين وهي ليست منه في شيء، وأن يحاولوا العودة بالمسلمين إلى تعاليم الإسلام الصحيحة كما جاءت في الكتاب والسنة، وأن يُحيوا في نفوسهم جذوة الإيمان حتى يعود الدين - كما في عصور الإسلام الأولى - قوّة دافعة للنهضة والبذل والتضحية.

لذلك ما أن تخرّج الشيخ في الأزهر وأصبح من علمائه، حتى ولج هذا الميدان، فكان ينشر المقالات في الصحف المصرية والجزائرية متناولاً بالبحث والتحليل مجموعة من القضايا الدينية والثقافية والإصلاحية التي تهم عامة المسلمين في الجزائر وغير الجزائر،

وكان لا يفتأ يدعو مواطنيه إلى العودة إلى تعاليم دينهم، والتمسك بأخلاق نبيهم، ونبذ التقليد الأعمى، والتخلص من البدع والعادات البالية التي أصقت بالدين وهو منها بريء، ويهيب بهم أن يستنبروا بنور العلم، ويستفيدوا من ثمار المدنية الحديثة. وكان الشيخ يتابع باهتمام ما يحدث في القطر الجزائري من جهود في سبيل النهوض بالأمة وإصلاح أحوالها، وقد سمى ذلك "نهضة الشباب"، فكان يشيد بتلك النهضة، ويستبشر بنجاحها، من ذلك مثلاً قوله في إحدى مقالاته - بعد أن تكلم عن الأوضاع السيئة التي كانت تسود المجتمع الجزائري - : «.. غير أننا لم نقنط لاعتقادنا أنّ النوم تتلوه اليقظة، والجمود من ورائه النهضة، والخمول يعقبه النشاط، وقد برهنت شبيبتنا على ذلك بإرشاداتهم التي قاموا بنشرها بين الأمة على صفحات الجرائد، فنشكرهم على ذلك، ونشكر نهضتهم أكثر الله من أمثالهم وحفظهم، وأملنا وطيد أنّ النّسمة التي هبّت على الجزائر في هذه الأيام تعيد لها الحياة رويداً رويداً..»¹.

ولما عاد الشيخ إلى الوطن، واختار العمل في جبال جرجرة المحرومة من نور العلم، سار على هذا النهج الإصلاحي والتربوي الذي تشربّه وهو في المشرق، وهو نفس النهج الذي كانت تسير عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فكان - وهو يُدرّس ويؤلف ويُرشد في منطقة القبائل - يقوم بذات العمل الذي كان يقوم به فريق العلماء المصلحين وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد بن باديس في مناطق أخرى من الوطن، من محاربة للجهل، ومقاومة للبدع والخرافات، ونشر للغة العربية، وإحياء لتعاليم الإسلام، وبعث لروح الاعتزاز بأمجاد الإسلام وأمجاد الوطن، وصولاً إلى تهيئة النفوس والعقول وإعدادها للكفاح وتحرير الوطن. هذا وقد تجلّت نزعة الشرفاوي الإصلاحية خلال هذه المدة في دروسه²، وفي مجالسه العلمية، ولقاءاته مع مختلف الفئات، من شيوخ وشباب، وأقارب وأبعاد، وفي مقالاته التي ينشرها في الصحف الإصلاحية³.

¹ - محمد الرزقي الشرفاوي، "أسباب الرّقي وأسباب الانحطاط"، جريدة الصّديق، العدد 31، 25 أبريل 1921م.

² - يقول تلميذه الأستاذ محمد الصّالح الصّديق: « إنّ الشيخ الشرفاوي حين تخالطه وتعيش معه تجده يعكس أفكار الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني. فقد كان يذكرهما كثيراً في دروسه، كما يذكر الشوكاني ورشيد رضا والكواكبي، وكان كلما تحدث عن الظلم ذكر الكواكبي، وتحدث عن كتابه "طبائع الاستبداد" ». شهادة شفوية بتاريخ: 2017/12/15م.

³ - كان ينشر مقالاته في كل من: جريدة "البصائر"، لسان حال جمعية العلماء، وجريدة "الأمة" للشيخ أبي اليقظان وهو من قادة الجمعية، وجريدة "الثبات" الموالية للإصلاحيين.

وجدير بالذكر أنّ الشّيخ الشّرفاوي كانت له علاقات وطيدة مع رجال جمعية العلماء، فحسب المرحوم محمد الصّغير فرج¹، فإنّ الشّيخ كان على علاقة طيّبة ودائمة مع رئيس الجمعية الإمام ابن باديس². وذكر لي بعض طلبة الشّرفاوي أنّ هذا الأخير قد تأثر بوفاة الإمام أيّما تأثر، حتى أنّه علّق على وفاته بكلمة أمام الطلبة، قال فيها: «إنّه شمسٌ، كان يُضيء الجزائر ثم انطفأ»³! ومن أعضاء الجمعية البارزين الذين كان الشّرفاوي على علاقة طيّبة معهم: الطّيب العقبي، وأبو يعلى الزواوي، وباعزيز بن عمر، ومحمد العيد آل خليفة⁴، ومحمد السّعيد بن سعيدان، فكان حين يذهب إلى مدينة الجزائر ويمكث فيها يومين أو ثلاثة، يزورهم ويعقد معهم مجلساً يتحدثون فيه عن واقع الجزائر ومستقبلها⁵. ومن الذين كان يلتقيهم أيضاً كلما ذهب إلى العاصمة تلميذه الشّيخ مكي النّعماني، بعد أن غادر الزاوية وأصبح يشتغل مُدرّساً في مدرسة حرّة تابعة لجمعية العلماء بعين طاية، بضواحي العاصمة⁶.

ومن الأمور التي تعبّر عن انسجام الشّرفاوي في أفكاره وأعماله مع دعوة جمعية العلماء، أنّ زاوية عبد الرّحمن اللولوي التي عُرفت بتفتحها على الحركة الإصلاحية منذ بداية الثلاثينات، قد ازدادت تفتحاً في عهده، فكانت الزاوية الوحيدة التي تغزوها صحف العلماء مثل البصائر والشّهاب⁷، وكان الشّرفاوي يحثّ طلبته المتميّزين على قراءة هذه

¹ - محمد الصّغير فرج (1912 - 2003م)، أحد أبرز النّاشطين في فرع جمعية العلماء بمدينة تيزي وزو خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي.

² - محمد الصّغير فرج، تاريخ تيزي وزو، مرجع سابق، ص 207.

³ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/07/13م.

⁴ - مما يدل على وجود علاقة بين الشّيخ الشّرفاوي والشّاعر محمد العيد ما ذكره الأستاذ محمد الصّالح الصّديق من أنّ الشّيخ الشّرفاوي كان يذكر الشّاعر في دروسه، وقال أنّه دخل على الشّيخ ذات مرة، قبل شروعه في الدرس فوجده يقرأ رسالة وقال هي لشاعر من شعراء الجزائر وهو محمد العيد آل خليفة، ومع الرّسالة كُتِبَ كلّ شعر كتبه محمد العيد عن المولد النبوي. شهادة شفوية بتاريخ: 2015/11/03م. ومعروف عن المرحوم محمد العيد آل خليفة (1904 - 1979م) أنّه أقام في مدينة الجزائر إثني عشر عاما مدرّساً في مدرسة الشّيبية الإسلامية الحرّة من سنة 1928م إلى سنة 1940م، ومديراً لها منذ سنة 1931م، وفي هذه الفترة أسهم في تأسيس جمعية العلماء وكان من أعضائها العاملين.

⁵ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/04/02م.

⁶ - ذكر النّعماني هذا في أوراقه المخطوطة، مصدر سبق ذكره.

⁷ - كانت الزاوية متفتحة أيضاً على صحف الطرقيين، فكانت جريدتا "البلاغ"، و"النجاح" المحسوبتين على هذا التيار، تُقرأ أيضاً في الزاوية وهذا بالخصوص في فترة الحرب العالمية الثّانية لما توقفت صحف العلماء. عرفنا هذا من خلال

الأرشيف الوطني لما وراء البحار: (A.N.O.M, Aix- en-Provence, 91505/52)

الصّحف¹، في حين كانت بعض الزوايا تمنع طلبتها من قراءتها، خشية التأثير بالفكر الإصلاحي، فلا يقرؤونها إلا خفية، وإذا وجدت الجريدة عند طالب عُوقب وهُدّد بالطرد من الزاوية، واعتُبر مشوّشا وتمرّداً يجلب المشاكل لصاحب الزاوية، ويُسبب في غلق زاويته²! وفضلاً عن هذا فإنّ الكثير من طلبة الشرفاوي قد أصبحوا معلمين في المدارس الحرّة التابعة لجمعية العلماء، سواءً في منطقة القبائل أو خارجها³، ومن طلبته أيضاً من تولوا الإمامة في القرى، فساهموا في نشر الأفكار الإصلاحية التي تشبّعوا بها من دروس أستاذهم في الزاوية.

- لماذا لم ينخرط الشرفاوي في جمعية العلماء؟

إنّ الملاحظ في مسار الشّيخ الشرفاوي، هو أنّه لم ينخرط بصفة رسمية في صفوف جمعية العلماء⁴، رغم أنّ أفكاره، ومواقفه، وجهوده في التربية والتعليم والإصلاح، كانت كلّها تصبّ في نفس الاتجاه مع الجمعية، فما تفسير ذلك يا ترى؟

يذكر الأستاذ حسن عليّ أنّ معلومةً سرّيةً وصلته مفادها أنّ قداماء طلبة زاوية عبد الرّحمن اليلولي هم الذين طلبوا من أستاذهم ألاّ ينخرط في جمعية العلماء، وذلك حفاظاً على الزاوية، لأنّ الشّيخ خريج جامع الأزهر⁵. وربما نصحه بذلك أيضاً بعض أصدقائه مثل الأستاذ أحمد بن زكري، بهدف تجنّب ضغط الإدارة الاستعمارية ومضايقاتها. ومما لا يخفى على الجميع آنذاك - حتى على الشّيخ الشرفاوي نفسه - أنّ الإدارة الفرنسية كانت تفرض رقابة شديدة على المثقفين بالعربية، وخاصة الذين درسوا في المشرق العربي، وتأثروا بما كان يسوده من أفكار النهضة والإصلاح والتحرّر، وبالفعل فقد رأينا - فيما سبق - كيف عاش الشّيخ تحت المراقبة الشديدة منذ عودته من الشرق واستقراره في منطقة القبائل، وكيف أُجبر في سنواته الأخيرة على الحضور إلى الولاية العامة

1 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/11/07م.

2 - محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن في الجزائر، مرجع سابق، ص 121.

3 - منهم على سبيل المثال لا الحصر: أحمد قادري، نعماني مكّي، العربي بن عيسى، محمد سعيد عدنان، أحمد حسين.. الخ. أنظر تراجم هؤلاء فيما أوردناه من تراجم لحياة طلبة الشّيخ.

4 - من الذين أكدوا عدم انخراطه في جمعية العلماء الأستاذ محمد الصّالح الصّديق في شهادته الشفوية، وأيضاً المرحوم حسين آيت أحمد في مذكراته "بالفرنسية"، مصدر سبق ذكره، هامش 2، ص 73.

5 - حسن عليّ، نجل الشّيخ السعيد البجري، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/11/25م.

للمساءلة والاستعلام والتوقيع¹! وما دام الأمر كذلك، وهو مستقل عن جمعية العلماء، فإنّه من المؤكّد أنّ انخراطه في هذه الجمعية سيجرّ له متاعب أخرى من الإدارة الاستعمارية، ومن تيار المحافظين (رجال الزوايا المعادين للإصلاح)، لذلك كان الأفضل للشيخ وللزاوية أن يبقى مستقلاً عن الجمعية، مع أنّه يعمل في نفس الاتجاه معها، وعليه فإنّ عدم انخراط الشرفاوي في الجمعية قد يكون من باب الحيطة والحذر، ليس إلّا!

ب- آراؤه في الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي

- أسباب رقي الأمم وانحطاطها

مثل غيره من رجال الإصلاح، ألم الشيخ الشرفاوي ما أصاب الأمة الإسلامية في قرونها الأخيرة من تخلف وانحطاط في مختلف ميادين الحياة، فاهتم بالبحث عن السبيل الأمثل لنهوض هذه الأمة من جديد، واستعادتها لمجدها التليد، فكتب سلسلة من المقالات نشرها في جريدة "الصديق" سنة 1921م بعنوان: (أسباب الرقي وأسباب الانحطاط)، أرجع فيها أسباب رقي الأمم إلى عاملين أساسيين، هما: الأخلاق الفاضلة والعلم. وبالفعل فإنّ هذين العنصرين توأمان متلازمان لا غنى بأحدهما عن الآخر، وعلى قدر نصيب الأمة منهما، يكون حظّها من الرّفعة والسّعادة والرّقي.

لقد جعل الشرفاوي الأخلاق الفاضلة في الدرجة الأولى، لأنّها في نظره « أقوى الأسباب، والركن الأعظم، والأساس الأول لسعادة الأمم ورقّيها وقوتها وحياتها.. »²، وجعل العلم في الدرجة الثانية، لأنّ العلم أيضا « أساس النهوض وحياة الشّعوب.. »³، والمراد بالحياة « لا أن يجري الدم في عروقها، وتقوى أجسامها بواسطة غذائها المادي، بل المراد بالحياة قوتها الروحية التي تستمدّها من العلوم الصّحيحة فيتجلّى أثرها من العزّة والإباء ونفوذ البصيرة وقوة الإرادة »⁴. والشيخ فيما ذهب إليه يستند إلى ما قرّره العقلاء والعلماء

1 - ذكرنا هذا في فصل سابق حين تكلمنا عن موقف الإدارة الفرنسية من نشاط الشيخ.

2 - الرّزقي الشرفاوي، "أسباب الرّقي وأسباب الانحطاط"، الصّديق، العدد 31، 25 أبريل 1921م.

3 - الرّزقي الشرفاوي، "العلم أساس النهوض وحياة الشّعوب"، النّجاح، العدد 127، 28 سبتمبر 1923م.

4 - نفسه.

في كل زمان ومكان¹، كما يستند إلى ما يقدمه تاريخ الأمم وواقعها في الحاضر من أدلة صارخة في هذا الصدد².

يقول الشيخ: « وما تسنمت الأمة الإسلامية ذروة المعالي، ولا امتطت متن العزّ والمنعة إلا في عصر الأمويين والعباسيين حيث إنهم - بعد أن تخلّقوا بالأخلاق الفاضلة، والآداب الدينية - أقاموا للعلوم والمعارف صروحا علياء، وللآداب حدائق غناء، وللحضارة والحرية العقلية رياضاً زهراء، فنشأ بذلك الكتاب والشعر والعلماء والحكماء والفلاسفة والفلكيون والأطباء، فتمكّنت في النفوس أخلاق فاضلة، وفي الرؤوس مدارك نامية، فبذلك تحسّنت طرق استثمار الأموال والتجارة.. فاشتركت مع الأمم، واختلطت بالشعوب، فانتقلت البضائع العقلية، والمميزات الفكرية بانتقال البضائع الحسيّة المادية، فتكاملت للأمة أسباب الرّقي التي هي: كمال أخلاقي، وكمال علمي، وكمال مالي، فناطحت السماء علماً وعزّاً وهناءً³».

ولعلنا نلاحظ أنّ الشيخ قد أشار - فيما أوردنا من كلامه - إلى عامل آخر من عوامل رقي الأمة الإسلامية في عصورها الزاهرة، وهو المال. والمال - كما هو معلوم - عنصر فعال في بناء الحياة، والتمكين للأمة، فلولا المال ما ارتفع شأن الأوطان، ولا قويت شوكتها، ولا عزّ سلطانها، وحسبنا في أهمية المال أنّ الله تعالى ذكره مع الأبناء في قوله تعالى: ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا﴾⁴، وقدمه على البنين لأنهم بالمال ينازعون البقاء وبينون حياتهم. غير أنّ المال لا يكون عاملاً للرّقي والتقدم إلا إذا توفر العاملان: الأخلاق والعلم، اللذان يضمنان حسن استثماره.

وكما أنّ أعظم أسباب الرّقي: الأخلاق الفاضلة والعلم، فإنّ أعظم أسباب التأخر الأخلاق الفاسدة والجهل، لأنّ « الأخلاق الفاسدة هي الأصل الذي يتفرّع عنه جميع

¹ - أورد الشيخ لبعض فلاسفة أوربا قوله: « ما سعادة الأمم بكثرة أموالها، ولا بقوة استحكاماتها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بأبنائها الذين تتشقت عقولهم، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم، واستتارت بصائرهم، واستقامت أخلاقهم، ففي هؤلاء سعادتها الحقّة، وهؤلاء هم قوتها الرئيسية، وعظمتها الجوهرية ». جريدة الصديق، العدد 31.

² - مثل هذه الصيغ كثيرا ما تتكرّر في كتابات الشرفاوي: « إذا تأملنا تواريخ الشعوب ماضيها وحاضرها.. »، « إنّنا إذا راجعنا التاريخ.. »، « ومن لم يراجع التاريخ يظن.. »، « لما دلّت عليه حوادث الكون وتقلبات الأمم التي أملاها علينا التاريخ.. الخ ».

³ - الرّزقي الشرفاوي، "أسباب الرّقي وأسباب الانحطاط"، الصديق، العدد 31، 25 أبريل 1921م.

⁴ - سورة الكهف، الآية 45.

أسباب التقهقر.. «¹، وكذلك « الجهل وما يستتبعه من الأمراض.. »²، هو من أقوى أسباب تدهور الشعوب.

وكما استخلص الشيخ أسباب الرقي من التقدم الذي حققته الأمة الإسلامية في عصورها الأولى حين اجتمع فيها العاملان: الأخلاق الفاضلة والعلم، استدلت على أسباب الانحطاط بما حلّ بالأندلس الإسلامية من انحطاط واندثار بعد قرون من التقدم والحضارة والمدنية الزاهرة، وفي هذا يقول: « تأمل ذلك في الأندلس التي كانت نبراساً للأمم، ومصدراً للعلوم والمعارف، وكعبة الوفود من الطلاب، ومنبعا للحضارة والمدنية، ولما انتشرت فيها الأخلاق الفاسدة، من الملاهي والملذات الشهوانية، والاستكثار من الملابس والمباني، والتألق في ذلك والتنافس، والانشقاق في الرئاسة واستقلال كل زعيم بناحية من نواحيها، واستبدوا بألقاب الخلافة، فتلقبوا بالناصر والمنصور، والمعتمد والمظفر، إلى غير ذلك.. تدهورت من أعلى ذراها إلى الحضيض الأوهده، كأنها لم تكن في عالم الوجود.. »³.

وضرب مثلا آخر للانحطاط بما أصاب "وطننا العزيز الجزائر"، ف « بعد أن أنجب للعالم الإسلامي نبغاء من العلماء والأدباء والشعراء، ونافس العراق والشام في العلوم والمعارف والحضارة والتمدن.. انطوى بساط ذلك كله، واندرست تلك العلوم والمعارف كأنها لم تكن، واسودت أيام ذلك الوطن المنكود، واستمرت فيه أجيال متعاقبة وهي في سبات عميق، وهائمة في دياجير الظلمة والجهالة، ولا شك أنّ الجهل له الحظ الأكبر في السقوط، لأنه ضد العلم، وهو وسيلة إلى الفاقة لعدم معرفة طرق استثمار الأموال، وتحسين التجارة »⁴.

ويذهب الشيخ إلى أنّ استمداد الأخلاق يجب أن يكون من تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم هم الذين يأخذون ما يليق بنظام هذا العالم من خالقه وصانعه، وهي بالنسبة للمسلمين ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك « أننا إذا راجعنا تاريخ العرب وتأملنا حقائقه الثابتة وجدناهم ما تقدموا في جيل واحد ما تقدمته الرومان في ثمانية أجيال، ولا امتد ملكهم من الصين شرقا إلى الأندلس غرباً، إلاّ بتمسكهم بالتعاليم والأخلاق التي جاء بها سيدنا

1 - الصديق، العدد 31، مرجع سابق.

2 - الرزقي الشرفاوي، "العلم أساس النهوض وحياة الشعوب"، النجاح، العدد 127، 28 سبتمبر 1923م.

3 - الصديق، العدد 31، 25 أبريل 1921م.

4 - نفسه.

محمد صلى الله عليه وسلم «¹. وعلى العكس من ذلك، حين نبذ العرب تلك الأخلاق والتعاليم واستغنوا عنها في القرون الأخيرة نبذتهم واستغنت عنهم فأصبحوا من المتقهقرين المتأخرين، بعد أن بلغت دولتهم شأواً بعيداً في الحضارة والمدنية! وعليه فإن الأمة الإسلامية إذا أرادت أن تسترجع مجدها، وبالأخص الأمة الجزائرية التي غرقت في بحور الجهالات، وتلاطمت عليها أمواج الضلالات، أن ترجع إلى تعاليم نبيها، وتتمسك بأخلاقها الدينية، وتسعى في الوقت ذاته لاكتساب العلم².

وأوضح الشيخ أنّ المراد بالعلم ليس العلوم الدينية فحسب، وإنّما المراد به العلوم الصناعية أيضاً « التي هُجرت في البلاد الإسلامية في هذا الزمان، وهي مراقبة الأمم في كل عصر وأوان، وذلك كالعلوم الميكانيكية والهندسية والكيمائية والتجارة والزراعة وسائر الصناعات، فهذه العلوم هي التي يجب صرف الأوقات الثمينة في الاشتغال بها بعد أخذ الكفاية من العلوم الدينية «³.

هكذا دعا الشرفاوي المسلمين عامة والجزائريين بصفة خاصة، في وقت مبكر إلى ضرورة الأخذ بالعلوم العصرية التي لا غنى عنها لدخول الحضارة والمدنية، وأهاب بأعيان الأمة وأغنيائها ومُصلحيها أن يجتهدوا في إيجاد الطرق لتوصيل هذه العلوم، لينتشلوا أمتهم من وهبتها الهاوية، وليحفظوا لها كيانها، ويعيدوا إليها ما كانت عليه قديماً من الثروة والغنى وانتشار العلوم. فهذه العلوم هي التي « تُكسب الأمم العزّ والشرف، وتفقّد الأمم بفقدائها أهم الخصال الكمالية، إذ بها جلب الثروة والغنى. والأمة إذا كانت غنية واسعة الثروة، كانت معظّمة مبدجة مرعية الجانب، موقرة بين بقية الأمم، مشهوداً لها بالفضل والكمال، وأما إذا كانت مجردة من الغنى والثروة فتُجرّد من كل شرف، ويُسلب منها كل كمال، ويُنسب إليها كل قبيح وكل شرّ، وإن لم يكن فيها.. «⁴.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشيخ الشرفاوي، وإن كان يقرّ بما للحضارة الغربية المعاصرة من حسنات كثيرة ومنافع عديدة، فإنّه لم يكن أبداً ممن تبهرهم مظاهر هذه الحضارة البراقة، لذلك فإنّه بقدر ما كان يوصي مواطنيه باقتباس العلوم والصناعات

1 - الرّزقي الشرفاوي، "أسباب الرّقي"، الصّديق، العدد 36، 30 ماي 1921م.

2 - نفسه.

3 - الرّزقي الشرفاوي، "أسباب الرّقي"، الصّديق، العدد 39، 25 جويلية 1921م.

4 - نفسه.

وكل ما هو نافع من هذه الحضارة، فإنّه يُحذّر من أخذ كل شيء منها والانسحاق وراء مظاهرها البراقة المغرية، لأنّ هذا يؤدي حتماً إلى الانسلاخ من قيمنا وأصالتنا، ومن كلامه النادر الذي نُقل عنه في هذا الموضوع قوله: « الحياة علمية عملية، لا ظواهر شكلية نغترُّ بوميضها، وليس كلّ المتمسّكين بالقديم متأخرين رجعيين فاتهم الزمن وتعدّاهم، ولا كلّ المسوّقين بزخارف الحضارة الغربية متقدمين حضريين، وإنّما المقياس الصّحيح للإنسان ما فيه من النّفع للمجتمع، ومدى تفهّمه للحياة وتوظيفه لها »¹.

والخلاصة هي أنّ الشرفاي يرى أنّ الرّقي والتقدم معناه نهضة الأمة التي لا بد أن تقوم على العلم والأخلاق الفاضلة، مع الجمع بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية، والمزاوجة الذكية بين الأصالة والمعاصرة.

- الطّرقية

في رأي الشرفاي فإنّ أكثر الطّرقين ابتعدوا عن التعاليم الصّحيحة للإسلام، فانتشرت بينهم الخرافات، وتسلّط عليهم الوهم والخيال، فعّدوا الحق باطلاً، والباطل حقاً، فأبرزوا الدين في أبشع الصّور، وشوّهوا جميل حقيقته بالخزعبلات والأوهام. ثم إنّ ظلّمهم لم يقتصر على أنفسهم، بل ظلّموا غيرهم وغرّوهم بما اشتغلوا به من قشور العلم، والصّور المفككة من الفقه والنّحو، والتهيؤ بهيئة العلماء!² لذلك فإنّ ضرر هؤلاء على الدين كبير، وخطرهم على الأمة عظيم، ولا شك أنّ الشّيخ يقصدهم بقوله - في إحدى مقالاته - : « إنّ أسّ الفتن كلّها، ورأس الشّرور بأسرها إسناد الأمر لغير أهله، وجهل المرء بنفسه، فيقول فيما لا يدري، فبلايا الأمة جمعاء ما كانت ولن تكون إلّا من اقتدائها بالجهلاء، وآفة الدين لا تكون إلّا من أولئك البذلاخين³ الأنانيين الذين يضرونه من حيث يريدون أن ينفعوه، ويهدّمونه من حيث يظنون أنّهم يشيّدونه، أخذوا قشورا من العلم، فظنوها لباباً، وعتّاً من المسائل فظنوها سميناً، يجهلون ويجهلون أنّهم يجهلون، فهم على حدّ قول القائل:

جهلت وما تدري بأنك جاهل * ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاي، مرجع سابق، ص 92.

² - الرّزقي الشرفاي، وادعوا إلى سبيل ريكّم بالحكمة والموعظة الحسنة (1)، البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م.

³ - البذلاخين: الكُسلاء الذين لا يُعملون فكرهم، حسبهم من الدنيا الأكل والشّرب والراحة!

فهؤلاء مصيبة العلم، وداء الأديان، وعقبة التقدم، وأعداء العرفان، وسماصرة الأغراض، ورُصَادُ الحادِثات، وعبيد الأهواء، وحُلفاء التلَوُّنات، فهم ليسوا من العلم في قليل ولا كثير، ومن بين أهل الحجّة والبرهان لا في العير ولا في النفير..»¹.

وفي رأي الشيخ فإنّ هؤلاء الأذعياء يأتون أفزع الأعمال حين يسعون لطمس الحقّ، وإعلان الباطل، ويساعدون على انتشار الشرّ والأباطيل بين العوام، ويعظم شرهم حين يَعتَبِرون أنفسهم حُماة الدين²، فيتعرّضون لمن يريد أن ينشر العلم الصّحيح، والاعتقاد الحقّ بالطّعن بالفسق والزندقة والكفر، وقد حدث للشرفاوي معهم مثل هذا، فأنكروا عليه - كما قال - كثيراً من الأحكام هي صريح كتاب الله تعالى أو صريح السنّة الصّحيحة، أو هي عمل الصّحابة والتابعين³، وحاربوه بلا هوادة، وألبوا عليه العامة، كما رأينا في مكان آخر من هذا البحث! لذلك لا غرابة إذا وجدنا الشّيخ يُحاربهم ويشدّ في انتقادهم والتنبيه لخطرهم، حتى قال عنهم يوماً: « إذا كان الجسم الذي فيه دماميل بكثرة يشقى ويتعب، فإنّ دماميل الجزائر هم هؤلاء الطّرقيين المنحرفين، لأنهم ينشرون البدع والضلالات»⁴.

- إصلاح التعليم الديني

انتقد الشّيخ الشرفاوي التعليم الديني الذي كان سائداً في الجزائر، وقال أنّه قد وصل إلى حالة من الفساد والبعث عن الغاية المقصودة منه لم يعهدها في عصر من العصور⁵، وهذا بسبب ضعف مناهج التعليم، وضعف مستوى القائمين عليه وابتعادهم عن الكتاب والسنّة. وحسب الشّيخ فإنّ ما آل إليه حال العلم والعلماء في الجزائر، من مسخٍ لحقائق الدين، وطمسٍ لفضائله، وما أُصيب به الشعب من التأخّر في الأخلاق والدين، إنّما مرجعه إلى علماء الدين أنفسهم، « إذ أكبر عالم ديني عندنا - كما قال - هو من يشتغل

¹ - الرّزقي الشرفاوي، "جهل وغرور"، مقال مخطوط كتبه في توضيح فتواه في الرّبيبة بعد أن تألّب عليه خصومه في هذه المسألة. المقال بكامله أنظره في: محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 115-123.

² - الرّزقي الشرفاوي، "من جبال زواوة"، الثّبات، العدد 47، 2 جويلية 1935م.

³ - محمد الرّزقي الشرفاوي، "وادعو إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة"، البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م. ويقول الشّيخ في مكان آخر: « إذا قيل لأحدهم قال الله في كتابه الكريم، أو قال رسول الله في الحديث الصّحيح كذا وكذا، أو أجمع أئمة الدين على كذا، أو القياس كذا وكذا يقول: ولكن سيدي فلان يقول كذا وكذا! يقابل قول الله وقول رسول الله وإجماع الأئمة والقياس الصّحيح بقول فلان، فكيف يُرجى أن تُعرف حقيقة الدين من أمثال هذا؟ ». (الثّبات، العدد 47، 2 جويلية 1935م).

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/12/15م.

⁵ - الرّزقي الشرفاوي، "من جبال زواوة"، الثّبات، العدد 47، 2 جويلية 1935م.

بمجموعة مفككة من الفقه والنحو وغيرها من الفروع مجردة عن أرواحها..¹ «! ومما لا شك فيه، فإنَّ الشَّيخ يقصد بالعلماء هنا الذين تولوا أمر التعليم في المعاهد الدينية، وفي زوايا منطقة القبائل بالخصوص التي اعترها - آنذاك - الجمود، وغلب عليها التقليد، واقتصر تعليمها على تحفيظ القرآن وبعض المتون في الفقه واللغة دون تنمية ملكة الفهم والتحليل لدى الطالب.

وفي رأي الشَّيخ فإنَّ أكبر نقصٍ يعتري الذين تصدوا لتعليم الدين هو أنَّهم قطعوا الصلة بينهم وبين ينابيعه الصحيحة: الكتاب والسنة، واشتغلوا بقشور من العلم، «.. فضلوا الطريق لتلقيح النفوس بما يزيل خبثها ويجلي صداها، ويولد فيها القوة، ويجدد لها النشاط إذا هي فترت من مكارم الأخلاق، وما يتعلَّق بها من أحوال النفوس وبرور الأعمال التكليفية..² وفي رأيه أيضاً، فإنَّ فساد التعليم الديني هو الذي أضعف تأثير الدين في نفوس الناس وأخلاقهم، ويستدل على ذلك بالتأثير الذي أحدثه الإسلام في عهده الأول، وضعف تأثيره في الحاضر، فيقول متسائلاً: « وإلَّا كيف يكون الدين الذي أصلح الوثنيين والعتاة الجبارين وداواهم، لا يصلح أن يداوي المسلمين أنفسهم؟ لقد نهض الدين الإسلامي بالعالم كله على شدة فساده في أقرب الأوقات، فكيف لا ينهض بالمسلمين أنفسهم لو سلك به من تصدى لتعليم الطريق المستقيم ببيان حقيقته الجميلة في دروسهم، وتعليمها لأولادهم وعائلاتهم وفي بلادهم؟ ولو أنَّ تلك الحقيقة ذات الجمال الباهر معروفة للوعاظ والمرشدين وحماة الدين، لانتشر جمالها وآثارها الحسنة بأقل من ذلك العمل الذي يتكرَّر في كل أسبوع، وكل عام في المجتمعات الدينية، ولكن سوء التعليم ونقصه أبطأ بالناس السير³ ».

1 - نفسه.

2 - نفسه. ويقول في موضع آخر: « وليس أدل على سوء التعليم الديني ببلدنا من إغلاق كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على أفهام المعلمين والمتعلمين، ولو حرص العلماء على تعميم تفهم الكتاب والسنة حرصهم على حفظ ألفاظ القرآن فقط، لاستخرجوا من كنوزها الثمينة ما استعصى على الأفهام، وستره ظلام الزمان، ولانتشلوا الدين من وهدهته، ولانتفعوا بسماع القرآن وتلاوته، وخضعوا لسلطانه، وهشوا لحلاوته، وألجأ الناس رجال التعليم الديني إلى الوقوف على أسراره، والاحتفاظ بلغته، ليكون معهم أينما ساروا في مستودع عقولهم، فيعلمونه الناس كما أمر الله لا كما يريدون ». الأمة، العدد 57، 13 جانفي 1936م.

3 - الرزقي الشرفاوي، "من جبال زواوة"، الثبات، العدد 47، 2 جويلية 1935م.

وحسب الشَّيخ فإنَّ الإصلاح الديني لا يُتوصَّل إليه إلاَّ بالعلم، وهذا يستلزم إصلاح التعليم الديني بالمعاهد المختلفة الموجودة عبر القطر الجزائري¹، وحسبه أيضاً، فإنَّ أوَّل ما ينبغي أن يقوم عليه التعليم الديني هو القرآن والسنة، لأنَّ ذلك هو الكفيل بإبراز حقيقة الدين، ونفي ما أُصق به - عبر العصور - من الدجل والخرافات². وبخصوص تعليم القرآن، يعيب الشَّيخ على المعلمين - في زمانه - وقوفهم عند حفظ ألفاظه، دون تفهّم معانيه والوقوف على أسراره، لأنَّ ذلك يجعل من يحمل القرآن لا يستفيد منه ولا يُفيد به غيره، وأشار إلى أنَّ حال هذا الزمان قد كُشف للنبي صلى الله عليه وسلّم، حيث قال في معرض نمه: « وسيأتي على النَّاس زمان قليل فقهاؤه، كثير فُرأؤه، وتُحفظ فيه حروف القرآن، وتضع حدوده »³! ويجدر التنبيه بأنَّ المراد بالفقه هنا هو الفهم والإدراك، وليس معرفة أحكام الدين وتشريعاته.

ومن وجوه الإصلاح التربوي التي يراها الشَّيخ ضرورية، تغيير الكتب المتداولة بين المعلمين والمتعلمين، وتغيير الأساليب المستعملة في التعليم⁴، وهنا ينبّه الشَّيخ المعلمين والمرشدين إلى أن يُعنوا بتربية النشء الصَّغير التربية الصَّحيحة، ويُرشدوهم إلى مطالعة الكتب الصَّحيحة المنقَّحة من الأكاذيب بعناية أئمة الدين الموثوق بهم، ويمنعوهم من الاشتغال بمطالعة الكتب التي ملئت بالخرافات وسفاسف الاعتقادات، والحكايات التي ما وُضعت إلاَّ بقصد النكاية بالدين والنيل من أصوله⁵.

ومن المعروف أنَّ من الصفات التي ينبغي أن تتوفر في المعلم حسن الأخلاق، وفي هذا يرى الشَّرفاوي أنَّ المعلم ينبغي ألاَّ يقتصر تعليمه على لسانه، بل يكون معلماً بأخلاقه وسلوكه أيضاً،

¹ - الرزقي الشَّرفاوي، "وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة" (2)، البصائر، العدد 111، 29 أبريل 1938م.

² - الرزقي الشَّرفاوي، "وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة" (1)، البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م.

³ - الأمة، العدد 57، 13 جانفي 1936م. ويقارن الشَّيخ بين تعامل الجيل الأوَّل من المسلمين مع القرآن وتعامل الأجيال المتأخرة فيقول: «.. لقد عُتوا به واستمسكوا وانقطعوا إليه: يحفظونه ويفهمونه ويهتدون به، فكان أن ارتقوا وتقدموا وصاروا قادة الأمم والعقول، أما نحن فقد اكتفينا بحفظه وشرح ألفاظه، وكتابته في الحُجب والتمايم، فكان ما كان من ضعفنا وتأخرنا وجمودنا عن الحياة الكريمة العزيزة! ». محمد الصَّالح الصَّديق، الشَّيخ الرزقي الشَّرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 188.

⁴ - الرزقي الشَّرفاوي، "من جبال زواوة"، الثَّبات، العدد 47، 2 جويلية 1935م.

⁵ - الرزقي الشَّرفاوي، "كيف يكون العالم الديني؟"، الأمة، العدد 55، 17 ديسمبر 1935م. عن هذا يقول الشَّيخ منبهاً: « ذلك أنَّ كثيراً من الملاحدة - عندما رأوا انتشار الإسلام وامتداد سلطانه بسرعة - دخلوا فيه للنكاية به ورأوا أنَّهم ينالون من الإسلام بالعلم ما لم ينالوه بغيره، فوضعوا العقبات لسيره، وذكروا في كتبهم ما من شأنه أن يحطَّ بكرامته ». الأمة، العدد 55، 17 ديسمبر 1935م.

بل إنّه يرى أنّ الإنسان يُعلّم بأخلاقه وسلوكه أكثر مما يُعلّم بلسانه، وحسبَه أيضاً فإنّ من المصائب الكبرى أن يُعلّم الإنسان بأخلاقه وسلوكه ضد ما يُعلّم بلسانه¹.

هذا ويشير الشّرفاوي إلى أنّه قد قام بالنصيب الأوفر من هذا الإصلاح في زاوية الشّيح عبد الرّحمن اليلولي التي كان بها مدرّساً دينياً، وبالجهات التي اختلط بمن فيها، لكن ذلك كان - كما قال - قذى في عيون أهل التّخريف² الذين يخشون التّغيير ويقلّعون النور، ويسعون جاهدين أن يظلّ الحال كما كان عليه! وبالفعل فقد اجتهد الشّيح - منذ انتصابه مدرّساً بالزاوية المذكورة - في إصلاح التّعليم، فوضع برنامجاً للتّعليم أدخل فيه مواداً جديدة لم تكن موجودة من قبل، كالنفسير وشرح الحديث وأصول الفقه، كما طوّر تدريس المواد التّقليدية المعروفة كالنحو والنحو والصّرف والتوحيد والتاريخ، واهتم كثيراً بدراسة الأدب العربي من شعر ونثر، وأدخل مادة الإنشاء لرفع مستوى الطلبة في اللّغة، لأنّها السّبيل لفهم بقية العلوم، واختار لكل علم من العلوم كتاباً أو كتباً يتدرج الطلبة في دراستها، وألّف كتاباً في الإنشاء خصيصاً لطلبة الزوايا الزواوية، بعد أن رأى أنّ الحاجة ماسة إلى ذلك، لأنّه - كما قال - لم يجد من بين الكتب المتداولة ما يُناسب مستوى الطلبة³، وعمل على تحسين أسلوب التّعليم في الزاوية، وحرص على إخراج الطلبة من رتبة الجمود الفكري والتقليد الأعمى المسيطر على العقول، فكان يدعوهم لحرية التّفكير وإعمال العقل، ويشجّعهم على التّفنح على الفكر الإصلاحي⁴، وبالموازاة مع ذلك كتب الشّيح سلسلة من المقالات دعا فيها إلى ضرورة إحداث إصلاح تربوي في زوايا بلاد الزواوة، حتى تستطيع هذه المعاهد النهوض بالمجتمع وتقوم بالدور المنوط بها على أكمل وجه⁵.

هذا وقد حظيت دعوة الشّرفاوي بالترحيب والتأييد من قبل علماء الإصلاح الذين استمروا في نشر مقالاته في صحفهم، وكتب الشّيح باعزير بن عمر، عضو جمعية العلماء، مقالا في مجلة "الشّهاب" يشيد فيه بجهود الشّيح الشّرفاوي التربوية والإصلاحية

1 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/12/15م.

2 - الرّزقي الشّرفاوي، "وادعوا إلى سبيل ربكم.." (2)، البصائر، العدد 111، 29 أبريل 1938م.

3 - نكر ذلك في مقدمة كتابه: الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزواوية، مخطوط الكتاب، ص 1.

4 - لقد تكلمنا عن هذا بالتفصيل في فصل سابق.

5 - تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الشّرفاوي لم يكن أوّل من دعا إلى إصلاح التّعليم في زوايا منطقة زواوة، فقد سبقه إلى ذلك الشّيح أبو يعلى الزواوي في كتابه (تاريخ زواوة) وفي مقالاته أيضاً، والشّيح باعزير بن عمر في مقالاته العديدة، وقبلهم دعا إلى ذلك الشّيح محمد السّعيد بن زكري في كتابه "أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل" الذي صدر سنة 1904م.

بالزاوية، ومقالاته في الصّحف الداعية لإصلاح التعليم الديني في بلاد الزواوة، ومما جاء في مقاله: « وقفت كما وقف غيري من محبّي الاطّلاع والإلمام بحقائق الأشياء، على ما كتبتوه ونشرتموه في جريدة "النّبات" في موضوع نقد التعليم الديني وسلوك القائمين به في تلك البلاد.. فسرّنا - وربّ الناس - أن يرتفع صوتكم من أعالي تلك الجبال الشّم، مؤذناً بوجود استتكار الحالة التي آل إليها أمر التعليم الديني هناك على أيدي قوم يرون البقاء عليها ضربة لازب، وأنّ كلّ مناقشة تُثار حولها هي نذير الشؤم في نظرهم ¹. ويضيف مشجّعاً له على مواصلة الكتابة في الموضوع فيقول: « فقلّمكم الذي هبّ يكتب عنها اليوم هذه المقالات القيّمة نرجو أن لا يجفّ له مداد، لتتحقق أمنية إصلاح التعليم، على مرأى ومسمع من أولئك المتشائمين الذين قلب التشاؤم عليهم الأوضاع الحيوية، وحول أنظارهم فلم تمتد مع الزّمان فقصروا همهم على الرضى بالدون، واستحسان ما ليس بالحسن ². وفي ختام مقاله دعا الكاتب الشّيخ الشرفاوي إلى الاستمرار في العمل والكتابة، والصمود أمام المناوئين لأفكاره، حتى يتحقق الإصلاح المنشود: «.. هذا وإنّ أملنا قد تجدد في أنّ حالة التعليم الديني ستتحسن في تلك المنطقة العامرة، وتندرج إلى الرّقي والكمال بوجودكم هناك. ونرجو أنّ لا تصرفكم أقاويل المتقولين عن إتمام بحثكم في هذا الموضوع الحيوي كما صرفت غيركم من قبل.. ³».

هكذا يتضح أنّ الشّيخ الشرفاوي يرى أن الإصلاح الديني بالنسبة للمسلمين - في أيّ عصر - يقتضي منهم العودة إلى التعاليم الصّحيحة لدينهم، كما جاءت في القرآن والسنة، وشعاره في ذلك - مثل غيره من علماء الإصلاح - قول إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله: « لا يُصلح آخر هذه الأمة إلّا ما أصلح أولها ⁴، وأنّ هذا الإصلاح لا يتحقق إلا بإصلاح التعليم في المعاهد الدينية الموجودة بالقطر الجزائري، ومن هنا دعا إلى إصلاح التعليم، في دروسه ومجالسه ومقالاته، واجتهد في تحقيق ذلك في الزاوية التي تولى التدريس بها، رغم ما كان يلقاه من معارضة ومقاومة من أنصار الجمود الذين يرفضون كل إصلاح، ويعادون كل تجديد.

1 - الفتى الزواوي، "إلى الأستاذ محمد الرّزقي الشرفاوي الأزهري بالزاوة"، الشّهاب، ج9، م 11، ديسمبر 1935م.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

4 - الرّزقي الشرفاوي، "كيف يكون العالم الديني؟"، الأمة، العدد 57، 13 جانفي 1936م.

- كيف يكون العالم الديني؟ -

كان الشرفاوي يرى أنّ الإسلام دينٌ حيٌّ، ورسالة خالدة، وأنّه دين عالمي يوافق كلّ عصر وكل مزاج، ولكن العلماء الذين يتولون شرحه وبيانه، هم الذين يجعلونه كذلك بفهمهم لأسراره، وإدراكهم لحقائقه، واجتهادهم أن يكونوا في مستواه: حيويّة وصلاحيّة وتمثيلاً¹. ولأنّ الذين تولوا مقاليد الدين في المجتمع - آنذاك - لم يكونوا في هذا المستوى، فقد كتب سلسلة من المقالات تحت عنوان (كيف يكون العالم الديني؟)²، بيّن فيها بعض ما ينبغي أن يتوفر في العالم الديني من صفات نفسية وعلمية حتى يمكن له أن ينهض بأتمته المتأخرة دينياً ومدنياً، وحتى يكون ممن شملهم قول النبي صلى الله عليه وسلّم: « العلماء ورثة الأنبياء ».

يذهب الشّيخ فيما كتب عن الموضوع إلى أنّ أعظم الدلائل التي يُستدل بها على العلماء الدينيين وورثة النبيين، براءتهم من الحسد، ومحبتهم الخير للناس، إذ الأنبياء ما بُعثوا إلاّ لإيصال الخير إلى العباد، ودلالاتهم على طريق السعادة، وتضحيتهم بكل شيء في سبيل إسعاد عباد الله تعالى، وعلى هذا سار ورثة الأنبياء الحقيقيون، فمن يحقد على الناس ويسعى في إطفاء نور الله الذي يُظهره على يد بعض عباده، مُحال أن يكون من العلماء الوارثين، فلا تتحقق الوراثة في عالم من العلماء إلاّ باتّباعه إيّاهم، واقتدائه بهم، في أعمالهم وأخلاقهم وسيرهم³.

وأما العلوم والمعارف التي ينبغي للعالم الديني أن يقف عليها، فذكر الشّيخ منها: القرآن وعلوم القرآن وأسراره وما فيه من الأحكام والحكم والأمثال، والتبشير والإنذار، والوعد والوعيد، والقصص وما فيها من العظات. ثم السّنة النبوية وعلومها وما فيها من الأقسام والأسرار، مع العلم بمواقع الأقسام ليستعمل كلاً في موضعه عندما تدعو الحاجة إلى استعمال ذلك في الإرشاد والاسترشاد. وأن يكون قادراً على بيان معاني القرآن ومعاني السّنة مع بيان ما اشتملت عليه الآيات والأحاديث من البلاغة. وبيّن أنّ المراد ببلاغة القرآن والسّنة ليس استخراج ما فيهما من المجازات والكنايات، لأنّ ذلك مباحث لفظية لا تتعلّق إلاّ بصورها اللفظية، ولا تصل إلى بيان روحها، وإنّما بلاغتهما الحقيقية ما فيهما من

¹ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشرفاوي، حياة وأثار، مرجع سابق، ص 27.

² - نشرها متابعة، بعضها بجريدة "الثبات"، ولما احتجبت نشر بقيتها بجريدة "الأمة".

³ - الرّزقي الشرفاوي، "كيف يكون العالم الديني؟"، الثبات، العدد 49، 23 أوت 1935م.

المعاني الإصلاحية، سواء كانت أخلاقية أو نظامية اجتماعية، وما فيهما من الكيفيات لمداداة النفوس المريضة، وبيان مقادير الدواء لعلاجها¹.

وعلى العالم الديني أن يكون عالماً بتاريخ حياة محمد صلى الله عليه وسلم، حياته العلمية والأخلاقية والاجتماعية، وعارفاً كيف كَوّن شخصيته التي اندرج تحتها جميع ما تفرّق في الناس من الفضائل حتى أمكنه أن ينهض بأمة أمية صعبة المراس، متفرّقة، متحاسدة، متباغضة، وحسب الشّيح فإنّ « من جهل تاريخ محمد، وسنّته، وكتاب الله تعالى فليس من الوارثين، بل هو دخيل على العلماء »².

وزيادة على ما تقدم، يرى الشرفاوي أنّ العالم الديني الداعي إلى الله تعالى، عليه أن يكون مطلعاً على تاريخ الأديان وتاريخ الأمم الدينية التي ورد ذكرها في القرآن، وأن يكون خبيراً بأحوال الأمة التي يدعوها، وبأمراضها النفسية والاجتماعية، وبطرق علاجها ومقاديرها من الدواء، عارفاً كيف يستحضر عظمة الله في النفوس ليندفع الإنسان بذلك إلى استجلاب آثار الرّحمة والفرار من آثار الغضب والانتقام، وأن يكون عارفاً بتاريخ المقالات الحادثة في الإسلام، بصيراً بمذاهب الفرق الإسلامية، خبيراً بلوازم كل مقالة، وما يترتب عليها من خير أو شرّ، وموافقها لأحوال الدين أو مباينتها لها، حتى إذا عرّضت له مقالةً بيّن منشأها وتاريخ حدوثها في الإسلام بياناً يشرح حالها، ويكشف عن أمرها، فيعمل بالموافق لأصول الدين ويردّ المباين لها³.

وأن يكون - أيضاً - عارفاً بتاريخ التأليف في الإسلام ليُفرّق بين مؤلّفات المتقدمين ومؤلّفات المتأخرين، فيأخذ بالأولى ويحذر الثانية، لأنّ حالة التأليف قبل المائة الرابعة تختلف عن حالتها بعدها، فالمتقدمون اصطلموا على أن يذكروا عقب كل ما يروونه من الأخبار والآثار صفة الرّواة ووصف الحديث، وأن يشرحوا حاله مع سائر الأدلة، وأما المتأخرون فقد جرّدوا مؤلّفاتهم مما يشرح حالها خصوصاً حينما تناولوا علوم جميع الأمم، وضموا إليها ما ولدته الحاجة وقضت به الضرورة من علوم مستحدثة، وأنظار مبتكرة، فأصبحت الآراء غير محدودة، والأفكار غير محصورة، فكثُر بين المؤلّفين الجدل والنضال، وراجت أسواق المنازعة والمخاصمة، واتّخذوا من تأليفهم سِهاماً يترشقون بها،

1 - نفسه.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

وحصوناً يلتجئون إليها، وربما وصل بهم النزاع إلى أن يلتزموا آراء شاذة، ويستندوا إلى آثار موضوعية، وأخبار مصنعة! ولقد مرّت على الدين بسبب ذلك حوادث تزعزع راسيات الجبال، غير أنّ قيام العلماء المصلحين بالدعوة إلى الكتاب والسنة، ووضوحهما في نظر العقول السليمة، وأحقيتهما وصلاحيتهما لكل زمان ومكان، جعل صوتهما يرنُّ فوق أصوات سائر الكتب والأقوال التي تذرّعت بها بعض الفرق، وأوجدتها ظروف الحوادث، فماتت بموت تلك الحوادث، وأصبحت بمثابة الأعضاء الأثرية، فذكرها في بعض الكتب لا يُعد دليلاً على صحّتها، فاستدلال الناس بما يوجد في تلك الكتب لا يُقبل إلاّ إذا وُزن بميزان الكتاب والسنة¹.

وذكر الشيخ أنّ الذي حدا به أن يجعل تاريخ التأليف مما يُطالب بمعرفته العالم الديني، ما رآه منتشرًا بين الناس - في زمانه - من كتب المتأخّرين المشحونة بالأخبار الضعيفة، والآثار الموضوعية، والحكايات المخترعة للأغراض الخبيثة، والتي فيها من الأمور ما يوجب حتماً تكذيب الإجماع القاطع، والسنة المتواترة، والكتاب الكريم، وكذا ما رآه عالماً بأذهان العامة من أنّ كل ما يُذكر ويوجد في الكتب المؤلفة صحيح، « لذلك نجدهم على سيل جارف من الاعتقادات الباطلة، وغرائب القصص الإسرائيلية، ودسائس الزنادقة، نراهم يعتقدون في الأحجار والأشجار والآكام، يشدّون الرّحال إليها، ويقربون لها القربان، وهذا كله جارٍ وأهل العلم في غفلة عن إرشادهم إلى الاعتقاد الصحيح، بل تركوهم حتى تقاوم أمرهم بحيث لو أراد من ربيّ على الاعتقادات الحقّة أن ينهاهم عن ذلك، تأديّةً للواجب، وامتنالاً لنصائح الدين لرموه بالتشددّ في الدين، والخروج عما كان عليه أسلافهم، اعتقاداً منهم أنّ تلك المنكرات والعبث بنظام العبادات - جهلاً أو سعياً وراء الشهوات - هو الإيمان والتقوى²».

ويؤكد الشيخ أنّ الإيمان بالله ليس كلمة يلوكها اللسان، وإنّما هو عقيدة راسخة تملأ قلب المؤمن فنثمر فيه تقوى الله، والتقوى منبعها القلب الخالص من شوائب الجهل والفساد، ثم تفيض منه على الجوارح فتملأ النفس عفةً وحكمةً وشجاعةً وعدلاً، وتقوى المؤمنين لا تُعرف بأزياء ولا عادات ولا اصطلاحات، وإنّما تُعرف بالعمل الصّالح ومكارم الأخلاق، أما

1 - نفسه.

2 - الرّزقي الشّرفاوي، "كيف يكون العالم الديني؟"، الأمة، العدد 55، 17 ديسمبر 1935م.

تقوى غيرهم فإنها تفيض من الأزياء والعادات والاصطلاحات والقلب الفارغ، فالظاهر مبدؤها ومنتهاها¹.

وحسب الشَّيخ فإنَّ المعلم الديني ينبغي أن يكون فوق مستوى الأمة التي يُعلِّمها ويرشدها، علماً وذكاءً وفصاحةً وبلاغةً وعلوً همّةً، وعظفاً وحناناً وجمالاً في الظاهر والباطن، ومتقانياً في حبِّ الخير لعباد الله، وأن يكون بينه وبين صاحب الدين - وهو محمد صلى الله عليه وسلّم - تمام التناسب، والتناسب بينهما إنّما يكون بالدعوة إلى الأنظمة المقررة في الدين، فمن ادعى أنّه حامل لشريعة محمد صلى الله عليه وسلّم، وناشر لدينه لا يصدّق في دعواه، ولا يحصل له تمام التناسب بصاحب الدين إلاّ إذا كان داعياً لكتاب الله وسنة نبيّه، مجاهداً في إعلاء الحقّ، سائراً في الطّريق التي سنّها رسول الله لأصحابه وأتباعه، وإن لم يكن كذلك فهو إما جاهلٌ مغبون، أو عالمٌ مفتون لا يتألم لضعف الدين الذي بذل محمد كلّ نفسٍ ونفيسٍ في تقويته وإعلاء كلمته².

ومما خلّص إليه الشَّيخ في هذا الموضوع، أنّ العالم الديني المجاهد في سبيل الحياة العلمية أو الأخلاقية، أو الحياة العملية والاجتماعية، لابد أن يجد أمامه العقبات الشديدة، والمتاعب الكثيرة، والمخاطر العظيمة، إلاّ أنّه متى اعتقد أنّ نتيجة الألم في جهاده اللذة الدائمة، ونتيجة المتاعب فيه الرّاحة الأبدية، هان عليه كل ما يجده من الشّدائد، بل ينتلج صدره لكل ما نزل به من المصائب، وإنّما يتألم من ناحية واحدة وهي أنّه يرى أفراداً من الأمة التي يريد لها الإصلاح، ويريد أن يعبر بها طريق السعادة، يعوقونه ويعوقون أنفسهم عن عبور ذلك الطّريق، ويساعدون على انتشار الشرّ الذي أوجب الله على العالم الديني مدافعتة وإبادته³.

ولا شك أنّ الشرفاوي هنا يتكلّم لا عن علم فقط، وإنّما عن تجربة أيضاً، إذ كان طوال المدة التي قضاها في منطقة القبائل بعد عودته من مصر يعاني الأمرين من خصومه، ومع ذلك فقد كان يشعر بالطمأنينة والرّاحة النفسية كلما بذل جهداً في سبيل تنوير العقول وإرشاد النّاس إلى طريق الحقّ، وكلما نزل عليه انتقاد جائر من خصومه⁴، أو مسّه أذىً

1 - نفسه.

2 - الرّزقي الشرفاوي، "كيف يكون العالم الديني؟"، الأمة، العدد 57، 13 جانفي 1936م.

3 - نفسه.

4 - الرّزقي الشرفاوي، "وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة.."، (1)، البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م.

منهم، وذلك لاعتقاده بأنَّ إبعاد الناس عمَّا ألفوه وشَبُّوا عليه وشابوا، من عادات وأفكار بالية، أمر صعب لا بد له من جهاد وصبر، وأنَّ هذه هي الطَّرِيق التي سار عليها رسل الله عليهم الصَّلَاة والسَّلَام ، فقد أُوذوا وصبروا، فلا بد أيضاً من الصَّبْر من العلماء والدعاة، المتأسين بالرَّسل.

- شروط وطرق الدعوة إلى الإصلاح

بعد أن بيّن - في مقالاته التي نشرها في جريدتي "الثَّبات" و"الأمة" - مواصفات العالم الديني، والعلوم والمعارف التي ينبغي أن يقف عليها ليكون فعلاً من ورثة الأنبياء، نشر الشَّيخ الشَّرْفَاوي مقالات إصلاحية أخرى بجريدة "البصائر" اختار لها عنواناً هذه الجملة المقتبسة من القرآن الكريم: « وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة ». في البداية نبّه الشَّيخ إلى أنَّ للإصلاح فروعاً كثيرة، ومسالك متشعبة ومختلفة، وأنَّ ما يقصده هنا من إصلاح هو الإصلاح الديني الذي دعت إليه الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..﴾¹. والأمر هنا - حسب الشَّيخ - ليس خاصاً بالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، بل لكل أمت، إذ قام الدليل على أنَّ الدعوة إلى سبيل الرّب عامة لكل أحد². ثم مضى الشَّيخ يشرح ما يلزم للداعي إلى الإصلاح الديني من شروط مُتضمنة في الآية، وما في الدعوة من أقسام وطرق، بالنظر إلى مراتب المدعوين ومراتب الإصلاح، وهي أمور ينبغي أن يكون الداعي على علم بها ليكون على بيّنة من أمره. فبيّن أنَّ من شروط الداعي إلى الإصلاح « أن يكون عالماً تمام العلم بطريق الله، وهو المراد بسبيل الرّب في الآية، وبكل الوسائل الموصلة إليه، وأن يكون عالماً بمعنى الحكمة المطلوبة في الدعوة إليه، وهو العلم مع إتقان العمل، وهو أن يضع كل شيء في موضعه، ويعلم ما يترتب على عمله من خير أو شرّ، وأن يكون عالماً بأساليب الكلام ومناحيه، وبطرق مختلفة في التعبير عن المقصود، وأن يتلطف في كل ذلك بأن يتجنّب الألفاظ الجافة والعبارات الشَّنِيعَة، وكل ما يوجب تنفير القلب وإثارة الشَّغب، قوي الحجّة، متين الدلالة، وهذا معنى الموعظة الحسنة، وأن يكون بينه وبين الداعي الأصلي - وهو النبي صلى

¹ - سورة النَّحْل، الآية: 125.

² - الرّزقي الشَّرْفَاوي، "وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة.. " (1)، البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م.

الله عليه وسلّم - تمام التناسب.. وأن يكون خبيراً بأحوال المدعو لإصلاحه، وبأمراضه وبطرق علاجها، وأن يكون فوق مستوى من يدعو للإصلاح علماً وذكاءً وفصاحةً وبلاغةً وعلو همةً، وعطفاً وحناناً وجمالاً في الظاهر والباطن، لأنه وارث الأنبياء، والقيّم المشرف على من يأخذ بيده إلى سبيل الرب، وعلى هذا كان علماء الإسلام، وحماة الدين وعظماء المصلحين¹.

أما بخصوص أقسام الدعوة فقد ذكر أنها تارة تكون متوجهة إلى الخاصة، وتارة تكون إلى العامة، وتارة تتوجه إلى المعاندين، وهي إما أن تكون لإصلاح الاعتقاد، أو لإصلاح الأخلاق، أو لإصلاح الأعمال، وهذه الثلاثة هي أصل طريق السعادة لجميع الأمم. وعلى المصلح الديني أن يكون على علم تام بهذه الأقسام، وعلى تمييز بين طرق الدعوة، لأنّ الطّريق اللائق بدعوة الخاصّة يُبين الطّريق اللائق بدعوة العامة، وهما يُباينان اللائق بدعوة المعاندين، ويرشد لهذا قول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..﴾، فأشار إلى طريق الخاصة بالحكمة، وإلى طريق العامة بالموعظة الحسنة، وإلى طريق المعاندين بالجدال الأحسن، فدلت الآية على تعدد الطرق وتفاوتها لتفاوت المدعوين، وأنّ المعتبر في الدعوة إنّما هو البرهان والخطابة والجدل. وبرأي الشيخ فإنّ الجدال الأحسن هو اللائق لدعوة المعاندين لأنّ استعمال الرفق واللين في المناظرة يُلين عريكة المعاندين ويزيل شكيمتهم².

ولاحظ الشيخ أنّ مجرد القيام بالعبادات غير كافٍ في النجاة وتحقيق السعادة ما دام في إمكان المرء أن ينهض بغير ذلك، وفي هذا يقول: «أما من يقضي جميع أوقاته في الخلوة والذكر والعبادة البدنية القاصر أثرها عليه، فقد أخطأ الصراط المستقيم، وليس من ورثة الأنبياء، لأنّ الأنبياء شأنهم الامتزاج بالعباد، وحياتهم كلّها في مصالح الخلق وإرشادهم إلى الله علمياً وعملياً، وإتّنا إلى الآن لم نعرف في دين محمد صلى الله عليه وسلّم ولا في طريق الأنبياء أنّ الخلوة بخصوص الذكر والصلاة ونحو ذلك كافٍ في النجاة والوصول إلى السعادة الحقّة، ما دام العبد يستطيع أن يفعل غيرها، وكان من حوله محتاجاً إلى ذلك الغير، وإلاّ

1 - نفسه.

2 - الرزقي الشرفاوي، 'وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة' (2)، البصائر، العدد 111، 29 أبريل 1938م.

لضاع كثير من الأوامر والنواهي، وقد ضاع بالفعل، وضاع بضياعه الإسلام، لاشتغال أكثر الناس بالخلوة والتزهد وما يتبع ذلك»¹.

وأكد الشرفاوي أنّ دعوة الناس إلى الله تعالى، والسير بهم في طريق السعادة علماً وعملاً، هو ميزة العالم الديني، وروح وظيفته، وسرّ وراثته، وأنّ هذه الطّريق واضحة في كتاب الله وسنة رسوله، وعمل الصحابة ومن بعدهم من السلف الصّالح، وأنّ كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم هما الميزان العادل الثّابت - إلى يوم القيامة - الحاكم على أعمال العلماء، فمن التزم العمل بهما فقد ثبتت متابعتة، وحقّت وراثته، ومن جاوز حدودهما فقد تعدى الصّراط المستقيم، وليس من الله ولا من الورثة النبوية في شيء².

وفي الأخير سجّل الشرفاوي ارتياحه للنهضة الإصلاحية التي كانت تشهدها الجزائر - آنذاك - بفضل جهود علمائها، ويقصد طبعاً جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأبدى تفاؤله بمستقبل الجزائر، ونبّه إلى ما كان يراه نقصاً يعترى هذه النهضة، إذ قال: « وقد نهضت الجزائر قليلاً في هذه السنين الأخيرة بانتباه أفراد من العلماء الأفاضل، فأرشدوا الناس، وحصل بعض النتيجة بأن ظهر في بلاد الجزائر بعض الشّبان الأذكياء على شيء من الاستعداد لدعوة العامة، وهو خطوة مباركة، ولكن إلى الآن لم يوجد على شيء من الاستعداد لدعوة الخاصة، إلّا بعض الأفراد وهم قليلون جداً لا يمكنهم أن يتحمّلوا تبعة ذلك السّيل الجارف من الخاصة الذين تمكّنت فيهم العوائد فيعسر زوالها، فيحتاج ذلك إلى عدد كبير من دعاة الخاصّة لكسر شوكة ذلك السّيل العرم، وسيكون ذلك قريباً - إن شاء الله تعالى - بفضل جهود العلماء، وإخلاصهم لأمتهم»³.

- المرأة -

من الموضوعات التي اهتم بها الشّيخ الشرفاوي قضية المرأة، وهذا لما رآه من جهل النساء، وحرمانهن من حقوقهن الشرعية خاصة في منطقة القبائل! ويذكر الأستاذ محمد الصّالح الصّديق أنّه سمع الشّيخ يوماً يتحدث عن المرأة في الإسلام، كيف أعلى الله قدرها،

1 - نفسه.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

ولكن المسلمين لم يتبعوا شريعة ربهم، فظلموها وهضموا حقوقها، فحرموها من التعليم ومن الإرث، وعاملوها معاملة المتاع! وذكر أيضا أنّ الشيخ ألف كتابا عن المرأة ونظام الأسرة في الإسلام أفاض فيه القول في العلاقات الاجتماعية، وأنصف المرأة وذكر كيف ينبغي أن تُعامل، وقال أنّ الشيخ كتب هذا الكتاب ليس بقلمه فقط، بل بوجوده وبقلبه الواعي لمشاق المرأة ومتاعبها داخل البيت وخارجه دون أن تتال رضى أحد!¹ ومما علق بذاكرته - من مخطوط هذا الكتاب الذي ضاع - ما ذكره الشيخ بخصوص حالة المرأة قبل الإسلام، عند العرب وعند غيرهم من الأمم، من ذلك أنّ المرأة في الهند كانت - عندما يموت زوجها - تدفن معه، وفي الصين كان الرجل عندما يتزوج امرأة يجوز له أن يضع قفلا على فمها بحيث لا تتحدث ولا تضحك إلا إذا نزع عنها ذلك القفل!²

وآلم الشيخ الشرفاوي حال المرأة في منطقة القبائل، فكان يعبر - في دروسه ومجالسه - عن امتعاضه وأسفه من عدم تعليمها، وكان يقول: « إنّ المجتمع الذي تتخلف فيه المرأة عن أخيها الرجل، يتنفس برئة واحدة، ويمشي برجل واحد »³! وكان يدعو إلى العناية بالبنت تربية وتعلّما، ويقول: « كيف تحرمون البنت من التعليم ثم تلتمسون لمعالجتها الطّبيبة؟ »⁴. وذكرت لي ابنة الشيخ أنّ والدها كان ينوي أن يودعها - حين تبلغ سن الدراسة - لدى صديقه الشيخ بن سعيدان لتتعلّم بالمدرسة الحرّة التي كان يشرف عليها بالجزائر العاصمة، لكن والدها توفي قبل ذلك⁵.

وكان الشيخ الشرفاوي يندد بحرمان المرأة من ميراثها في منطقة القبائل⁶، ويرى في ذلك عارا على أهلها!¹ وعندما احتقل بختمه لمختصر الشيخ خليل في زاوية عبد الرحمن اليلولي

1 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/04/02م.

2 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/09/03م. أيضاً: 2017/07/12م.

3 - محمد الصّالح الصّديق، "جوانب من شخصية العلامة الشيخ محمد الرّزقي الشرفاوي"، البصائر، الحلقة الثّانية، العدد 299، 31 جويلية - 7 أوت 2006.

4 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م. وذكر لي الأستاذ أنّ الشيخ كان يقول لزوجته: ليت والدك اهتم بتعليمك. فكان يتمنى لو أنّها تعلّمت ولم تقتصر على حفظ سور من القرآن لأداء الصلاة!

5 - زهرة قازو، ابنة الشيخ الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/29.

6 - يعود تكريس مبدأ حرمان المرأة القبائلية من الميراث إلى فتوى صدرت سنة 1749م، حيث اجتمع نفر من المرابطين في قرية "ثاحمامت" بعرض "آث واسيف" وأفتوا بحرمان المرأة من ميراث العقار، لاعتبارات اجتماعية ضاغطة، على أن تحظى المرأة بالكفالة التامة من طرف أهلها في حال تعرضها للطلاق أو الترملة أو العنوسة. وتعتبر هذه الفتوى المخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية غريبة عن منطقة القبائل المعروفة بكثرة زواياها، وتمسك أهلها بالإسلام، غير أنّ

سنة 1938م، كان خطابه القيم الذي ألقاه في جمع من العلماء، عن شؤون اجتماعية وخاصة وضع المرأة وتعليمها وشؤون دينها، ومنحها حقوقها المادية والمعنوية². وبخصوص المرأة القبائلية كان الشيخ يراها مجاهدة، ويرأها مظلومة، فهي تتعب كثيراً، وتشقى شقاءً مُراً، في البيت وخارج البيت، ولكنها لا تحظى بتقدير زوجها ولا يُعاملها معاملة تخفف عنها هذا الشقاء! فكان الشيخ ينتصر لها، ويصف كدحها وجهادها، فيقول: «إنها - أحياناً - تحمل جنينا في بطنها، ورضيعاً على ظهرها، وتقود طفلاً بيدها، ثم هي تخرج لجمع الزيتون، أو لتعين زوجها في الحقل»³!

ويجدر التذكير بأنّ الشرفاوي قد دعا إلى رفع الجهل عن المرأة وتعليمها تعليماً لا يُخرجها عن أخلاق الإسلام وفضائله، وهو يرى أنّ جمال المرأة الحق في دينها وأخلاقها، وأنّ الجمال بلا فضيلة كالوردة بلا رائحة⁴. ويرى الشيخ أنّ المرأة هي الجديرة باللوم والعتاب إذا تجملت وبالغت في التزيّن واعتدى على شرفها شخص، إذ أنّه لا يُعقل أن نضع قطعة لحم أمام قاطعٍ ونلومه إذا هجم عليها⁵! وهنا يتفق الشرفاوي مع الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي الذي يقول: «لو كنتُ قاضياً وُرفِع إليّ شابٌّ تجرأ على امرأة فمسّها أو احتكّ بها، أو طاردها أو أسمعها كلاماً غير لائق، وتحقق عندي أنّ

الملاحظ هو أنّ الفتوى لم تصدر عن حاضرة من حواضر العلم المعروفة في المنطقة كجاية مثلاً أو آث غبري أو آث منقلات أو إمشالان، إنّما صدرت عن مسجد بسيط مغمور بقرية ثاحمات، وبحضور مرابطين وأعيان قرى آث واسيف وبعض الأعراس المجاورة، وهم أشخاص غير مشهورين، إذ لم ترد أسماؤهم في كتب التراجم، ولم يذع صيتهم في أرجاء الزواوة! وقد برّر هؤلاء فتواهم بوجوب تفادي الفتنة التي ظهرت بوادرها في المجتمع بفعل تسرب عناصر أجنبية (الأزواج) إلى القرى عن طريق ميراث النساء! وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الفتوى قد لقيت معارضة شديدة من طرف علماء المنطقة عبر مراحل تاريخية مختلفة، بدءاً بالشيخ الحسين الورتلاني الذي عاصر صدور الفتوى، إلى الشيخ المهدي السكلاوي والشيخ ابن أعراب اليراثي في القرن التاسع عشر، وصولاً إلى الشيوخ: محمد السعيد بن زكري، والسعيد الجبري، وأبو يعلى الزواوي والشرفاوي في القرن العشرين. للمزيد في الموضوع أنظر: محمد أرزقي فرّاد، المجتمع الزواوي في ظل العرف والثقافة الإسلامية 1749-1949م، منشورات الحبر، الجزائر، ط 1، 2015، ص 154-166.

¹ - نفسه، محمد الصالح الصّديق، البصائر، العدد 299، 31 جويلية- 7 أوت 2006.

² - لقد سبق أن تحدثنا عن مجريات هذا الحفل في فصل سابق.

³ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/04/02م.

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 80-81.

⁵ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/12/15م.

المرأة كانت سافرةً مدهونةً مصقولةً متعطرةً متبرجةً، لعاقبتُ هذه المرأة عقوبتين: إحداهما بأنّها أعتدت على عفة الشاب، والأخرى بأنّها خرقتُ كسفتِ اللحم للهَرِّ..¹

ونحن هنا إذ نؤكد على أنّ المرأة إذا خرجت عن قيم الفضيلة والحشمة، كثيرا ما تجني على نفسها، فإننا - في هذه الحالة - لا نبرئ الشاب الذي يعتدي على شرف المرأة، فهو كذلك مسؤول عما يقترفه من سلوكات لا تتفق والفضيلة والأخلاق.

ج- رأيه في طريق الخلاص من الاستعمار

كان الشيخ الشرفاوي وطنيا صادقا، يتفانى في حبّ وطنه وإخلاصه له، واعتزازه به، وقد كان لاغترابه عنه أمدا طويلاً أثره البالغ في هذا الحبّ، حيث رسّخه في أعماقه، وجعله يتابع باهتمام أخباره، ويتفاعل مع ما يجري فيه من أحداث، ويشيد بجهود أبنائه في سبيل نهضته ورقية². ومما لا شك فيه أنّ هذا الحبّ للوطن، والرغبة في خدمته، هو الذي دفع الشيخ إلى العودة إلى الجزائر سنة 1933م، والانخراط في المشروع الإصلاحي التربوي الذي باشرته - قبل ذلك بسنوات - ثلة من علماء الجزائر المخلصين العاملين في هذا الميدان.

وفي المقابل كان الشرفاوي يكره الاستعمار، ويرى أنّه وباء فتاك يجب محاربتة والقضاء عليه³! وكم كان يؤلمه أن يرى الجزائري يبذل العرق بسخاء، وتتلاحق جهوده المضنية في زرع الأرض، وتشغيل المصانع، وبناء القصور، وشقّ الطّرق وهو - أي الجزائري - يموت جوعاً، ويسكن كوحاً⁴! فكان لا يفتأ - في دروسه ومجالسه - يندّد بالمستعمرين، وينعي عليهم استلابهم لأراضي الجزائريين، وحرمانهم من حقوقهم الضرورية، ومنعهم من تعلّم لغتهم ودينهم. وكان يُشنع على ذبول المستعمرين والعملاء والأذئاب، ويذكر تواطؤهم معهم، وذوبانهم فيهم، واعتزازهم بكل ما هو فرنسي، ويشنع عليهم تنكّرتهم لأصالتهم ووطنهم، وكان يقول - كلّما جرى حديث عن الوطن والوطنية -: « إنّني لا أخاف من المستعمرين الفرنسيين

¹ - مصطفى صادق الرافعي، "كلمة وكلمة"، مجلة الرسالة، العدد 105، 8 يوليو 1935، ص 1084. أنظر أيضا: كتاب (كلمة

وكلمة)، مقالات للرافعي اعتنى بجمعها بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 2002، ص 116.

² - أنظر مثلاً: مقالاته في جريدة "الصدّيق" الجزائرية سنة 1921م بعنوان: (أسباب الرّقي وأسباب الانحطاط)، ومقاله في جريدة "الأخبار" المصرية بعنوان: (مبدأ فرنسا العدالة والمساواة، ولكن أين العدالة والمساواة؟)، العدد 1363، 7 أوت 1924م.

³ - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، الشّيبخ الرّزقي الشّرفاوي، مرجع سابق، ص 78.

كما أخاف من هؤلاء الخونة الذين باعوا دينهم ووطنهم بأبخس الأثمان، واشتروا به خزيا وعارًا وسبّة دائمة في الأعقاب»¹.

وبالرغم من الرقابة الشديدة التي يفرضها الاستعمار الفرنسي على علماء الإصلاح، فإنّ الشرفاوي كان لا يفتأ يُبصّر بدسائس الاستعمار، ويكشف عن أساليبه الدنيئة، ويدعو إلى اليقظة والوعي، ويؤكد أنّ الجزائريين لن يلبثوا طويلاً حتى يهّبوا لطرد عدوّهم، وافتكاك حرّيتهم²! وكان يتعهد طلبته بتوجيهاته ونصائحه البناءة، ويرشدهم إلى أنّهم الأمل المرتجى لهضة الجزائر وتحرّرها وانعتاقها من الجهل والخمول والاستعمار، ويُذكي في أعماقهم حبّ الوطن، لذا كثيراً ما تحدث طلبته النُجباء، أمثال مكي النعماني والعربي بن عيسى، عن وطنية الشيخ وكرهيته للاستعمار الفرنسي، واحتقاره لعملائه، وكان هذان الطالبان - بالخصوص - يخافان أن يتسرّب أمره إلى قائد الدوار الذي كان يزور الزاوية من حين لآخر ليطمئن على أنّ الأمور تسير على ما يُرام³.

ويذكر بعض طلبة الشيخ أنّ أستاذهم كان يحلو له أن يخرج عن الدرس لمناسبة، فيتحدّث عن أمجاد الإسلام وأمجاد الوطن، وأنّه تحدث يوماً عن هذه الجملة "الله أكبر"، فذكر أنّها تتضمن سرّ الاعتقاد، وسرّ الجهاد، وسرّ الفداء، وسرّ الوطنية الصادقة، وسرّ الاعتزاز بالنفس، وسرّ الفناء في الوجود الحق⁴. وعلى نكر الجهاد، نسجل أنّ فرنسا كانت تمنع تدريس موضوع الجهاد في الزوايا والمدارس الحرة، ومع ذلك فإنّ الشيخ الشرفاوي قد درّس لطلّبه (باب الجهاد) من كتاب "مختصر الشيخ خليل"، وهو الوحيد من بين أساتذة الزوايا فعل ذلك، ويُذكر أنّ الشيخ قد أعلمَ الطلّبة بخطورة هذا الباب، وقال لهم: إذا علّمت فرنسا بهذا، لن أبقَ أنا، ولا أنتم، ولا الزاوية⁵، ولكن الشيخ درّسه من باب الوطنية والتّضحية في سبيل الحقّ، ومن حسن الحظّ أنّ الطلبة كانوا يحبون الشيخ، ويخلصون له، فلم يتسرب السرّ!

1 - محمد الصّالح الصّديق، رحلتي مع الزمان، ج 1، مرجع سابق، ص 182.

2 - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص 78.

3 - محمد الصّالح الصّديق، "جوانب من شخصية العلامة الشيخ محمد الرّزقي الشرفاوي"، البصائر، الحلقة الثّانية، العدد 299، 31 جويلية - 7 أوت 2006.

4 - محمد الصّالح الصّديق في مقاله السابق، أيضاً: شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

5 - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

وكان الشَّيخ حين يجتمع بأصدقائه المخلصين يجيبهم عن أسئلتهم وينصحهم، ومما كان يوصيهم به - كما حدثتني ابنته¹ - قوله: « سيأتي اليوم الذي تقوم فيه ثورة ضد الاستعمار، فعليكم أن تستيقظوا وتتهيؤوا وتُهيئوا أولادكم لذلك اليوم². » وحين يستغربون من كلامه، لأنه - في نظرهم - ضربٌ من الوهم في ذلك الوقت، يُجيبهم: « إنَّ من يعيش منكم سيرى حقيقة ما أقول³! وكثيرًا ما يسألهم: وهل تظنون أن فرنسا ستبقى في الجزائر إلى الأبد⁴? وواضح أن الاستفهام هنا جاء بصيغة الإنكار، لأنَّ الغرض منه التثبيح إلى أن فرنسا ستخرج - لا محالة - من الجزائر.

وذكر لي الأستاذ محمد الصَّالح الصَّديق - الذي عاش قريبًا من أستاذه الشَّيخ الشَّرفاوي - أن هذا الأخير كان لا يذكر الجزائر إلاَّ وأردفها بما يفيد تلهُّفه إلى تحريرها، وتعلُّقه بها، أو يتساءل: متى تتحرَّر الجزائر⁵? ومن أقوال الشَّيخ في هذا الصَّدد، قوله: « إنَّ الاستعمار مرضٌ عُضال لا دواء له إلاَّ استئصاله، وقد يصعب على من تعود عليه أن يسمع أن هذا المرض العضال سيزول وتُشفى منه الجزائر، ولكن من يَعش منكم سيرى⁶! »

فالشَّرفاوي يؤمن بأنَّ استقلال الجزائر أمرٌ حتمي لا بد أن يأتي وقته، كما أنَّ الفواكه لا بد أن تتضج في وقت من الأوقات⁷! ويرى أنَّ وجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر - كما ذكر يوما لطلبته - وجود غير طبيعي، يشبه وجود جسم غريب في جسم الإنسان، ولا يصحُّ الإنسان ولا يرتاح إلاَّ باستخراج هذا الجسم الدخيل، ولا سبيل إلى انتزاعه إلاَّ بعملية جراحية فيها آلام ودموع ودماء⁸! والمقصود بـ "العملية الجراحية" هنا هو الثورة المسلحة التي تجتث الاستعمار من جذوره، غير أنَّ ثورة التحرير هذه لا يمكن أن تقوم في الجزائر إلاَّ بعد تحرير العقول من الخرافة والجهل، وتهيئة النفوس للتضحية والبذل في سبيل

1 - نكرت لي أن والدها كان يصحبها معه وهي صغيرة حين يجلس مع بعض أصدقائه.

2 - السيِّدة زهرة قازو، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/03/29.

3 - المصدر نفسه.

4 - المصدر نفسه.

5 - محمد الصَّالح الصَّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/09/27م.

6 - محمد الصَّالح الصَّديق، الشَّيخ الرِّزقي الشَّرفاوي، مرجع سابق، ص 35.

7 - محمد الصَّالح الصَّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2017/07/12م.

8 - محمد الصَّالح الصَّديق، البصائر، العدد 299، 31 جويلية - 7 أوت 2006.

الوطن، وهذا عن طريق التوعية ونشر العلم في أوساط الشعب، فهذا العمل - في نظر الشيخ - هو السبيل الصحيح الذي يؤدي إلى الثورة التي تنتهي بتحرير الوطن¹.

وجدير بالذكر أنّ الشيخ الشرفاوي كان يشتغل في حقل التربية والإصلاح، وهو الحقل الذي تعمل فيه حركة العلماء، وفي الوقت ذاته كان على علاقة بمناضلي حزب الشعب في المنطقة، إذ كان يستقبلهم - بطريقة سرّية - في بيته²، وفي الزاوية³، وهذا يؤكّد - من جهة - وطنية الشيخ وتطلّعه إلى تحرير الجزائر، ومن جهة أخرى يدل على أنّ الشيخ ينظر إلى حركة العلماء والحركة الوطنية السياسية على أنّهما متكاملتان، كلتاهما متعاونة مع الأخرى من أجل تصحيح العقيدة، وإصلاح المجتمع، ونشر الوطنية، ومعاداة الاستعمار، والاستماتة في محاربتة والقضاء على آثاره.

فالشرفاوي إذن يؤمن - إيماناً راسخاً - أنّ خلاص الجزائر من الاستعمار لا يمكن أن يتحقق إلاّ بالثورة المسلحة، أي بالقوة التي هي اللّغة الوحيدة التي يفهمها الاستعمار. فقد رُوي عنه أنّه سمع يوماً من مناضل جزائري كلمة عن حرّية الجزائر، فصعد زفرة حارة، وقال في لهجة صادقة: « ليس هناك طريق إلى الحرية سوى القوّة، وليس هناك طريق إلى الحياة سوى الموت، ولن يُريحنا من الاستعمار إلاّ الانفجار »⁴. ومن أقواله أيضاً: « من ظنّ أنّ حرية الجزائر تُسترجع بالخطب في المؤتمرات فقد وهم، إنّ الطّريق إليها يجب أن يُعبأ بالجمام والأشلاء، هكذا يجب أن نفهم »⁵.

¹ - عبر الشيخ عن قناعته هذه في مقال كتبه - وهو بمصر - بقوله: « من المُحال أن تموت الشعوب المتعلمة، ومن المُحال أن يُستهان بها، وأن تُسلب حقوقها ويُداس على كرامتها.. أما الشعوب الجاهلة فلا يمكن لها أن تنشط للعمل على حياتها وسعادتها ومجدها، لأنّ الجهل أقعدها عن كل وسيلة، وأقعدها قوّة الإرادة ونفوذ البصيرة. وكيف يمكن لها أن تعمل، والأعمال لا تكون منتظمة تامة إلاّ إذا انبعثت عن إرادة صحيحة، وبصيرة نافذة، وهذا لا يتأتى إلاّ بالعلوم؟ ». أنظر مقاله: "العلم أساس النهوض وحياة الشعوب"، النجاح، العدد 127، 28 سبتمبر 1923م.

² - محمد الصّالح الصّديق، شهادة شفوية بتاريخ: 2013/09/02م، نقلا عن أخته. أيضاً: محمد عبد الرّحمن قازو، نجل الشيخ الرّزقي الشرفاوي، شهادة شفوية بتاريخ: 2014/02/26م، نقلا عن أمه.

³ - Hocine Ait Ahmed, *Mémoire d'un combattant*, op. cit, p.73.

⁴ - محمد الصّالح الصّديق، الشيخ الرّزقي الشرفاوي، مرجع سابق، ص78.

⁵ - نفسه، ص 81.

وغني عن الذكر أنّ الأيام قد برهنت على صحّة ما تنبأ به الشيخ بخصوص تحرير
الجزائر، إذ لم تتحرّر إلاّ بثورة دامت سبع سنوات ونصف، سقط خلالها مليون ونصف
مليون من الشهداء، وخلفت الكثير من الآلام والدموع والدماء!

الخاتمة

في سنة 1973م، وبمناسبة انعقاد الملتقى السابع للفكر الإسلامي بمدينة تيزي وزو، تم تسمية مسجد في وسط هذه المدينة باسم "الشيخ الرزقي الشرفاوي"، وفي السنة الموالية كتب الأستاذ محمد الصالح الصديق مقالاً عن الشيخ نُشر في مجلة "الثقافة"، وبعد ذلك برُبع قرن خصّه الأستاذ بكتاب، فكان ذلك بعثٌ لهذا العالم الذي غاب ذكره لسنوات، ونسيه الناس في جزائر الاستقلال، ولو لا هذه الالتفاتات، ل بقي الشيخ في طي النسيان وكأنّه لم يعيش يوماً فوق هذه الأرض، ولا جاهد في سبيل الجزائر! هذا وإنّ هذه الدراسة جهد يُضاف إلى ما سبق من جهود للتعريف بحياة الشيخ ومسيرته العلمية والنضالية، وفيما يأتي جملة النتائج المتوصل إليها أوردتها في نقاط:

1- ولد الشرفاوي في ظروف صعبة جداً، وبالرغم من أنّه لم يعرف بلاده سوى تحت نير الاحتلال، إلاّ أنّه قد شبّ على حب الوطن وحب الدين والتمسك به، وذلك بفضل دور الأسرة وتعليم الزوايا الذي كان - رغم بساطته - يزرع في أبناء الجزائر روحاً خاصة، غيرة على تاريخها، متمسكة بأصالتها، ومُحبة لوطنها.

2- عمل الاستعمار الفرنسي في الجزائر كل ما في وسعه حتى يحرم أبناءها من حقهم في العلم، لهذا تجدهم في ذلك العهد يشدون الرّحال إلى البلاد الشّقيقة لينهلوا من معاهدها العلمية ما يزوون به ضمّاهم للعلم والمعرفة، ويجعلهم قادرين على خدمة دينهم ووطنهم، وقد ضربوا بسهم وافر في سلوك هذا الطريق رغم أنّه كان طريقاً شاقاً ومحفوفاً بالمخاطر، ورغم محاولة الاستعمار منعهم، وهذا الذي استعرضناه من حياة الشرفاوي يعد أحسن مثال على ما نقول.

3- كانت مصر أثناء إقامة الشرفاوي بها تعجّ بالنشاط الثقافي وبمظاهر النهضة الفكرية والإصلاحية، وكان الأزهر نفسه يشهد فترة إصلاح وتجديد في أساليب التعليم، فكان لكل ذلك تأثيره في تشكيل ثقافة الشرفاوي، وتحديد توجّهاته في مستقبل حياته العلمية والنضالية.

4- كان الشرفاوي وهو بمصر شديد الاهتمام بأوضاع وطنه، حريصاً - من خلال كتاباته - على إرشاد مواطنيه إلى سُبُل النهضة والرّقي، ودعوتهم إلى الأخذ بها للخروج من التخلف والانحطاط، وكثيراً ما يذكّر بأمجاد الماضي لإيقاظ الهمم النائمة، وبعث العزائم الخائرة! وفضلاً عن ذلك فقد دلّت المصادر على أنّ الشرفاوي يعد من أوائل الشخصيات المغاربية الداعية لتأطير الجالية المغاربية في مصر وتوحيد صفوفها، أولاً للنهوض بهذه الجالية أخلاقياً وفكرياً، وإسعاف ذوي الحاجات منهم، وثانياً لجعل هذه الجالية تحمل همّ أوطانها التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال، إذ كان له دور رائد في تأسيس (جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية) سنة 1924م، والتي قد تكون أول جمعية من نوعها في مصر.

5- لقد توفر للشرفاوي في مصر - بعد تخرّجه - البيت والوظيفة والزوجة والحياة السعيدة والمكانة العالية، لأنّه عالم من علماء الأزهر، لكن عندما انفتح قلبه على الجزائر، لم يُعِر الوزن لكل ذلك، وأقبل على الجزائر دون رجعة، وقلّ من يصنع صنيع الشرفاوي، يترك الحياة السهلة في مصر بعد أن ابتسم له الحظ، ويقرّر العودة، وهو يعلم أنّه يعود إلى جزائر مستعمرة، لا يضمن أن يجد فيها وظيفة، ولا حتى زوجة بعد أن تقدم به العمر.

6- واختيار الشرفاوي بعد عودته من الشّرق، المناطق الريفية بجبال جرجرة ميداناً لخوض معركته ضد الجهل والخرافة، ونشر العلم والوطنية بين النّاس، على الإقامة في العاصمة والعمل بها، دليل آخر على أنّ الشرفاوي لم يكن يؤثّر الدعة وحياة الرّاحة على حياة التضحية والجهد، فضلاً عن أنّه لم يكن أبداً ينشد الذبوع والشّهرة! وبالفعل فقد زهد في أمور الدنيا، وانكب - في تلك الجبال - على التدريس والكتابة والإرشاد، وهو لا يبتغي من الناس جزاءً ولا شكوراً.

7- لفت الشرفاوي منذ نزوله بمنطقة القبائل انتباه الإدارة الاستعمارية، وتوجّست منه خيفة، لأزهريته، ووطنيته، ورفضه للتوظيف الرّسمي، فوضعت تحت الرّقابة المستمرة، سواءً حين يكون مدرّساً في الزاوية، أو حين يقضي عطلته في القرية، وكان في آخر حياته مطالباً بالحضور لمصالح الولاية العامة للتحقيق والمساءلة والتوقيع بين فترة وأخرى.

8- لما استقر الشرفاوي في منطقة القبائل وأخذ يدعو إلى نبذ البدع والخرافات وترك الفساد والمحرّمات، وتطهير العقول من العقائد الزائفة، والعودة إلى الكتاب والسنة، شعر

الطّريّون باهتزاز مكانتهم لدى أتباعهم من عامة الناس، وخافوا ذهاب سلطانهم المعنوي في المجتمع، إذ كانوا يحظون باحترام كبير لدى عامة الناس، فهم في نظرهم أهل الدين الصّحيح وحماته، ومن هنا انبرى الطّريّون لمحاربة هذا العالم الأزهري، فأخذوا ينشرون الإشاعات حوله، ويؤوّلون كلامه، وينصّبون له المكائد والدسائس، ويجبرونه على خوض معارك فكرية حول بعض القضايا الفقهية والعقائدية كما حصل مع مسألة "الرّبيبة" التي أخذت منه وقتاً وجهداً كبيرين، كان الأولى أن يُصرفا فيما هو أهم وأفيد من الأمور! وهذه الطائفة من العلماء الجامدين هي التي أتعبت الشّيخ، ووقفت حجر عثرة في سبيل جهاده الإصلاحية في المنطقة. ولئن صمد الشّيخ أمام هؤلاء الجامدين، إذ لم تقتر قوّته، ولم تضعف عزيمته يوماً، فقد تأثّر لتلك الحملة الشّعواء التي جعلته يعيش - منذ عودته إلى الوطن - في غبن وتعب ومحن، وهذا الجو الذي عاشه من شأنه أن يمنعه من التفكير الجلي الواضح، ومن الكتابة والإبداع.

9- تولى الشّرفاوي التدريس في زاوية الشّيخ عبد الرّحمن الليلوي، أكبر المعاهد الدينية بمنطقة القبائل، مدة تربو عن عشر سنوات، فحرّك سواكن هذه المؤسّسة التعليمية، وأعطاهما دماً جديداً، وذلك بما أدخله من علوم جديدة لم تكن تُدرس فيها من قبل، وما أحدثه من تطوير في أسلوب التعليم، فضلاً عن حرصه الدائم على إخراج طلبته من ربة الجمود الفكري والتقليد الأعمى المسيطر على العقول، ودعوته لهم لحرية التفكير وإعمال العقل، والفتح على الفكر الإصلاحي، فكان لكل ذلك أثره الإيجابي في مستوى التكوين العلمي لطلّبه المتخرجين في هذه الزاوية. كانت دروس الشّيخ تستغرق معظم النهار، إذ تبدأ بعد صلاة الفجر وتستمر إلى ما قبل صلاة العشاء، ولا ينقطع عن التدريس إلاّ لراحة قصيرة.

10- تخرّج على يد الشّيخ في هذه الزاوية جيل من الطلبة استفادوا من علمه، وتأثّروا بأخلاقه ووطنيته ونهجه في الحياة، فكانوا امتداداً لحياة الشّيخ في هذه الجوانب، حيث اضطلع الكثير منهم بأدوار إيجابية قبل الاستقلال، كمناضلين ومجاهدين وإطارات خلال الثورة التحريرية، وفي مرحلة الاستقلال لمن امتد بهم العمر، كمعلمين وأئمة وكُتاب وحتى موظفين في مناصب عليا في الدولة.

11- لقد كان التدريس هو العمل الذي استحوذ على وقت الشّيخ وجهده منذ عودته من مصر إلى وفاته، ولا غرابة في ذلك، فالتعليم بالنسبة إليه هو المهنة التي تهيأ لها بعد

سنوات طويلة من الدراسة والتحصيل والاعتراب من أجل العلم، غير أنه إلى جانب جهوده التربوية كانت له أعمال أخرى في مجال الإصلاح والوطنية، والكتابة والتأليف. فقد ألف كتباً عديدة في اللغة والأدب والتاريخ، لكن للأسف تبقى هذه التأليف إلى الآن مفقودة، عدا اثنين منها، وُجِدَت نُسخٌ منهما لدى عائلات بعض أصدقائه! ونشر الشيخ مقالات في الصحف الشرقية والجزائرية، ومع ما رصدته من تلك المقالات، فإني أعتقد أنه قد فاتني الوقوف على بعضها، فعسى أن يُحالفني التوفيق في المستقبل أو يُحالف غيري لاكتشاف المفقود من تراث الشيخ لضمه إلى الموجود، ثم جمعه ونشره لينتفع به القراء والباحثون، وهذا أبسط ما يمكن تقديمه كعرفان للشيخ.

12- الشرفاوي مصلح، كان في دروسه وفي عمله الجوارى في الأوساط التي يتصل بها، يدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة، كما يدعو إلى تحرير العقل من قيد التقليد والجمود، وفهم الدين على طريقة السلف الصالح. وكان يؤمن بدور الأخلاق في حياة الأمم، وأهمية العلم في بناء المجتمعات ورفيها، لذلك كان لا يفتأ يدعو مواطنيه إلى التمسك بالأخلاق الحميدة التي دعا إليها دينهم الحنيف، ويدعوهم إلى الأخذ بالعلوم العصرية في الجوانب المادية التي تصنع رقي الأمة وتقدمها. كما دعا إلى إصلاح التعليم الديني الذي يرى أنه أساس كل إصلاح، إذ لا نهضة ولا إصلاح إلا به، وأوضح الصفات النفسية والعلمية التي ينبغي أن تتوفر في العالم الديني حتى يكون جديراً بهذا اللقب، وحتى يكون في مستوى المهمة المنوطة به، وهي النهوض بالأمة دينياً ومدنياً.

13- اهتم الشيخ بوضع المرأة في عصره، فدعا إلى رفع ستار الجهل عن عقلها بتعليمها تعليماً لا يُخرجها عن أخلاق دينها، ودعا إلى رفع الظلم عنها وإنصافها في قضية الميراث، إذ كان الشيخ من المقاومين بشدة لمسألة حرمان المرأة القبائلية من الميراث، فكان لا يدعُ فرصة إلا ودعا الناس إلى نبذ هذه العادة المنافية للتشريع الإسلامي، والتي ترسخت في المجتمع القبائلي آنذاك.

14- سار الشرفاوي في عمله التربوي والإصلاحي على النهج نفسه الذي سارت عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لكن دون أن ينخرط رسمياً في صفوف الجمعية، وهذا - فيما يبدو - أخذاً بأسلوب الحيطة والحذر، لأنه كان يعيش تحت رقابة الاستعمار وحصار الطرفين! ومما يدل على انسجام الشرفاوي في أفكاره وأعماله مع عمل جمعية

العلماء، تلك العلاقة الطيبة والدائمة التي ربطت الشيخ برجال الجمعية، وعلى رأسهم رئيسها الإمام عبد الحميد بن باديس، والتفتح على الفكر الإصلاحى الذى ميّز زاوية عبد الرحمن اليلولى فى فترة تواجد الشيخ فيها، وكذا اشتغال الكثير من طابته كمعلمين فى المدارس الحرّة التابعة لجمعية العلماء.

15- كان الشيخ ذا شخصية متعددة الفضائل فى شتى المجالات: فهو صاحب همّة عالية، وصبر قوى، وحبّ للعلم جارف، نقيّ، نقي السريرة، يحب الخير للناس، موسوعى الثقافة، لا ينفق وقته إلاّ فيما يفيد، وطنى يتطلّع إلى تحرير الجزائر ويؤمن بضرورة الإعداد لذلك فكراً وروحياً. فالشيخ قدوة فى الأخلاق والعلم والعمل، وقدوة فى الوطنية والتعطّش إلى الحرّية، وقد دلّت الشهادات على أنّ الشيخ كان على علاقة بمناضلى حزب الشعب فى المنطقة، إذ كان يستقبلهم - بطريقة سرّية - فى الزاوية وفى بيته.

16- عاش الشيخ حياته كلّها بين فقر واغتراب وحرمان ومعاناة، ثم انتهى أجله بما يشبه القتل على يد طبيب استعمارى، كما يغلب الظنّ الذى يستند إلى قرائن. ولا نستغرب من هذه النهاية التى كتبها الله لهذا العالم المجاهد، فربما أثره بالشهادة!

17- رغم مكانة الشيخ العلمية، وجهاده الفكرى، فإنّه لم ينل من الشهرة والذيع ما ناله أمثاله من علماء الإصلاح، وهذا لعزلة المنطقة التى عاش فيها، إذ أنّ « القرى - كما قيل - مقابر العلماء »، ثم لقلّة ما كُتب عنه بعد وفاته.

وخلاصة القول أنّ الشيخ أحب العلم منذ صغره، فبذل كل حياته له، وواجه فى سبيل ذلك كل المصاعب التى اعترضته، وتحمل كل بلاء ومشقّة، وهان عليه كلّ عزيز، فكانت حياته ملحمة جهاد فى سبيل العلم، تحصيلاً وبذلاً، من أولها إلى آخرها! فقد كان والده - تحت ضغط الفقر والجهل بقيمة العلم - يرفض تعليم ابنه، فكان على الابن أن يُجاهد - وهو طفل صغير - ليتعلّم ويضع اللبّات الأولى فى مسيرته العلمية! وكانت رحلته إلى مصر لمواصلة الدراسة رحلة عذاب لا نظير لها فيما أعلم من سيرة رواد العلم وعُشاقه، إذ كان سفره بطريقة التخفى والمغامرة على شاكلة "الحراقين" فى هذا العصر، على أنّ مغامرة الشيخ لم تكن فى سبيل دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، وإنّما فى سبيل غاية سامية هي العلم. ثم إنّ سنوات إقامته بالأزهر كطالب كانت فترة معاناة يصعب على المرء تصوّرها، فضلاً عن آلام الغربة والبعد عن الأهل والوطن! وحين عاد إلى الجزائر، واختار المناطق

الريفية بجبال جرجرة ميداناً لعمله التربوي والإصلاحي اشتغل في ظروف صعبة، وفي وسط فكري موبوء، لسيطرة الجمود والخرافة على العقول، فعاش بقية حياته في محنة وغبن، محاصراً بين عداء الطُّرقيين وحملاتهم، وعيون الاستعمار وأعدائه التي تراقبه وتترصد به في كل حين، ومع ذلك فقد ظلَّ في موقعه مرابطاً، صابراً محتسباً، إلى أن قضى نحبه، فكانت حياة الشَّيخ فعلاً قصة نضال مكتملة الفصول.

وأقول في الأخير: إنَّ تاريخ الشَّيخ الشَّرفاوي قد طاله النسيان بعد وفاته، لكن سيرته العطرة فرضت نفسها على أصحاب الفكر والقلم، فكان ما كان من الكتابة عنه، وتنظيم بعض الملتقيات لإحياء ذكره، ثم جاءت هذه الدراسة لتلقي مزيداً من الضوء على سيرة هذا العالم الذي ظلَّ مَيِّتاً كما ظلَّ حياً، فعسى أن تقرأ الأجيال قصته كاملة، فتعرف قيمته، وتقتدي به في مواطن الاقتداء، وعسى أن نقدّر تضحيات الشَّيخ حق قدرها، إذ لا خير في أمة لا تقدّر رجالها العاملين المخلصين.

* * *

الملاحق

أولاً- الوثائق

الملحق رقم (1): شهادة ميلاد الشيخ الزبيدي

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

نسخة من الدفتر الأضلي

ولاية سري ورو

دائرة عزازقة

بلدية عزازقة

رقم - ٤٩٥٥

المتعلق بعرض بني عسري

فرقة شرفاء

الإسم العائلي فازو
الإسم (اللقب القديم) أو اسم الأئلاف أو الكنية إذا كانت
أرزقي بن سي محمد بن علي أو فازو

الرقم ٧٨٤ من الدفتر الأضلي

المهنة

العمر في سنة ١٥ سنة عام ١٨٩٢

ملاحظات:

نسخة مطابقة للأصل

خزب عزازقة في ١٧ جوان ٢٠١٢

صاحب الحالة المدنية

مواثيق

مواثيق

الكتابة السابقة للإسم واللقب
GWAAROU Areski

ح. م. ١٦ - المطبعة الرسمية

الملحق رقم (2) رسالة بعث بها الشرفاوي وهو طالب بالأزهر لأحد أصدقائه بـ "عزازقة"

١٦ ربيع الأول
١٣٢٨ هـ

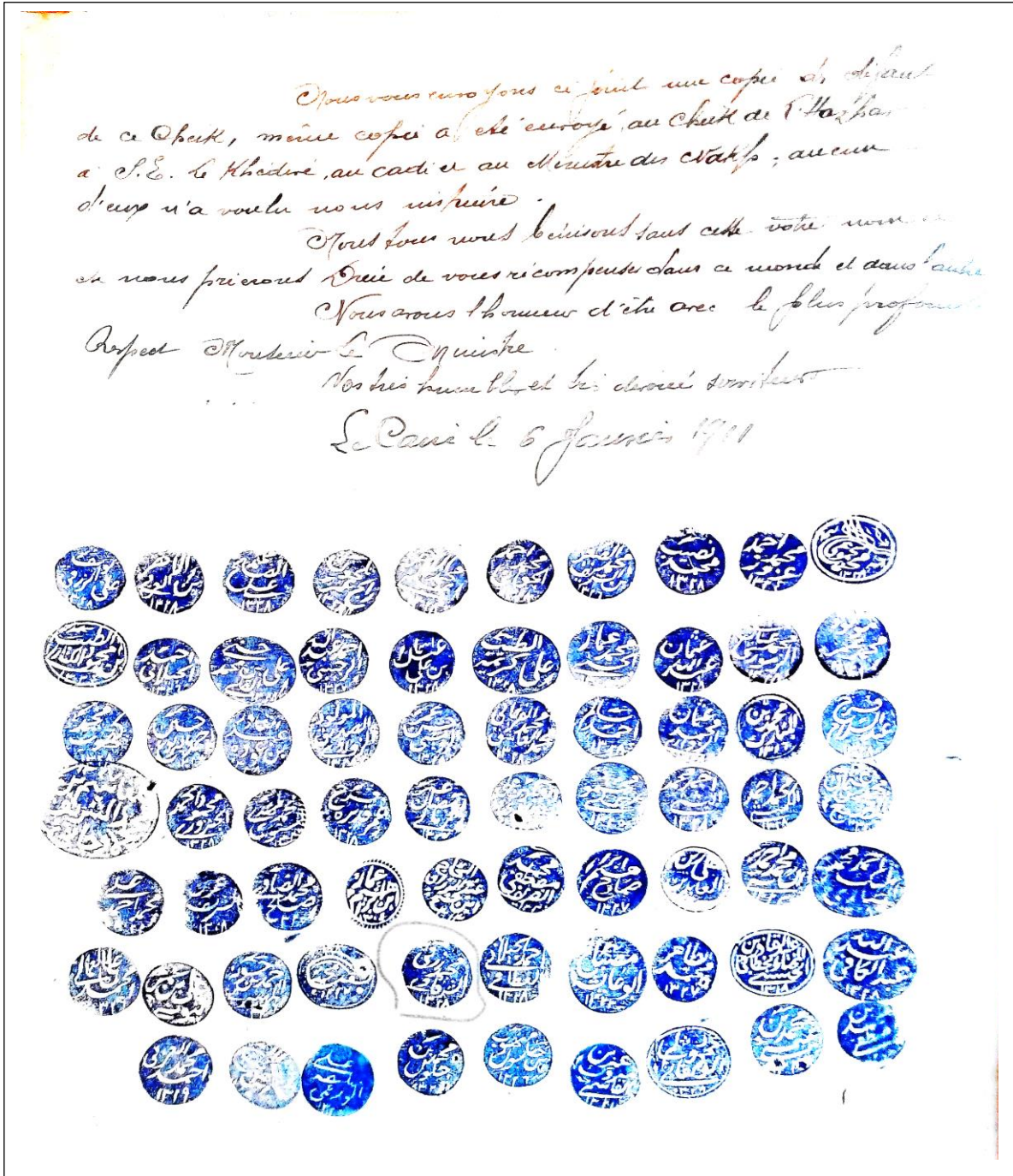
و ط ر الم ص ع

جواب الصديق الاعلم، ونبراسه وكفنا الاصح، سيدنا اهداهم سواء
 اليه سكره التاجر بجزائه سلاح السكينة وكنه تفتيت بلذالك
 ان كفتح و الخيرو فحبيب ودجوايها الصديق اتنا نل جوابك العزيز، انه
 اخذ اقصى بالعصاة والبلاعة والتوجيه، فم انك واستخرجنا
 جواهر معانيه من تحتك وجميع ما فيها، ولكن الخد كتنب لك على
 الخبير النواخيرتني به فكونت وجواب اخوانه انك نزلنا حلة
 لتكراره انما كتبت هلافة الربينة سلامه وتذكر انكم مثل واحد،
 سلاما كثير السبيل الفساح احمد الامين واخوانه وكله يقين وكذا
 سبيل السجود والخلج العائيشين وسيدنا واستاذنا، ونريد
 سيدنا الفسيح والكله الهندي امل زاوية سيدنا احمد ادرين
 وكثيرا ما استكاه اليه واريد كتابه الجواب له، ولكن كتبت اليه
 جوابا فيما انبرق وترسنت له ببعض مناسبات لهمة، الخي المصاحف
 وربما فهم هذه الرموز كما خلاهم هاروم بيلاروف في وقت بقلت
 لعلهم يريد ان اكله ثبته هذه الخاسر كمن يبع الجواب
 اليه مستغلا وسلم على سيدنا محمد العربي بسيدنا الشيخ
 المحسن وسيدنا محمد الطاهر ابي الرضي و ابراهيم بن
 خير، ومحمد ابيو اولاده ان كان موجود او كتابه او السعيد
 ابي محمد السعيد واخوانه كجميع وغيره، وعلى ابي بكر اقلك
 وابنه واخوانه والحواري على احمد وسيدنا السعيد
 وسه يخلد ساحتك جميعا عليهم سلاح الدمس لسنا
 الكلاب اليك شرار زوي النش بارود الجبار بالانوار النش بيدوا العفان
 محمد المحرو

والصالح سلاما لا فهدايتنا له على سيدنا الفساح احمد اعلمين فانك ابراهيم حزاروف
 وسيدنا محمد العربي وسيدنا الفساح اعلمين عليك فلكفة سيدنا احمد اعلمين
 وبهذه اللفه اليك

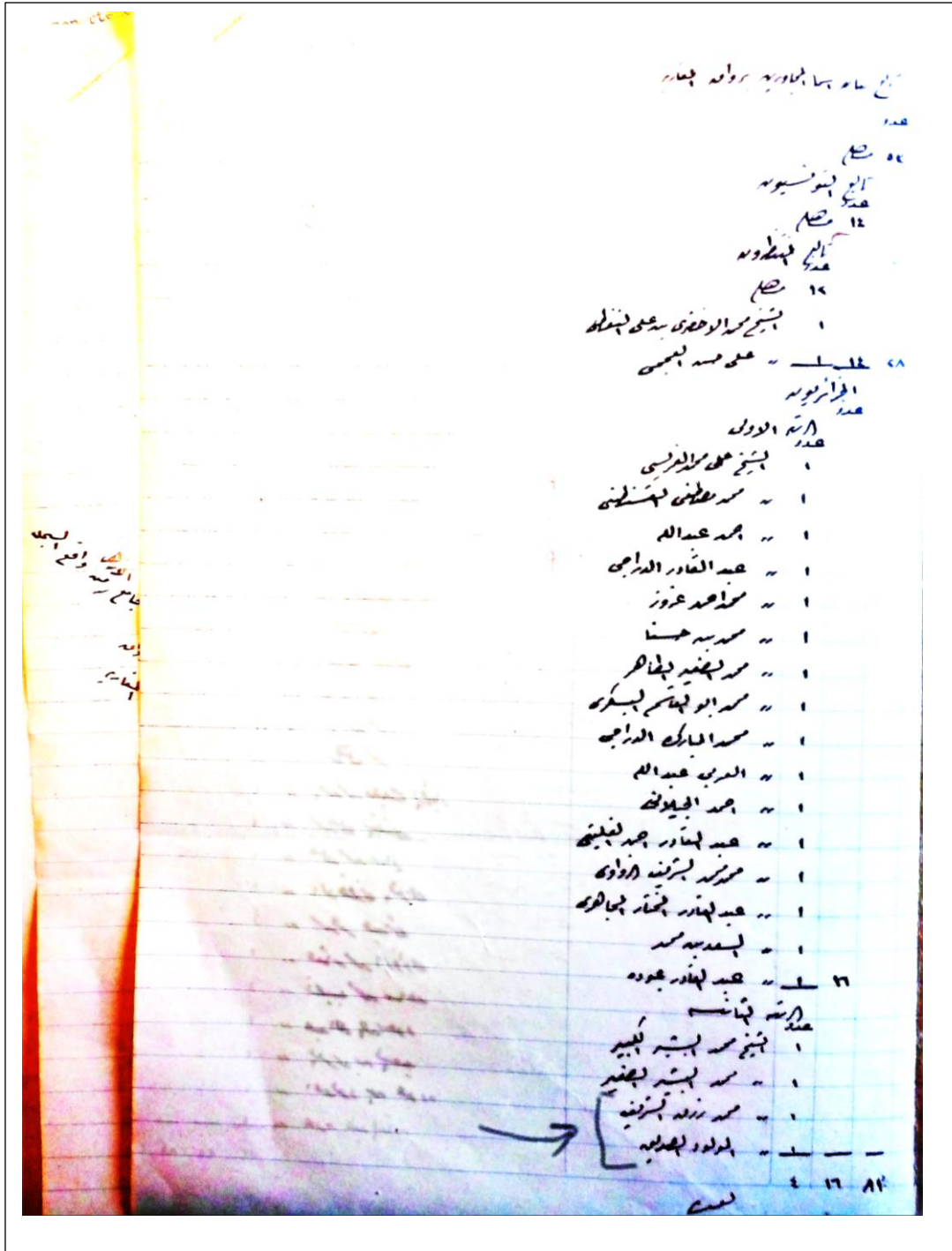
١ - المصدر: أرشيف زاوية سيدي سحنون، جمعة نصهاريج، ولاية تيزي وزو.

الملحق رقم (3): توقيعات طلبية رواق المغاربة بالأزهر الشريف في إحدى شكاويهم الموجهة إلى القنصل العام لفرنسا بالقاهرة بتاريخ: 1911/01/06م، ويظهر فيها توقيع "محمد رزقي الشرفاوي"¹



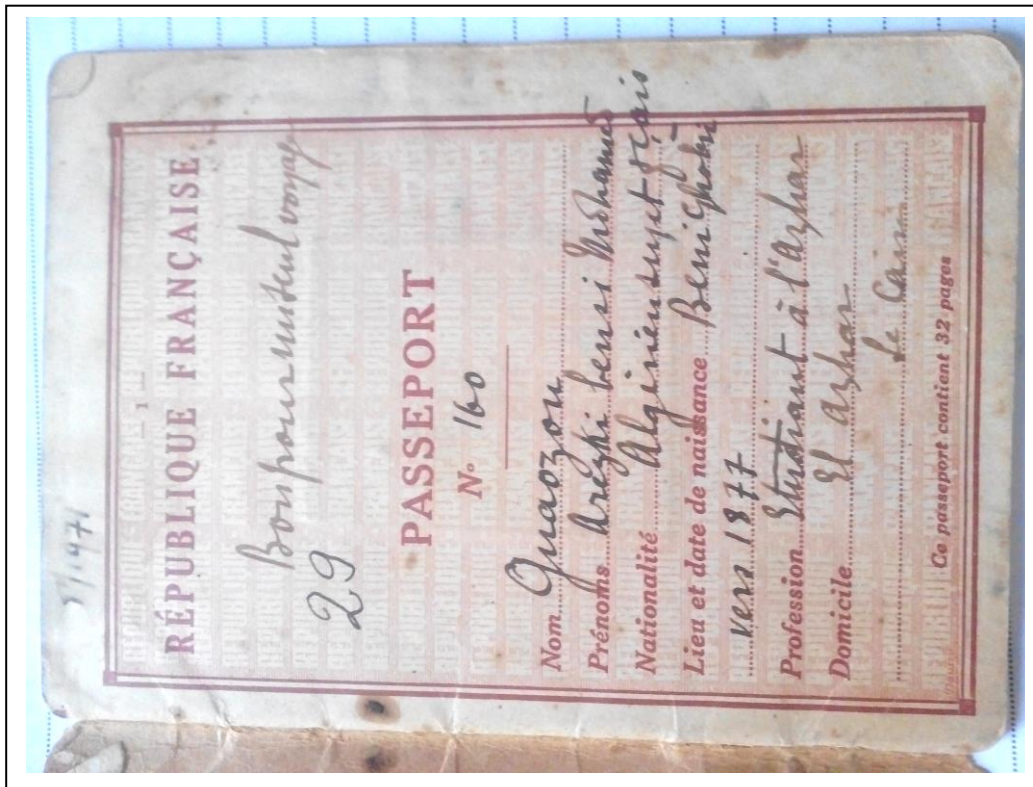
¹ - المصدر: أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، الوكالة والقنصلية العامة لفرنسا بالقاهرة،
Institutions Islamiques, El-Azhar, Carton3, Dossier 2, 353P/2/72

"محمد رزق الشَّريف" (الشَّرفاوي) ضمن طلبة الرتبة الثانية متبوعا بالمولود بن صديق (الحافظي)¹



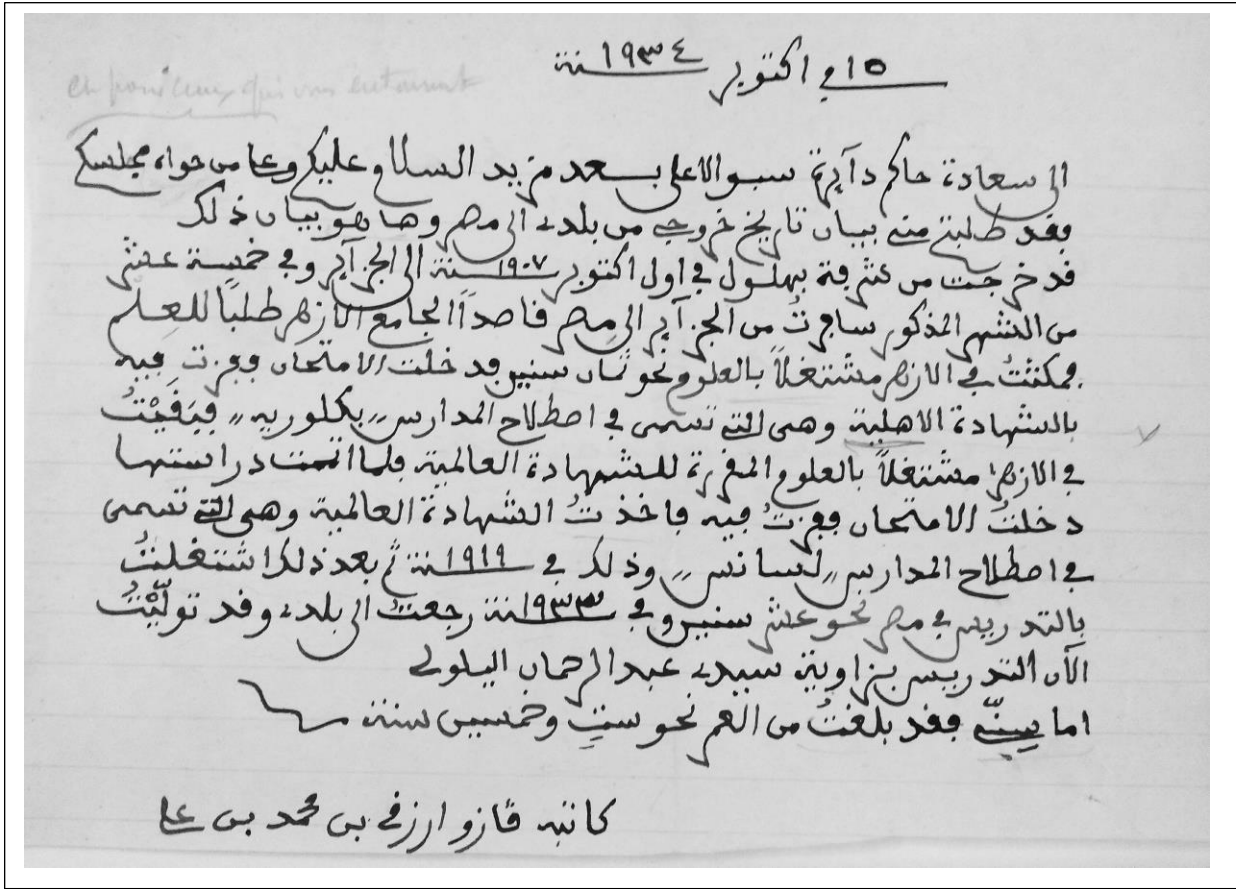
الملحق رقم (6): صفحتان من جواز السفر الذي عاد به الشَّيخ الشَّرفاوي من مصر، مستخرج من القنصلية الفرنسية بالقاهرة بتاريخ: 1933/05/24م، وهو صالح لسفر واحد فقط

¹ - المصدر: أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، الوكالة والقنصلية العامة لفرنسا بالقاهرة، *Institutions Islamiques, El-Azhar, Carton3, Dossier 2, 353P/2/72*



الملحق رقم (7): نبذة عن حياة الشرفاوي بخط يده كتبها بناءً على طلب حاكم بلدية سيباو

الأعلى المختلطة في بداية عودته من مصر 1934م¹



الملحق رقم (8): تقرير موجه من حاكم بلدية سيبوا الأعلى إلى والي عمالة الجزائر بتاريخ: 21 مارس 1934م حول الشيخ الرزقي الشرفاوي بعد توليه التدريس في زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي²

¹ - المصدر: A.N.O.M, Aix-en-Provence, Carton N° 91505/52

² - المصدر: A.N.O.M, Aix-en-Provence, Carton N° 91505/52

Département d'Alger
Arrondissement de Tizi-Ouzou
COMMUNE MIXTE DU HAUT SEBAOU

Azazgalle 21 mars 1934

N°1266

Objet :
ZAOUIAS

L'Administrateur Principal de la
Commune mixte du Haut Sébau à Monsieur le
PREFET (Affaires Indigènes)

ALGER

(Sous couvert de M. le Sous-Préfet)

TIZI-OUZOU

Confidentiel

Additionnellement à mon rapport semestriel
n°1310 du 15 mars courant relatif au fonctionnement des
zaouias de ma commune , j'ai l'honneur de vous donner ci-
après quelques précisions sur le nouveau cheikh de la ma-
mra du Sidi Abderrahmane , dans les Illoula ou Malou.

Cet indigène Gazou Arezki est né à Cheurfa ,
douar Beni Chobri en 1877. Il est fils des feus Si Mahand
et de Tassadit bent Mohand.

Parti en Egypte en 1907 , il fit ses études
à la Djemaa El Azhar , et obtint en 1917 , le titre de
professeur de cette université.

Il enseigna dans cet établissement jusqu'en
1933 , époque à laquelle il rentra en Algérie pour pren-
dre la direction de la zaouia de Sidi Abderrahmane.

Il est assez difficile pour l'instant de défi-
nir les inclinations politiques de l'intéressé qui , de-
puis son retour en Algérie , n'a cessé de faire montre de
la plus stricte correction ; mais il convient de rappeler
l'attitude nettement hostile qu'observa, à l'égard de la
France, l'université d'El Azhar, particulièrement avant
et pendant la guerre , et le nombre considérable de

brochures.....

تابع للصفحة التي قبلها

de brochures et de tracts de tendances antifrancaises
qui fut alors déversé par elle sur nos possessions Nord-
Africaines.

Je n'ai pu moins faire que d'établir un rappro-
chement entre ces faits et l'arrivée dans ma commune,
d'un homme qui , de près ou de loin , dut être mêlé à la
propagande en question en question , et j'ai pensé qu'il
était de mon devoir de vous signaler l'entrée à Sidi Ab-
derrahmane du professeur Gazou Arezki.

Je n'ai cessé , depuis son retour de le soumettre
à la surveillance qui s'imposait , et je ne manquerai
point , le cas échéant , de vous saisir de tout fait criti-
quable dont ce cheikh viendrait à se rendre responsable,
dans le cadre de notre politique indigène.

P. L'Administrateur PPal et p.o.

L'Administrateur-Adjoint,

signé : Bénét.

Pour copie conforme,
P. L'Administrateur,
L'Adjoint,



[Handwritten signature in blue ink]

الملحق رقم (9): جزء من تقرير فرنسي حول سير التعليم في زوايا بلدية سيياو الأعلى المختلطة موجه من
حاكم البلدية إلى والي عمالة الجزائر بتاريخ: 22 أكتوبر 1942م¹

¹ - المصدر: A.N.O.M, Aix-en-Provence, Carton N° 91505/52

II.- SIDI-MAHAND-Ou-MALEK (Douar IDJEUR)

Au village de TIFRIT où se trouve la résidence du Caid du douar IDJEUR, cette Zaouia est soumise à l'étroite surveillance du Caid MOUHEB, d'origine maraboutique .

Le Cheikh ALILI Si Said ben Ali y est en fonction depuis 1934 et préside avec calme aux destinées d'une trentaine de Tolbas originaires en majorité de la Commune Mixte de la SOUMMAM.

Les revenus de cette Zaouia sont surtout en nature. Le Cheikh lit le journal d'El Radjah.

Il demandé quelques matériaux pour faire une salle d'études, le nombre des élèves ayant doublé en une année .

III.- SIDI-AHMED ben DRISS (Douar ILLOULA-Ou-MALOU)

Le Cheikh OUALI Mohammed Tayeb ben Si Mohand Ou Amara depuis 1929 dirige avec une compétence parfaite cette Zaouia

Ce professeur a des connaissances sérieuses et fait preuve d'amabilité et d'un état d'esprit excellent vis-à-vis des Autorités françaises avec lesquels, il entretient de très bons rapports .

Les 60 qu'il enseigne à l'exception de trois ou quatre voyagent très rarement . Ils sont âgés de 12 à 30 ans et généralement originaires des Communes Mixtes d'AKBOU, AZAZGA et DJURDJURA.

Les revenus de la Zaouia s'élèvent annuellement à environ une trentaine de milliers de francs dont la moitié en espèce .

Les journaux lus sont : El Balagh et Attafahoum.

IV.- SIDI-ABDERRAHMANE (Illoula-Ou-Malou)

Le Directeur de cette Zaouia est le professeur GAZOU Si Hadj Arezki dont la science vraiment étendue et fournie dans les Universités d'Egypte en fait le premier parmi ses collègues de la Commune Mixte .

L'attitude de celui-ci envers l'Autorité locale a toujours été correcte bien qu'il exerce une sorte de prépondérance sur la Zaouia de SIDI-BAHLOUL à CHEURFA dont il est originaire et où sa famille est puissante .

A l'instar de son Cheikh, la Zaouia de SIDI-ABDERRAHMANE est la première par l'importance. Elle enseigne environ à 140 tolbas originaires des Communes Mixtes d'AKBOU, la SOUMMAME, LAFAYETTE et BORDJ-Bou-ARRERIDJ. Ces élèves s'étagent de 15 à 30 ans .

Ses revenus annuels s'élèvent à une trentaine de milliers de francs .

Si les rapports sont corrects avec l'Autorité locale, je dois ajouter aussi qu'ils sont très rares tant avec les tolbas qu'avec le Cheikh que je n'ai jamais eu l'occasion d'apercevoir même au siège de la mosquée .

الملحق رقم (10): جزء من تقرير فرنسي (1940م) يتضمن معلومات عن عدد طلبة زاوية عبد الرحمن اليلولي والجهات التي جاؤوا منها، ويشيد بأهمية الزاوية ويشير إلى الرقابة السرية المفروضة على شيخها "قازو أرزقي" (الشرفاوي)¹

¹ - المصدر: A.N.O.M, Aix-en-Provence, Carton N° 91505/52

Département d'Alger
 Arrondissement de Tizi-Ouzou
 N° 603
 Confréries religieuses
 Rapport sur les Zaouias
 2^e Semestre 1940

COMMUNE MIXTE DU HAUT-SERBAOU
 000

L'Administrateur Principal de la Commune Mixte du Haut-Sébaou, AZAZGA
 À Monsieur le PREFET (Affaires Musulmanes) ALGER
 (Sous couvert de Monsieur le SOUS-PREFET, TIZI-OUZOU)

J'ai l'honneur de vous adresser, ci-après, tous renseignements utiles sur le fonctionnement et l'attitude des différentes Zaouias de ma Commune pendant le 2^e Semestre de l'année 1940.

1^o-. SIDI-ABDERRAHMANE .(Douar Illoula-Ou-Malou)

Dirigée, depuis l'année dernière, par le Cheikh GAZOU Si Arezki qui enseignait précédemment à Sidi-Moussa (Cme Mixte de Sidi-Aïch).

Ce professeur érudit, a été formé dans les Universités d'Egypte ; il fait, - à ce titre - l'objet d'une surveillance discrète mais constante. Jusqu'ici son attitude envers l'autorité locale a toujours été correcte, malgré quelque tendance à s'immiscer dans la gestion de la Zaouia de même obédience de Sidi-Bahloul, au village de Cheurfa, dont il est originaire.

La Zaouia de SIDI-ABDERRAHMANE compte, à l'heure actuelle 104 tolbas ; c'est la plus importante de la Commune. Ces Tolbas sont de provenance diverses : Camp du Maréchal, Haussonvillers, Bordj-Ménaiel, Abbo, Dellys, Tizi-Ouzou, Dra-El-Mizan, Sidi-Aïch, Akbou et même de Sétif. Le plus jeune d'entre eux a 15 ans et le plus âgé 40 ans.

Ses revenus annuels peuvent être évalués à une douzaine de mille francs, sans compter les offrandes en nature (huile, figues, grans, etc ..) qui suffiraient à son entretien.

2^o-. SIDI-AHMED ben DRIS .(Douar Illoula-Ou-Malou)

A toujours à sa tête le Mufti OUALI Si Tayeb, qui y débuta comme Cheikh en 1939.

Aucune remarque n'est à faire sur cet établissement, dont le Directeur ne cesse de faire preuve d'amabilité et d'attachement aux autorités françaises.

70 élèves y ont séjourné pendant le second semestre 1940, presque tous originaire des Communes d'Akbou et de Michelet.

Les revenus annuels de la Zaouia s'élèvent à quelque 10.000 francs (dont moitié, seulement, en espèces).

Les journaux reçus dans ce collège et dans le précédent sont : "El-Bassaigh" et En-Nadjah".

3^o-. SIDI-AMAR OU ELHADJ (douar Akfadou)

Est toujours en cours devant le Tribunal de Tizi-Ouzou le procès civil qui divise le Cheikh MOHAMMEDI Bi Chérif et une partie des habitants du village d'Ait-Sidi-Amar ou Elhadj. Les demandeurs, qui prétendent descendre du dit marabout, ayant été déboutés devant

الملحق رقم (11): تقرير فرنسي حول الاحتفال الذي احتضنته زاوية عبد الرحمن اليلولي في جوان 1938م بمناسبة ختم الشرفاوي لدروس مختصر خليل، والذي حضره - حسب التقرير - نحو 3000 شخص¹

DEPARTEMENT D'ALGER
—0—
Arrondissement de Tizi-Ouzou
—0—
COMMUNE MIXTE
DU
HAUT-SEBAOU

N° HI 36

Azazga, le 29 Juillet 1938

L'Administrateur Principal
de la Commune Mixte du Haut-Sebaou
à Monsieur le PREFET (Affaires Indigènes)

ALGER

Objet :

S/C de Monsieur LE SOUS PREFET.

à TIZI-OUZOU

Zaouïas.

Rapport semestriel.

I^{er} semestre 1938.

J'ai l'honneur de vous adresser ci-après tous renseignements d'usage sur la situation, le fonctionnement et l'attitude des cinq zaouïas de ma commune pendant le premier semestre de l'année courante.

I.-Tifrit Naït-ou-Malek. (Idjeur)

Rien de particulier à signaler si ce n'est le maintien à la tête du collège du Cheikh Allili Si Saïd dont le désir légitime de retraite n'a su résister aux sollicitations pressantes des tolbas de Tifrit et de leur entourage. Le fait s'explique facilement lorsqu'on sait de quelle réputation d'intégrité de sagesse et de savoir est entouré la personnalité de ce professeur dont la seule présence à Tifrit Naït-ou-Malek a su dissiper les querelles et les intrigues qui divisaient avant son arrivée les gens de la zaouïa.

II.-Sidi-Abderahmane (Illoula-ou-Malou)

A signaler les grandes fêtes organisées par le Cheikh Gazoux et les membres du conseil de gérance à l'occasion de la fin du cours de Sidi-Khelil. Ces manifestations se sont déroulées dans le courant de la première quinzaine de Juin. Elles avaient attiré quantité de fidèles, venus pour beaucoup de régions éloignées. Il est possible d'évaluer à 3.000 environ le nombre de visiteurs reçus à Aït-Ali-ou-M'hand à cette occasion.

Le Chef de la Commune et les principaux fonctionnaires de la circonscription avaient été conviés à ces fêtes que la haute renommée de la zaouïa et de son cheikh, entouraient d'un prestige tout particulier.

L'attitude du collège a été aussi correcte que possible en cette circonstance qui a donné lieu à certains commentaires dans les feuilles avancées du monde intellectuel musulman et notamment dans le journal "El-Bassair."

III. Sidi-Mohammed-ou-Driss. (Illoula-ou-Malou)

A noter la récente promotion au titre de muphtî du cheikh Ouâli Tayeb. Cette nomination a été accueillie avec sympathie par l'ensemble des fidèles de la zaouïa et des douars de la Commune où le cheikh a su gagner par ses

الملحق رقم (12): الصّفحة الأولى من مخطوط "الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزواوية"
للشرفاوي من نسخة وُجدت عند عائلة صديقه محمد السعيد بن سعيدان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَعْلِيمًا

نحمدك يا من نطقت بشعر انعامه الخائيات، وابتعدت عن قدرته الباهرة جميع الموجودات
خلفت الأنسار وعلمته البيان، اكرمته باللسان بحربه به عمالفتج بالجنار، والصلوات
والسلام على اوضح من نوح بالضاد: سيدنا **محمد**، وعلى آله واصحابه الذين ابعوه في نشر هديه
بين الجناد: **اما بعد** فيقول كثير المعاصرين: ابن الفاضل محمد الرزفي الشرفاوي: قد كنت
مدرسًا بزاوية سيد، عبد الرحمان البلوي **فطلب مني** الطلبة ان ادر بهم علم الانشاء، فلبيت
طلبهم بعد الاتحاح، ثم فكرت في اختيار المادة التي تجود عليهم بالانجاح، فلم اجد من بين الكتب
المتداولة فيهم، وما يناسب احوالهم، وخصوصا هذا العلم احدث في هذه الزاوية وليد
جديد، اذ ينبغي ان اسلك بهم اجلك لظرفها مفيد، لانه لعل ان تجدوا من رجوع الى ما كتبت من
الدروس حين تلغيت هذا العلم عن مشايخي بالازهر الشريف، فبضمت الي تلك الدروس ما
رايته صالحا لطلبة الطلبة، فالتفت ذلك عليهم دروسا مفردة، ثم جمعتها في رسالة
صغيرة، جاءت بحمد الله ترهبوا بها اسماير الربائل، والله هو المنسأل يجعلها في هذا
الجزء من خير الوسائل **سمايرها**: الدروس الانشائية: لطلبة الزوايا الزاوية،:

مقدمة ويها فصول: **العلم الاول** من تلويح به، اللغة العربية: **اعلم** ان
اللغات ملكات كما في المملكات الصناعية، بلغة كل قوم هي الملة الغالبة باللسان
يفقه، وبها المتعلم على التعبير عن كل ما يرضيه بالفاظ موضوعية بحسب اصطلاح كل امة
لعدولها ابراهيمية وترجمانية، **فكلمات** لغات اجناس البشر من الاخرى واحدة، وهي
السرانية، لغة ادم عليه السلام وابناؤه، وادريس ونوح عليهم السلام، ثم تغيرت
عنها اللغة العربية، وهو اول لغة تغيرت عن السرية، فاللغة العربية اقدم
اللغات بالنظر لغير السرية، **والخلاف** في صور اللغات بوضع من الله تعالى، او
بوضع من البشر، او الاحتياج اليه بوضع من الله، او المتحدث المتخترع بوضع من البشر

الملحق رقم (13): الصفحة الأولى من مخطوط "الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية" للشرفاوي
من نسخة وجدت عند عائلة زميله الشيخ أحمد المقنعاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

الْحَكِيمِ اللَّهُ الْخَاءُ بَهْرَ الْعُقُولِ بِكَيْفِ صَنْعَتِهِ : : وَأَكْرَادِ وَأَيْمِ
الْأَجْلَاكِ بَيْنَ فَصْهِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِفِكْرَتِهِ : : وَالصَّلَاةِ
وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَعَتْرَتِهِ : : وَعَلَى جَمِيعِ
أَعْمَارِهِ الْكَافِرَاتِ بِمَعْوَلِهِ وَكَانُوا عَلَى نَهْرَتِهِ : :

أَمَا بَعْدُ فَيَقُولُ كَثِيرُ الْمَسَاوِي : : إِبْرَاهِيمُ الْفَلْطُ مُحَمَّدٌ الرَّحْمَنُ فِي
الشَّرْحِ جَاوِي : : كَلْبُ عَفْ بِعَفْ كَلْبِيَّةٌ رَوَا فِي الْمَقَارِبَةِ بِالْأَزْهَرِ
الشَّرِيفِ أَنْ أَمْرَ الْهَمِّ الرَّسَالَةَ الْعَقِيَّةَ وَالْأَعْمَالَ الْجَيِّبِيَّةَ : :
لِلْعَلَامَةِ بِكَ وَالْحَاكِمِينَ الْعَارِضِينَ فِي كَالَةِ الْحَيْدِ الْإِزْهَرِيَّةَ : :
فَرَأَيْنَا تِلْكَ الْمَكَّةَ لَا تَسْعُ شَرُوحَهَا الْمَصُولَةُ : : وَرَغْبَةُ
الْكَلْبِيَّةِ الزِّيَادَةَ عَلَى شَرُوحَهَا الْخَنْصَرَةَ : : جَا سَتَقَرَّتْ
اللَّهُ عَلَى أَنْ أَعْلَى عَلَيْهَا بَعْضُ التَّفَايُحِ : : تَكُونُ مَنُوسَةً
بِيْنِ بِيْنِ لَتَسْهَلُ عَلَى الْمَسْتَجِيبِ : : وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ فِي التَّحْقِيقِ : :
وَمِنْهُ اسْتَمْحَاكَ التَّوْفِيقِ : : جَا فَوَلِّ قَالِ الْمَصْنُفِ

رَحِمَهُ اللَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعْدُ فَجَعَلْتُ فِي
رِسَالَةٍ فِي الْعَمَلِ بِالرَّبِيعِ الْجَيِّبِ مَشْتَمَلَةً عَلَى مَقْدَمَةٍ
وَمَشْرُوعَةٍ بِأَبَا سَمِيئَةَ الرَّسَالَةَ الْعَقِيَّةَ وَالْأَعْمَالَ الْجَيِّبِيَّةَ
بِالْمَقْدَمَةِ فِي رِسُومِهِ جَا وَلَهَا الْعَرَكُزُ وَهِيَ الْبَحْثُ فِي الْفَيْجِيَّةِ
الْحَيْكَةِ وَفَوْسِ الْإِتِّجَاعِ هُوَ الْحَيْكَةُ بِالرَّبِيعِ مَفْسُومٌ تَسْعِيْنُ

نسخة
مستأجرة

ثانياً- الصّور

والجزائر

الملحق رقم (14): الشيخ الرزقي ا

في مصر



في الجزائر بعد عودته
من مصر

الشرفاوي مع بعض أصدقائه

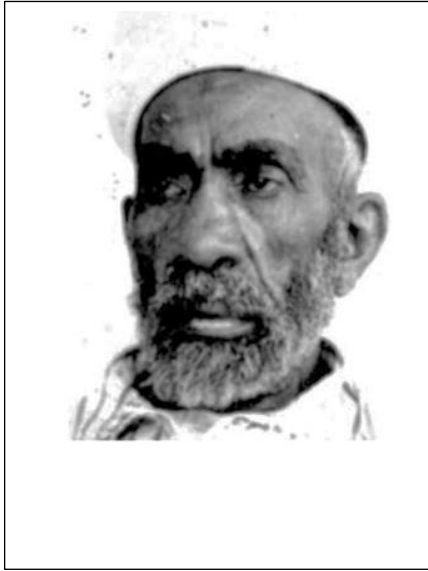
الملحق رقم (15)





الشيخ الشرفاوي مع صديقه
محمد السعيد بن سعيدان

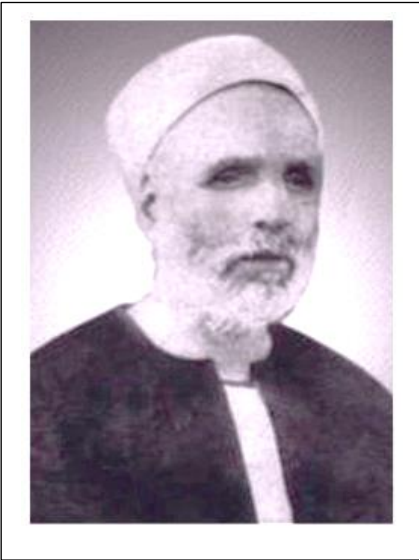
الملحق رقم (16): أبرز الشيوخ الذين درس عليهم الشرفاوي وتأثر بهم
في الجزائر ومصر



الشيخ محمد السمالوطي



الشيخ عبد القادر المَجَاوي



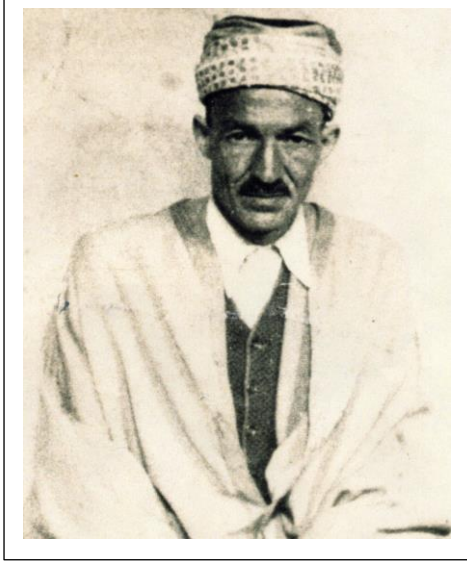
الشيخ يوسف الدجوي



الشيخ محمد بخيت المطيعي

الملحق رقم (17): صورة تذكارية للاحتفال الذي احتضنته زاوية عبد الرحمن اليلولي (جوان 1938م) بمناسبة ختم الشرفاوي لدروس مختصر خليل، وصور لبعض الذين حضروه





الشيخ محمد الطيب بن عمارة
رئيس زاوية سيدي بن إدريس



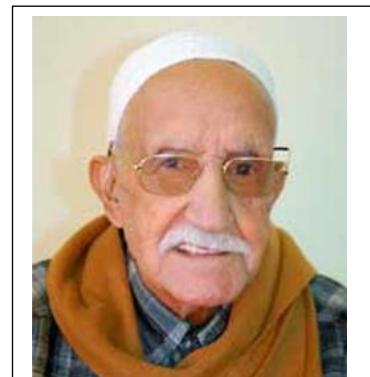
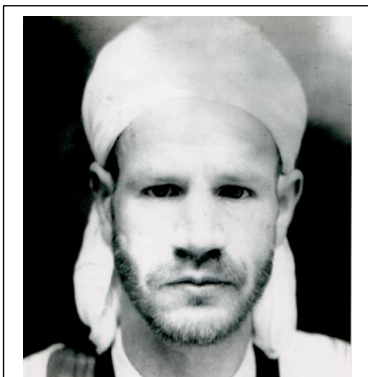
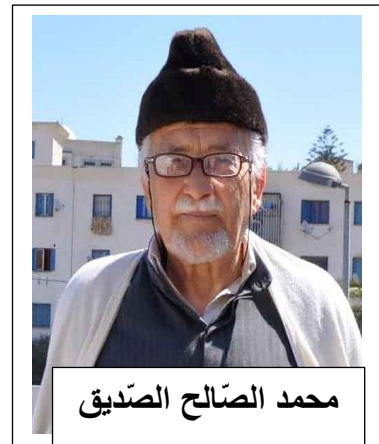
الشيخ أحمد بن زكري أستاذ ثم مدير
مدرسة الثعالبية

الملحق رقم (18): بيت وقبر الشيخ الشرفاوي

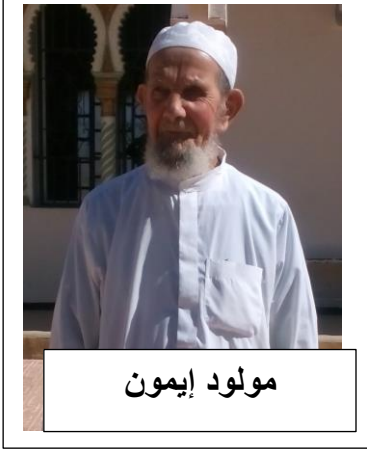
بيت الشيخ الشرفاوي قبل ترميمه



الملحق رقم (19): بعض طلبة الشرفاوي



العربي بن عيسى



أحمد قادري



الملحق رقم (20): نماذج من مقالات الشيخ الشرفاوي

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية - جريدة "النجاح" - العدد 127 - 28 سبتمبر 1923

الإعلانات

نشر في الصحف الثلاث... وشيخا فرنانس المطر الراجح... ولما حبها استننا من الشرة... الأولى عينا والى الصلوات... تشفق فيها مع الإدارة... نشر النجاح الإعلانات الطرية

المسائل

تبين ان تكسب من غاصة... معلوم البرزخ... وصاحب الاشياء... لا ترد مطلقا نشرت ام لم... نشر مقيد هم فيها ان... تقتضى الحال ذلك

النجاح

الاشتراكات

ندفع سلفا ولا نتر الإيجال... عليه اعضاء المذبح وجته في... التطر الجزائري من سنة... في الاضطر الاضحية... الشؤون التلغرافي... النجاح قسطنطينة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية - جريدة "النجاح" - العدد 127 - 28 سبتمبر 1923

جريدة جيرة أسبوعية يباحثها العلم والدين والتأديب والادب والسياسة

العلم أساس النهوض

وحيا الشعوب
لحظرة العلم والادب

ويزدهر ما قد درست مالم يدهم وتذرت نعالدهم... وشيخا فرنانس المطر الراجح... ولما حبها استننا من الشرة... الأولى عينا والى الصلوات... تشفق فيها مع الإدارة... نشر النجاح الإعلانات الطرية

حول التعليم

أهله لدينا
وجوب اهتمامنا به

الزوم من المار والشار ان نقر على المذبحان... اعلانات تطليق جديدين الاوضاع تقدر... فانتمنا بالالاف المؤنزة تم لا يكرن للاهل... فيها تحيب... لما ذا ياتي؟ لون الماروف عندنا اسوام... كاسدة واذا رأت من بعض الاهدال امالا... طلبا فاه يقف دون التزل... لو عرفنا ما يتبع من المعلوم من المنافع... البامة والحامية ارض كل منا ان يست ما... ويق الماروف الباعثة في سبيل تعليم... نجاه... ان الماروف تريا صاحبها اذ يتماطر... المهن والصنائع التي تحط بالشرف وتدهي... لسوء ذلك قل ان تجد من الامه... لية من يتكامل الشئون التي لا تلامح الجيد... ذوقنا القشقة وتلك سببة شعبية تتكون... من المرفان المشرو وذلك الصببة الجيبة... صعب الشبب ذا همة شاء لا يطلب الا... للباية المبالا والقاسم السامية... تلك حسنة الجري من حسانت التعليم... وبخلاف ذلك اذا فقد التعليم في ناحية من... التواني ففقرى اتوم في ربة عن عمل ما فية... لياستهم التوبة، مصلحة عمومية واذا شاهدوا... ما يترى يترفعهم وفرضه كائنات احلام... ولقد حكى لنا التاريخ ان كثيرا من... الامم ابداها الجبل وانما طلبها وولدت... ضحية الذكول والخلاف كما حكى لنا ايضا ان... الامم الحبية كانت تحموا خطوات في سبيل... انتشالي الصوم من مهاري البس وذلك الماروم... تغير الامة الوانبة التي دونت الماروم... وهدت السبيل الى نيل السعادة لسكان... ظ الرياضيات والحساب والفنون الحبية... التي تزجت في عهد الماروم من حسانت... تلك الامة الحبية المنة... والجها نقول بحق على كل اهل ان... يحول وجهه الى التعليم وان الحاجة الضرورية... من التعليم فالاجيد بنا اليوم ان نقل طية... اقبالا ونترك الحمول الذي اودي بسمنة... الشعب الابدية... عبد الحفيظ بن الماشي

ان اطينا في التعليم واهة فواتمه... يتبين منه وذا انه السمل المصلي بالواكبر... لحياة الامم والبلدين الذين لا جوار في حق... يذاكرين الا لا يترى اليسير من حسانت... واهواته السامية... في بلاد الجزائر لاجي بها من التعليم... الا على ما يقال فيه انه تعليم متعمق عام... ويرجى من وادسه الحياة الحبية... بالنسبة الى جميع الشعب وتقدر... محتاج الى التفرق والتسديد بقدر... محتاج الى تفتين التعليم... صكنا اشرا في بعض اعداد خلقت... الى لاهالية المكاب ببلاد الجزائر وكثرة اذ... ذلك نسبة السكان البعا فكان من الكثير... لدهاش وتاير هم له الماروفون والتشورون... ووفى له كل من ادرك حقيقة الحياة وما هبة... التدين... يحق بان لا نستك عن مسالة التعليم... فانها الشققة الواحدة التي عليها مدارا المستقبل... وهي التي طها المبول في نصفنا التوبة... وحياتنا الاجتماعية... صحتهم المدارس اوابها في شهر اكتوبر... التبرل فترى الولااد الصغار من الاوربيين... يبرون زراعات وحددنا اليها والاراضهم في... اعتبارا شديد من امرهم غير مبالين بما... يدفونه في ذلك السبيل الذي لا يتبع... لهم الا التفتح الجزل... وسعري من بين اولئك الذين لوراوا... قبايز من ابناء الاهدال كما ترى من كسبي... من اقباننا شيئا ويجلا يتهم من ارسال... ابناهم الى المدارس واضين ببقاء افلاذ... تكادهم جاهلهم مدي جناهم واذا قيل... لهم في ذلك قولا ان لا اولادنا مابكهم

مقال للشرفاوي: (العلم أساس النهوض وحياة الشعوب)
جريدة "النجاح" العدد 127، 28 سبتمبر 1923م

كيف يكون العالم الديني؟

فلما فيما سبق ان التعليم الديني اليوم ليس تعليميا دينيا كما انه ليس بتعليم ذيوي لان المسلمين تصدوا لتعليم الدين قد قطعوا الصلة بينهم وبين تابعيه الصحيحة وهي الكتاب والسنة ،

ونقول اليوم بان اعظم الدلائل التي يستدل بها على العباد الدينيين وورثة النبيين ، براءتهم من الحسد ومحبتهم الخير للناس اذ الانبياء ما بهتوا الا لايصال الخير الى العباد ودلائلهم على طريق السعادة ونصحتهم كل شيء في سبيل اسعاد عباد الله تعالى ، وعلى هذا سار ورثة الانبياء الحقيقيون ، فمن يحقد على الناس ويسعى في اطفاء نور الله الذي يظهره على يد بعض عباده فيحال ان يكون من العلماء الوارثين الذين قال في حقهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي اخرججه ابوداود « العلماء ورثة الانبياء » فلا تتحقق الورثة في عالم من العلماء الا باتباعه ايام واقتدائه بهم في اعمالهم واخلاقهم وسيرهم

وانظر كيف كان الله تعالى يستعرض رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم على كل نبي وم يعلمون افضلتيه وكاله فيؤمنون به وتتلج صدورهم لذلك ماذاك الا لان الكل مفطور على حب الخير ولا يطلب للناس الا السعادة وامتلاء الوجود بالنور الالهي سواء كان ذلك على يده او على يد غيره وعلى هذا سار الرسل عليهم الصلاة والسلام و اصحابهم واتباعهم الذين اهدوا بهديهم فمن اراد من علماء الدين ان يحقق تلك الورثة فليكن عالما دينيا بالمعنى الذي يرضيه الدين وايدع الناس الى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله و ليمثل بقول بعض عظماء الورثة .

متاي من الدنيا علوم ابها وانشرها في كل باد وحاضر دعاه الى القرمان والسنة التي تناسى رجال ذكرها في الحاضر لوقف على القرمان وعلوم القرمان واسرارها

كيف يكون نفسه الكلية التي اندرج تحتهها جميع ما تنرق في الناس من القضايا حتى امكنه بذلك ان ينهض بامة امية صعبة المراس متفرقة متجاسدة متباغضة ثم يزجرها عن عاداتها التي امتزجت بدماؤها وينزلها الى حكمه على رغبة شديدة منها ثم تكون لها وحدة قوية ويكون له منها اكبر مؤيد معين تقديه وتقدمي مبدأا ودينه بارواحها واموالها ؛ فمن جهل تاريخ محمد وسنته وكتاب الله تعالى فليس من الوارثين بل هو دخيل في العلماء

فالعلم الديني الوارث لعلوم الانبياء الداعي الى الله تعالى الناشر لدينه المقرر لحقائقه المتصدى لحمايتها وصد الاعداء عنها السائر بالناس في طريق السعادة

ينبغي ان يكون مطلعاً على اسرار الشرائع كلها زيادة على ما تقدم ، وعلى تاريخ الاديان وتاريخ الامم الدينية التي تعرض لها القرمان ؛ كما ينبغي ان يكون خبيراً باحوال الامة التي يدعواها وباراضها النفسية والاجتماعية ، و بطرق علاجها ومقاديرها من الدواء عارفاً كيف يستحضر عظمة الله تعالى في النفوس عند استعراض الاعمال في ساحة الوجود بها لها من جليل الصفات ليندفع الانسان بهذا الاستحضار الى استجلاء آثار الرحمة والفرار من آثار الغضب والانتقام ، متخذاً في دعوته الناس الى الله قول النبي صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة ، قاعدة يسير عليها تقاديا من الغش المحرم شرعاً وعقلاً ، ومحافظة على ما امر به الرسول من النصيحة لله ولكتابه ورسوله وائمة المسلمين وعامتهم ، وعارفاً بتاريخ المقالات الحادثة في الاسلام بصيرا بمذاهب الفرق الاسلامية خبيراً بلوازم ككل مقالة وما يترتب عليها من خير او شر ، وموافقاً لاصول الدين او مباينتها لها حتى اذا عرضت له مقالة بين منشأها وتاريخ حدوثها في الاسلام بياناً يشرح حالها ويكشف عن امرها فيعمل بالموافق لاصول الدين ويرد المباين لها

ثم يكون عارفاً بتاريخ التأليف في الاسلام

بالدعوة الى الكتاب والسنة مع وضوحها في نظر العقول السليمة واحقيتها وصلاحتها لكل زمان ومكان جعل صوتها يرن فوق اصوات سائر الكتب والاقتوال التي تذرعت بها بعض افسرر واوجدتها نظروف الحوادث نباتت بموت تلك الحوادث واصبحت بمنزلة الاعضاء الاثرية فذكرها في بعض الكتب لا يعد دليلاً على صحتها فاستدلال بعض الناس بها يوجد في تلك الكتب لا يقبل الا اذا وزن بميزان الكتاب والسنة .

فاذا توفر ما تقدم في عالم ديني امكنه ان ينهض بامته المتأخرة الى ذروة الرقي الديني والمدني ولكن اقول مع الاسف الشديد ان امتنا سلمت مقاليد امور دينها الى قوم عمي لا يستطيعون النهوض بانفسهم فكيف يستطيعون النهوض بغيرهم اللهم ابد من يريد اصلاح هذه الامة وادركه بعنايتك واحسانك انك على كل شيء قدير .

يتبع محمد الرزقي الشرفاوي الازهرى

* الوردة الجديدة *

محل الروائح المتنوعة من شرقية واربوية وان الذي يقصد هذا المحل يجد ما يرضيه من الروائح مع زيادة حسن المعاملة والادب والباشاة وبالاخص تقطير الازهار فان بهذه الدار يوجد ماء الزهر الصافي تقديم المثال وماء الورد وغيره بهج باندون عدد ١٠ - بالجزائر

EAU DE FLEUR D'ORANGER
SPÉCIALITÉS DE PARFUMS ORIENTAUX
Matières Premières pour la Parfumerie
A La Fleur Nouvelle
10' Rue Randon' 10
ALGER

إذا كنته

مقال للشرفاوي: (كيف يكون العالم الديني؟)
جريدة "الثبات" العدد 49، 23 أوت 1935م

مصادر ومراجع البحث

أولاً- الوثائق

أ- وثائق الأرشيف الفرنسي

I- Archives Nationales d'outre-mer, Aix- en-Provence (A.N.O.M)

• صندوق رقم: (A.N.O.M, 91505/52)، يحوي ملفات أرشيفية خاصة بالزوايا الواقعة ببلدية سيباو الأعلى المختلطة، منها ملف خاص بزوايا عبد الرحمن اليلولي الذي يحوي الكثير من التقارير الإدارية الدورية التي كان يحررها قايد دوار "إيلولة"، وحاكم بلدية سيباو الأعلى حول الشيخ الشرفاوي وسير التعليم في الزاوية في عهده، وفيه وثائق أخرى متنوّعة، نذكر منها مثلاً:

- نبذة قصيرة عن حياة الشرفاوي ومساره التعليمي، كتبها الشيخ بطلب من المتصرف الإداري لبلدية "سيباو الأعلى" في بداية عودته من مصر، مؤرخة في 1934/10/15. عثرنا أيضا على ترجمتها الفرنسية.

- تقارير عديدة خاصة بزوايا "سيدي بهلول" بقرية الشرفة تلقي بعض الضوء على علاقة الشرفاوي بهذه الزاوية والمشكل الذي وقع في القرية.

- تقارير قايد دوار أكفادو، وقايد دوار بني غبري والتي لها علاقة بالشيخ الشرفاوي وقرية الشرفة.

- تقرير عون الشرطة في عزازقة "عمران هلال" إلى حاكم بلدية سيباو الأعلى بتاريخ: 1938/12/08م.

• ملفات ووثائق أخرى:

- ملف أحمد بن زكري ضمن صندوق أرشيفي خاص بأساتذة مدرسة الجزائر (الثعالبية): *A.N.O.M. 14H 44*

- ملف خاص بالقايد "العربي"، قايد إيلولة أو مالو، ملف: *A.N.O.M, 91505/15*.

- معلومات خاصة بالشيخ أحمد داوي، شيخ زاوية سيدي منصور، ملف: *A.N.O.M, 91505/4*

- *Rapport de l'administrateur de la commune mixte du Haut sibaou à Monsieur le sous-préfet de tizi- ouzou, Zaouïa de sidi bahloul, incident, 18/01/1940, A.N.O.M. 14H 41*

- *Le Maraboutisme en Kabylie et ses rapports avec le mouvement des oulema (rédigée par S.L.N.A, Avril 1941). A.N.O.M, 91505/52.*

- *Le Commandant Cadi, Rapport au sujet de nos étudiants musulmans, sujets et protégés, élèves à l'Université d'El-Azhar, 1916. (A.N.O.M, Aix-en-Provence, 14H/41).*

2- Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Nantes, (A.M.A.E)

- *consulat Général de France en Egypte, Institutions Islamiques, El-Azhar, Carton 13, Dossier 2, N° 353PO/2/72*

- *Agence et consulat Général de France en Egypte, Traduction du Rapport de Mohamed Abou Nasr El Barada, 14/08/1912, Carton 13, Dossier 2, N° 353PO/2/72.*

- *Etudiants Algériens de l'Université d'El-Azhar, copie du Rapport de Gouverneur Général de l'Algérie a monsieur le president du conseil, Ministre des Affaires Etrangères, Paris, 19/02/1912. (Carton 13, Dossier 2, N° 353PO/2/72).*

ويتضمن هذا الأرشيف الكثير من وثائق القنصلية الفرنسية بالقاهرة المتعلقة بالطلبة الجزائريين والمغاربة بصفة عامة في جامع الأزهر: قوائم طلبية رواق المغاربة، شكاويهم، أوقاف الرواق.. الخ.

3- Archives Diplomatiques, Paris, (A.D), Ministère des affaires étrangères

- *Agence Diplomatique et consulat Général de France en Egypte, Afrique/Affaires musulmanes, Dossier général 1918- 1940, Série K. Carton 102, Dossier 1, 55CPOM/2.*

- *Agence Diplomatique et consulat Général de France en Egypte, Extrait du règlement du Riouak Magrébin, Mosquée d'El- Azhar, publié aux frais du cheikh du Riouak 1910, Série K, carton 56, dossier 1, N° 65CPCOM/11.*

ب- وثائق الأزهر الشريف بدار الوثائق القومية، القاهرة

- أوراق جلسة المجلس الأعلى للأزهر، المنعقدة في 24 جمادى الأولى 1339هـ/ 2

فبراير 1921م، وحدة الحفظ 320، الملف 04، الكود الأرشيفي: 002254 - 5004.

- أوراق خاصة بمواد التعليم بالأزهر سنة 1900م، دار الوثائق القومية، ووثائق

عابدين، الكود الأرشيفي: 006821 - 0069.

- دفتر قيد محاضر وقرارات مجلس إدارة الأزهر من 17 يونيو 1928 لغاية 9

نوفمبر 1930م، وحدة الحفظ 317، السجل 1092، الكود الأرشيفي: 002159 -
5004، قرار رقم 19.

- دفتر قيد محاضر وقرارات مجلس إدارة الأزهر من 17 يونيو 1928 لغاية 9

نوفمبر 1930م، وحدة الحفظ 317، السجل 1092، الكود الأرشيفي: 002159 -
5004، قرار رقم 19.

- سجل طلبية رواق الأتراك والشوام والمغاربة، وحدة الحفظ 314، السجل رقم 623،

الكود الأرشيفي: 001211 - 5004.

- سجل قرارات المجلس الأعلى للأزهر، وحدة الحفظ 317، السجل 1125

(1919 - 1920)، الكود الأرشيفي: 002230 - 5004.

- وثائق خاصة بالخلافة، 20 مايو 1924م، الكود الأرشيفي: 006983 -

0069. أيضا: وحدة الحفظ 205، رقم: 004009 - 0069.

ج- مصلحة الأرشيف لولاية تيزي وزو

- الشيخ أحمد داوي، رسالة بعث بها لنائب العمالة بتيزي وزو (سوبريفي) سنة

1939م، الرسالة باللغة الفرنسية ومكتوبة بخط اليد، وتحمل تاريخ: 1939/03/24م.

د- أرشيف الزاوية السحنونية، جمعة صهريج، بلدية مقلع (تيزي وزو)

- رسالة مخطوطة أرسلها الشرفاوي من الأزهر إلى صديقه الصادق بن العربي البسكري

التاجر بمدينة عزازقة، مؤرخة بتاريخ 16 ربيع الأول 1328هـ (27 مارس 1910م).

- نموذج لدعوة محررة باللغتين العربية والفرنسية، والتي كان يوجهها مجلس طلبية زاوية

عبد الرحمن اليلولي للمدعوين لحضور الحفل الذي أقامته الزاوية بمناسبة ختم الشرفاوي

لدروس مختصر خليل، جوان 1938م.

ه- الوثائق الشخصية

- نسخة من الدفتر الأصلي لشهادة ميلاد الرزقي الشرفاوي، رقم 785، مصلحة

الحالة المدنية، بلدية عزازقة، ولاية تيزي وزو، بتاريخ: 2012/06/17م.

- نسخة من دفتر العائلي، للشيخ الشرفاوي، صادر عن مصلحة الحالة المدنية، عزازقة.
- النسخة الأصلية لجواز السفر الذي عاد به الشرفاوي من مصر، وهو صادر عن
القنصلية الفرنسية بالقاهرة بتاريخ: 1933/05/24م، ويحمل رقم: 160، صالح لمدة
عام، ولسفر واحد.

ثانياً - المخطوطات

- الشرفاوي الأزهري، محمد الرزقي، الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزواوية.
- ، الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية، رسالة في العمل بالربح المجيب.
- العربي، يوسف بن محمد، مخطوطة من ثماني صفحات عن حياة الشيخ محمد
والمختار (من شيوخ الشرفاوي)، مؤرخة في: 11 محرم 1344هـ، الموافق لـ 11
جويلية 1925م.

- المقنعاوي، أحمد، مقالة مخطوطة من أربع صفحات، ناقش فيها الشيخ الشرفاوي
في فتواه عن التبيبة، وبين فيها رأيه في المسألة، مخطوط زودني بنسخة منه حفيده
الأستاذ محمد الصادق وعلّي.

- المقنعاوي، أحمد، نبذة عنه بخط حفيده محمد الصادق وعلّي.
- المقنعاوي، محمد عبد الرحمن، تقييدات حول علماء وشيوخ وأئمة منطقة القبائل.
- النعماني، مكي، من طلبه الشيخ الشرفاوي في زاوية عبد الرحمن اليلولي، أوراق
مكتوبة بخط بيده مؤرخة في 19 جويلية 1986م.

- ، رسالة مخطوطة من إلى صديقه الحاج عيسى، مؤرخة في 14 ربيع الآخر
1364هـ.

- بن سعيدان، محمد السعيد، مخطوط في علم القراءات.
- رامي، أعمر، من أعضاء فوج الكشافة الإسلامية الجزائرية بعزازقة، شهادته عن
دور الشرفاوي في إنشاء الفوج الكشفي "الشريفية" في عزازقة، أوراق مرقونة سلمها لي
شخصياً.

- قادري، أحمد، (من طلبه الشيخ الشرفاوي في زاوية عبد الرحمن اليلولي)، أوراق
مخطوطة.

ثالثاً - المصادر المطبوعة

أ- الكتب والمذكرات

- الشرفاوي، محمد الرزقي، إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية، تقديم وتعليق محمد الصالح الصديق، دار طليطلة، الجزائر، طبعة 2012.
- ، إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية، تقديم وتعليق محمد الصالح الصديق، المطبعة العربية، الجزائر، 1955.
- الصديق، محمد الصالح، أعلام من منطقة القبائل، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2013.
- ، الشهيد الشيخ محمد الطاهر حفيد الشيخ الشريف الإفليسي، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، ط 1، 2017.
- ، الشيخ الرزقي الشرفاوي، حياة وآثار، شهادات وموقف، دار الأمة، الجزائر، ط 1، 1998.
- ، رحلتي مع الزمان، ج 1، دار هومة، الجزائر، 2010.
- ، رحلتي مع الزمان، ج 2، دار هومة، الجزائر، 2010.
- ، في شريط الذكريات، ج 2، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016.
- ، في شريط الذكريات، ج 3، دار هومة، الجزائر، 2016.
- ، في شريط الذكريات، ج 4، دار هومة، الجزائر، ط 1، 2016.
- ، مدارس لولاها ما كُنْتُ، دار النعمان، الجزائر، 2017.
- فرج، محمد الصغير، تاريخ تيزي وزو، ترجمة موسى زمولي، منشورات ثالة، الجزائر، 2007.
- المارديني، بدر الدين، الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية، الكتبخانة الأزهرية، 1315هـ.
- محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، دمشق - الجزائر، د.ت.
- مشيخة الأزهر الشريف، الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، (مطبعة الجمالية، القاهرة، ط 1، 1329 هـ / 1911م).
- *Hocine Ait Ahmed, Mémoire d'un combattant, l'esprit d'indépendance 1942- 1952, édition Bouchène, Alger, 1990.*

ب- المقالات

- بن الصّدّيق الحافظي، "المولود، صوت العلم يناديكم، فهل من مجيب؟"، الشهاب، العدد 35، قسنطينة، 5 جويلية 1926.
- ، "تداء للأمة إلى مؤتمر الخلافة فهل من مجيب؟"، النجاح، العدد 291، 23 أبريل 1926م.
- جزائري قديم بمصر، "حالة إخواننا بمصر، إخفاق المساعي الجليلة"، النجاح، العدد 254، 11 ديسمبر 1925م.
- الزواوي، أبو يعلى، "أحاديث جمعية العلماء وحوادثها"، البصائر، العدد 91، 17/12/1937م.
- ، "في البدع الاعتقادية، درسي"، البصائر، العدد 142، 02/12/1938م.
- الشرفاوي، محمد الرّزقي، "أسباب الرّقي وأسباب الانحطاط"، الصّدّيق، العدد 31، 25 أبريل 1921م.
- ، "أسباب الرّقي"، الصّدّيق، العدد 36، 30 ماي 1921م.
- ، "أسباب الرّقي"، الصّدّيق، العدد 39، 25 جويلية 1921م.
- ، "العلم أساس النهوض وحياة الشّعوب"، النجاح، العدد 127، 28 سبتمبر 1923م.
- ، "على ذكر بجاية، صفحة من تاريخها"، النجاح، العدد 135، 30 نوفمبر 1923م.
- ، "مبدأ فرنسا العدالة والمساواة، ولكن أين العدالة والمساواة؟"، الأخبار، العدد 1363، 7 أوت 1924م.
- ، "شمال إفريقيا وأصول سكانه"، الأهرام، العدد 14746، 14 أوت 1925م.
- ، "من جبال زاوة"، الثبات، العدد 47، 26 جويلية 1935م.
- ، "كيف يكون العالم الديني؟"، الثبات، العدد 49، 23 أوت 1935م.
- ، "كيف يكون العالم الديني؟"، الأمة، العدد 55، 17 ديسمبر 1935م.
- ، "كيف يكون العالم الديني؟"، الأمة، العدد 57، 13 جانفي 1936م.
- ، "كيف يكون العالم الديني؟"، الأمة، العدد 59، 21 جانفي 1936م.

- ، "وَادَعُوا إِلَى سَبِيلِ رَبِّكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"، البصائر، العدد 104، 18 مارس 1938م.
- ، "وَادَعُوا إِلَى سَبِيلِ رَبِّكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"، البصائر، العدد 111، 29 أبريل 1938م.
- ، "اختلط الخائر بالزّباد"، مجلة الإسلام، العدد 34، أكتوبر 1938م. أُعيد نشر المقال بجريدة "الرشاد" الجزائرية، العدد 15، 15 سبتمبر 1938.
- ، "جهل وغرور"، مقال حول موضوع التّربية، ضمن كتاب محمد الصّالح الصّديق، الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي، ص 115 - 123.
- الشّرفاوي، الرّزقي/ البوزيدي، الحسين بن أحمد، النجاح، العدد 219، 30 جويلية 1925م.
- الصّديق، محمد الصّالح، "الأستاذ محمد الرّزقي الشّرفاوي"، الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، العدد 22، أوت - سبتمبر 1974م.
- ، "جوانب من شخصية العلامة الشّيخ محمد الرّزقي الشّرفاوي الأزهري"، الحلقة الأولى، البصائر، العدد 298، 24 - 31 جويلية 2006.
- ، "جوانب من شخصية العلامة الشّيخ محمد الرّزقي الشّرفاوي"، الحلقة الثّانية، البصائر، العدد 299، 31 جويلية - 7 أوت 2006.
- الصّغير، محمد، "احتفال علمي"، البصائر، العدد 121، 08 جويلية 1938م.
- بن عمر، باعزّيز، "إلى الأستاذ محمد الرّزقي الشّرفاوي الأزهري بالزواوة"، الشّهاب، ج9، م 11، ديسمبر 1935م.
- مامي، إسماعيل، "سياحة استطلاعية"، النجاح، العدد 478، 7 أوت 1927م.
- "احتجاج المغاربة في مصر على ما يجري في المغرب الأقصى"، الفتح، العدد 216، 17 ربيع الثّاني 1349هـ.

رابعاً - الشّهادات الشّفوية

- أمقران، محند السّعيد، من طلبة الرّزقي الشّرفاوي، شهادة شفوية، بتاريخ: 2014/02/26م. توفي رحمه الله في شهر أوت 2017م.

- آيت علجت، محمد الطاهر، شهادة شفوية ببيته ببوزريعة، الجزائر العاصمة، بتاريخ: 2018/02/25م.
- إيمون، المولود، من طلبة الرزقي الشرفاوي، شهادة شفوية بقرية آث بويحيى ببني دواله، تيزي وزو، بتاريخ: 2014/01/29م. أيضاً بتاريخ: 2016/10/11م.
- بن عيسى، محمد، من طلبة الرزقي الشرفاوي، مكالمة هاتفية معه بتاريخ: 2014/04/07م.
- الثومي المشدالي، يحيى، من طلبة الشرفاوي، شهادة شفوية ببيته، بمشدالة، بتاريخ: 2014/06/18م.
- رامي، أعمر، شهادة شفوية بمدينة عزازقة، بتاريخ: 2014/01/22م.
- الصديق، محمد الصالح، لقاءات عديدة بيته بالقبة، الجزائر العاصمة، فيما بين 2013 و2018م.
- الصديق، فاطمة، أخت زوجة الشرفاوي، شهادة شفوية في بيت شقيقها الأستاذ محمد الصالح الصديق بتاريخ: 2015/03/29م.
- عاشير، عبد الحميد، إمام متقاعد بزواوية الشرفة، شهادة شفوية بزواوية الشرفة، بتاريخ: 2014/03/09م.
- عبد المجيد بن طاحه، شهادة شفوية، بتاريخ: 2013/08/26م.
- عدنان، محند أمقران، شقيق الشهيد عدنان محند السعيد، شهادة شفوية، بقرية الشرفة، بتاريخ: 2014/03/09م.
- عكريش، حسين، من طلبة الرزقي الشرفاوي، شهادة شفوية، بقرية أقرو، بلدية مقلع، بتاريخ: 2014/04/30م.
- علي، محمد الحسن، نجل الشيخ سعيد اليجري، شهادة شفوية ببيته ببراقى، الجزائر العاصمة، بتاريخ: 2014/11/25م.
- قازو، زهرة، ابنة الشيخ الشرفاوي شهادة شفوية ببيتها العائلي بقرية الشرفة، بتاريخ: 2014/03/29م. أيضاً بتاريخ: 2016/02/23م.
- قازو، علي، نجل الشيخ باعزيز، شهادة شفوية بمدينة عزازقة، بتاريخ: 2014/05/20م.

- قازو، فاطمة، ابنة باعزیز شقیق الشرفاوی، شهادة شفویة ببيتها العائلي بقریة "أقني بورار"، بالأربعاء نایت إیراثن، بتاريخ: 2016/06/08م.
- قازو، محمد عبد الرحمن، نجل الشیخ الشرفاوی، شهادة شفویة فی بيته بالجزائر العاصمة، بتاريخ: 2014/02/26م.
- قاضي، هشام، نجل بشیر قاضي، مكالمة هاتفیة بتاريخ: 2015/03/26م.
- وعلی بلخمسة، محند، شهادة شفویة ببيتها مدینة عزازقة، بتاريخ: 2014/02/12م.
- وعلی، عبد العزیز، شهادة شفویة بمقر المنظمة الوطنیة للمجاهدين، الجزائر العاصمة، بتاريخ: 2015/01/19م.

II - المراجع

أولاً- باللغة العربیة

أ- الكتب

- ابن حجر العسقلاني، محمد، فتح الباري بشرح الإمام البخاري، ج 9، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، 1348هـ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، "بني غبرين". أنظر: كتاب العبر، المجلد السادس، القسم الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.
- أبو العباس، أحمد بن محمد المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج 1، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة، د-ت.
- أبو خليل، شوقي، الإسلام وحركات التحرر العربية، دار الفكر المعاصر، بيروت - دار الفكر، دمشق، ط 5، 1991.
- أبو غدة، عبد الفتاح، صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 10.
- أحمد ياغي، إسماعيل/ شاكر، محمود، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج 2، دار المريخ، الرياض، 1983.
- إسماعيل، سعيد، دور الأزهر في السياسة المصرية، سلسلة كتاب الهلال، (دار الهلال، مصر، العدد 431، نوفمبر 1986).
- الأشرف، مصطفى، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- الأحمدى الظواهري، فخر الدين، السياسة والأزهر، من مذكرات شيخ الإسلام الظواهري، (دار الشروق، ط 1، 2011).
- أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- أندري جوليان، شارل، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.
- أولمان، سومية، دور الشيخ المجاوي عبد القادر وكتابه "إرشاد المتعلمين" في الصمود الفكري بالجزائر، الديوان الوطني لحقوق المؤلف، الجزائر، د-ت.
- بابا التنبكتي، أحمد، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج 1، دراسة وتحقيق محمد مطبع، مطبعة فضالة، المغرب، 2000.

- بربروس، خير الدين، مذكرات، ترجمة محمد درّاج، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط 1، 2010.
- برفيلي، غي، النخبة الجزائرية الفرانكوفونية 1880-1962، ترجمة محمد الحاج مسعود، دار القصبّة، الجزائر، 2007.
- بقطاش، خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1870، مطبعة دحلب، الجزائر، 1992.
- بلاح، بشير، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830 إلى 1989، ج 1، دار المعرفة، الجزائر، 2006.
- بن زكري، محمد السّعيد، أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، تحقيق وتعليق محمد عبد الحليم بيثي، البصائر الجديدة، الجزائر، 2016.
- بن عاشور، محمد الطّاهر، تفسير التّحرير والتنوير، ج 4، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- بن عسكر، محمد الشّفاونوي، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1977.
- بن علي شغيب، محمد المهدي، أم الحواضر في الماضي والحاضر، تاريخ مدينة قسنطينة، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980.
- بن عمر، باعزيز، من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسيين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، منشورات الحبر، الجزائر، ط 2، 2007.
- بوبكر، عبد الحليم/ بوبكر، عبد السّميع، تحقيق وتعليق، منهج الشّيخ المولود الحافظي في التربية والتعليم من خلال مراسلاته لتلميذه الشّيخ علي بوبكر الزّموري، دار الأمة، الجزائر، ط 1، 2000.
- البوعبدلي، المهدي، الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، جمع وإعداد عبد الرّحمن دويب، عالم المعرفة، الجزائر، 2013.
- ، المهدي، تراجم بعض مشاهير علماء زاوية القبائل الصغرى، ضمن أعماله الكاملة، الجزء الأوّل، القسم الثّاني، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013.

- بوعزيز، يحيى، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج 1، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1995.
- ، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
- ، ثورات الجزائر، ج 1، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ط 2، 1996.
- ، ثورة 1871م (دور عائلي المقراني والحداد)، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.
- ، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- تركي، رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1981.
- الجيلالي، عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج 3، دار الأمة، الجزائر، ط 2010.
- الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، ج 1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991.
- حلّوش، عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010.
- الخضر حسين، محمد، جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، موسوعة الأعمال الكاملة، المجلد التاسع، الكتاب (16)، اعتنى به ابن أخيه المحامي علي الترضا الحسيني، دار النوادر، دمشق، بيروت، الكويت، ط 1، 2010.
- ، محمد، جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، موسوعة الأعمال الكاملة، المجلد 11، الكتاب (20)، دار النوادر، دمشق، بيروت، الكويت، ط 1، 2010.
- ، الرحلات، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، المجلد الحادي عشر، الكتاب (22)، دار النوادر، دمشق، 2010.
- الخطيب، عدنان، الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من مدرسته، معهد البحوث والدراسات العربية، 1971.

- دبوز، محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر من 1921 إلى 1975م، ج 3، عالم المعرفة، الجزائر، ط 1، 2013.
- رافع الطهطاوي، رفاة، مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، 2012.
- رجب البيومي، محمد، النهضة الإسلامية في سِير أعلامها المعاصرين، ج 2، دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت، ط 1، 1995.
- روبير آجرون، شارل، الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871 - 1919، ترجمة م. حاج مسعود، أ. بكلي، ج 1، دار الرائد، الجزائر، ط 2007.
- ، المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، ترجمة وتقديم محمد العربي ولد خليفة، منشورات ثالة، الجزائر، 2002.
- ، تاريخ الجزائر المعاصر من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954، ج 2، ترجمة جمال فاطمي وآخرون، دار الأمة، الجزائر، ط 1، 2008.
- رودستين، تيودور، تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، ترجمة علي أحمد شكري، مصر، 1927.
- الزريبي، المولود بن محمد، بدور الأفهام أو شמוש الأحلام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام، المطبعة التونسية، تونس، 1334 هـ.
- زكريا محي الدين، حازم، الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، سلسلة علماء مفكرون معاصرون (3)، دار القلم، دمشق، ط 1، 2001.
- زكي، محمد مجاهد، الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجري، دار الغرب الإسلامي، ج 2، ط 2، بيروت، 1994.
- الزواوي، أبو يعلى، تاريخ الزواوة، مراجعة وتعليق سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ط 1، 2005.
- ساحي، أحمد، أعلام من زواوة، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، 2015.
- ، الزواوة من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر 1512 - 1767م، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، 2015.

- السّروجي، محمد محمود، دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، (الإسكندرية، 1998).
- سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول بقسميه الأول والثاني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000.
- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الأجزاء 3، 4، 6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998.
- ، خارج السّرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005.
- سعيدوني، ناصر الدين، الجزائر منطلقات وآفاق، عالم المعرفة، الجزائر، ط 2، 2009.
- ، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، (الأعمال الكاملة)، دار البصائر، الجزائر، 2013.
- ، في الهوية والانتماء الحضاري، دار البصائر الجديدة، الجزائر، 2013.
- الشّقراني الراشدي، أحمد عبد الرّحمن، القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار البصائر، ط 2، الجزائر، 2013.
- شوفالييه، كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.
- الشّيخ، بوعمران وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، د.ت.
- الصّديق، محمد الصّالح، أعلام من المغرب العربي، ج 2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2008.
- ، أعلام من المغرب العربي، ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط 2، 2008.
- الصّعيدي، عبد المتعال، تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ط 1، د- ت.
- عبد الرحمن دويب، الشّيخ عبد القادر المجاوي التلمساني، حياته وأعماله، المجلد الأول، دار زمورة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

- عبد الرحيم عبد الرحمن، عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798)، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - تونس، 1982.
- عبد الرزاق إبراهيم، عبد الله/ الجمل، شوقي، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، (دار الثقافة، القاهرة، 1997).
- عبد العزيز عمر، عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.
- عبد القادر، نور الدين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد العثماني، دار الحضارة، الجزائر، د-ت.
- عبد المنعم خفاجي، محمد، الأزهر يحكي قصته في ألف عام، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2002.
- علي، محمد الحسن/ علي، عبد الرحمن، الشيخ السعيد الجبري، نصف قرن عن رحيله، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، د-ت.
- علي، محمد الحسن، أعلام بلادي، ج 1، الجزائر، كتاب مرقون.
- الغبريني، أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في بجاية في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق عادل نويهض، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1979.
- غنيمي الشيخ، رأفت، التاريخ المعاصر للأمة العربية الإسلامية 1416-1992، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1992.
- غيلسبي، جوان، الجزائر الثائرة، ترجمة خيري حمادي، منشورات دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1961.
- فراد، محمد أرزقي، أزفون تاريخ وثقافة، دار الأمل، (تيزي وزو - الجزائر)، ط 2، 2007.
- ، إضاءات في تاريخ الجزائر، معالم وأعلام، دار الأمة، الجزائر، 2014.

- ، المجتمع الزواوي في ظل العرف والثقافة الإسلامية 1749 - 1949م، منشورات الحبر، الجزائر، ط 1، 2015.
- ، بلاد زواوة من خلال نصوص الحركة الإصلاحية، دار الأمة، الجزائر، 2016.
- فضلاء، محمد الحسن، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر في الجزائر، ج 2، دار الأمة، الجزائر، ط 1، 1999.
- ، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 1، 2، (دار هومة، ط 2000).
- قاضي، سعيد، الجرجرية في ترتيل القرآن الكريم، دار زمورة، الجزائر، ط 1، 2013.
- قنان، جمال، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار 1830 - 1944م، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، مطبعة دار هومة، الجزائر، د - ت.
- كامل الفقي، محمد، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، مكتبة النهضة، مصر، ط 2، 1965.
- رابح لوني، دعاة البربرية في مواجهة السلطة، دار المعرفة، الجزائر، د.ت.
- لعربي، محند سعيد، عزازقة عبر التاريخ، ج 1، دار الأمل، تيزي وزو - الجزائر، 2017.
- المجاوي، عبد القادر/ بريهمات، عمر، المرصاد في مسائل الاقتصاد، تحقيق: عبد الرزاق بلعباس، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز جدة، د.ت.
- محمد عوف، أحمد، الأزهر في ألف عام، (سلسلة البحوث الإسلامية، مطبعة الأزهر، القاهرة، 1970).
- المدني، أحمد توفيق، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- مراد، علي، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1925 إلى 1940، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007.
- ناصر، محمد، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 3، 2007.
- نسيب، محمد، صرخات الحق المظلوم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د.ت.

- النعماني، مكي، الخلافة بين الأصالة والحداثة، ج 2، منشورات دحلب، الجزائر، د.ت.
- نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط 2، 1980.
- هلال، عمار، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1871-1918، دار هومة، الجزائر، 2007.
- الورثيلائي، الحسين، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثيلائية)، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2008.
- الوفرائي المراكشي، محمد الصّغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة بوردين، أنجي، 1888.
- الولي، طه، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1988.
- ب- الرسائل والمذكرات الجامعية
- إسحق السيّد حسن، عبد الرحمن، رواق المغاربة في الأزهر الشريف في الفترة من (1214 - 1349هـ / 1800 - 1930م)، دراسة تاريخية وثائقية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأزهر، قسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية بأسبوط، 2017.
- جويونج، سون، الخلافة الإسلامية من 1876 - 1924م، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، قسم التاريخ والحضارة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، 1984.
- سعيدي، مزيان، السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها 1871 - 1914م، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2009.
- سي فضيل، منى، الزوايا بين الماضي والحاضر، دراسة سوسولوجية مونوغرافية لزوايا الشرفاء سيدي بهلول وزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي بمنطقة القبائل، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2004 - 2005.
- مايمون، محمد، زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي ودورها التعليمي وتراثها الفقهي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2000 - 2001.

ج - المقالات

- بلعالم، محمد الصّغير، "علماء من بني ورتيلان، الشّيخ المولود الحافظي نموذجاً"، رسالة المسجد، مجلة تصدرها وزارة الشّؤون الدينية والأوقاف بالجزائر، العدد 05، ماي 2008.
- بن باديس، عبد الحميد، "العلامة الأستاذ الشّيخ محمد بخيت المطيعي رحمه الله"، الشّهاب، ج 11، م 11، قسنطينة، فيفري 1936م
- بن عمر، باعزيز، "شعور طلبة الزوايا بالزواوة نحو جمعية العلماء"، الشّهاب، ج 8، م 7، أوت 1931م.
- البوعبدلي، المهدي، "تراجم بعض مشاهير زواوة القبائل الصّغرى والكبرى"، الأصالّة، العدد 14-15، ماي - جوان 1973.
- التميمي، عبد الجليل، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأوّل سنة 1519م"، المجلة التاريخية المغربية، (تونس)، العدد 6، جويلية 1976،
- ، "وثائق حول الطلبة المغاربة بجامعة الأزهر بالقاهرة خلال سنتي 1916-1918"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 17-72، ماي 1993.
- بن حاله، عبد الحميد، "التعليم بالزوايا"، البصائر، عدد 145، 23 ديسمبر 1938م.
- جمادي مسعود، "الشّيخ الرّزقي الشّرفاوي مفتياً"، الإحياء، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة - الجزائر، العدد 15، 1434هـ - 2012م.
- الرّافعي، مصطفى صادق، "كلمة وكلمة"، الرسالة، العدد 105، 8 يوليو 1935.
- ساحي، أحمد، "أحمد بن القاضي الغبريني، من أعلام الجزائر"، الشّعب، (الجزائر)، عدد 8321، 3-4 أوت 1990.
- ، "أشلام، القرية الآمن أهلها"، الشّعب، الجزائر، عدد 8307، 1990/07/18.
- ، "شرفا - بهلول بن عاصم الغبريني"، الشّعب، الجزائر، الحلقة الأولى، العدد 10559، 1994/12/10.
- ، "شرفا - بهلول بن عاصم الغبريني"، الشّعب، الجزائر، الحلقة الثانية، العدد 10565، 1994/12/17.

- رمضان، محمد الصّالح، "تاريخ وتطوّر الحركة الكشفية بالجزائر"، الثقافة، الجزائر، العدد 70، 1982.

- الفتى الزواوي، "الزوايا بالزواوة"، الشّهاب، ج 1، م 9، جانفي 1933م.

- ، "الزوايا بالزواوة، وما هي الأرقى منها؟"، الشّهاب، ج 11، م 7، نوفمبر 1931م.

- فراد، محمد أرزقي، "المآثر العلمية لعائلة محمد وعمارة الوزلاحي"، الشّروق اليومي، الحلقة الثانية، العدد 2426، 208/10/11.

- الصّديق، محمد الصّالح، "ماذا تعرف عن زاوية الشّيخ عبد الرّحمن اليلولي؟"، العصر، العدد 13، 9 جويلية 1981.

- طنطاوي، محمد، "جامعة عمرها ألف عام"، مجلة العربي، العدد 70، يناير 1973م.

- العياشي، علي، "الرائد الطّيب صديقي"، مجلة أوّل نوفمبر، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر، العددان 108 - 109، 1989.

- علي، محمد الحسن، "أملاك زاوية سيدي عبد الرحمن الوقفية"، الشّعب، العدد 11016، 03 جوان 1996م.

- مامي، إسماعيل، "تاريخ إنشاء الأزهر ونظامه"، النجاح، العدد 480، 12 أوت 1927.

- محمد عبد المعطي، حسام، "رواق المغاربة في الجامع الأزهر في العصر العثماني"، مجلة الروزنامة، الحولية المصرية للوثائق، العدد الثالث 2005، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006.

- "التعليم الإسلامي في مصر"، نور الإسلام، مجلة تصدرها مشيخة الأزهر، الجزء الأوّل، المجلد الرابع، 1352م، ص 57.

- "موت عالم ثلثة في الإسلام"، البلاغ، الجزائر، العدد 617، 9 فيفري 1945م.

- "المغفور له الشّيخ محمد بخيت المطيعي"، مجلة الإسلام، العدد الصّادر بتاريخ: 1935/10/25م.

- "منشور جمعية تضامن العلماء"، الأخبار، القاهرة، العدد 1240، 12 مارس 1924م.

- الأهرام، العدد 14738، 5 أوت 1925م.

- الزهراء، القاهرة، الجزء الثالث، المجلد الأوّل، 15 ربيع الأوّل 1343هـ / 1924.

- الزهراء، الجزء الرابع، المجلد الثاني، 15 ربيع الثاني 1343هـ.
- النجاح، قسنطينة - الجزائر، العدد 229، 8 سبتمبر 1925م/ العدد 2309،
1939/07/20م.

- السياسة، القاهرة، العدد الصادر بتاريخ: 16 جويلية 1924م.
- الوزير، تونس، العدد 175، 23 سبتمبر 1924م.
- الأخبار، القاهرة، العدد 1342، 12 جويلية 1924م.
- الإسلام، القاهرة، العدد 24، أوت 1938م.

د- الملتقيات

- أعمال الملتقى الوطني حول الشيخ الرزقي الشرفاوي، تنظيم الجمعية الدينية لزاوية
الشرفة، يومي 27 - 28 جوان 2012م، بزاوية الشرفة، طبعته دار الأمل، تيزي وزو،
الجزائر، د- ت.

- الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، 10 - 22 يوليو 1973م،
المجلد الخامس، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر.
ه- الموسوعات

- حمدي زقزوق، محمود، إشراف وتقديم، موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، سلسلة
الموسوعات الإسلامية المتخصصة، (3)، مطابع الأهرام، القاهرة، 2004م.
- الموسوعة العربية العالمية، (1)، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط 2،
الرياض، 1999.

و- المواقع الإلكترونية

- موقع دار الإفتاء المصرية، تراجم وسير، المفتون:

(<http://www.dar-alifta.org>)

- موقع ذاكرة الأزهر: (<http://www.alazharmemory.eg>)

- موقع بيت الإسلام، أعلام وشخصيات: (<https://islamhouse.com>)

- موقع ضفاف: (<http://www.dhifaaf.com>)

- موقع: (http://fr.wikipedia.org/wiki/Ouali_Benna)

ثانياً – باللغة الأجنبية

أ – الكتب:

- *Ait Ahmed, Hocine, Mémoire d'un combattant, l'esprit d'indépendance 1942- 1952, édition Bouchène, Alger, 1990.*
- *ARON, Robert et autres, Les Origines de la Guerre d'Algérie, Fayard, Paris, 1962.*
- *Bitam Boukhalfa, Fadhma N'summer, une autre lecture du combat de l'illustre fille de Werdja, éditions Aurassi, 2000.*
- *Boulifa, Said, Le Djurdjura à travers l'histoire, depuis l'Antiquité jusqu'à 1930, organisation et indépendance des Zouaoua (Grande Kabylie) Alger, 1925.*
- *Charles Féraud, Histoire des villes de la province de Constantine, Gigeli, paris, 1870.*
- *Cherifi, Madjd, les Racines d'un Kabyle de Cherfa Nath Ghobri depuis le XII^e siècle, Alger – Livre Editions, Alger, 2013.*
- *Daumas et Fabar, La Grande Kabylie études Historiques, Paris, 1847.*
- *De Grammont, histoire d'Alger sous la domination turque (1515- 1830), paris, 1887.*
- *Direche-Slimani Karima, Chrétiens de Kabylie 1873-1954, Une action missionnaire dans l'Algérie coloniale, ENAG, Alger, 2010.*
- *Emile Violard, Le banditisme en Kabylie, paris, 1895.*
- *Hanoteau. A, Letournoux. A, la Kabylie et les coutumes kabyles, T2, Paris, s.d,*
- *—————, la Kabylie et les coutumes kabyles, T3, Paris, s.d.*
- *Joseph Nil Robin, Notes Historiques sur la grande Kabylie de 1830 à 1838, éditions Bouchène, Alger, 1999.*
- *JULIEN, Charles André, Histoire de l'Algérie contemporaine, Casbah éditions, Alger, 2005.*
- *Lahmek, Hesnay, Lettres Algériennes, paris, 1931.*
- *Liorel, Jules, Kabylie du Jurjura, Paris, 1892*
- *Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Alger, 1891.*

- Mahé, Alain, *Histoire de la Grande Kabylie XIX^e - XX^e siècles*, Editions Bouchène, 2001.

- Montagnon, Pierre, *La conquête de l'Algérie (1830 –1871)*, Paris, 1980.

- Robert AGERON, Charles, *Histoire de l'Algérie contemporaine, que sais – je?* (N° 400), 7^{eme} éd, Paris, 1980.

- *Histoire de L'Algérie Contemporaine, T2, 1^{ère} éd, Paris, 1979.*

- Tazrrout, Mohand, *Histoire politique de l'Afrique du nord*, Parais, 1961.

ب – المقالات:

- Plarier, Antonin, *Banditisme et dépossession foncière en Algérie In: Propriété et société en Algérie contemporaine, Quelles approches? [En ligne], Aix-en-Provence: Institut de recherches et d'études sur le monde arabe et musulman, 2017, site Internet: [http:// books.openedition.org/iremam](http://books.openedition.org/iremam).*

الفهارس العامة

فهرس الملاحق

فهرس الأعلام

فهرس الشعوب والقبائل والهيئات

فهرس الأماكن والبلدان

ملاحظة: هناك أسماء أعلام وأماكن تم استبعادها من الفهرسة لكثرة تكرارها، مثل: الرزقي الشرفاوي، محمد الصالح الصديق، جامع الأزهر، جامع الزيتونة، الجزائر، مصر، القاهرة، فرنسا، جرجرة، زواوة، منطقة القبائل، تيزي وزو، سيباو الأعلى، عزازقة، إيلولة، الأربعاء ناث إيراثن، بجاية.. الخ.

فهرس الملاحق

1- الوثائق

- الملحق رقم (1): شهادة ميلاد الشيخ الرزقي الشرفاوي..... 300
- الملحق رقم (2) رسالة بعث بها الشرفاوي وهو طالب بالأزهر لأحد أصدقائه بـ "عزازقة"، 1910م..... 301
- الملحق رقم (3): توقيعات طلبة رواق المغاربة بالأزهر الشريف في إحدى شكاويهم الموجهة إلى القنصل العام لفرنسا بالقاهرة بتاريخ: 1911/01/06م، ويظهر فيها توقيع "محمد رزقي الشرفاوي"..... 302
- الملحق رقم (4): شكوى موجهة من طلبة رواق المغاربة بالأزهر الشريف إلى بعض الجهات المسؤولة في السلطة المصرية بتاريخ: 1911/01/13م، اشترك في التوقيع عليها "محمد رزقي الشرفاوي"..... 303
- الملحق رقم (5): قائمة بأسماء طلبة رواق المغاربة بالأزهر الشريف سنة 1911م، ويظهر "محمد رزق الشريف" (الشرفاوي) ضمن طلبة الرتبة الثانية متبوعا بالمولود بن صديق (الحافظي)..... 304
- الملحق رقم (6): صفحتان من جواز السفر الذي عاد به الشيخ الشرفاوي من مصر..... 305
- الملحق رقم (7): نبذة عن حياة الشرفاوي بخط يده..... 306
- الملحق رقم (8): تقرير فرنسي حول الشيخ الشرفاوي بعد توليه التدريس في زاوية عبد الرحمن اليلولي..... 307
- الملحق رقم (9): جزء من تقرير فرنسي حول سير التعليم في زوايا بلدية سيباو الأعلى المختلطة 1942م..... 309
- الملحق رقم (10): جزء من تقرير فرنسي (1940م) يتضمن معلومات عن طلبة زاوية عبد الرحمن اليلولي والرقابة السرية المفروضة على شيخها "قازو أرزقي" (الشرفاوي)..... 310
- الملحق رقم (11): تقرير فرنسي حول الاحتقال الذي احتضنته زاوية عبد الرحمن اليلولي في جوان 1938م..... 311
- الملحق رقم (12): الصفحة الأولى من مخطوط "الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزاوية" للشرفاوي..... 312
- الملحق رقم (13): الصفحة الأولى من مخطوط "الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية" للشرفاوي..... 313

2- الصور

- الملحق رقم (14): الشيخ الرزقي الشرفاوي في مصر والجزائر..... 315
- الملحق رقم (15): الشرفاوي مع بعض أصدقائه..... 316
- الملحق رقم (16): أبرز الشيوخ الذين درس عليهم الشرفاوي وتأثر بهم في الجزائر ومصر..... 317
- الملحق رقم (17): الاحتقال الذي احتضنته زاوية عبد الرحمن اليلولي جوان 1938م..... 318
- الملحق رقم (18): بيت وقبر الشيخ الشرفاوي..... 319
- الملحق رقم (19): بعض طلبة الشرفاوي..... 320
- الملحق رقم (20): نماذج من مقالات الشيخ الشرفاوي..... 321

فهرس الأعلام

- إبراهيم بن أبي اليقظان،: 152، 260.
 إبراهيم بيوض: 38.
 ابن أعراب اليرائتي: 286.
 ابن حزم الأندلسي: 241، 270، 271.
 ابن خراط: 66.
 ابن زيدون: 225.
 ابن عسكر: 41.
 ابن محمد الحملاوي: 103، 108.
 أبو إسحاق إبراهيم أطفيش: 72، 117.
 أبو القاسم البوجليلي: 65، 159، 178، 179، 183، 236.
 أبو القاسم التونسي: 48.
 أبو القاسم الحفناوي: 68.
 أبو عبد الله محمد الحفصي: 42.
 أبو محمد الهبطي: 41.
 أبو يعلى الزواوي: 10، 55، 99، 115، 130، 133، 134، 135، 138، 145، 179، 266، 276، 286.
 أحمد التونسي: 48.
 أحمد الطيب بن سالم: 17.
 أحمد المقنيعاوي: 123، 166، 167، 168، 189، 252، 233.
 أحمد الورجي: 189، 211، 212.
 أحمد أوبلقاسم: 142.
 أحمد باي: 15.
 أحمد بن إدريس البجائي: 62، 196، 256.
 أحمد بن القاضي: 41، 42، 43، 44، 45، 46، 47.
- أحمد بن زكري: 130، 133، 134، 136، 145، 15، 164، 182، 194، 196، 242، 268، 318.
 أحمد توفيق المدني: 38، 126، 127، 128، 138.
 أحمد حسين: 189، 212، 217.
 أحمد داوي: 123، 158، 159، 160، 164، 169، 170، 171، 172، 173.
 أحمد شوقي: 83.
 أحمد عرابي: 81.
 أحمد قادري: 10، 12، 210، 211، 214، 267.
 أحمد لطفي السيد: 79.
 أحمد مصالي الحاج: 38.
 أحمد وعلي بوبكر: 214.
 الإخوة عبدون: 20.
 أرزقي المقنيعاوي: 144، 154، 161، 163.
 أرزقي أولباشير: 20.
 أرزقي بن مومن: 214.
 أرزقي صاري (بوكفوس): 56.
 أرزقي عيمان: 150.
 أزيكيو (شاعر): 26.
 إسماعيل بن علي الجيجلي: 114، 120.
 إسماعيل زكري: 214.
 إسماعيل مامي: 10، 121.
 إسماعيل، الخديوي: 85.
 عمر رامي: 149، 150.
 إغمراسن: 128.
 الأمير خالد بن الهاشمي: 38، 125.
 الأمير عبد القادر: 15، 16، 17، 18.
 الأمير محمد عبد الكريم الخطابي: 260.

- أوغسطين: 127، 128.
- إيميل كومب: 35.
- باعيز بن عمر: 10، 130، 180، 184، 185، 266، 276.
- بدر الدين المارديني: 115، 251.
- بريمولت: 31.
- بريمون (الكولونيل): 98.
- برييو: 98.
- البشير (شقيق الشرفاوي): 58.
- البشير الإبراهيمي: 38، 126، 136، 145.
- بشير قازو (قاضي بشير): 49، 56، 231.
- بلقاسم إباعيزن: 127.
- بلقاسم بلعقون: 214.
- بوشوشة: 16.
- بوعمامة: 16.
- توفيق، الخديوي: 86.
- تولستوي: 221.
- تيرمان: 26.
- جمال الدين الأفغاني: 68، 81، 82، 83، 265.
- الجنيرال بيجو: 17، 31.
- جوستاف لوبون: 221.
- جول فيري: 35.
- جوهر الصقلي: 84.
- الحاج أمقران: 133.
- الحاج عمر: 18، 19.
- الحاج لونيس نايت علي عمر: 31.
- الحاج محمد السعيد آث أمقران: 133.
- الحاج محمد السعيد إحقافن: 135.
- الحاج محمد العنقا: 145، 242.
- الحاج محند السعيد أمقران: 216.
- الحاج مسعود: 144.
- حافظ إبراهيم: 83.
- الحافظ بن حجر: 163.
- الحسن الهادي (أولهادي): 227.
- حسن خير الدين: 46.
- حسن عليي: 267.
- حسين آيت أحمد: 10، 56، 146، 147، 148، 267.
- الحسين بن أحمد البوزيدي: 120، 262، 262.
- حسين عكريش: 216.
- حسين لحمق: 128.
- حمدان لونيبي: 72، 105، 125.
- حمزة بوكوشة: 130.
- حند محلال: 150.
- خير الدين بربروس: 42، 44، 45، 46.
- الداي حسين: 16.
- دوفرانس: 98.
- دوقيدون (الأميرال): 32.
- دوماس: 17، 27.
- دييغو دي فيرا: 43.
- رابية العربي (قائد): 142، 153، 234.
- راندون (الماريشال): 18، 19.
- رشدي صالح ملحس: 260.
- رفاعة الطهطاوي: 85.
- روبان (الكولونيل): 16.
- زانزا: 246.
- زيدان جورجى: 83.
- سالم طشطاش: 214.
- سعد زغلول: 81.
- السعدي بن محمد الخنشلي: 114، 120.
- السعيد أبهلول فضلاء: 140، 142، 243.
- سعيد الباني: 83.

- السَّعِيدُ الْجَرِي: 38، 70، 129، 140، 164، 179،
183، 194، 228، 229، 232، 237، 286.
- سعيد أوبشير: 144، 154، 161، 163.
- سعيد بن علي الموجي: 108.
- السُّلْطَانُ حَسِينُ كَامِل: 80.
- سليم الأول (السلطان): 43.
- سليم الجزائري: 83.
- سي أحمد أومالك: 55.
- سي الصادق بن الحاج: 16.
- سي الطَّاهِر: 18.
- سيدي أحمد بن عاصم (بهلول): 53، 57.
- سيدي عمر والحاج: 64.
- سيدي منصور الجنادي: 159.
- سيدي موسى الوغليسي: 140.
- سيديو: 221.
- سیراج سي بلقاسم (تاخوخت): 136، 173.
- شاربونو: 36.
- شارفيريّات: 33، 34.
- الشَّافِعِي: 94، 209، 245.
- شاوش محند قاسي: 150.
- الشَّرِيفُ الْإِفْلَيْسِي: 142، 145، 179، 183، 236،
237.
- الشَّرِيفُ بُوْبِعْلَة: 15، 18.
- الشَّرِيفُ حَسِينُ بِنِ عَلِي: 120.
- شوبنهور: 221.
- الشُّوكَانِي: 265.
- الشَّيْخُ بُوْحَمِيل: 55.
- الشَّيْخُ عَلِيش: 66.
- الصَّادِقُ بِنِ الْعَرَبِي الْبَسْكَرِي: 50، 65.
- الصَّادِقُ بِنِ زَكْرِي: 182، 183.
- الصَّادِقُ مَشَوَاط: 240، 248.
- صالح أفندي مبروك: 117.
- صالح بن مهنا: 125.
- صالح صالح: 56.
- صديق واعراب: 18.
- طارق بن زياد: 128.
- الطَّاهِرُ أَخْرِيْب: 214.
- الطَّاهِرُ الْجَزَائِرِي: 83، 99.
- الطَّاهِرُ أُوْهَنْدُو: 65.
- الطَّاهِرُ بِلْقَاسِم (شعرا): 56، 246.
- الطَّاهِرُ عِيْمَان: 150.
- الطَّاهِرُ مُحَمَّدُ التُّونِسِي: 117.
- طه حسين: 220.
- الطَّيِّبُ الْإِفْلَيْسِي: 237.
- الطَّيِّبُ الْعَقْبِي: 126، 129، 134، 135، 136،
145، 152، 155، 266.
- الطَّيِّبُ شَنْتِيرِي: 183، 194.
- الطَّيِّبُ صَدِيقِي: 213.
- عباس الثَّانِي، الْخَدِيْوِي: 78، 80، 86.
- عباس محمود العقاد: 220.
- عبد الحميد بن باديس: 38، 105، 126، 129،
134، 135، 137، 138، 139، 145، 173،
180، 184، 205، 206، 207، 243، 247،
265، 296.
- عبد الحميد بن حالة: 189، 192، 193، 197، 207،
208.
- عبد الرَّاْزِق، عَلِي: 106.
- عبد الرَّحْمَنِ الثَّعَالِبِي: 52، 68.
- عبد الرَّحْمَنِ الْكُوَاكِبِي: 265.
- عبد الرَّحْمَنِ الْوِغْلَيْسِي: 62.
- عبد الرَّحْمَنِ الْيَلُولِي: 178.
- عبد الرَّحْمَنِ بِنِ خَلْدُون: 41، 47، 62، 118، 196.

- عبد السلام العبادي: 117.
- عبد العزيز بوتفليقة: 216.
- عبد العزيز قاسم: 117.
- عبد العزيز وعلي: 213، 211.
- عبد القادر المجاوي: 68، 69، 70، 71، 73، 74، 92، 125، 317.
- عبد القادر الونشريسي: 120.
- عبد القادر مولاي: 11.
- عبد الكافي الكتاني: 189.
- عبد الله الرُّجيبِي: 90.
- عبد الله عبد الكافي: 110، 117.
- عبد المؤمن بن علي: 128.
- عبد الوهاب المحامي: 117.
- العربي الأَخْدَاشِي: 66.
- العربي بن عيسى (القمقوم): 189، 192، 193، 197، 205، 206، 208، 217، 235، 247، 288.
- العربي سعدوني: 208، 209، 217.
- العربيالتبسي: 38.
- عروج: 41، 42، 43، 44.
- عقبة بن نافع: 128.
- العقيد عميروش: 211، 240.
- علي الحمدي: 248.
- علي الصدقاوي: 194.
- علي العيمش: 147.
- علي أوقازو (علي عزوق): 49، 57، 59.
- علي أولخيار: 129، 179.
- علي بتشين: 46.
- علي بوكاسري: 150.
- علي صالح الفزاني: 90، 97.
- علي علج: 46.
- علي يوسف: 79.
- عيسى قنور: 214.
- عيسى مسعودي: 208.
- الغبريني، أبو العباس أحمد: 47، 48، 256.
- الغبريني، أبو القاسم أحمد: 52.
- الغبريني، أبو سعيد أحمد: 52.
- الغبريني، أبو محمد بن يوسف بن جماعة: 52.
- الغبريني، أبو مهدي عيسى بن أحمد: 52.
- الغبريني، البجائي، عبد الرحمن بن علي: 52.
- فابار: 27.
- فارس صروف: 83.
- فاطمة آيت صديق: 239.
- فرحات عباس: 38.
- قادر رومان: 150.
- قازو باعزيز: 58، 59، 131، 133، 139، 144، 243.
- قازو زهرة: 239.
- قازو محمد عبد الرحمن: 49، 239.
- قيتباي: 89، 90.
- كروزات: 31، 32.
- الكوموندون قاضي: 97، 98، 101.
- لافيجري (الكاردينال): 28، 32.
- لالا فاطمة نسومر: 15، 18، 19، 57.
- لالماند (الجنرال): 20.
- لكحل الأفريحاوي: 189، 214.
- لوتورنو: 181.
- اللورد كرومر: 78.
- لوناس رومان: 150.
- لوناس محالة: 20.
- مارتان (الكولونيل): 31.
- ماسينيسا: 128.

- مبارك الملي: 38، 126، 243.
مجاهد توفيق الجندي: 10.
محب الدين الخطيب: 83، 118.
محمد أرزقي فراد: 10.
محمد عزورن (بريروش): 237.
محمد الأحمدى الظواهري: 88.
محمد الإفليسي: 229، 232.
محمد البشير آيت صديق: 164، 194، 198، 22،
231، 236، 237، 239، 240.
محمد التاجوري: 90، 98.
محمد التهامي نصر: 117.
محمد الخضر حسين: 71، 72، 116، 117، 118.
محمد السعيد البهلولي: 178.
محمد السعيد بن زكري: 68، 125، 130، 134،
178، 179، 276، 277، 286.
محمد السعيد بن سعيدان: 56، 213، 266، 285،
317.
محمد السعيد عدنان: 56، 212، 213، 267.
محمد السمالوطي: 103، 107، 317.
محمد الشريف بن الشيخ: 248.
محمد الشريف بن ميرة: 214.
محمد الصالح الصديق: ترجمة حياته، ودراسته عن
الشيخ الشرفاوي: 198-203.
محمد الصالح بن الشيخ: 214.
محمد الصديق آيت صديق: 213.
محمد الصغير التومي المشدالي: 94.
محمد الصغير فرج: 130، 266.
محمد الطاهر آيت علجت: 12، 262.
محمد الطاهر آيت عيسى: 164، 237، 238.
محمد الطاهر بن عاشور: 162، 189.
محمد الطيب البنزرتي: 260.
محمد الطيب وعامرة: 134، 136، 137، 185،
194، 214، 318.
محمد العباس المهدي: 85.
محمد العربي السوفي: 94، 98، 110، 120.
محمد العيد آل خليفة: 38، 266.
محمد القاضي الصدوقي: 142، 194، 236.
محمد المقراني: 15، 19، 60، 237.
محمد أمزيان بن الحاج: 16.
محمد أمزيان بن الحداد: 15، 19، 26، 60، 66،
128، 134، 237.
محمد أمين الشنقيطي: 108.
محمد أوبلقاسم شريفى: 56.
محمد أوعنتر الحرزوني: 182.
محمد بخيت المطيعي: 103، 104، 106، 107،
110، 317.
محمد بلوزداد: 147.
محمد بن عيسى: 217.
محمد بن مصطفى بن الخوجة: 68.
محمد بن يوسف أطفيش: 117، 260.
محمد حسنين مخلوف العدوي: 108.
محمد ديلمي: 214.
محمد شقرون: 117.
محمد عبده: 68، 74، 81، 83، 86، 103، 106،
125، 265.
محمد علي باشا: 82، 85.
محمد فراح المنياوي: 119.
محمد فضيل الإيراتي: 129، 244.
محمد كرد علي: 83.
محمد مالك التقاوي: 179.
محمد نسيب: 201، 209.
محمد وعامرة الوزلاحي: 65، 134.

- محمود فتح الله: 166.
- محند السعيد (آث أحمد): 65.
- محند الشريف داوي: 159.
- محند المختار الينيوي: 65.
- محند وعلي: 58.
- مسكوراوي: 35.
- المشدالي، أبو الفضل محمد: 256.
- المشدالي، أبو القاسم: 256.
- المشدالي، محمد الصغير: 215،
- المشدالي، محمد أمزيان: 226، 225.
- مصطفى صادق الرافي: 287، 220.
- مصطفى كامل: 79.
- مصطفى كمال أتاتورك: 120.
- مفدي زكريا: 38، 19.
- مقران يسلي: 10.
- مكي نعماني: 10، 12، 145، 189، 192، 203،
- 204، 205، 208، 267، 233، 235، 288.
- الملك فؤاد: 120.
- المهدي ابن تومرت: 128.
- المهدي البوعبلي: 234.
- المهدي السكلاوي: 26، 286.
- مُوغلي (سائق): 170.
- المولود الحافظي: 38، 94، 98، 105، 114، 120،
- 121، 126، 129، 141، 183، 184، 185،
- 194، 214، 215، 248، 262.
- المولود الزريبي: 83، 94، 105، 259.
- مولود إيون: 12، 215، 320.
- ميراننت: 151.
- ناصر بن شهرة: 16.
- الناصر بن علناس: 128.
- نور الدين أمقران: 214.
- نيتشه: 221.
- هانوتو (الجنيرال): 31، 34، 181.
- وعلي بلخامسة: 37.
- وعلي بنّاي: 147.
- يحيى التومي المشدالي: 215، 320.
- يحيى الزهوني: 62.
- يحيى العيدلي: 53.
- يحيى بن حمود: 66.
- يحيى بن خلدون: 62.
- يحيى بن معطي (الزواوي): 196، 256.
- يعقوب صروف: 83.
- يمينية (شقيقة الشرفاوي): 58، 59.
- يوسف الدجوي: 103، 106، 107، 110، 307.
- يوسف بن تاشفين: 128.
- يوغورطة: 128.

فهرس الأماكن والبلدان

- إيسكرين: 65، 130، 182، 237.
أببزار: 194، 213، 237.
آث بترون: 182.
آث بوعضة: 52.
آث بوحيى: 215.
آث جناد: 158، 159.
آث زيكي: 214.
آث غبيري: 41، 51، 53، 54، 133، 153، 256، 286.
آث واسيف: 286.
آث ورثيلان: 66، 207، 214.
آث يجر: 52، 64، 67، 129.
أحميل: 52.
إخردوشن: 178.
أزفون (بورقيدون): 21، 24، 99، 158.
الإسكندرية: 92، 134.
أسيوط: 103.
إشرعيون: 147.
أشلام: 46، 52، 173.
إعطافن: 205.
إعكورن: 24، 52، 213.
أغبان: 214.
أغريب: 182.
إغزر أمقران: 24.
إغيل قيقن: 37.
إغيل نذكري: 99.
إفيغة: 52، 136.
أقبو: 24، 134، 134، 142، 146، 1789، 182، 183، 198، 227، 228، 248.
أقرو: 216.
آل العباس (آل المقراني): 46.
الإلزاس واللورين: 24.
الأوراس: 16.
أورير ناث اسعد: 52.
أورير: 46، 52.
أوزلاقن: 134.
إيبوزين: 134.
آيت اسعد: 163.
آيت إسماعيل: 32.
آيت الأربعاء: 32.
آيت إيلتن: 19.
آيت بودرار: 18.
آيت داود: 205.
آيت زيكي: 52، 153.
آيت علي أومحنند: 63، 179.
آيت عيسى: 32.
آيت فراح: 31.
آيت منغلات: 18، 32، 256، 286.
آيت يتوراغ: 19.
آيت يحيى: 18.

- أيت يوسف: 19. تلمسان: 45، 45، 71.
- باتنة: 48. تمليلين: 236، 237.
- برج بوعرييج: 182، 198، 208، 210، 214. تميزار: 158، 159.
- برج منايل: 18، 198. تَبْذَار: 140، 228.
- بطيوة: 234. توريرت عبد الله: 32.
- بغلية: 24. تيزي راشد: 18، 35، 147.
- بني حافظ: 94، 129. تيغريوت: 24، 198، 213، 236.
- بني حالة: 182. تيفاروت: 37.
- بني دوالة: 215. ثابورث: 52.
- بني كوفي: 209، 214. ثادارث ثمقرانت: 52.
- بني وجليس: 140. ثاقمونت عزوز: 32.
- بني يزقن: 117. ثالا حمو: 52.
- بني يني: 18، 32، 66. ثامغوط: 52.
- بويهير: 53، 240. ثانساوث: 66.
- بوجليل: 183. ثمليحت: 52.
- بوزقان: 64. ثنية بني عائشة: 44.
- بوغني: 209، 214. ثيزرا: 52.
- بوفاريك: 92. ثينقيشت: 53.
- بونوح: 32. جبل ادريعات (المسيلة): 212.
- بوهني: 52. الجلفة: 94.
- البويرة: 203. جمعة صهاريج: 35، 65، 147، 301.
- البيبان: 198، 208. جيجل: 43، 44، 46.
- تابودة: 240. الحجاز: 97، 121.
- تأحمامت: 286. حوض وادي الصومام: 24.
- تادمايت: 18، 24. حوض وادي سيباو: 24، 53.
- تازمالت: 24. دجوة: 106.
- تامازيرت: 35. دلس: 18، 21، 24، 46، 198، 212.
- تامدة: 24، فريحة: 24. دمشق: 26.
- تاويرت ميمون: 35. الدولة العثمانية: 41، 44، 79، 80، 259.
- تقريث ناث الحاج: 216. ذراع الميزان: 18، 21، 24، 34، 198.
- تقرايت: 214. زربية الواد: 259.

- سطيّف: 94، 198، 243.
- سماالوط: 107.
- سيدي براهميم: 208، 210: 214.
- سيدي داود: 212.
- سيدي عيش: 24، 140، 198، 228.
- شبال: 52.
- شرشال: 48.
- صدوق: 24، 66، 134،
- عبو: 198.
- عنابة: 42، 48،
- عين الحمام: 32، 146، 211.
- عين بسام: 203.
- غرداية: 117.
- غليزان: 217.
- فريحة (سطيّف): 214.
- فليكي: 52.
- القرارة: 260.
- قربوسة: 212.
- قسنطينة: 18، 71، 173، 203، 205، 243.
- قلعة بني عباس: 46.
- كاليدونيا الجديدة: 20، 26.
- كوكو: 46، 47، 48.
- لافاييت (بوقاعة): 198.
- لبنان: 32.
- لعزيب زعموم (هسنييلي): 21، 24، 16.
- لقصر: 24.
- مايو (مشدالة): 94، 198، 215، 225، 256، 286.
- مجانة: 46، 198.
- مرسيليا: 134.
- مشطراس: 214.
- المطبيعة: 103.
- معانقة: 203.
- المغرب الأوسط: 41.
- مقلع: 21، 24، 65، 147، 216.
- مقنيعة: 2، 166.
- ميرايو (اع بن خدة): 198.
- ميزرانة: 178.
- نانت: 8، 10، 11.
- وادي أميزور: 24.
- وادي ف: 94.
- واغزن: 32.
- ورجة: 211.
- يسر فيل: 21، 24،

فهرس الهيئات والأقوام

- الأباء البيض: 32، 34.
 الأتراك: 42، 44، 45، 46، 50، 83، 259.
 الأخوات البيض: 33.
 الإسبان: 42، 43، 45، 46، 48.
 الأقباط: 79.
 الأيوبيون: 84.
 التوارق: 16.
 تاجماعت (الجماعة): 27.
 ثانوية شبحاني بشير (عزازقة): 11.
 الجامع الأخضر: 207.
 جامع الزيتونة: 56، 73، 101، 117، 201، 203،
 208، 210، 211، 212، 213، 234، 237،
 247، 248.
 جامع القرويين: 71، 73، 101.
 جامعة مصر: 82.
 جمعية الاتحاد والترقي: 259.
 جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: 4، 6، 126،
 129، 130، 134، 138، 151، 155، 157،
 203، 205، 208، 211، 212، 213، 242،
 244، 253، 260، 265، 266، 267، 268،
 284، 296.
 جمعية تضامن العلماء: 119.
 جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية: 116، 293.
 الجنوبيون: 43.
 حركة الانتصار للحريّات الديمقراطية: 211، 213.
- حزب الإصلاح (مصر): 79.
 حزب الأمة (مصر): 79.
 حزب الشعب الجزائري: 16، 56، 146، 147، 246.
 الحزب الوطني (مصر): 79، 80.
 الحزب الوطني الحر (مصر): 79.
 الحفصيون: 45.
 دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة: 9.
 رواق المغاربة: 5، 9، 12، 89، 90، 91، 92، 94،
 97، 101، 108، 110، 114، 115، 215،
 302، 303، 304.
 الزاوية السّحنونية: 216، 301.
 زاوية الشّرفة بهلول: 51، 54، 55، 56، 57، 61،
 136، 145، 173، 205، 207، 213، 247،
 261، 219.
 زاوية الشّيخ الحملاوي: 208.
 زاوية تغريث أومالك: 64.
 زاوية سيدي أحمد بن إدريس: 62، 64، 65، 134،
 137، 178، 179، 194، 205، 214، 246.
 زاوية سيدي امر اولحاج: 64، 66، 67.
 زاوية سيدي الموقّ: 134.
 زاوية سيدي عبد الرّحمن اليلولي: تعريف بالزاوية 178-
 182.
 زاوية سيدي علي أوطالب: 205.
 زاوية سيدي علي أويحيى: 65.
 زاوية سيدي أحمد بن يحيى: 207.

- زاوية سيدي منصور: 159، 236، 237.
- زاوية سيدي موسى (معانقة): 203.
- زاوية سيدي موسى الوغليسي: 140، 141، 142، 146، 288.
- زاوية صدوق: 19.
- الزيانيون: 46.
- سومر: 19.
- الطريقة الرّحمانية: 18، 19، 66، 237.
- العرب: 254، 271.
- فوج الشّريفية: 149.
- القنصلية الفرنسية العامة بالقاهرة: 8، 9، 98، 99.
- الكشافة الإسلامية الجزائرية: 123، 147.
- مجلس إدارة الأزهر: 9.
- المجلس الإسلامي الأعلى: 212، 234.
- المجلس الأعلى للأزهر: 9.
- مدرسة أحريق: 56.
- المدرسة الثعالبية: 68، 69، 70، 71، 130، 134، 194.
- مدرسة الشّيبية (تيزي وزو): 130.
- مدرسة اللّغات الشّرقية: 29.
- المذهب الشّيعي: 84.
- المذهب المالكي: 89.
- مسجد الشّيخ الحداد (عزازقة): 11.
- مسجد باريس: 244.
- مسجد الرزقي الشّرفاوي (تيزي وزو): 202، 292.
- مسجد سيدي رمضان: 71، 72، 99، 130، 253.
- مسجد سيدي محمد الشريف: 71.
- معهد ابن باديس: 212.
- المكاتب العربية: 21، 29.
- الملتقى السّابع للفكر الإسلامي: 292.
- المنظمة الخاصة: 147.
- المؤتمر الإسلامي بالقدس: 117.
- مؤتمر الخلافة الإسلامية (القاهرة): 114، 120.
- نادي التّرقى: 129.
- نجم شمال إفريقيا: 125.
- وزارة الثقافة والإعلام (الجزائر): 240.
- وزارة الخارجية الفرنسية: 8، 9.
- وزارة الشّؤون الدينية (الجزائر): 240.
- الوفود المالية (مجلس): 29، 37.

المذاهب السّنية الأربعة: 84، 86، 102.

فهرس الموضوعات

| | |
|---------|---|
| 02..... | المقدمة |
| 14..... | مدخل: بيئة الشرفاوي: أثر السياسة الفرنسية على الجزائر ومنطقة القبائل خاصة |
| 15..... | 1- المقاومة والاحتلال |
| 21..... | 2- إدارة الاستعمار وقوانينه القمعية |
| 23..... | 3- سياسة الاستيطان وتفجير الأهالي |
| 26..... | 4- تأمر فرنسا على منطقة القبائل |
| 27..... | أ- الكتابات السوسولوجية والأنثروبولوجية المغرضة |
| 30..... | ب- سياسة التنصير |
| 34..... | ج- التعليم الفرنسي |
| 39..... | الفصل الأول: الشرفاوي: النشأة والدراسة 1877 - 1907م |
| 41..... | أولاً- أصله ونشأته |
| 41..... | 1- أصله ونسبه |
| 49..... | 2- اسمه |
| 50..... | 3- ولادته |
| 51..... | 4- مسقط رأسه |
| 57..... | 5- أسرته |
| 59..... | 6- نشأته |
| 61..... | ثانياً- دراسته الأولى |
| 61..... | 1- بدء دراسته في زاوية القرية |
| 62..... | 2- دراسته في زوايا أخرى بالمنطقة |
| 64..... | 3- شيوخه في الزوايا |
| 67..... | 4- دراسته في مدينة الجزائر |
| 71..... | 5- تأثره بأستاذه المجاوي |
| 73..... | 6- فكرة الالتحاق بالأزهر |
| 76..... | الفصل الثاني: الشرفاوي في مصر 1907 - 1933م |
| 78..... | أولاً- أوضاع مصر والأزهر وصور من معاناة الشرفاوي أيام الطلب |

- 1- أوضاع مصر والأزهر 78
- أ- أوضاع مصر السياسية والثقافية 78
- ب- نظام الأزهر 84
- ج- رواق المغاربة 89
- 2- صور من معاناة الشرفاوي في سبيل العلم 92
- أ- رحلة العذاب إلى مصر 92
- ب- معاناة الشرفاوي في أول عهده بالأزهر 94
- ج- أحواله الصعبة في رواق المغاربة 97
- ثانياً- دراسته وأعماله في مصر 101
- 1- الشرفاوي في الأزهر 101
- أ- دراسته وشيوخه 101
- ب- نبيله للشهادة العالمية 109
- ج- قصة الرسائل التي شَيَّبته! 110
- 2- مكوث الشرفاوي بمصر وأهم أعماله فيها 113
- أ- زواجه 113
- ب- أهم أعماله في مصر 114
- ج- حجه وما حدث له من تحوّل في مشاعره تجاه الوطن 121
- الفصل الثالث: عودته إلى الجزائر، أعماله وموقف فرنسا والطّرقين منها 123
- أولاً- عودته إلى الجزائر وأعماله 125
- 1- عودته وظروف استقباله 125
- أ- أوضاع الجزائر ومنطقة زاوة قبيل عودته 125
- ب- أسباب عودته 130
- ج- ظروف استقباله 133
- د- أسباب اختياره العمل بجمال زاوة 137
- 2- أعماله في التربية والإصلاح والوطنية 139
- أ - اشتغاله بالتدريس 139
- توليه التدريس بزاوية عبد الرّحمن اللولوي 140
- انتقاله إلى زاوية سيدي موسى لمدة عام 140
- ب- الكتابة والتأليف 143
- ج- الإرشاد والإصلاح 144

- د - إصلاح ذات البين..... 145
- هـ - النشاط السياسي..... 146
- و - الكشافة الإسلامية..... 149
- ثانياً- موقف فرنسا والطرفيين من أفكاره ونشاطه..... 151
- 1- موقف الإدارة الفرنسية..... 151
- أ- تشديد الرقابة عليه..... 151
- ب- إخضاعه للبحث والمساءلة من وقت إلى آخر..... 154
- 2- معارضة الطرفين لنشاطه الإصلاحية..... 155
- أ- من هم الطرفين الذين حاربوا الشرفاوي؟ ولماذا؟..... 155
- ب- الشيخ أحمد داوي يقود الحملة ضد الشرفاوي..... 158
- ج- فتوى "الرببية" واشتداد الحملة على الشرفاوي..... 161
- د- الشيخ أحمد المقنيعاوي يرسل الأزهر في مسألة "الرببية"..... 166
- هـ- خطة لإيقاع الشرفاوي يخرج منها منتصراً!..... 169
- 3- عداة أهل القرية للشرفاوي..... 172
- الفصل الرابع: الشرفاوي مدرّساً بزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي..... 176
- أولاً- جهود الشرفاوي التربوية بزاوية عبد الرحمن اليلولي..... 178
- 1- التعريف بزاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي..... 178
- أ- نبذة عن الزاوية ومؤسّسها..... 178
- ب- موقع الزاوية..... 179
- ج- نظام الزاوية وخصائصها..... 180
- د- مرافق الزاوية..... 181
- هـ- الزاوية قبل تولي الشرفاوي التدريس بها..... 183
- 2- التعليم بالزاوية في عهد الشرفاوي..... 185
- أ- العلوم المقررة..... 186
- ب- البرنامج اليومي للدروس..... 188
- ج- اهتمام الشرفاوي بطلبته..... 190
- د- ملاحظات على نظام التدريس..... 191
- هـ- الاحتفال بختم "مختصر خليل" بالزاوية 1938م..... 194
- ثانياً- طلبة الشرفاوي في الزاوية..... 197
- 1- تعداد الطلبة..... 197

| | |
|----------|--|
| 198..... | 2- أعمار الطلبة وجهاتهم..... |
| 198..... | 3- ترجمة لأبرز الطلبة..... |
| 217..... | 4- دور الشرفاوي في إعداد طلبته لخدمة الدين والوطن..... |
| 219..... | الفصل الخامس: الشرفاوي: شخصيته، آثاره وآراؤه..... |
| 220..... | أولاً- شخصيته وجوانب من حياته..... |
| 220..... | 1- شخصيته..... |
| 220..... | أ- هيئته ومظهره..... |
| 221..... | ب- ثقافته..... |
| 222..... | ج- تدينه..... |
| 224..... | د- خصاله النفسية..... |
| 230..... | هـ- صفاته الخلقية..... |
| 235..... | و- مكانته العلمية..... |
| 236..... | 2- جوانب من حياته الخاصة..... |
| 236..... | أ- زواجه..... |
| 239..... | ب- أولاده..... |
| 241..... | ج- سكنه وأجرته بالزواوية..... |
| 241..... | د- بعض عاداته..... |
| 243..... | هـ- مرض عينيه..... |
| 243..... | و- وفاته..... |
| 249..... | ثانياً- آثاره وآراؤه..... |
| 249..... | 1- آثاره..... |
| 249..... | أ- مؤلفاته..... |
| 249..... | - إثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية..... |
| 252..... | - تقييد على "الرسالة الفتحية في الأعمال الحبيبة"..... |
| 253..... | - الدروس الإنشائية لطلبة الزوايا الزواوية..... |
| 256..... | - الخلاصة المختارة في فضلاء زواوة..... |
| 256..... | - إرشاد الطلاب إلى ما في الآيات من الإعراب..... |
| 257..... | - بغية الطلاب في علم الآداب..... |
| 258..... | - كتاب حول المرأة ونظام الأسرة في الإسلام..... |
| 258..... | ب- مقالاته في الصحف..... |

| | |
|-----------|---|
| 261..... | ج- خطبه وفتاواه |
| 264..... | 2- آراؤه..... |
| 264..... | أ- الشرفاوي والحركة الإصلاحية..... |
| 264..... | - نزعة الإصلاح عند الشرفاوي..... |
| 267..... | - لماذا لم ينخرط الشرفاوي في جمعية العلماء؟ |
| 268..... | ب- آراؤه في الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي..... |
| 268..... | - أسباب رقي الأمم وانحطاطها..... |
| 272..... | - الطُّرقية..... |
| 273..... | - إصلاح التعليم الديني..... |
| 278..... | - كيف يكون العالم الديني؟ |
| 282..... | - شروط وطرق الدعوة إلى الإصلاح..... |
| 285..... | - المرأة..... |
| 287..... | ج- رأيه في طريق الخلاص من الاستعمار..... |
| 292..... | الخاتمة..... |
| 298..... | الملاحق..... |
| 324..... | مصادر ومراجع البحث..... |
| 346 | الفهارس العامة..... |
| 348 | فهرس الملاحق..... |
| 349 | فهرس الأعلام..... |
| 355 | فهرس الأماكن..... |
| 358 | فهرس الهيئات والأقوام..... |
| 358..... | فهرس الموضوعات..... |